الحِرَفُ والصَّنائِعُ

وأدوارها الاقتصادية والاجتماعية بمدينة فاس

خلال العصرين المريني والوطاسي

(٦٦٩-٩٦٠هـ / ١٢٧٠-١٥٥٠م)

تأليف

الدكتور/ عبد اللطيف الخلابي

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1432هـ-2011

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد ـ القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الخلابي ، عبد اللطيف
الحرف الصنائع وادوارها الاقتصادية والاجتماعية بمدنية فاس خلال العصرين
طـ1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2011
512ص ، 24 سم
تدمك : 1-533-341-977-978
ا- المغرب ـ الصناعات
2-الصناعة -اقتصاديات
أ- العنوان

ديوى:338

رقم الايداع:2011/13924

كلمة شكر وتقدير

يسرني أن أتوجه بجزيل الشكر وموفور الامتنان:

إلى أستاذي الفاضل الدكتور مولاي هاشم العلوي القاسمي الذي شمل هذا البحث بالرعاية اللازمة، ناصحاً وموجها، قارئا ومصححا، فالله تعالى أسأل أن يجزيَه عني أحسن الجزاء أن يحفظه في صحته وأسرته آمين

وإلى أساتذتي الأجلاء الذين كانوا خير سند لي وخير معين

وإلى الأستاذ عبد اللطيف الحجامي المديرالعام السابق ل«وكالة التخفيض من الكثافة و إنقاذ مدينة فاس»

وإلى السيد فؤاد السرغيني المديرالعام الحالي لنفس الوكالة، وإلى كل العاملين هناك

وإلى الزميلين: محمد عبد الرحماني وعزيز الخطيب

وإلى إخواني الطلبة والطالبات.

الإهداء

أهدي ثمرات هذا العمل إلى:

والديّ الكريمين

وزوجتي الفاضلة

وإلى فلذتي كبدي

وإخواني وأصدقائي

المقـــدمـة

كانت الحرف والصنائع في المدن المغربية خلال العصر الوسيط الإسلامي نشاطا أساسيا بالنسبة للاقتصاد والمجتمع. فمن الناحية الاقتصادية رفعت التقنيات والمهارات الحرفية قيمة المواد الأولية بعد تحويلها إلى سلع وبضائع جاهزة لاستعمالات مختلفة، ووفرت موارد مالية هامة لأطراف متعددة.

ومن الناحية الاجتماعية انتمى الحرفيون إلى شرائح تنوعت أصول أفرادها واختلفت مستوياتهم المعيشية، التي تأسست على مداخيلهم من النشاط الحرفي، وهو ما يستدعي دراسة للمجتمع في فترة من الفترات الزمنية.

انطلاقا مما سبق ومن غيره، تبرز أهمية تناول موضوع «الحرف والصنائع بمدينة فاس وأدوارها الاقتصادية والاجتماعية خلال العصرين المريني والوطاسي» بالبحث والدراسة.

وتناوُل هذا الموضوع بالذات تحكمت فيه مجموعة من الدوافع تتحدد في:

- وجود مآثر معمارية شاهدة إلى اليوم بالمدينة على تقنيات ومهارات الصانعين في الفترة المدروسة.

- اطلاعي بـ «وكالة التخفيض من الكثافة وإنقاذ مدينة فاس» على العديد من الأبحاث والدراسات التاريخية والمجالية والتقنية والهندسية حول فاس.

- مشاركتي في الدراسات الميدانية التاريخية والتقنية حول المدينة، وكذا الإسهام مع مجموعة من الباحثين في إنجاز دراسة حول «الحرف والصناعات التقليدية بمدينة

فاس» بتعاون بين الوكالة ومنظمة اليونسكو[1].

- إنجازي لبحث يتعنون بـ«الحرف والصنائع بمدينة فاس خلال العصر الوسيط» تحت إشراف الدكتور مولاي هاشم العلوي القاسمي لنيل شهادة الدراسات العليا المعمقة.

كانت هذه الدواعي كافية لتشكيل رغبة ذاتية في إعداد دراسة تحاول جهد الإمكان الإلمام بموضوع الحرف والصنائع وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية.

وقد تراءت لديَّ – أمام ضغط تلكم الدوافع – في أفق بعيد أهدافا زادتني تشجيعا على إتمام هذا العمل وحبا في مساهمة علمية ترجو أن تجد قبولا وسعة صدر لدى من يطلع عليها، وتتلخص تلك الأهداف في:

- التعريف بالحرف والصناعات الفاسية في العصرين المريني والوطاسي، بذكر المواد المستخدمة فيها ووسائلها وأدواتها، وطبيعة وكميات منتوجاتها وأماكن تصنيعها وعرضها...

- تصنيف الحرف والصناعات اعتمادا على معايير الجهة المُمَوِّلة للنشاط، وطبيعة المواد الأولية المستخدمة فيه، وكذا الخدمات المستفادة منه.

- محاولة رصد التطور الذي شهدته تلك الحرف والصناعات ارتكازا على تحديد العوامل المتحكمة فيه، بقصد استجلاء مظاهر انعكاسات الأنشطة الحرفية على المستويين الاقتصادي والاجتماعي.

---

(١) تم ذلك الاطلاع وتلك المشاركة المذكوران أثناء عملي بالوكالة المشار إليها بين سنتي ١٩٩٥ و٢٠٠٠.

- توطين ميداني للمعالم المعمارية في المدينة ذات الصلة بالموضوع، مدعّما بالصور والتصاميم والخرائط الملحقة[١].

- وغير خاف أن من ينظر إلى عنوان هذه الرسالة وطبيعة الموضوع المحال عليه، يجد بدا من أن يتّبع منهجا تاريخيا مدعّما بآليات استقراء الوثائق واستنطاقها وتأويلها وتحليلها واستخلاص الحقائق التاريخية منها.

ولما كان مجال البحث هو مدينة فاس، فإن ذلك يندرج في إطار كون المدن أو الأمصار موطنا نشيطا للأعمال ذات الطابع الحرفي والصناعي، حيث تنشأ فيها وتتطور عكس البوادي[٢]. لذلك فمدينة فاس المؤسسة منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وما تراكم فيها من خبرات وتجارب ذات الصلة بالحرف والصنائع ،تعد من المدن الجديرة بالاهتمام والدراسة.

أما زمن الموضوع المزمع دراسته، فيمتد على ما يقرب من ثلاثة قرون بدءا بالعقود الثلاثة الأخيرة من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وانتهاء بحوالي منتصف القرن العاشر الهجري / السادس من عشر الميلادي، وهذه المدة الزمنية تتيح البحث في موضوع «الحرف والصنائع» واستجلاء أدوارها الاقتصادية والاجتماعية.

ويستدعي التقديم لهذا البحث أيضا التعريف بمفهومي الحرفة و الصناعة اللتان كانتا تضمان أعمال الفلاحة و التجارة و الغناء و الأدب و الشعر و الكتابة

---

(١) معظم الوثائق الملحقة بالبحث تزودت بها من وكالة التخفيض من الكثافة وإنقاذ مدينة فاس.

(٢) ابن خلدون، عبدالرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م،ج١،ص:٤٣٠ .

والتوثيق[١]. وقد أورد الخزاعي التلمساني حين تعريفه للحرفة بأنها مشتقة من حَرف يحرف، أي كسب و طلب و احتال، و الاحتراف هو الاكتساب، و المحترف هو الصانع، و أضاف أن حرفة الرجل هي صنعته، و الصانع هو عامل الشيء، كما اعتبر بأن المهارة و الإبداع من ميزات العمل الحرفي. أما الصناعة فقال عنها أنها حرفة الصانع، و عمله هو الصنعة، و صنع الشيء أي جعله مصنوعا و صنيعا، و الرجل الصنيع هو الحاذق[٢]. و بذلك فالحرفة و الصناعة تدلان معا على العمل الذي يقوم به الشخص طلبا للكسب و المعاش، مستخدما فيه المهارة و الإبداع و الحذق، و هو مقتصر على تحويل المواد الأولية إلى منتوجات مصنعة و تقديم خدمات الحرفيين إلى غيرهم.

وإني أميل في هذا البحث إلى توظيف مصطلح الصناعة الحائل على العمل المحول للمواد الأولية، و مصطلح الحرفة على الخدمات المقدمة من قبل الحرفي، فتحويل الحداد مثلا لمادة الحديد من الأنسب أن ينعت بالصناعة، و إن كان من الممكن إطلاق لفظ الحرفة عليه، بينما يتلاءم عمل الحمال مع لفظ الحرفة فحسب.

وقد توفرت بين يديَّ مجموعة من المصادر والمراجع المتنوعة التي ساعدت على تناول تلك المباحث المذكورة في الخطة، وأعرضها مقسمة حسب النوع مبرزا أهميتها

---

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ج١،ص:٤٣٢.

(٢) علي بن محمد الخزاعي التلمساني، أبو الحسن : تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ، من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م،ص ص :٧٩٣- ٧٩٤ .

في معالجة قضايا البحث:

- كتب التاريخ العام والمونوغرافيات: من بينها مؤلفات. «العبر» لابن خلدون، و«المسند الصحيح» لابن مرزوق و«روضة النسرين» لابن الأحمر، وبعض كتب ابن الخطيب، مثل«النفاضة» و«اللمحة» و«المعيار»، وكتاب «الأنيس المطرب» لابن أبي زرع و«جنى زهرة الآس» للجزنائي.

وتكمن أهمية هذا الصنف من الكتب في التعرف على منجزات سلاطين الدولة الصناعية في الزمن المدروس، والاستفادة من تركيز بعض الكتب على ما عرفته معالم المدينة من أعمال حرفية كما هو الشأن بالنسبة لجامعي القرويين والأندلس، فضلا عن الاستفادة من سرد ما عرفته بلاد المغرب ومدينة فاس من أحداث تاريخية متعاقبة ومتداخلة.

- كتب الجغرافيا والرحلات : من بينها «وصف إفريقيا» للوزان و«فيض العباب» للنميري و«تحفة النظار» لابن بطوطة[1]. وقد استفدت في البحث من هذه الكتب بوصف الوزان الدقيق لأحياء وأزقة وشوارع فاس، وذكر توزيع أنشطتها الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، ووصف النميري لمظاهر استعراض أبي عنان للجند، والمنجزات المعمارية في عهد هذا السلطان خاصة المدرسة والزاوية المتوكليتين، وما احتضنتاه من أنشطة ذات علاقة بالحرف. ثم رصد ابن بطوطة للعلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي ربطت حاضرة فاس مع بلاد السودان. كل ذلك وغيره ساهم في توضيح الصورة عن وضعية النشاط الحرفي بفاس المرينية الوطاسية.

---

(١) ترتيب هذه المؤلفات الثلاثة يرتهن إلى أهمية كل منها بالنسبة للموضوع.

- كتب الفهارس والتراجم والبيوتات: من بينها «الفهرس» و«الروض الهتون» لابن غازي و«بيوتات فاس الكبرى» و«النثير» لابن الأحمر[1]. و«الإحاطة» لابن الخطيب و«الجذوة» و«الدرة» لابن القاضي... أهمية هذه الكتابات مثلتها علاقات المترجم لهم بالنشاط الحرفي الفاسي سواء من حيث عملهم فيه أو اقتنائهم لمنتجاته وتلقيهم لخدماته، أو بآرائهم ومواقفهم وأحكامهم وأقوالهم عن الحرف والحرفين، و ذلك ما أسهم في جمع معطيات حول الحرف والصناعات أفاد تحليلها وتدارسها في استخلاص آثارها على الاقتصاد والمجتمع.

- كتب النوازل والفتاوى الفقهية: أبرزها كتاب «المعيار» للونشريسي، تنضاف إليه تآليف ابن هلال وابن الرامي وغيرهما. ومما تضمّنه هذا الصنف من المصادر قضايا خاصة بالحرف، سُئِل فيها الفقهاء فأبدوا وجهات نظرهم عارضين في كثير من الحالات آراء من سبقهم وعاصرهم حول القضايا المعروضة عليهم، مما أتاح الاطلاع على مادة مصدرية مهمة تفيد الموضوع.

وأصناف المصادر المذكورة أعلاه لم تغنني عن الاستعانة بمحتويات المراجع التي يمكن تلخيص أهميتها في:

- نقل العديد من المراجع للمادة التاريخية من المصادر، مما جعلني أرجع إلى هذه المراجع حين كان يتعذر عليَّ العودة إلى أصولها، أو ابتغاء تأكيد ما ورد فيها من معلومات.

- تميز الأعمال التي أنجزها باحثون ودارسون كالمنوني خاصة في كتابه «ورقات» وبنعبد الله في كتابيه «معطيات عن الحضارة المغربية» و«العلوم الكونية

---

(١) شاركه في تأليف «البيوتات» مؤلفين آخرين.

والتجريبية في المغرب» وعبد الهادي التازي في «جامع القرويين» و«التاريخ الدبلوماسي»، إذ درسوا المادة المصدرية وقارنوا فيما بينها واستخلصوا استنتاجات هامة تنير طريق تناول الحرف والصناعات بالبحث.

- أهمية بعض الكتابات الأجنبية التي ركزت على دراسة مدينة فاس وبلاد المغرب جامعة بين المعطيات النظرية والتجسيد الميداني لها، ومن بين ما يمكن الاستدلال به هنا كتابي لوتورنو «فاس قبل الحماية» و«فاس في عصر بني مرين» وكتابي ماسينيون «المغرب في السنوات الأولى للقرن ١٦م» و«بحث ميداني حول الصناعة التقليدية والتجارية بفاس سنتي ١٩٢٣م و١٩٢٤م»، وعمل أنجزه بيل معنون بـ«الكتابات في مدينة فاس».

- استفادة البحث من الدراسات حول الأنشطة الحرفية بأماكن وفترات زمنية غير مذكورة في عنوان بحثي، كان لها فضل بعد مقابلة ومقارنة نصوصها واستثمارها حيث تكون المواد الأولية والتقنيات والأدوات والمصنوعات متشابهة ومتقاربة مع ما أدرس في الموضوع. ومن الكتب التي كان لها مثل هذه الوظيفة مؤلف «الحرف والصناعات بالحجاز في عصر الرسول ﷺ» لعبد العزيز العمري، وكتاب «وصف مصر» لعلماء الحملة الفرنسية في بداية القرن ١٩م، علاوة على الأبحاث والدراسات الجامعية المحلية مثل الرسالتين الجامعيتين «الحرف وعلاقتها بالمخزن» في القرن ١٩م لفاطمة العيساوي، و«الحرف والحرفيون» في نفس القرن لأحمد أديب.

وتبقى المخلفات المعمارية المنتسبة للفترة والمكان المعلومين في البحث مرجعا له أهميته أيضا إلى جانب ما هو مكتوب.

واعتمدت محاور البحث وقضاياه على خطة تتكون من مقدمة وأبواب ثلاثة

وخاتمة.

المقدمة: تعرضت فيها لأهمية الموضوع التي تبرر دراسته، محددا أهدافه وطريقة البحث فيه، وخطته، مبينا مدى استفادتي من المصادر والمراجع المعتمدة في معالجته.

الباب الأول: الحرف والصناعات المرتبطة بالدولة.

الفصل الأول: الحرف والصناعات المخزنية:

درست فيه الصناعات العسكرية، وسك النقود والأشغال العامة والأعمال العلمية والفنية.

الفصل الثاني: الحرف والصناعات الوقفية:

عالجت فيه أعمال البناء والزخرفة، والتجهيزات والخدمات.

الباب الثاني: الحرف والصناعات الخاصة.

الفصل الأول: الحرف والصناعات الضرورية البسيطة:

استعرضت فيه الحرف الفلاحية، حرف الغذاء، صناعة النسيج والملبوسات، حرف الخدمات، ثم أعمال البناء والفخار وتصنيع الخشب والجلد.

الفصل الثاني: الحرف والصناعات الكمالية المركبة:

قسمته إلى مباحث: زخرفة المباني والفخار، صناعة النسيج والملبوسات والجلد، صناعة المعادن والأسلحة، ثم الصناعات الشريفة.

الباب الثالث: الأدوار الاقتصادية والاجتماعية للحرف والصنائع

الفصل الأول: الأدوار الاقتصادية للحرف والصنائع :

بينت فيه الدور المالي في المبحث الأول والدورين والفلاحي التجاري في المبحث الثاني.

الفصل الثاني: الأدوار الاجتماعية للحرف والصنائع

حاولت فيه كشف «نظام الطوائف الحرفية وبعده الاجتماعي» و«الخدمات الاجتماعية العامة للحرفيين».

الخاتمة: استخلصت فيها النتائج التي توصَّلت إليها دراسة الموضوع.

وطبيعي أن تعترض طريق البحث في الموضوع مجموعة من العوائق أجملها فيما يلي:

- قلة المعلومات المصدرية المكتوبة عن الفترة الوطاسية مقارنة مع المرينية، مما طرح غموضا اكتنف وضعية الحرف والصناعات في هذه الفترة، وذلك بفعل الاضطرابات السياسية التي عرفتها مدينة فاس وبلاد المغرب خلالها، وقصر مدة الحكم، حاولت التغلب عليها بالقياس على التطورات التاريخية المسجلة قبلها واستغلال ما ورد من وصف للمدينة في إحدى مراحلها من طرف بعض المؤلفين أهمهم الوزان.

- تناول المصادر المكتوبة الأحداث والوقائع بهدف التأريخ لما هو عام أو سياسي، وعدم إفصاحها عما يفيد الموضوع إلا عرضا، مما طرح مشكلة قلة المعطيات

البيبليوغرافية، وهو ما حتم عليّ اللجوء إلى تنويع المصادر المعتمدة لتشمل كتب النوازل والتراجم وغيرها، لكن ذلك لم يحد من المشكلة المطروحة بشكل ملموس، نظرا لعدم ذكر مكان صدور النازلة وإغفال تاريخها أحيانا، وانتقال المترجم لهم بين فاس والمدن والمناطق الأخرى، مما طرح صعوبة حسم إحالة الممارسات الحرفية لمدينة فاس.

وبناء على ما سبق، تمت المقارنة بين المعلومات الواردة في المصادر وبينها وبين التي نقلتها بعض المراجع التي تعذر عليّ الحصول عليها قصد جمع المعطيات التي تعد أساسا في معالجة قضايا ومحاور البحث.

– إن كثرة الحرف والصنائع المدروسة، وتعدد أنواعها واختلاف الجهات التي مارستها، وتداخل أعمالها، طرح مشكل تصنيفها في إطار الأهداف المحددة لهذا البحث، وقد حاولت في البداية أن أصنف الحرف والصنائع على أساس نوع المواد الأولية المستخدمة فيها وطبيعة الخدمات المقدمة من خلالها، لكنني كنت مضطرا لإدراج معيار آخر هو الجهات المموِّلة للعمل الحرفي بالشكل الذي يساعد في التمييز بين منجزات كل جهة، وربط ذلك بإمكانياتها واستنتاج علاقاتها مع الجهات الأخرى.

– إن المصادر المادية التي تجسدها الآثار والمخلفات المعمارية المرينية والوطاسية، أفادت الموضوع أيضا بالعودة إليها لتوضيح وتقريب القارئ عند تناول حرفة معينة أو أحد انعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية. لكن التغيير الذي يطرأ على تلك الآثار والمخلفات باختفاء بعض معالمها كليا أو جزئيا، وما عرفته من أعمال تجديدها وإصلاحها منذ زمن طويل، طرح صعوبة في نسبة منتوج حرفي معين أو المعلمة التي احتضنته إلى المرحلة الزمنية المدروسة، والاستعانة بآراء الباحثين والدارسين

المختصين كانت مفيدة في تجاوز نسبي لهذه الصعوبة.

وفي الأخير، أتمنى – من الله العلي القدير – أن يكون قد وفقني في إنجاز هذا البحث، ويكون مضمونه إضافة تفيد القراء والباحثين.

الباب الأول

الحرف والصناعات المرتبطة بالدولة

الفصل الأول: الحرف والصناعات المخزنية

الفصل الثاني: الحرف والصناعات الوقفية

امتلكت الدولة في العصرين المريني والوطاسي مرافق صناعية أهمها دار الصناعة التي أنتجت الأسلحة، ودار السكة التي ضُربت بها النقود ودار الطراز التي نُسجت فيها الأثواب. وتحكمت الدولة في آليات ومواد الإنتاج الصناعي سواء داخل تلك المرافق أو في بعض المنشآت التابعة لها، وحظيت أنشطة البناء والتعمير باهتمام السلاطين أيضا، إلى جانب بعض الأشغال العلمية والفنية.

وحرص سلاطين الدولة على إنشاء المعالم الوقفية محبسين عليها الممتلكات للإنفاق على أعمال البناء والتجهيز والإصلاح بها، والعناية بالقائمين عليها ، وكانت الوظائف والخدمات المقدمة بتلك المعالم هي ممارسة الشعائر الدينية في المساجد وتلقين العلوم الشرعية بالمدارس وتطبيب المرضى واستضافة الغرباء والزوار بالمارستانات والزوايا،وأسندت مهمة الإشراف على ذلك للنظار الذين عينهم السلاطين.

ويمكن التمييز في الحرف والصنائع التابعة للدولة بين نوعين ارتبط الأول منهما بالمخزن[1] و الثاني بالأوقاف.

---

(١) تم ذكر مصطلح المخزن في عدة مصادر تاريخية منها : محمد بن مرزوق التلمساني: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص: ٢٨٣.
محمد بن عبد العظيم الأزموري، أبو عبد الله: بهجة الناظرين وأنس العارفين ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال أمغار الصالحين، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم ٨٩٦ج، ١٤٢صفحة، نسخ أحمد بن علال الذويبي اللطيفي عام ١٣٠٠هـ، ص: ١٢.

الفصل الأول

الحرف والصنائع المخزنية

المبحث الأول: الصنائع العسكرية

المبحث الثاني: سك النقود

المبحث الثالث: الأشغال العامة والأعمال العلمية والفنية



نشط هذا الصنف من الحرف والصناعات بحاضرة السلطان في فاس الجديد وخارجه،

فصناعة الأسلحة والأدوات الحربية باعتبارها مقوما من مقومات الدولة، اعتنى بها السلاطين خصوصا في مراحل ازدهار واستقرار الأوضاع السياسية، حيث ابتُكرت وجُددت التقنيات وارتفع حجم الإنتاج وأُنشئت المباني العسكرية في فاس الجديد بصفة خاصة، كي تكون درعا واقيا من الهجومات المحتملة عليه.

واعتبارا للدور المالي والاقتصادي للسكة، سارع بنو مرين إلى نقل صناعتها من فاس القديم إلى فاس الجديد بعد تأسيسه سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، كي تسهل مراقبة نشاطها وتتّبع الأعمال بها، تفاديا لما يمكن أن تعرفه من غش وتدليس.

ونظرا لكثرة متطلبات الدولة وحاجيات المجتمع الذي يرعاه سلاطينها، تم تبني أعمال صناعية وحرفية أفادت في تجهيز المجال داخل المدينة وحولها، فمُدَّت الطرق والشوارع والقنوات المائية وصُنعت الناعورات التي زودت الناس والحدائق بالماء وبُنيت القناطر والجسور والسقايات. كما احتضنت دار الطراز صناعة منسوجات فاخرة، ورعى المخزن كذلك أعمالا علمية وفنية مثل تخطيط وجمع وتسفير المصاحف والكتب وإنشاء نموذج مصغر لجبل الفتح بالقصر السلطاني.

وكانت الحرف والصناعات المخزنية تتنوع وتنشط وتزدهر في فترات استقرار الدولة.

المبحث الأول

الصناعات العسكرية

تكتسي الصناعات العسكرية أو الحربية أهمية لكونها وسيلة أساسية في الحفاظ على كيان الدولة واستقرارها. لقد أنتجت المؤسسات الصناعية المخزنية الأسلحة والأزياء والآلات الموسيقية الحربية لفرق الجيش المريني لمُواجهة قوى معادية محلية وأجنبية، ولتَقَلُّدها أثناء استعراضاتها واحتفالاتها المنظمة تحت إشراف السلاطين الذين أرسل بعضهم نماذج من تلك المصنوعات الحربية هدايا إلى نظرائهم بالبلدان الخارجية تعبيرا عن العظمة والافتخار أحيانا، وإبراما لصفقات معهم أحيانا أخرى.

واستعمل سلاطين بني مرين وبني وطاس كسابقيهم البناء والتعمير وسيلة للدفاع عن مدنهم خاصة حاضرة فاس الجديد التي أحاطوها بالأسوار والأبراج والأبواب وبنوا داخلها القصور المنيعة الضخمة، إلى غير ذلك من البنايات المُحصنة التي يأوون داخلها عندما تحاصرهم قوات الخصوم، ولم تكن لتشغلهم هذه الأعمال المعمارية عن تحصين المدينة العتيقة توخِّياً لاستقرار رعيَّتهم بها ومزاولتها لعدة أنشطة.

تعددت الجماعات التي خدمت الدولتين المرينية والوطاسية عسكريا، فتكونت من فرق مغربية قامت بمهام تطوعية، وهي الفرق البربرية والعربية الموالية لسياسة الدولة، ومن الفرق الأجنبية التي مثل المسيحيون أهمها إلى جانب الأغزاز -القادمين من بلاد الشام لخدمة الدولة المغربية عسكريا- الذين قاموا بالخدمة العسكرية المأجورة للدولة، أو المجانية أحيانا بالنسبة للأسرى المسيحيين.

والجماعات المذكورة آنفا سواء المحلية أو الأجنبية حملت الأسلحة والأدوات الحربية الأخرى في المعارك والحروب التي قادها سلاطين الدولة، بل إن منها من اشتغل في الصناعة العسكرية فكان لها الفضل أحيانا في صنع أنواع مركبة من الآلات الحربية. وقد حشرت العناصر الأندلسية والعربية بما فيها المغربية أيضا في تصنيع الأدوات والآلات الحربية ، حيث كان السلاطين يبحثون عن الأشخاص الذين يستفيدون من خبراتهم في صناعة بعض أنواع السلاح خصوصا في فترات الاستقرار والانتعاش، كي يمكنهم مواجهة تحديات المواجهات العسكرية التي تمت بحدة أكبر في الجبهتين الشرقية والأندلسية.

المطلب الأول

صناعة الأسلحة

ورد عند ابن خلدون في مقدمته أن الصناعات الحربية مرتبطة بالسياسة تتطور باستعمال الأفكار، وتدخل في الكماليات التي لا تصلها الدول إلا بعد انتعاشها وازدهارها[1]. وينطبق ذلك القول على دولة المرينيين التي خدمها ابن خلدون في إحدى فتراتها، فبعد إسقاط دولة الموحدين بدخول بني مرين مراكش سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠ م واستقرار الأوضاع العامة وما تبع ذلك من بناء فاس الجديد سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، اهتم حكام الدولة بصناعة الأسلحة المركبة التي ابتدئ استعمالها في المعارك والحروب في صدر العصر المريني على عهد يعقوب المنصور بن عبد الحق وابنه يوسف وبشكل أفضل في فترات أعقابهم- خاصة أبي الحسن وأبي عنان-. فقد استعملت من قبل هؤلاء المجانيق والعرادات والأقواس الكبيرة إضافة إلى الأسلحة النارية[2] المتطورة في تقنياتها.

وموازاة مع ذلك فوض المخزن المريني صناعة الأسلحة البسيطة كالسيوف والرماح والسهام وزينة الخيول لصناع وحرفيين خاصين باشروا أعمالهم بأحياء المدينة العتيقة، لكن ذلك لا يعني أن مصانع الدولة لم تقم بهذه الأعمال حيث كانت تتم فيها صناعة بعض الأنواع منها بكميات محددة حسب الحاجة إليها من مقابض

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن : المقدمة، دار القلم، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، ص ص : ٤٠٠-٤٠١.

(٢) صنع بنو مرين البنادق والمدافع والأنفاض التي ترمي مواد نارية محترقة ومشتعلة مثل البارود وحبات الرصاص والحديد، سيتم التفصيل في ذلك لاحقا.

السيوف والخناجر المُعَدة من مادة العاج بكميات مهمة على سبيل المثال[1]، وهذه الصناعة تستدعي صناعة أنصال تلك السيوف والخناجر وغيرها.

ويتضح مما سبق دور العنصر الأجنبي وخاصة الأندلسي في التحول الذي عرفته صناعة الأسلحة من طرف الدولة المرينية[2]، بالإشراف على تأطير العناصر المحلية في الأعمال التي قدمت مصنوعات مختلفة اعتمد عليها الجيش المريني في الدفاع عن سيادة وهيبة الدولة.

- المجانيق والعرادات: المجانيق جمع منجانيق: وهي آلات حربية مُكَوّنة من هيكل كبير ذو دعامتين خشبيتين وصندوق خشبي أيضا توضع فيه المقذوفات قبل سحبها لترمى منه على المدينة المحاصرة.[3] وتستخدم في الهجوم على المدن ومحاصرتها وفي تهديم الأسوار والحصون وإرهاب العدو وذلك بقذفها لموادّ ثقيلة كالأحجار وما شابهها. وللعرادت دور متكامل معها، بل هناك من ذهب إلى أن المنجانيق آلة تعني العَرَّادة ولا يعدو أن يكون الاختلاف بينهما في الإسم فقط. لكن الراجح، أن للعرادات وظيفة مشتركة ومكملة للمجانيق، وكثيرا ما ذُكِرت الآلتين بعطف الثانية عن الأولى[4]. مما يوحي بالتشابه بينهما.

---

(١) المنوني، محمد: ورقات عن حضارة المرينيين، جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، ١٩٩٦، ص: ٣١.

(٢)- نذكر من الصناع الأندلسيين للسلاح المريني محمد بن علي بن الحاج الإشبيلي (ت ٧١٤هـ)، الرجوع إلى ابن القاضي، المكناسي أحمد: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر والوراقة، الرباط، ١٩٧٤؛ نفسه: ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، نشر دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، رقم ٧ من سلسلة تراثنا الإسلامي، دون تاريخ، ج١،ص ص:١٨٨

(٣) Massignon, Louis : Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, Alger, 1906, p. 227.

(٤) نورد مثلا : ابن الخطيب، لسان الدين: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق : أحمد مختار

لقد اعتمد الجيش المريني على المجانيق في عدة معارك في الفترات الأولى من الحكم، حيث قذف بها أبو يوسف يعقوب مدينة سجلماسة في معركتين منفصلتين آخرهما تلك التي تمت ضد يغمراسن بن زيان بعد أن استولى على المدينة، كما استخدمها أيضا أبو يعقوب يوسف وأبو الحسن علي وغيرهما في الهجوم على مدن سجلماسة وتلمسان، وقد أشارت الكتابات التاريخية إلى استدعاء السلاطين للصناع والأيدي والفعلة لصناعة هذه الآلة الحربية[1].

ورغم صعوبة تحديد طبيعة المواد والتقنيات المستخدمة في صناعة المجانيق فإنّ بعض الدراسات والأبحاث تشير إلى أن مادة الخشب مثّلت إلى جانب الحبال والشرائط أهم مواد صنع الآلة المذكورة، التي أصبحت بعد نهاية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي متطورة بحيث كانت تقذف أشياء ثقيلة وكبيرة الحجم يُقَدّر وزنها بمئات الكيلوغرامات[2].

ولم تشر المصادر أيضا إلى الجهة التي صنعت المجانيق المرينية الثقيلة، لكن قد يكون للصناع والخبراء من الجنود المجلوبين من حمص ببلاد الشام يد في ذلك، وكانوا قد خدموا دولة بني مرين عسكريا في فترات من القرنين ٧و٨هـ/ ١٣

عبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ. ص: ٢٣٢؛ الناصري، أحمد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج٣، ص: ٣٦.

(١) الناصري: المرجع السابق، ج٣، ص ص: ٣٦، ١٢٧، ١٢٠،١٦٩؛ علي، حسن إبراهيم: السلطان أبو الحسن علي المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء، سلسلة خالدون في تاريخ المغرب- ٥- ص ٧٦: الشابي، مصطفى: السلاح الناري بالمغرب، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٥٠٦٦.

(٢) Massignon, Louis :Le Maroc p. 227

و١٤م[١]، خاصة وأن مدينة حمص التي تعد موطنا أصليا لهم تعرضت بدورها لهجوم بواسطة هذا النوع من المجانيق، وهو ما يرجح توصلهم لصنعها ثم نقل تقنيات ذلك الصنع إلى المغرب، والإشارة واضحة إلى استعمال بني مرين لها في قذف مدينة تلمسان بالحجارة الثقيلة[٢].

- البنادق والمدافع: البنادق جمع لبندقية والمدافع جمع لمدفع، وقد عرفت صناعة البنادق تطورا مسترسلاً إلى أن أصبحت مدافعَ جعلت المؤرخين ينعتونها في أحيان كثيرة بالمدافع، وفي بعض الحالات «المكحلات»[٣].

ويدخل هذا النوع من السلاح ضمن الأسلحة النارية التي تطورت صناعتها عند بني مرين. وهو أداة لقذف مواد مشتعلة كالبارود والذخيرة ثم تطورت إلى رمي مواد أكثر فعالية، لذلك اختلفت المواد المقذوفة أو المرمية من حيث النوع والحجم، ومن الأنواع المتطورة في الرمي الرصاص وحبات الحديد التي يكبر حجمها كلما كبرت فوهات البنادق التي تخرج منها تصنع لها بمقاييس وتقنيات دقيقة.

لقد نُعتت البنادق المرينية بالقصر[٤] واعتمدت صناعتها على مواد خشبية وأنواع من المعادن. والواضح أن صناعة البنادق والمدافع انتعشت في عصر الاستقرار والازدهار الذي واكبه ظهور صناعة الأسلحة النارية، اعتمد فيها بنو مرين على

---

(١) ibid p 227

حركات إبراهيم: الحياة الاقتصادية في العصر المريني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد ٣-٤، ١٩٧٨، ص: ١٣١.

(٢) هيل، دونالد، ر: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، مجلة عالم المعرفة، ع٣٠٥، ٢٠٠٤، الكويت، ص: ١٦٠

(٣)- ابن الأحمر، إسماعيل وآخرون، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص: ٢٤.

(٤) الشابي، مصطفى: السلاح الناري بالمغرب، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٥٠٦٦.

الخبرات المحلية والأجنبية وخاصة العناصر المسيحية والأندلسية. لكن البنادق والمدافع المرينية لم تستعمل على نطاق واسع ولم تصل مثل ما سيصبح عليه الأمر عند السعديين[1].

إن المصانع المخزنية وخاصة دار الصناعة بفاس الجديد احتضنت عمليات صناعة أسلحة من بينها البنادق[2] أشار ماسينيون إلى وجودها بمكان من ربض النصارى شرق القصرالسلطاني[3]، ووجودها هناك تبرره السرية والأهمية التي تكتسيها مصنوعاتها.

ورغم ذلك كان للصناع الخواص دور في تزويد الدولة بكميات من هذه الأسلحة، فالإشارة واضحة إلى صنع سرير المكحلة وزنادها في المدينة العتيقة، والزِّناد هو الجزء المهم الذي تشتعل النار به، وقد أشار الأستاذ زمامة إلى صناعة سرير المكحلة[4] أو هيكلها دون أن يذكر شيء عن صناعة زنادها أو نيرها. وحي النيارين هو المؤهل لهذه الصناعة لازال قائما وسط مدينة فاس في جهة باب السلسلة.

- **الأنفاض**: وتسمى أيضا «الأنفاظ» ثم حُرِّفت إلى العامية لتُنعَت بـ«الأنفاط»، وهي سلاح ناريٌّ متطوّر عن المدافع يَرمي موادَّ مشتعلة ذات فاعلية.

---

(١) نفسه.

(٢) مارمول، كربخال: إفريقيا، ترجمة مجموعة من الأساتذة، دار المعرفة، الرباط ١٤٠٨-١٤٠٩م/١٩٨٨-١٩٨٩م. ج٢، ص:١٥٧.

(٣) Massignon : Le Maroc, p. 227.

(٤) ابن الأحمر وآخرون: ت بيوتا 24ص ؛ زمامة عبد القادر: أسماء الحرف المعروفة بفاس، مجلة اللسان العربي، ع٤، ربيع الثاني ١٣٨٦، غشت ١٩٦٦، المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية، الرباط:99. ص

فقد تحدث ابن خلدون عن استعمال بني مرين لآلة حربية سماها «هندامُ النّفط القاذف لحَصَى الحديد المنبعث من خزانةٍ أمام النار الموقدة في البارود»[١]، يرمي المقذوفات النارية ذاكراً أن ذلك حدَث في فترة مرينية مبكّرة حين حاصَر يعقوب بن عبد الحق يغمراسن بن زيان في سجلماسة.

ومن الثابت أن المرينيين نقلوا صناعة الأنفاض عن الأندلسيين الذين كانوا قد توصلوا إلى صنعها في فترةِ سيطرةِ الموحدين على القسم الإسلامي من شبه الجزيرة الإيبيرية،[٢] ثم أدخلوا عليها إضافات وتحسينات لفَتَت أنظارَ بني مرين حين قيامهم بمعاركَ مشتركة ضد النصارى في الأندلس، فقد كانت الأنفاض الأندلسية في تلك المعارك تُحدِث أصواتا عند القذف تحاكي الصواعق، وترمي بِكُرات حديدية كبيرة[٣] تُمكّن من هَدْم الحصون والأسوار وهزم العدو، ولعلّ بني مرين استفادوا من هذه التقنيات واتّبعوها في صناعة أنفاضهم[٤] فحاولوا بواسطتها الإعداد للانتقام من هزيمتهم بالأندلس سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤١م في معركة طريف.

يشير الكلام السابق إلى مواد صناعة الأنفاض المعدنية وخاصة الحديد، وإلى تقنيات عملها بسحب الحبال العالقة بها، وثقلِ المقذوفات ونوعيتها، إضافة إلى رميها مسافة بعيدة، وهذا دليل على دقّة وجودة صناعة هذه الآلة الحربية.

---

(١) الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ٣٦.

(٢) بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب، دار الكتاب، الدار البيضاء ١٩٨٠، ص: ٥٣.

(٣) ابن الخطيب، لسان الدين: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ص: ٨٥.

(٤) قال بعض الباحثين بهذا الرأي منهم محمد الفاسي وعبد الله عنان، الرجوع إلى الحريري، عيسى: تاريخ المغرب والأندلس في العهد المريني، ص: ٢٨٦.

– الذخيـرة: هي مقذوفات الأسلحة النارية، ذات أنواع متعددة من بارودٍ وحصى الحديد وحبّاته وكُراته، ويُعبَّر عنها أحيانا بالرصاص، لذلك كان معدنا الحديد والرصاص أساسيان في صنع الذخيرة مع مواد معدنية وكيماوية أخرى، كان للكيميائيين دور في تصنيع هذه المواد وتحويلها إلى أدوات حربية.

ورغم الحديث عن توصل أحد الحكماء إلى صناعة البارود باشتقاقه من الرصاص بالطرق الكيميائية سنة ٧٦٨هـ[١]/ ١٣٦٨م، فإن الكلام السابق عن استعمال يعقوب بن عبد الحق لسلاح «النفض» القاذف للنار يعد دليلا على صناعة المخزن المريني للذخيرة في فترة السلطان المذكور على الأقل[٢].

وقد كانت مادة الذخيرة رائجة في أسواق فاس لدرجة أن الفقهاء جوَّزُوا تقديم الزكاة من الرصاص[٣]، إلا أن ذلك لا ينفي الطابع المخزني عن صناعتها، حيث يُرجّح أن الدولة كانت تصنع البارود والرصاص وتسمح بتسويق كميات منها قصد استعمالها في أغراض غير عسكرية مثل الصيد والفروسية.

– قوس الزِّيـار: هي آلة حربية مركبة، واسمها يدلّ على الشدّ والحزم بقوة تمكّن من تشغيلها بفعالية، كما أن شكلها مقوّس يساعد على قذف أشياء ثقيلة الوزن وكبيرة الحجم.

---

(١) الفاسي، محمد بن عبد القادر: شرح منظومة العمل الفاسي، في مجموع رقم ١٤٤٧ د، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، ص: ١٠٥-١٠٦.

(٢) المقصود استعمال يعقوب المنصور لهندام النفط ورميه لحبات الحديد والبارود، العودة إلى الناصري: الاستقصا، ج٣، ص:٣٦.

(٣) الفاسي، محمد بن عبد القادر : المصدر السابق، ص: ١٠٥-١٠٦.

فقد تمكّن مهندسون وصناع عسكريون من الغُز المُستقرُّون بفاس الجديد[1] من اختراع وصنع هذه الآلة الحربية ليُقدِّموها إلى السلطان أبي يوسف يعقوب سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م فأُعجِب بها واستعملها في حِصَاره لتلمسانَ. ولكِبَرِ هيكلها ورميها لأشياء ثقيلة الحجم على مدى بعيد، تطلّبت عمليةُ نقلها حملَها فوق ظهور أحدَ عشَر بغلا[2]. وهو مؤشر على أنّ صنعَها كان مُتنوِّعَ الموادِّ، دقيقَ التقنيات ذا فاعلِيّة في القذف أثناء المعارك.

ورغم قلّة المعلومات عن المواد التي يُمكن أن يُحوّل منها هذا النوع من السلاح وطريقة صناعته، غير أنّ الكلام الوارد آنفا يوضح أنه يتكون من عدة أطراف تُركَّب في ميدان المعركة، ولعلّ الخشب والحبال والقليل من المعادن مثّلت أهم مكوناته، وطريقة الحزْمِ والجرّ بالحبال التي تلقي المقذوفات هي المعتمدة في تشغيله،كما أن اسمه يوحي بأن شكلَه مُقوّس تُميِّزه قوّة قذف المواد نتيجة الضغط الذي تُسخّر فيه الحبال.

- صناعة السفن: شهِدت مدينة فاسَ صناعة سفن ذات حجم صغير كانت تدعم الأسطول البحري، وأشارت بعض الأبحاث إلى أن هذه الصناعة الحربية قامت بالمدينة المذكورة منذ العصر الموحدي؛ حيث أُنشِئت بها دار للصناعة في عهد عبد المومن بن علي الكومي ليستمر العمل بها حتى العصر المريني، وتم تحديد مكانها بمنزل خولان في الملتقى بين وادي فاس ووادي سبو[3]. وقد استفاد هذا الموقع من

---

(١) Massignon L : Le Maroc dans les 1ères années du 16ème siècle pp : 174-175.

(٢) الناصري: المرجع السابق، ج٣، ص: ٧٦.

(٣)- السلامي رشيد وفتحة محمد: دار الصناعة بفاس، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٣٩٢٧؛ الحريري، عيسى: تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص: ٢٨٧.

القرب من مصادر الأخشاب والتواجد على ضفة مجرى مائي يمُكّن من نقل السفن المصنوعة عبرَه في اتجاه الساحل الأطلنتي.

اتّسمت السفن المرينية المصنوعة بفاس بالصغر، وهي من نوعَيْ «شيطي»و«شلير»[1] اللذين كانا يدعمان الأسطول الحربي في عهد أبي عنان، ويعدان من الألواح الخشبية التي يتم تركيبها وبناؤها بطرق وتقنيات من قبل المختصين في صناعتها ، وحين الفراغ من إنشائها يتم وضعها في مياه سبو لتنتقل عبرها إلى المعمورة التي كانت مركزاً متميزاً في بناء السفن آنئذ[2]. ويبدو أن دار صناعة السفن بفاس كانت تزوِّدها أيضا بألواح الخشب المهيأة .

– صناعات أخرى: أشرفت السلطة المرينية على صنع آلات وأدوات حربية أخرى مثل الدبابات التي أشار ابن الخطيب إلى اعتمادها من طرف المرينيين عسكريا[3]، كانت تُنقل بواسطتها العدة والعتاد ،والعجلات الخشبية تمثل الجزء الأهم فيها، ، يدعِّم ذلك استخدام العجلات بفاس آنئذ، ويبدو أن الطاقة البشرية وطاقة الدواب حرَّكتها،إلا أن استعمالها قليل إذا ما قورن بالدواب التي مثَّلت الوسيلة الرئيسية في الحمل والنقل.

كما استعمل الجيش المريني آلات لتسوية الطريق وإزالة ما اعترض فيها من البناء، وهي آلات وردت على لسان السلطان أبو عمر تاشفين (٧٦٢هـ-٧٦٣هـ) في رسالته التي بعث بها إلى أهل سلا يخبرهم فيها عن انتصاره في معركة أجراها حول

---

(١)- الحريري: المرجع السابق، نفس الصفحة؛ الشريف، محمد: الأسطول السبتي بين الجهاد والتجارة (ق ١٢- ١٤م)، مجلة البحث العلمي، ع ٤٥، ١٩٩٨م.

(٢) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٨٧.

(٣) ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ص: ٢٣٢.

فاس الجديد، وقد أفادت هذه الآلات -أثناء المعارك- في تجاوزالجيش للخنادق المحفورة وحواجز الأسوار المبنية، وهو دليل على التركيب في تقنيات صناعتها. ورغم ما يلفُّ نسبة صناعة هذه الآلات إلى المرينيين، فإن صاحب الرسالة ذكر أنه استفاد مما كان من ذخائر في خزائن أسلافه بفاس .

تلك أهم المصنوعات الحربية المرينية المركبة التي صُنعت بمرافق تابعة للدولة، تراكمت فيها الخبرات والتجارب السابقة كالموحدية أو المعاصرة كالأندلسية النصرية والأوربية، وهو ما ساهم في تقديم منتوج حربي يستجيب لحاجيات الجيش العسكرية في بلاد المغرب الكبير وبلاد الأندلس خاصة أثناء معاركهم مع الأوربيين.

إن أهم إضافة مرينية لصناعة الأسلحة المغربية هي ابتكار أنواع منها النارية سايرت -إلى حد ما- التطور الأوربي والأندلسي.

لقد كان العصر المريني الأول الممتد من عهد يعقوب بن عبد الحق إلى وفاة أبي عنان سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٦٠م، هو الفترة المناسبة لتحسن صناعة الأسلحة المركبة على مستوى النوع والكم، لكن بعد ذلك التاريخ سيتوقف هذا التحسن، حيث طبع التراجع والتقليد ما تبقى من العصر المريني والعصر الوطاسي اعتبارا للاضطراب وعدم الاستقرار السائدين فيهما، مما لم يهيء الظروف المساعدة للقيام بمشاريع جديدة لتطوير صناعة الأسلحة، وذلك ما جعل سلاطين الدولة يعتمدون على ما في خزائنهم من أسلحة، أو اقتناء ما يحتاجونه منها من المنتجين المحليين أو الأجانب، فتراجعت قوة جيشهم التي أصبحت تصارع بقاء واستمرار الدولة مولية الأدبار عن الجبهتين الأندلسية والشرقية اللتين مثلتا مجال الاحتكاك المريني بالقوى الأجنبية.

المطلب الثاني

الأزياء والموسيقى العسكرية

ميز التظاهرات ذات الصبغة العسكرية المتمثلة أساسا في المعارك والاستعراضات اتخاذ أنواع من الأزياء ازدان بلباسها العسكر المريني، واستعملت في تلك التظاهرات بعض الآلات الموسيقية تم بها التعبير عن مظاهر الاستعداد للمعارك أوالاحتفال بالانتصار فيها. وحاول بنو مرين من خلال صناعة الأزياء والآلات الموسيقية إبراز عظمة دولتهم بقوة جيشهم وإحكام تنظيمه ورونقه.

وقد مثلت دار الطراز مكانا لصناعة جل الأزياء التي تزين بأفخرها ملوك الدولة وقواد الفرق الحربية، في حين كان لباس عامة الجند موحدا وبسيطا يتمثل في اتخاذ العناصر المحلية العمائم البيضاء المسدولة، أما لباس العناصر الأجنبية فكان عبارة عن أزياء غالبا ما كانت تنتج ببلدانهم.

وتمثلت الأزياء الأخرى المستعملة في الحملات الحربية المرينية في الخيام والأخبية والهوادج وغيرها، تظافرت جهود الصناع في عملها بالمرافق المخزنية المتوفرة على إمكانيات في المواد والتقنيات ، حيث تطلبت الإتقان والإبداع اعتبارا لارتباطها بالسلطان وحاشيته ومساعديه.

كما استعمل الجيش المريني الآلات الموسيقية الحربية بشكل محدود، ويرجع ذلك إلى الخصوصية الإسلامية لهذه الدولة مثل باقي دول المغرب والمشرق، حيث ضُرِبت الطبول سيرا على ما استعمل لدى المسلمين السابقين منذ عصر الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، كما نُفِخت المزامير التي مثلت مظهرا من مظاهر التأثير الأجنبي، لكن كمياتها المصنوعة قليلة -إن كانت فعلا قد صنعت-.

- أفْـرَاق: هو زي عسكري يدعى أيضا أفراكْ، وقد اختلف الدارسون في ضبط أصل هذه الكلمة، فأرجعها بعضهم إلى أصل عربي حيث كانت تفرق بين السلطان والجيش[١] المرافق له ،وحملها البعض الآخر دلالة أخرى هي أنها تمثل حاجزا أو سياجا وأصلها مشتق من الأصل البربري[٢]، ويجتمع الطرحان حول اختصاص هذه الحُلَّة العسكرية بالسلطان وحاشيته، وقد كونتها عدة خيام مصنوعة هياكلها من الخشب تغطيها المنسوجات، وتُربَط كل خيمة بالحبال التي تكون مثبتة بالأوتاد المنغرسة في الأرض.

وساهم صناع مُتعدِّدو التخصصات في إنشاء هذه الخيام، فمنهم من يُعِدُّ الخشب ومنهم من يزخرفه، ومنهم من ينسج الأثواب الخاصة بها ويطرزها، ثم تتم خياطتها وزخرفتها فضلا عن تهيئ أنواع وأشكال متعددة من الحبال.

وتطلبت أفراق السلطان ومساعديه أيضا مجهودات في نصبها وعمليات جمعها وحملها، وتم ذلك من قِبل فرق متخصصة مهمتها القيام بهذه الأعمال إلى جانب حراسة الخيام وفساطيطها والمقيمين بها[٣].

وقد استعمل ملوك الدولة الموحدية الفساطيط[٤] وتبعهم في ذلك ملوك الدولة المرينية نعتت في عهدهم بـ: أفْرَاك التي تكونت من العديد من الفساطيط أهمها فسطاط السلطان وقبابه. حيث نصبها يعقوب بن عبد الحق إلى جانب السور حين

(١) الأنصاري، السبتي: محمد بن القاسم : اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص: ٣٥.

(٢) الكير، محمد: أفراك، معلمة المغرب، م٢، ص: ٥٤٦.

(٣) نفسه، ص: ٥٤٧.

(٤) الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ١٨.

حصاره لتلمسان سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، تلته عملية تفريق الفساطيط من طرف السلطان المذكور على قومه حين فكه الحصار عن تلك المدينة[١]، مما يفيد بأن صناعة هذه الفساطيط بكميات كبرى كان أمرا عاديا. ومدينة فاس باعتبارها مقرا للسلطان وأجهزة الدولة مؤهلة لاحتضان هذه الصنعة.

وقد تحسَّنت صناعة خيام وفساطيط وقباب الأفراق في فترتي أبي الحسن وأبي عنان، إذ وصفت أفراق الأول بأنها كانت ذات أبواب أربعة، وهي بمثابة مدينة متنقلة نظرا لما تحتويه من مرافق وما تحتضنه من أنشطة[٢]. كما كانت هدايا السلطان المذكور، تحتوي على قباب تشبه تلك المستعملة في حملاته العسكرية جيدة الصنع مبطنة بحُلَّة مذهبة من حرير أبيض مثل التي بعث بها مع والدته -التي كانت لها عليه تربية- برسم حجها[٣].

لقد تحدث النميري بإسهاب عن أفراق مخدومه أبي عنان قائلا : «وأفراق السعيد كالبلد الواسع الأقطار، القائم الأسوار، البديع الاختطاط، الشريف الاستنباط، المحكم الارتباط، وهو في وضعه مستدير الساحة بدري المساحة قد صنع من شقاق الكتان الموضونة، وأظهر النصاحيون[٤] في خياطته... وأعملوا فيه نبات الوخز... ترسل خيوطها أسرع من البريق». ويستخلص من خلال ذلك أن الأفراق ذو شكل دائري مساحته كبيرة، تميزت تقنيات صناعته بالإبداع في أعمال النساجين والخياطين وغيرهم. وأضاف النميري واصفا الأفراق المذكور أيضا «وجمع شرائطه

(١) نفسه، ص: ٣٠.

(٢) علي، حسن إبراهيم : السلطان أبو الحسن علي المريني، ص: ٩٤.

(٣) أي أنها ليست أمه بل زوجة أبيه ساهمت في تنشئته، حسب ما أورده الناصري: مرجع سابق ج٣، ص: ١٢٩.

(٤) النصاحيون هم المحترفون بالخياطة.

شرائط الكمال، واختار من لونه وهو البياض... وصنعت له عمد مثقفة كالقداح، موشاة كأثواب الرداح، بأسافلها زجاج حديد كبير الإجرام، تشق الأرض ... وتقر في التراب كأنه جذور النخل الباسقة، وعروق الأرزة... فتقف تلك العمد متناسقة الصفوف»[1]. لذلك أبدعت تخصصات حرفية أخرى في صنع أفراق أبي عنان فتم عمل الحبال والشرائط التي توثق في الأوتاد المصنوعة من الحديد، و الأعمدة المموهة التي يناسب الخشب مادة صناعتها، واللمعان الذي ميزهذا الزي ناتج عن الأدهان والأصباغ التي زينتها مثلها في ذلك مثل الألواح الخشبية التي سبقت الإشارة إلى تزيينها بمثل هذه المواد والصفات.

واحتوى أفراق السلطان على قبة كانت توجد في المركز وتحيط بها قباب أو بيوت أخرى، ونعتت المركزية منها بالبيت العظيم الذي كان السلطان يجلس وينزل به. كما ضمت الأفراق أيضا خيمة الشَّعَر وعملت لها الأخبية والخيام وغيرها. وموازاة مع الأعمال العسكرية، احتضنت الأفراق والخيام الأنشطة الاجتماعية حيث كان الحريم يرافق السلطان في حله وترحاله. وقد تكاثفت مثل هذه الأنشطة الموازية حين يكون الجيش في طريقه إلى موقع المعركة أو عند رجوعه منها، وتقل في أوقات المعارك التي يركز فيها المسؤولون الحربيون على دقة تخطيط تحركاتهم وعملياتهم.

- الهوادج: جمع هودج، وهي صناديق صنعت هياكلها من عود الخشب، غطتها الأثواب الرفيعة في واجهاتها الخارجية التي كانت أحيانا مزينة بخيوط الذهب. وقد احتوت الهوادج المرينية في أطرافها على خلاخل وحلل فضية وذهبية، وكانت أرضيتها مغطاة بالفرش، ووضعت داخلها الصناديق التي تضم حلي النساء، بل إن

---

(١) النميري، ابن الحاج: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة وإعداد: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة ١٩٩٠، ص: ٢٢٨.

الجمال التي كانت عادة هي الحاملة لها زُيِّنَت بحلي. وورد عند النميري أيضا وصف للهوادج المرينية في عهد أبي عنان قائلا: «قد أحكمت بالعيدان... واعتمد تركيبها على وفق اقتراح الإبداع والإتقان، وجعلت عليها أغشية من الحلل المنسوجة بالذهب... وما من جمل يحمل هودجا إلا وقد حلي بخلاخل... وهو مبدأ القطار حمل عليه العياب المحلاة بأبدع السقط، والفرش التي هي أبدع من الدرر واليواقيت في السفط»[1].

لقد تم عمل الحرفيين للهوادج وفق الطريقة التي صنعت بها الخيام، فتعددت تخصصات الصناع وتنوعت المواد المصنوعة والمحولة من خشب ونسيج ومعادن، وأشار النميري أيضا إلى أن المنسوجات المعتمدة في هذه الصناعة توجد من ضمنها «الأندلسية والعراقية من أحسن ما نسج على منوال»[2]. مما يفيد أن تقنيات وطرق نسج هذه الأثواب كانت منقولة مما كان يتم بالبلدين المذكورين.

استعملت الهوادج في أغراض غير حربية مثل ركب الحجيج والرحلات التجارية والعلمية... لكن تحركات السلاطين التي كانت في معظمها عسكرية أضفت عليها سمة جعلت الصناع يتنافسون في الإبداع والإتقان فيها.

- **اللباس العسكري**: احتضنت المرافق الحرفية التابعة للدولة، وخاصة دار الطراز أو الديباج، عمليات صنع ملابس تليق بعظمة السلطان القائد للجيش الذي يراد له الظهور بمنظر بهي أمام الجيوش المعادية خاصة بالجبهتين الشرقية والشمالية. و دار الطراز المذكورة احتلت مكانا في محيط القصر السلطاني قد يكون في قبة السوق الحالية اعتبارا لأهمية موقعها بفاس الجديد في ذاك الوقت.

---

(١) النميري: فيض العباب، ص: ٢٣٣، وضح بأن السفط هو الصندوق التي توضع فيه الحلي.

(٢) نفسه.

وقد تحكمت الظروف والأوضاع العامة للدولة في صناعة أنواع وكميات من الملابس العسكرية، كان السلطان ورؤساء الفرق العسكرية يتحلون بأهمها.

ولم يختلف اللباس المريني العسكري كثيرا عن اللباس المدني، لكن ذلك لا يعني أن المرينيين لم يصنعوا لباسا عسكريا. فقد كان استعداد الجيش للاستعراض أو خوض معركة معينة يصحبه ارتداء السلطان للباس خاص عرف «بشارة الملك» أو «خُلعة المُلك»[1] ، وهي حلة لها دور عسكري وسياسي في آن واحد، حيث كان السلطان أبو عنان يرتدي لباسا خاصا يتكون من «ملوطة بيضاء تحمل الشواشي كتبت فيها آثار مجده وفوق الملوطة مصحف ملوكي، ومضمة شريفة على رأسه، وبيضة هندية، وعلى المصفح عقارة حمراء»[2]، لذلك يمكن القول أن ملوك الدولة كانوا يميلون إلى لباس يظهر أبهة دولتهم وعظمتها أمام الخصوم والأعداء سواء أكان ذلك أثناء عَرْضِهم للجند أم في معاركهم وحروبهم.

ودفع تعدد الفرق العسكرية المرينية قواد الجند إلى التمييز بينها بأزياء متنوعة الألوان، حتى لا يحصل الارتباك عند خوض المعارك. فقد كان رؤساء فرق المرتزقة يتخذون لباسا خاصا غالباً ما كانت تتم صناعته في البلدان التي قَدِموا منها، حيث لبس القواد الأغْزَاز منهم الطّبْخَانات في حين حمل الأندلسيون الأقبيّة ووضعوا الرّتافيل على رؤوسهم، واتخذ غيرهم الشواشي والقلانس المُزينة بخيوط مذهبة[3]. أما الفرق المغربية المحلية فعادة ما كان جنودها يلبسون العمائم الطويلة البيضاء

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن : العبر ج٧، ص: ٣٧٠. ؛ ابن الخطيب، لسان الدين : اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية، ص: ١٣٦ ، وكلاهما تحدث عن فترة أبي سالم المريني.

(٢) النميري: فيض العباب، مقدمة المحقق، ص: ١٠٧.

(٣) نفسه، ص: ١٠٦.

ويتمنطقون بأحزمة فضية مموهة بالذهب[1].

وركزت أعمال الحرفيين بدار الطراز على صناعة لباس عسكري للسلطان وقادة الجند،عكس عامة الجند الذين قليلا ماتصنع لهم ألبسة هناك،حيث كانت العلاقة التي تربط بين الدولة والجنود الأجانب تقتضي تقديمهم الخدمة العسكرية للدولة مقابل تلقيهم منها لأجور محددة،إلا إذا كانوا من الأسرى والعبيد الذين صُنعت لهم بدار الطراز أو بغيرها من الدور المخزنية الأزياء العسكرية، وبالنسبة للجنود المحليين فقد قدم معظمهم الخدمة العسكرية مجانا مما يَحتمل تلقي عناصرها لألبسة عسكرية من الدولة خصوصا في أوقات وفرتها.

وإلى جانب المعارك والاستعراضات المرينية، ظهر الجيش المريني باللباس العسكري المُميَّز له في معارك غير مرينية، كما حدث ببلاد الأندلس التي شاركت فيها فرق عسكرية مرينية مع فرق نصرية[2].

- البنـود: تم نعت هذا الزي بأسماء أخرى هي الأعلام والرايات والعلامات والألوية، كانت تعبِّر برفعها في مناسبات العروض والاحتفالات والحروب عن شعار ورمز للدولة.

ولم يكن رفع البنود إبداعا مرينيا ، بل سبقهم إليه الموحدون وغيرهم. وقد استعمل حكام الدولة في الفترة المرينية الوطاسية البنود منذ مرحلة مبكرة ،حيث استعملها أبو بكر المسمى أيضا بأبي يحيى عبد الحق المريني في عصر الإمارة ، وممن تبعه من السلاطين ابتداء من ابنه يعقوب مؤسس الدولة، إذ رفع الجنود في عهده

---

(١) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٢٨٦.

(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ٣٩.

الأعلام والرايات ذات اللون الأبيض المميز لها[1] وذلك أثناء المعارك التي خاضها السلطان المذكور في بلاد الأندلس حرصا منه على إثبات مشروعية دولته بالجهاد ضد المسيحيين ورداعلى هجوماتهم على المسلمين هناك.

ولذلك عرفت صناعة البنود تحسينا بتقدم فترات الحكم المريني، فقد تنوعت ألوانها واختلفت أحجامها وارتفع العدد المرفوع منها خلال إجراء تظاهرات ذات طبيعة حربية.وكانت الأثواب مادة أساسية اشتغل عليها العاملون في هذه الصنعة فأبرزوا زخارفها. إلا أن البنود مع ذلك ظلت ترفع فقط في مواكب السلطان و عند حركاته، رغم الإذن للولاة والعمال والقواد باتخاذ كل واحد منهم راية واحدة بيضاء مع طبل صغير أيام الحرب. وقد وصف ابن خلدون البنود في عهد أبي الحسن بأنها كانت كثيرة حسنة الصنعة بلغ عددها في حملاته «مائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير»[2]. مما يعد دليلا على أهمية المعارك والحملات الحربية التي تمت في عهده، وعلى كثرة الجند التي استلزمت التمييز بين الفرق المكونة للجيش.

وبدوره وصف النميري البنود التي كانت ترفع في عهد أبي عنان ذاكرا ألوانها وأشكالها،فقال عن الألوان بأنها تكونت «من أحمر وأخضر وأصفر إلى غير ذلك من الألوان المتفرعة»، واصفا أحجامها بـ«الأعراض المتنوعة»، ذاكرا المواد والتقنيات المعتمدة في صنعتها بقوله «قد استنبهت فيه الصنائع واستقصيت في وشيه البدائع وأودع الخطوط المحكمة بخيط الذهب الإبريز المثبتة شرف التطريز الشارحة نكتة

---

(١) نفسه، ص: ٣٩٠؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس، ج١، ص: ١٠٣؛ الناصري، الاستقصا، ج٣، ص:٤٢.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، دار القلم، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م. ص: ٢٥٩.

التمييز»[1]. والكلام المذكور يشير إلى أن الأثواب المنسوجة والمطرزة والمزخرفة تكونت منها الرايات والأعلام العنانية أهمها العلم الخاص بموكب السلطان. وقد حَملت تلك الأعلام آيات قرآنية وأدعية واسم السلطان كتبت بخطوط بديعة ذهبية[2].وقد أُطلق اسم العلم المنصور على الذي رُفع للسلطان ميزه باللون الأبيض والحجم الكبير وكان رئيسيا [3]. وكلمة المنصور توحي باللقب الذي اتخذه أحد السلاطين المرينيين الأوائل يعقوب بن عبد الحق (ت٧٠٦هـ/ ١٣٠٧م)، دأب السلاطين بعده على نعت العلم الرئيسي بذاك الإسم تيمنا بمؤسس الدولة . أما الألوان والأحجام والأعداد الكثيرة للبنود فتحمل دلالة على كثرة الجنود وتنوع الفرق العسكرية التي لا تتيمز عن بعضها البعض باللباس فقط بل بالأعلام أيضا.

وقد سار سلاطين بني مرين وبني وطاس على عادة خَفْق البنود في عملياتهم وحركاتهم الحربية، فتم ذلك في عهد أبي سالم المريني عند سيطرته على فاس سنة ٧٦٠هـ[4]/ ١٣٦٠م، وفي عهد من تولى بعده. إلا أن التجديد والإبداع في صنع البنود واستعمالها يبقى سمة ميزت العصر المريني الأول وبلغت الأوج في عهد السلطانين أبي الحسن وأبي عنان.

لقد تمثل دور البنود في إعلان الحرب وبداية تحرك الجنود بقيادة المسؤولين العسكريين وفي مقدمتهم السلطان.إلا أن هذا الدور أتممته الطبول التي تعد آلة

---

(١)- النميري: فيض العباب، ص ص: ٤٩٧-٤٩٨.

(٢) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٢٨٦. علي، حسن إبراهيم : السلطان أبو الحسن علي ص: ٧٧.

(٣) الحريري: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) السلامي، رشيد: وثائق مرينية، مراسلات، معاهدات، ظهائر، دراسة وتحقيق، دبلوم الدراسات العليا، إشراف: محمد زنيبر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٨٩، ج٢، ص: ٢٩٧.

موسيقية صنعها واستعملها المخزن في الأنشطة ذات الطابع العسكري.

- الطبـول: هي آلة موسيقية تكاملت مع البنود في الوظيفة العسكرية، حيث استعملت إلى جانب البنود منذ بداية حكم الدولة للمغرب، وعادة ما تطابق عددها مع عدد البنود،إذ بلغ ذروته في عهد أبي الحسن وأبي عنان.

لقد تخصصت فرق معينة من الجنود في استخدام الطبول بالضرب أو القرع أو الزعق[1]عليها، وفق إيقاع موسيقي يحصل معه التشهير والاحتفالية وإثارة حماس وشجاعة الجيش ، وإلى جانب ذلك اعتمدت الطبول أحيانا في التشهير بالثوار والمعارضين للدولة مثلما حدث لثائر من غساسة من آل عبد الحق المريني يدعى منصور بن عمر بن عثمان بن عبد الحق بن محيو سنة ٧٦٣هـ[2]/ ١٣٦٣م.

ولم تحمل الكتابات المصدرية معلومات عن طبيعة المواد والتقنيات المستعملة في صناعة الطبول، كما لم ترد إشارات إلى المؤسسة التي صُنعت بها لكن يبدو أن مواد الخشب والجلد والحبال أساسية فيها ، أما تقنياتها فاستدعت تهييء ومعالجة الأخشاب في شكل أسطواني وتثبيت الجلد عليها بإحكام.

وطريقة الضرب بالأعواد على الطبول تمت بالشكل الذي يساعد على النقر الجيد المحدث للصوت يسهم فيه الجلد الدائر على طرفي الأسطوانة الخشبية، أما

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص: ٣٩٠؛ ابن الخطيب : اللمحة البدرية، ص: ٣٩٠؛ الناصري : الاستقصا، ج٣، ص:٤٢.

(٢)- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد بن عبد الله عنان، نشر : مكتبة الخانجي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج٣، ص ص: ٢٩٨-٢٩٩.

الذي يضرب على الطبل فيحتاج إلى أحزمة وأشرطة جلدية وغير جلدية تحاط بالطبول وتوضع حول رقبته وعنقه .

وصناعة الطبول استدعت حشر طاقات حرفية لايستبعد أن تكون مصانع الدولة مسهمة فيها، خاصة وأن خزائن السلاطين احتوت على الذخائر والأسلحة والآلات[1].

ومثلما تميزت البنود بالتنوع في الحجم ،حملت الطبول أيضا نفس الميزة .ولذلك كانت الطبول الكبرى خاصة بالسلطان مميزة له عن غيره في المعارك وماشابهها.

-المزامير: جمع مزمار، وقد نُعِت أيضا بالنافور وتارة بالنفار، ثم حُرِّف لفظه إلى الناقور أو النقار[2]. ولازالت هذه الآلة الموسيقية مستعملة لحدود الآن تستخدم بطرق متشابهة مع التي تمت في الفترتين المرينية والوطاسية.

فكلمة المزمار تدل على التزميرأوالنفخ بقصد الإعلام والإخبار، حيث كان الزامرون[3] -أي المتخصصون في التزمير- يحدثون أصواتا يتم بها الإعلان عن مظاهر الاحتفال والانتصار واستعراض الجنود وإعدادهم لخوض المعارك.

و قلة الإشارات المصدرية إلى استعمال هذه الأداة الموسيقية الحربية في الفترة المرينية الوطاسية من لدن الجيش تدعم ارتباطها بالموسيقى العسكرية الأجنبية

---

(١) السلامي: وثائق مرينية، ج٢، ص ص : ٣٢٦-٣٢٧.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة ج ٣، ص ص : ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) العلوي، عبد العزيز : فاس والتجارة الصحراوية قبل الحملة السعدية على إمبراطورية سنغاي، أشغال ندوة: فاس وإفريقيا، العلاقات الاقتصادية والروحية، معهد الدراسات الإفريقية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس سايس، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ الدار البيضاء، ص: ٩٤، نقلا عن الروض الهتون، ص: ١٣.

وخاصة الغُزية، قياسا على نفخ الجنود الأغزاز الخادمين لدولة بني مرين هذه الأداة عند إجرائهم للعمليات الحربية[1]، لذلك يُستبعد شيوع صناعتها بفاس، وإن صنعت كانت بكميات محدودة، قد يكون العنصر الأجنبي مسهما في إعدادها بحكم خبرته.

إن الأزياء والآلات الموسيقية التي استعملت عند بني مرين وبني وطاس في حركاتهم الحربية كانت تثير الحماس لدى فرق الجيش، وترفع معنويات الجنود وتقذف الرعب والخوف في نفوس الجنود الأعداء بشكل يكون أقوى كلما كانت الأزياء والآلات الموسيقية متناسقة ومسهمة في ترتيب صفوف الجنود وتنظيم تحركاتهم.

تمثلت أهمية الأزياء والأدوات الموسيقية العسكرية في اهتمام الحكام بها الذين كانوا يتباهون ويتفاخرون بقوة دولتهم أثناء استعمال الجيش لها ،وذلك ماعبَّرت عنه الاستعراضات العسكرية التي كانت تشهد وقوف عامة الناس في الساحة بالبلد الجديد لمشاهدة أداء الفرق للعروض، والحرص على الظهور بمنظر متميز ومعنويات مرتفعة أمام الأعداء والخصوم.

(١) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص: ١٢٦.

المطلب الثالث

العمارة العسكرية

كان لكثير من المباني أدوار دفاعية يتحصن داخلها الناس تجنُّبا للاعتداءات التي قد يتعرضون لها، وباعتبار مدينة فاس حاضرة استقر بها سلاطين ووجهاء الدولة، فقد وجهت لها عناية في تحصينها من أية هجومات.

لقد أظهر العاملون في حرف البناء إبداعا في تحصين فاس الجديد التي أحاطها بنو مرين بالأسوار المزدوجة المحتوية على الأبراج والأبواب ضمت بداخلها قصورا ومؤسسات جمعت عمارتها بين مظاهر الحصانة والعظمة.

ولم يهمل بنو مرين تحصين فاس القديم لحماية سكانه، فرمَّموا أسواره وجدَّدوا بعض أبوابه وبنوا بعض الأبراج خارجه ليمنحوا العمارة العسكرية خاصية جديدة برزت بشكل أوضح في الفترة السعدية.

- الأسوار والأبراج: مثلت الأسوار والأبراج حدودا للنسيج الحضري حيث تفصله عن ظاهر المدينة (محيطها الخارجي)، وتميزت الفترة المرينية ببناء أسوار فاس الجديد حملت عدة خصائص من حيث هندستها ومواد وتقنيات إنجازها. فقد أشرف السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني سنة ٦٧٤هـ-١٢٧٦م على تخطيط فاس الجديد على يد المعدلين[1] أبو عبد الله بن الحباك وأبو الحسن بن القطان بأخذ طالعها قبل الشروع في حفر أساس أسوارها[2].

---

(١) التعديل هو التخصص في علم التوقيت ومنه اختيار الوقت المناسب لتأسيس فاس الجديد.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٢٣٠.

وتحدث صاحب صبح الأعشى عن مميزات أسوار فاس قائلا: «وعلى كل من عتيقها وجديدها أسوار دائرة محصنة ذات بروج وبدنات... وتزيد فاس الجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب والرمل ... وهو أشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق»(١)، لذلك كانت الأسوار المرينية تقليدا لما سبقها في الشكل والوظيفة، ميزها الارتفاع والانتهاء في أطرافها العلوية بالبدنات(٢)، وهو مابرر نعتها بالأسوار المسننة(٣)، لها وظيفة الدفاع عن المدينة وسكانها، والإضافة المرينية في بناء التي تحد المدينة هي ازدواجيتها في فاس الجديد، حيث تكونت من سورين منفصلين يحيطان بالحاضرة، يفصلهما فراغ التهوية ومقاومة الحرارة والرطوبة(٤). وقد بني السوران المذكوران بالطين المتكون من التراب والرمل المخلوطين بالماء.

أما تقنيات البناء فلا تختلف عن التي بني بها فاس العتيق، وهي المعروفة بعمليات «المراكزْ» و تتم بوضع الألواح الخشبية على طرفي السور، وإفراغ مواد البناء بينها ثم دكها(٥).

ودخلت مادة الكلس المضروب أيضا في بناء أسوار البلد الجديد(٦) لكن دورها اقتصر على زخرفة الواجهات الخارجية فقط، وتدعيم ما بني بالرمل المخلوط

---

(١) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، دون تاريخ، ج٥، ص: ١٥٥.

(٢) البدنات هي النتوءات التي تنتهي بها الأسوار في أعلاها،ولها دور دفاعي وجمالي .

(٣) لوتورنو، فاس قبل الحماية، ترجمة : محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.ج١، ص: ١٥٢.

(٤) بلغ عرض سور فاس الجديد مترين وارتفاعه ثمانية أمتار حسبما ذكره الطاهري، أحمد صالح: العمارة في العهد المريني، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٧٨-٦١٧٩.

(٥) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٤.

(٦) القلقشندي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

بالتراب بدقة وعناية من طرف المختصين في البناء والزخرفة.

وتعد الأبراج جزءا مُمَيزا من الأسوار، لها وظيفة المراقبة بفعل علوها وإشراف القائمين فيها على داخل وخارج المدينة. وأبراج أسوار فاس الجديد اتصفت بأشكال مربعة ومستطيلة، واحتلت نقطا متعددة أهمها التي تطل على مواقع استراتيجية.

وتمثل الأبواب مداخل وفتحات بالأسوار يلجها الداخلون إلى المدينة والخارجون منها ، لذلك احتوت أسوار فاس الجديد على بابين يفصلان الأسواق الموجودة بينهما هما باب القنطرة في الجهة الشمالية وباب عيون صنهاجة في الجهة الجنوبية[١]، يضاف إليهما باب السبع الذي احتل مكانا غير بعيد عن باب القنطرة[٢] مخصصا لعبور السلطان ومساعديه وأقربائه، أما حي اليهود في الجهة الجنوبية للبلد الجديد فكانت له أبواب خاصة.

واهتم بنو مرين بحصانة الأبواب من حيث البناء ووضع الفصائل[٣] الخشبية المثينة (يتكون كل باب من فصيلة أو فصيلتين تربط أو تربطان طرفي المدخل) ، كانت تغلق وتفتح من طرف الحراس وأحيانا على يد مسؤولين إداريين وسياسيين[٤] ينالون ثقة السلطة في فترات الأزمة، وتميزت زخرفة الأبواب الآنفة الذكر بكونها أقل مما عرفته نظيراتها في فاس القديم، قد يستثنى منها باب السبع المؤدي إلى القصر السلطاني.

---

(١) ابن الأحمر: روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص: ٢٩.

(٢)- لوتورنو، روجي: فاس قبل الحماية، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج١، ص: ١٠٣.

(٣)- وردت الفصائل في قول ابن خلدون: العبر، ج١، ص:٤٣٧.

(٤)- العودة إلى ابن القاضي: الجذوة،ج١،ص ص ١٢٥-١٢٦.

وتزيد الأبراج عن الأسوار بكونها تشكل بناية تحتوي أحيانا على طابقين يبدو أن الأرضي كان مخصصا لإيداع ما يحتاجه المراقبون من عتاد وأسلحة وأمتعة، والفوقي تمت منه عمليات المراقبة والدفاع عن المدينة. وترتفع الأبراج عن مستويات الأسوار العادية، ولازالت العديد منها قائمة خاصة في الجهة الشرقية والجنوبية الشرقية التي كانت أكثر عرضة للأخطار، ومايدعم هذا الطرح بخصوص تلك الجهة هو بناء السعديين أبراجا ضخمة على مشارفها[1].

ولم يغض المرينيون الطرف عن تحصين أسوار فاس القديم أيضا التي جددوا ورمموا بعض أجزائها وأبراجها وأصلحوا أبوابها، نتيجة ما لحقها من تخريب وتهديم جراء الفتنة التي مرت منها فاس في الفترة ٦١٧هـ-٦٣٧هـ، فقد بني الجزء المتهدم من السور الموجود بين باب زيتون ابن عطية وباب الفتوح بأمر من يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٣م. وشهدت نفس المنطقة بناء برج عظيم خارج باب زيتون ابن عطية سمي بالبرج المكتوب، ذَكَر الأستاذ المنوني أن آثاره كانت لا تزال قائمة، وقد تكون الأعمال التي تمت في تلك الجهة وخاصة شق الطريق المعبدة ساهمت في اختفاء معالم هذا البرج. وفي سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٦م، تم في عهد نفس السلطان حين كان غازيا بالأندلس إصلاح باب عجيسة الموجود في الجهة الشمالية باستثناء «القوس البرّاني»[2]، والأهداف من إنجاز هذه الإصلاحات والأعمال هي حماية المدينة العتيقة من الهجومات التي تهددها ومن الممكن أن تَضر بالفئة العريضة

---

(١) نفسه، ص: ٥٠.

(٢)- نفسه؛ ابن أبي زرع ،علي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٧٣، ص ص.٤٢-٤٣؛ المنوني: حضارة بني مرين من خلال منشآتهم، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص ص: ٢١-٢٣؛ وذكر هؤلاء أن القوس البراني من باب عجيسة وجد صحيحا فترك كما هو،في حين أصلح وبني ما تبقى من الباب.

من الرعية وبأنشطتها. وللبرج المكتوب المشار إليه أهمية في حماية المناطق التي وُجدت خلفه وكانت شبه فارغة من البنايات ضمت حدائق ومقابر يسهل على الأعداء اقتحامها، كما لهذا البرج أيضا دور في مراقبة ضاحية فاس الجديد من ناحية وادي الزيتون والجهة الشمالية المشرفة على فاس حيث كدية العرائس المعروفة أيضا بالقُلة.

وبخصوص الأبراج أيضا، شيد بنو مرين برجا يجلس فيه السلطان للإشراف على عروض الجند ومتابعة الصراع بين الثور والأسد، وقد كانت ساحة البلد الجديد المتواجدة بظاهر المدينة البيضاء ميدانا لتلك العروض[1]، ولعل هذه الساحة كانت تقع غير بعيد عن باب السبع فيما يسمى حاليا بباب المكينة.

وقد أشارت المصادر إلى جلوس كل من أبي الحسن وأبي عنان وأبي سالم في هذا البرج- الذي عرف ببرج الذهب- عرضا للجيش ومتابعة للصراع بين الثور والأسد، ورغم الحديث عن تأسيس أبي سالم لهذا البرج[2]، فالغالب على الظن أن إنجازه تمثل فقط في تجديد ما كان قائما بإصلاحه وترميمه وزخرفته، مادام أن جلوس السلاطين به على الأقل منذ فترة أبي الحسن أمر ثابت.

- القصبات والقصور:

تتشابه القصبات مع القصور في البناء العالي الحصين، وتختلف معها في كون القصبات عادة ما تكون رباطات للجنود في حين أن القصور موطنا للسلاطين

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، ص: ٦٤٣. ابن الأحمر وآخرون : بيوتات فاس الكبرى، ص: ٤٨.

(٢)- ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٣٦٧؛ عبادي، أحمد مختار : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، دون تاريخ، ص: ٤٣١.

وذويهم.

القصبـات: بنى بنو مرين عدة قصبات خارج فاس الجديد[1]، عددها قليل أُنشئت أهمها في الجهة الشمالية الشرقية قريبا من مقبرة ابن العربي، تغير إسمها في العهود التي تلت الفترة الوطاسية فأصبحت تعرف بقصبة الشراردة.

وأولى سلاطين الدولة اهتماما بقصبات فاس العتيق، حيث جدد السلطان أبو يوسف يعقوب المريني قصبة أبي الجنود[2] بعدما تم هدمها [3]،فاحتضنت الأعمال الإدارية إذ استقر داخلها ممثلو السلطان، لكن دورها تراجع لصالح المرافق التي أنشئت بفاس الجديد.

لكن الملاحظة الأساسية المسجلة بهذا الصدد هي قلة القصبات المرينية، التي على الأقل لم تتطور عن العهود التي سبقتها، ويعزى ذلك إلى احتضان البنايات المخزنية للأعمال العسكرية وغير العسكرية التي كانت تتم بالقصبات ، كما أن مجال فاس الجديد الفسيح الذي كان يستقر به الجند سواء في دورهم أو أخبيتهم وخيامهم كان مبررا لقلة القصبات.

القصـور: تدخل القصور السلطانية ضمن البنايات العسكرية رغم وظائفها السياسية والإدارية، فمصطلح القصر يرادف الحصن، وشكل بنايته يمنحه المناعة، وهو رمز للسيادة والسلطة. والقصورالمشيدة في الفترة المرينية الوطاسية تميزت كغيرها بعلو الأسوار وضخامة الأبواب وكثرة الحرس.

---

(١) المنوني، حضارة بني مرين ،مذكرات ، م٣، ص: ١٨.

(٢) نسبة إلى باب أبي الجنود الذي دعي أيضا بباب بوجلود وهو أحد أبواب المدينة العتيقة من الجهة الغربية .

(٣) زنيبر محمد: بوجلود، معلمة المغرب، م٥، ص: ١٦٤٢.

والإشارات الواردة عند المؤرخين تفيد بأن القصور السلطانية المرينية بفاس الجديد تأسست في جهة من جهات القصر الملكي الحالي، والمكان الذي بُنيت فيه عُرف بالمصارة التي احتوت أيضا على حقول وبساتين ممتدة من فاس القديم، تتوغل داخل فاس الجديد، إذ ذكر ابن أبي زرع أن فحص المصارة الذي يقع خارج باب الشريعة كان يُستغل في زراعة القمح[١]، تم تحويل مناطق منه إلى قصور وجَنَّات[٢]. وأول القصور المرينية المشيدة هو المؤسس سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م عند بناء فاس الجديد، وقد كان هذا القصر رئيسيا لدى السلاطين المتعاقبين على الحكم، أكد ذلك كلام النميري الذي أقر بوجوده في المصارة المذكورة آنفا حيث قال: «سكن بالمصارة التي بها قصر السلطان وخواص الدولة ووجوه الخدام وقواد الأجناد الذين عمروا مقامات الأسراج والألجام وضربوا هنالك أخبيتهم»[٣].

لكن البلد الجديد عرف أيضا بناء قصور أخرى منها الذي بناه يوسف بن يعقوب وسماه قصر الدار البيضاء وغرس في ذات الوقت هناك جنة المصارة[٤].

وقد توسعت بنايات القصور في عهد أتباع السلطان المذكور، فشهدت مناطق خارج البلد الجديد بناء قصور منها الذي بكدية العرائس في الجهة الشمالية الشرقية

---

(١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص: ٤٤.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس، ص ص: ٤٨-٤٩، الذي ذكر أن «حسن بن خلوف الصنهاجي الحميري»...» اغترس لأبي الحسن المريني الزيتون الصغير المجاور للزيتون الكبير... بوادي غدير حمص، وكان عاملا على الروض الأفيح المسمى بالمصارة حيث قصور السلطان من ظاهر دار الإمارة بالمدينة البيضاء».

(٣) النميري: فيض العباب، ص: ١٧٣.

(٤) الناصري: الاستقصا، ج ٣، ص: ٨٩.

لفاس الجديد بعيدا عن أسوارها الخارجية[1]، باشر فيه سلاطين الدولة أنشطتهم السياسية،إذ به عقد السلطان أبو الربيع سليمان (٧٠٨-٧١٠هـ/ ١٣٠٨-١٣١٠م) اتفاقية مع بعثة قشتالية أرغونية سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م[2]، وكانت لهذا القصر أهمية عسكرية فكثيرا ما نزل فيه المطالبون باستعادة الملك قبل التمكن من دخول فاس الجديد بحكم استراتيجية موقعه. وبالجهة الجنوبية الغربية أنشأ أبو سعيد عثمان (٧١٠-٧٣١هـ/ ١٣١٠-١٣٣١م) قصرا برأس الماء قريبا من منابع نهر سبو لم يتممه، فظلت آثاره بادية لحدود الزمن الحالي، وهو ذو شكل مربع[3].

وفي عهد أبي سالم (٧٦٠-٧٦١هـ/ ١٣٦٠-١٣٦٢م) تم بناء قصر روض الغزلان ،بدار الدبيبغ الحالية، لعله كان يقع في حي الأطلس الحالي بالجزء المطل على وادي الزيتون. لكن الأستاذ المنوني ذهب إلى أنه هو القصبة التي لازالت قائمة بحي السعادة الحالي أمام ثانوية مولاي سليمان. كما بني في عهد أبي سالم أيضا قصر بفاس القديم يبدو أنه بحي الزيات بين بابي الحديد والجديد في القسم الجنوبي الغربي[4].وبحي الزيات أيضا بُني في عهد أبي سعيد الثاني قصر عرف باسم الطريفي حاجب السلطان آنذاك ، وقد تهدم وتحول إلى منزه، عرف أيضا بالاسم نفسه[5]أي منزه الطريفي.

---

(١) Gambazard, Amahan Catherine: Le décor sur bois dans l'architecture de Fès, époques almoravide, almohade, et début mérinide, centre national de la recherche scientifique, Paris, 1989. p : 141.

وقد أشارت إلى وجود بقايا مرينية بالقُلة تضم قصرا ومساكن ومساجد وحمامات.

(٢) Dufourcq, Charles Emmanuel: L'espagne Catalane et le Maghreb aux 13ème et 14ème siècles, Paris 1966, pp : 396-397.

(٣) المنوني: حضارة بني مرين، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٧.

(٤) نفسه؛ لوتورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١٧٧، ابن القاضي : جذوة الاقتباس، ج١، ص: ٢٠٨ الذي أشار إلى قتل أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن بن أبي الحسن المريني (٧٦٣-٧٦٧هـ) بسانية هذا القصر غرقا.

(٥) المنوني: حضارة بني مرين، مذكرات، م٣، ص: ٣٨.

وبما أن الفترة الوطاسية ميزها الاضطراب ونظرا لقصر مدتها مقارنة مع نظيرتها المرينية، فإنها كادت تغيب فيها الأعمال المعمارية العسكرية، اللهم الحفاظ على الإرث المريني بصيانته وإصلاحه.

لقد أثبتت العمارة العسكرية المرينية نجاعتها أمام الهجومات التي تعرضت لها مدينة فاس وخاصة الجديدة. إذ تحصن بها السلاطين حين قامت ضدهم ثورات عجز فيها المهاجمون عن الدخول إلى فاس الجديد بعد تمكنهم من السيطرة على الأوضاع خارجه، رغم ما استخدموه في تلك الهجومات من حصار كانت تطول مدته وتستعمل فيه آلات القذف، ومما يمكن الاستدلال به نموذجين :الأول حصار أبي عنان بقوته الحربية أحد المتنازعين معه على السلطة سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م في أعقاب إشاعة خبر غرق أسطول أبي الحسن بمياه البحر المتوسط في إطار الحملة على إفريقية، فلم يتمكن من دخول فاس الجديد إلا بعد تدبيره لثورة ضد خصمه داخل المدينة[1]، والثاني هو الحصار الذي ضرب على فاس الجديد أيضا سنة ٧٧٦هـ من طرف أبي العباس والأمير عبد الرحمن المدعومين من ابن الأحمر النصري، وكان هذا الحصار متبوعا بتقديم البيعة من طرف أبي بكر بن غازي الذي كان متحصنا داخل الأسوار للسلطان أبي العباس الموجود خارجها[2]، حيث لم يتمكن المحاصرون من اقتحام المدينة.

---

(١) خَصمُ أبي عنان هو ابن أخيه المنصور بن أبي مالك الذي هرب أمام أبي عنان من تازة إلى فاس التي دخل مدينتها الجديدة في ربيع الثاني سنة ٧٤٩هـ ليُحاصر من طرف أبي عنان،أورد ذلك الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ١٦٥.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٣٧٠؛ المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق : محمد السقا- إبراهيم الأبياري- عبد الحفيظ شلبي،اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي المغربية الإماراتية، صندوق إحياء التراث، الطبعة الثانية، نشر مطبعة فضالة، المغرب، ١٣٩٨هـ-١٩٦٤م، ج١، ص: ٢٢٨.

المبحث الثاني

سك النقود

السك يرادف الختم أو الضرب. ويمثل أهم عملية في صناعة النقود وآخرها بعد مرحلتي السبك والتخليص ثم المد والقطع، إذ تُعد النقود علامة من علامات الدولة وأحد رموزها. فابن خلدون يعرف عمليات السك قائلا: «هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس *بطابع* حديد تنقش فيه صور أو كلمات مقلوبة، ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة»[1]. وقد اعتنى سلاطين بني مرين بعمليات السك بحاضرة فاس، فتم نقل دار السكة إلى فاس الجديد وتعيين أشخاص للنظر في أعمالها على رأسهم الناظر أو الأمين الذي كان مشرفا على تنظيم العمل وتتبع مراحل الصنع.

وتتلخص وظيفة الناظر في: «النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عددا أو ما يتعلق بذلك ويوصل إليه من جميع الاعتبارات»[2]، لذلك فسلامة النقود من الغش والتدليس كانت أهم تحد يواجه الناظر، وهو بعمله يحفظ للدولة سيادتها واستقرارها ويحرص على حقوقها وحقوق المجتمع.

وقد تم عمل الناظر بترؤسه لجهاز إداري، يتكون من شاهدين وحراس وغيرهم، ويتكامل في أعماله مع الجهاز التقني الذي يباشر عمليات صنع النقود. ويعتبر الصرافون أهم الزبناء المتعاملين مع دار السكة حيث يدفعون كميات من المعادن تحول لهم نقودا.

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ص: ٢٦١.

(٢) نفسه، ص: ٢٢٦.

المطلب الأول

الإجراءات التنظيمية

- مقر دار السكة:

حافظت مدينة فاس على وظيفة السكة بضرب النقود بها منذ العصر الإدريسي.لذلك صُنعت بدار السكة في الفترة المرينية نقودا ذهبية وفضية،وقد تغير شكل الدينار الذهبي من مربع إلى دائري ، بينما استمر شكل الدرهم الفضي مربعا. واستفادت السكة المرينية في صدر الدولة من أعمال الناصر الموحدي الذي كان له فضل توحيد سك النقود بفاس سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م، إذ ضربت في عهده وفي عهد من تلاه بتلك المدينة نقود لها مصداقيتها[1]، واستمر بنو مرين عند توليهم الحكم في ضرب نقودهم بفاس القديم، إلى أن استقرت الأوضاع العامة للدولة فتم نقل أعمال السك إلى فاس الجديد بعد بنائها سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، حيث احتضنت قصبة ربض النصارى المقر الجديد للسك -كما ورد عند ماسينيون-، وأضاف بعض الباحثين أن مكان دار السكة كان يقع قرب باب الدكاكين[2] ومن الراجح قربه من القصر السلطاني.

- تمويل دار السكة:

تميز نظام العمل بدار سكة فاس الجديد بامتلاك الدولة لكميات معدنية من

---

(١) الحكيم، علي بن يوسف أبو الحسن: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق: حسين مؤنس، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص: ٦٨.

(٢) Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, P : 227.

المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص : ٣٤.

ذهب وفضة ونحاس... ضُربت للصرافين نقودا تستبدل لهم بعد دفعهم لمعادن لذلك الغرض وبأدائهم أجرة معلومة مقابل ذلك. وقد استثمرت الدولة مداخيل دار السكة في القيام بأعمال هذه الدار وتوفير متطلباتها، حيث كان يدفع منها الناظر أجور العاملين وينفق أموالا فيما تحتاجه عمليات السك ودار السكة من مصاريف.كما استغلت الدولة أيضا مالا مدفوعا لدار السكة بقصد ضربه نقودا عرف بـ«الفايد» الذي يتنمى بما يضاف إليه من أجور يدفعها الصرافون نظير عمليات الضرب بالدار. لكن أعمال دار السكة تراجعت لحد كبير بسبب ضرب نقود مغشوشة خارجها خلقت ريبة في الأسواق انتقلت بفعلها الدار إلى الاقتصار في عملها على ضرب نقود للصرافين فقط، ويتكلف الناظر بدفع أجور العاملين من متحصل الأجور التي يدفعها الصرافون[١].

والجدير بالذكر، أن أبا الحسن المريني حاول استدراك تراجع رواج دار السكة، بتخصيصه لألف مثقال ذهبي وألف أوقية فضية كي تكون تحت يد الناظر حتى يتمكن هذا الأخير من الاستمرار في العمل بنظام «الفايد»[٢] أي الاستثمار، لكن البادي هو أن انشغال السلطان المذكور بالجبهة الشرقية واستقراره في تلمسان حال دون تحقيق ذلك. ومن المفترض أن الفترة التي سبقت تولي أبي الحسن للحكم تم خلالها العمل بنظام «الفايد» كانت الدولة معه مالكة للكمية المعدنية التي تحول إلى نقود، في حين أن الفترة اللاحقة لحكم نفس السلطان تحول فيها نظام العمل بدار السكة إلى قبض الأجرة التي تؤدى لدار السكة مقابل تحويل معادن الصرافين إلى نقود بطلب منهم[٣].

---

(١) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ٩٤-٩٦.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص ص: ٦٥، ٧٨، ١٠٥.

ـ تحقيق أوزان النقود:

بما أن الدور الرئيسي لدار السكة هو توفير النقود كوسيلة أساسية في المعاملات المالية،ولكي يكون هذا الدور فعالا قام أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق خامس حكام بني مرين بضبط أوزان النقود وتحقيقها وفقا لنموذجين هما : أوزان النقود المضروبة في صدر الدولة الإسلامية وتلك المسكوكة في عهد محمد الناصر الموحدي، وقد هدف أبو يوسف بهذا الإجراء إلى تنويع النقود المسكوكة، فضربت الرئيسية منها وهي الدينار الذهبي والدرهم الفضي، والفرعية منها وهي أجزاء الدينار وأجزاء الدرهم، فضلا عن الخراريب النحاسية أو الفلوس التي كانت تصنع خارج دار السكة دون طبعها. وكل ذلك تلبية لحاجيات المتعاملين بالنقود وتفاديا للخصومات والنزاعات التي كانت تطرحها النقود المختلفة غير المضبوطة الأوزان.
وهذه لائحة موضحة لأوزان النقود المرينية[1]:

(١) تم الاعتماد على عدة مصادر ومراجع في صياغة معطيات الجدول هي: ابن خلدون: المقدمة، ص: ٢٦٣؛ الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٠٢-١٠٤؛ ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٥، العمري، عبد العزيز بن إبراهيم: الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسولﷺ، مركز التراث لدول الخليج العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٥ ،ص ص: ١٥٣-١٥٥؛ أفا، عمر: الدرهم، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٤٠٢١، نفسه: الدانق، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٣٩٤٣؛ أبو العباس أحمد بن أحمد العزفي السبتي: إثبات ما لابد منه لمن يريد الوقوف على أحوال الدينار والدرهم والصاع والمد، مخطوط بمكتبة محمد بن عبد الهادي المنوني الخاصة، ٦٩ ورقة مكتوبة بخط أندلسي، دون تاريخ ، ورقات ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٤٥، ٤٦، ٦٨.

الإسم	نوع المعدن	الوزن بـ:عدد حَبات الشعير	الوزن بالغرام
الدينار	الذهب	٧٢	٤٫٧٢٩
الدرهم الكبير	الفضة	٨٤	٥٫٥١٧
درهم الكيل	الفضة	٥٠٫٤	٢٫٩١١
الدرهم الصغير	الفضة	٢٨	١٫٨٣٩
الدانق	الفضة	٨٫٤	٠٫٤٨٥
القيراط	الفضة	٣	٠٫٢٤٢

لقد جمعت النقود المرينية إذن بين الشرعي والعرفي، فالدينار تحقق وزنه على أساس الدينار المسكوك في صدر دولة الإسلام، ودرهم الكيل تطابق وزنه مع الدرهم الشرعي، في حين استمر ضرب الدرهمان الكبير والصغير بالوزن الذي عرفا به في المغرب.

وتأسست الأوزان المتوسطة والكبرى على أوزان النقود ، فقد عادل وزن الأوقية عشرة دراهم وثلثي درهم كيلية فضية أو ستة دنانير وثلثا دينار ذهبي، أما الرطل فعادل ١٢٨ درهما كيليا، ويعتبر الوسق أثقل الأوزان[١].كما أن أوزان النقود بدورها تأسست بالقياس على المعتدل من حبات الشعير.وقد تم ضبط وزن تلك الحبات كذلك وفق مايبينه الجدول التالي[٢]:

---

(١) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٠٤-١٠٥؛ ابن خلدون: المقدمة، ص: ٢٦٣.

(٢) الحكيم: الدوحة، ص: ١٠٤.

جدول: الأوزان المؤسّسة لوزن حبة الشعير

الوحدة	حبة شعير	الأرزة	السمسمة	الخردلة	ورقة نخالة	الذرة
الوزن	أربع أرزات	أربع سمسمات	أربع خردلات	أربع ورقات نخالة	أربع ذرات	١على١٠٢٤من وزن حبّة الشعير

وكان للفقهاء فضل في ضبط أوزان النقود وتحقيقها بأمر من السلطان أبي يوسف يعقوب. وتولى الناظر بدار السكة مسؤولية مراقبة تلك الأوزان وضبطها.

-زجر الغش في النقود:

لقد مثلت ظاهرة الغش في النقود عائقا رئيسيا بذل السلاطين مجهودات لمحاربته، بتعيين ناظر يُعرف بأمانته وديانته من جهة، ومعرفته بصناعة النقود وتقنيات تحويلها من جهة أخرى، مع اتخاذ إجراءات ضد المسؤولين عن الغش خاصة من اليهود، وهي إجراءات لا يستطيع أحد غير السلطان تنفيذها.

وقد راجت النقود المغشوشة بشكل كبير بأسواق فاس، فألحق ذلك ضررا بالتجارة والتجار الذين رفعوا الأمر إلى السلطان أبي الحسن فأصدر ظهيرا سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م تم بموجبه عزل اليهود الذين ثبت غشهم في النقود عن حرف الصياغة والصرف والقبض، والسماح لهم بممارسة حرف أخرى لاضرر يلحق

الناس باشتغالهم فيها مثل صناعة اللصاق والزجاج وغيره[1].

وبعد استمرار الوضع على تلك الحال، عاد اليهود لممارسة الحرف التي مُنِعُوا منها خاصة بعد توجه السلطان أبي الحسن لتلمسان وتفرغه للغزو في إفريقية. فظهر غشهم من جديد، فرفع الأمر إلى السلطان أبي عنان سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٦م ،الذي ألزمهم بعدم الغش في مصوغاتهم ويعرضها على الناظر بدار السكة وإبعاد كل شخص منهم عن الحرفة التي غش المسلمين فيها[2].

لكن مايبدو هو أن ظاهرة الغش في النقود كانت تتراجع بعد إصدار القررات السلطانية دون أن تتوقف نهائيا ،ثم سرعان ماتستفحل من جديد فيظهر أثرها على الأوضاع الاقتصادية.ومايعبر عن ذلك هو كثرة الدراهم المقروضة ونقص أوزان الدنانير في الأسواق ،مما جعل السلطان أبي فارس عبد العزيز يصدر أمرا «بأن منع من المعاملات بالدراهم الزائفة الناقصة وأنه لا يكون التعامل إلا بالمسكوكة الوازنة الخالصة» وأن تتم معاقبة المخالفين لهذا الأمر والمتعاملين بالنقود المغشوشة[3].

إذا كانت عمليات الغش في النقود عرفتها فترات السلاطين المذكورين فإن الفترات السابقة واللاحقة لها لم تسلم هي الأخرى من ذلك فالسابقة كانت تمر فيها الدولة بمرحلة التأسيس واللاحقة كان الضعف قد أصاب الدولة، مما أسهم في عدم تهيئ الظروف لزجر القائمين بالغش.

---

(١) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٣٧-١٣٨؛ السلامي: وثائق مرينية، د.د.ع، ج٢، ص: ١٤٠.

(٢) الدوحة، ص: ١٣٩.

(٣) نفسه، ص ص: ١٣٩-١٤٠.

المطلب الثاني

أعمال الإداريين والسكاكين

سبق القول إلى أن فريق العمل بدار السكة تكون من جهاز إداري ترأسه الناظر وجهاز تقني مثلته فرق عمل يشرف عليها السكاكون، لذلك كانت مهام الإداريين تنظيمية في حين قام السكاكون بمهام تقنية وعملية.

١- أعمال الإداريين:

تشكل الجهاز الإداري في دار السكة بالإضافة إلى رئيسه من شاهدين وكتاب وحراس.

- الناظر:

كان الناظر مسؤولا بدار السكة في معظم فترات الدولة، وتحمل الأمين المسؤولية في بعض فتراتها في وقت كان الناظر مساعدا له[1]، وتعين كل منهما من قبل السلطان الذي اشترط فيهما الأمانة والديانة والمعرفة بالصناعة المعدنية التي تمكن من «التمييز بين النقود وأوصاف المعادن وما يصلحها وما يفسدها وأسباب غشها وما يزيله» إضافة إلى الخبرة في معرفة خطوط الطوابع الموضوعة على القطع النقدية[2]. حتى يتمكن المسؤول بدار السكة من المحافظة على أمانات العاملين والمتعاملين مع الدار ودفع الغش وزجر المخالفين كي تكون للسكة قيمتها ما دامت تحمل علامة

---

(١) أفا، عمر: دار السكة المغربية، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٣٩٢٢.

(٢) الدوحة، ص.ص: ٦٩-٧٠.

من علامات الدولة.

ولتحقيق تلك المهام كان الناظر يراقب عمل السكاكين فيُقدِّم المعدن المدفوع للسك بحضوره، ويَتَتبع عمليات السك بمراحلها المتسلسلة من سبك وتخليص ثم مد وقطع فنقش وطبع،كما يحرص على مراقبة «الفرض» الذي يضيفه السكاك للذهب أو الفضة الخالصين وهو أوقية من نحاس في كل مائة أوقية من ذهب أو فضة، إذ أن القدر الزائد على ذلك يوقع بالنقود المسكوكة في الغش. وبعد سك النقود يختبرها الناظر بالصنجات والإمام الموجودة في الجولق[1]، ولا يقبل إلا الخالص والجيد منها[2].

ولضمان سلامة النقود الرائجة في الأسواق، تجاوز عمل الناظر أسوار دار السكة، فكان يتجول في الأسواق باحثا عن الصيارفة[3]، ومراقبا لما بيدهم من دنانير ودراهم، والتحقق من طوابعها وسلامتها من الغش، مع بحثه عن الصياغين ومراقبته الطوابع التي يضعونها على الحلي حتى يتأكد من صحتها بخطوط طوابعها التي تتميز عن طوابع النقود[4].ومن خلال ذلك يظهر أن الصياغين هم المتهمون بضرب النقود المغشوشة خارج دار السكة.

- الشاهدان:

هما العدلان القائمان بعملهما في دار السكة ،اعتمد الناظر عليهما في مراقبة المسكوك من النقود وضبطه، ويعينان من طرفه أو من طرف السلطان، ويساعدان

(١) نفسه، ص ص: ٨٢، ٨٦، ٨٧، ٩٤.

(٢) نفسه، ص ص: ٧٢-٧٣.

(٣)الصيارفة أو الصرافون.

(٤) نفسه، ص: ٧٠.

الناظر على تجنب الوقوع في «مناكرة بين الدافع والصانع»[١]، أي بين الصراف والسكاك. وكانا يتناوبان على العمل يوما بيوم أو شهرا بشهر ، وقد يُعوَّضان بشاهدين آخرين.ويكون لكل واحد منهما مفتاح الجولق الذي يحتوي على الصنجات والإمام، ويراقبان طبع النقود، وضبط ما قبضه السكاكون وما أرجعوه مسكوكا على رأس كل شهر واختبار ما صنع من نقود بالوزن والصنج وجودة الطبع[٢].

- الكتاب:

يستعين الشاهدان في دار السكة بكتاب[٣] يحررون أعمالهم في سجلات يضبطون فيها ما تتلقاه دار السكة من الصرافين من ذهب أو فضة، وذلك بتسجيل الوزن وأوصاف النقود المطلوبة وثمن الأجرة والتاريخ وأسماء أصحابها أو أوصافهم على الأقل وغير ذلك. كما يضبطون أيضا ما رجعه السكاكون من نقود مطبوعة بالوزن، والذين تتم محاسبتهم على ما أرجعوه على رأس كل شهر[٤] من قبل الناظر.

-الحراس:

تم النظر في حراسة دار السكة بتعيين حارس يقف أمام باب الدار نهارا. ويمنع دخول «أهل الفراغ والأطماع» تجنبا لما قد يحدثونه من عرقلة للأعمال ونهب

---

(١) الجولق هو صندوق توضع فيه الصنجات التي يتم بها الوزن، والإمام هو نموذج للدينار الذهبي المضروب بدار السكة.

(٢) نفسه، ص ص: ٧١، ٨٠، ٨٣.

(٣) أفا، عمر: المرجع السابق، نفس الصفحة؛ الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٢٩٧.

(٤) الدوحة، ص ص: ٧٠-٧١.

للأموال. كما يتولى حارس آخر مراقبة دار السكة من أعلاها ويدعى السَّامر[1] نسبة إلى قضائه الليل في الحراسة والمراقبة.

تلك إذن هي أعمال الجهاز الإداري التي استهدفت الحفاظ على سلامة النقود المضروبة بدار السكة والمروجة بالأسواق. وأمَّنت حقوق الدولة والصرافين وغيرهم من المتعاملين بالنقود.

٢- أعمال السكاكين:

السكاكون هم المعلمون الذين يشتغلون تحت إشراف ناظر الدار ،ويشغلون معهم صناعا ومتعلمين ، وتتم أعمالهم عبر مراحل ، وباعتماد مواد أولية وأدوات في سك النقود بقصد إخراجها للرواج في الأسواق.

- فريق العمل:

يتكون هذا الفريق من ثلاثة فئات هي: المعلمون، العمالون والمتعلمون، وترتيبها يوافق التراتب، فالمعلمون أفضل مكانة بينهم باعتبارهم أرباب العمل يُدعَون أيضا بالسكاكين، يتميزون بخبرتهم في صناعة السكة بمراحلها وتقنياتها، لذلك كانوا يتحملون مسؤولية أعمال السك أمام الناظر[2]، فيتسلمون منه الأشغال من ذهب وفضة وغيرهما يحولونها إلى نقود مطبوعة، ثم يتسلمها منهم الناظر بالوزن والأوصاف المطلوبة.

أما العمالون فهم صناع تتعدد تخصصاتهم حيث تشمل السبك والتخليص

(١) نفسه، ص: ٨٣.

(٢) نفسه، ص: ٧٤.

للمعدن، ومده إلى سبائك،ثم تفصيله قطعا نقدية تطبع بعد التأكد من صحة صنعها. ويمكن للصانع الواحد الجمع بين أكثر من تخصص، كما يمكنه الانتقال من تخصص إلى آخر حسب الخبرة والمهارة التي تكونت لديه.

أما المتعلمون، وهم الفئة الثالثة فإنهم يشتغلون تحت إمرة الصناع،وهم مبتدئون تسند إليهم الأعمال البسيطة التي لا تتطلب مهارة وإتقانا للصنعة مثل إيقاد النار في الأفران وتنظيف المعدن والقطع النقدية وجمعها وتشبيبها[١] وغير ذلك.

لقد انقسم القائمون بصناعة السكة إلى عدة مجموعات، تتكون كل واحدة من معلم وعمالين ومتعلمين، ويكثر فيها عدد المتعلمين عن الصناع،وعدد هؤلاء عن المعلمين . وكانت دار السكة بمثابة مدرسة يتكون داخلها العاملون بها، إذ يتدرج الفرد من متعلم إلى صانع ثم إلى سكاك حسب مدى اكتسابه للمهارات الحرفية خلال مدة عمله، وقد كان السكاكون يتحرون في انتقاء الصانعين والمتعلمين الذين يعرفون بثقتهم وعدم نقلهم لأخبار وأسرار الصنعة لغيرهم، فضلا عن الجد والإخلاص في العمل. واحتفظ السكاكون لأنفسهم بإنجاز بعض الأعمال حفاظا على خبايا صناعة السكة، فكانوا بذلك يشكلون طائفة يصعب اختراقها من طرف أجنبي[٢]، حتى يتجنبون نقل تقنيات عملهم ومنافستهم فيه.

- المـواد والأدوات:

احتاجت أعمال السك إلى مواد أهمها المعادن، واستعملت فيها أدوات

---

(١) يقصد بتشبيب القطع النقدية غسلها بمحلول الشب.

(٢) العجلاوي، الموساوي: حرف السك النقدي في العهدين المريني والسعدي، مجلة أمل،ع٧، ١٩٩٦،ص٣٤٠.

تنوعت حسب تعدد المراحل التي مرت منها صناعة النقود.

.المــواد: يقصد بها المواد الأولية التي تدخل في صناعة النقود. وهي متنوعة في مقدمتها المعادن سواء الذهب الذي يدفع للصنعة حليا و تبرا، أم الفضة خامة و مفروغة و مسبوكة حليا، أم النحاس الذي يضاف إلى أحد المعدنين السابقين عند السك بأقدار معلومة، أو يستعمل مع الرصاص في تخليصهما من الشوائب،إضافة إلى الكبريت المستعمل في التنظيف والغسل، والملح الذي تعددت استعمالاته، وتحتاج صناعة السكة أيضا لمواد صخرية مثل مسحوق الآجر الذي يستعمل في الشحيرة[١] مخلوطا بالرمل ومواد أخرى، والحطب والفحم اللذان توقد بهما الأفران، إضافة إلى الشب[٢]، والصابون المعتمد في الغسل والتنظيف والشمع في اختبار أوزان النقود وجودتها[٣]، كما كان يتم الاختبار أيضا بالعيار الذي عادة ما صنع من دهن الجوز العفن أو من مواد أخرى[٤].

.الأدوات: تطلبت صناعة النقود أدوات معظمها آلات بسيطة فقد احتوت دار السكة على أفران تستعمل في سبك المعدن وتخليصه من الشوائب أو في مراحل أخرى من التصنيع. وكانت أداة الكير معتمدة في إيقاد وتوهيج نار الأفران[٥]، وهي بسيطة في صنعها. كما احتاجت عمليات السك إلى أواني معدنية مثل البوط[٦]

(١) الشحيرة هي خليط من دقاق الآجر والرمل ونوع من الملح، وهي مواد تحيط بالمعدن وتدخل إلى الفرن لتوقد عليها النار في مرحلة من مراحل السك.

(٢) الحكيم: الدوحة، ص ص: ٥٦، ٨٧، ٩٣-٩٤.

(٣) كان هذا الاختبار يتم بصنع نماذج معينة من الشمع توزن بها النقود وتختبر جودة المعدن فيها.

(٤) الحكيم: المصدر السابق، ص ص: ٦١، ٧٩.

(٥)نفسه، ص ص: ٤٨، ٥٢.

(٦) البوط هو إناء حديدي لوضع وسطه المعدن لسبكه.

المستعمل في إذابة المعدن داخل الفرن، والمراط[1] الذي يفرغ فيه المعدن الذائب . أما الأواني غير المعدنية فمنها الكوجة أو الكوجل[2] المصنوعة من مادتي الجبص والعظم اعتُمدت أيضا في تذويب المعدن، وأواني فخارية كالقدور التي توضع فيها كميات من المعدن تُدخل إلى الأفران والشقوف التي تفرغ فيها كميات المعدن بعد إخراجها من الأفران[3]. واعتمد السكاكون على أدوات مصنوعة من المعادن أخرى كاللقاقيط أو الكماشات المستخدمة في القبض والقلع، والمطارق في الطرق، وزبرات الحديد في الضرب، والأمقاص في القطع، والمباريد في السحل، والمهاريس في دق وسحق المعدن، والغرابيل في تصفية مسحوقه[4]. وكانت المعادن والنقود التي تصنع تختبر جودتها بالعيار الذي هو نوع من الحجر يعرف بالميلق يحك عليه المعدن[5]، ويضم الجولق أو الصندوق الذي سبقت الإشارة إليه[6]- يكون تحت يد الناظر- عدة أدوات منها الطابع الحديدي المنقوش الذي تضرب به القطع النقدية، والآلات والأقلام التي ينقش بها النقاش الطابع عند الحاجة إلى تغييره[7]، والصنجات أو الصنج التي توزن بها المعادن والنقود. وقد وصف الحكيم في دوحته الميزان المستعمل بدار السكة بأنه «ذو قصبة مستقيمة وثقب مسمار القبة أسفل اللسان ...ويحتوي على لسان يتحقق من سلامة وسطه حتى يكون الرجحان .ويكون للقبة

---

(١) المراط إناء معدني تفرغ فيه مادة المعدن المذابة وهو في شكل إطارات ذات أبعاد محددة تتصلب فيها الكمية المعدنية المذابة فتتحول إلى قطع وسبائك.

(٢) الكوجة أو الكوجل: إناء صنع من العظم والجبص المسحوقين، يستعمل أساسا في تذويب الفضة.

(٣) الدوحة المشتبكة ص ص: ٨٦-٨٨.

(٤) نفسه، ص ص: ٥٥-٥٦، ٨٦، ٨٨، ٩٢.

(٥) نفسه، ص ص: ٤٨، ٥٢.

(٦)- العودة إلى ص:٤١-٤٢ في هذا المبحث.

(٧)- ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٢٢٦، ٢٦١؛ الحكيم: الدوحة، ص ص: ٧٢-٧٣.

علاقة قوية تتعلق بها عند الوزن في قائم يثبت بإلقافه بالحجارة ،وهو عمود من خشب قد أخرج منه علو يعلق فيه الميزان، تكون كفتا هذا الميزان نصفي كرة مبسوطتين وأخياطهما من حرير خز إن أمكن ،ويختبر قبل إعداده للوزن»[1]، ولذلك فأداة الميزان تكونت من عدة أجزاء مثلتها أساسا الكفتان اللتان توضع فيهما الصنج والموزون. وقد روعي في صناعة الموازين -من خلال ماورد في النص- الاحتراز والتحري بعدم النقص أو الزيادة من وفي الشيء المعد للوزن.

- مراحل الصنع وتقنياتـه:

تفيد مصادر وأبحاث [2] في التعرف على المراحل المتبعة في سك النقود، والتي يمكن تحديدها في ثلاثة هي السبك والتخليص ثم المد والقطع فالنقش والطبع.

السبك والتخليـص:

تتداخل هاتان العمليتان لذلك تم تناولهما في مرحلة واحدة، فالسبك هو إذابة المعدن تمهيدا لتحويله إلى نقود، ولايشرع السكاكون فيه إلا بعد تخليص المعدن المراد تذويبه مما علق به من شوائب حتى يصبح خالصا، و تتم عمليات السبك عدة مرات إذ تكون في البداية بهدف إزالة الشوائب، وفي الأخير بهدف صناعة السبائك بأبعاد معلومة في السمك والطول والعرض. وتعددت تقنيات التخليص إذ يعتبر السبك أحدها، وتكون عملية التخليص هذه متجاوزة إذا كان الذهب والفضة المدفوعين

---

(١) الحكيم: الدوحة، ص ص: ٧٦، ٨٠، ٨١.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٢٢٦، ٢٦١؛ بنعبد الله،عبدالعزيز: معطيات الحضارة المغربية، دار نشر المعرفة ، مطبعة المعارف الجديدة ،الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢ ، الرباط ، ج٢، ص: ٨٦ ،

للسك خالصين، وفي هذه الحالة يشرع السكاكون في السبك بعد اختبار الجودة من طرف الناظر. أما إذا كانت المعادن المدفوعة تحتوي على شوائب فيتم تخليصها منها بطرق متعددة، أولاها أن التخليص يكون بسيطا إن كانت الشوائب قليلة وعالقة بوجه المعدن فيكون الغسل والحمي بالنار مناسبين، وثانيها إذا كانت الشوائب مخلوطة بالمعدن يتم التخليص بإضافة نوع من الأحجار إلى القطع المعدنية مما يساعد في جذب الذهب والفضة وعزلهما عن الشوائب(١)، وفي الطريقتين السابقتين يكون السكاكون في غنى عن التخليص بالسبك الذي يعتمد حين يكون التخلص من الشوائب ليس بالأمر الهين، وعادة ما يتم التخليص في هذه الحالة ،وهي الثالثة،بالسبك عن طريق إذابة المعدن في الكوجل أو باستعمال فرن الشحيرة أو باستعمال الزئبق(٢).

وتكون النار المعتمدة في التخليص بالطرق الثلاثة الآنفة الذكر بأقدار معلومة لا نقص فيها ولا زيادة تجنبا للإضرار بجودة المعدن الذي يتم اختباره بعد عملية التخليص فإن كان جيدا يشرع في تحويله إلى سبائك بغرض السك وإن كان مشوبا أعيد تخليصه بالسبك مرة أخرى.

ويتسلم السكاكون من الناظر المعدن بعد تخليصه، ليتم بعد ذلك تسجيل الشاهدين لوزنه والنقود المطلوب سكها والأجرة وأوصاف الدافع -وهو الصراف- والقابض- وهو السكاك-. فيبدأ هذا الأخير في عملية تحويل المعدن إلى سبائك، فإنْ كان المعدن ذهبا في شكل تبر يتم دقه في مهراس ثم يغربل، فيؤخذ الذي خرج من الغربال، فيزبَّقُ مما يُمَكِّن من جمع الذهب وطرح ما دونه، ثم توقد

---

(١) الدوحة المشبكة، ص ص: ٥٠-٥١، ٥٥.

(٢) العجلاوي: المرجع السابق، ص ص: ٢٦-٢٧؛ الحكيم : الدوحة المشبكة، ص ص: ٨٦-٩٠.

عليه النار لتخلص الذهب من الزئبق. بعد ذلك يخلط الذي خلص منه مع الذي علا الغربال، فيوضع في بوط وتوقد عليه النار، وقد يضاف إليه تنكار(١) لتسهيل سبكه. ويفرغ المعدن بعد السبك من البوط في المراط بعد حفظ وزنه، وذلك هو السبك الأول.

أما السبك الثاني فيتم بأخذ الصفائح التي تصلبت في المراط وترقيقها حتى تعتدل ثم توضع في شقف من فخار مدهون تجنبا لتسرب المعدن فيه، ثم تبنى فوقه طبقات من الصفائح مفصولة بالشحيرة(٢)، ويبلل الكل بالماء ويغطى السطح العلوي بشحيرة معجونة فتوقد عليها النار لوقت معلوم. وبعد إخراج الشحيرة من الفرن تنفض الصفائح ثم تغسل وتجمع كومة في شكل كرة وتوزن ليعلم ما نقص منها ويضبط، فتوضع مرة أخرى في بوط وتسبك وتصب في المراط فتحول إلى سبائك بعد التصلب. ويتم اختبار جودتها من طرف الناظر بضرب صفيحة على زبرة حديدية، ثم يضبط العيار بحك الصفيحة على الميلق ومقارنتها بحك الإمام ووضع محلول العيار فوقها. فإن كان المعدن جيدا أصبح جاهزا للمرحلة الموالية وهي المد والقطع،وإن كان العكس رُدَّ ليسبك ويخلص من جديد(٣).

تلك كانت طريقة سبك التبر، أما إذا كان الذهب حليا فإنه يسبك بطريقة فرن الشحيرة بعد التأكد من جودته، بنفس التقنيات السابقة دون الحاجة إلى الدق والغربلة والسبك الأول في البوط(٤).

---

(١) التنكار هو نوع من الملح يسهم في تليين المعدن وسهولة سبكه.

(٢) سبق توضيح الشحيرة في هامش سابق من هذا المبحث.

(٣) الدوحة المشبكة، ص ص: ٨٦-٨٩.

(٤) نفسه، ص: ٨٩.

وبالنسبة للفضة فسبكها يكون عاديا في البوط ثم تفرغ في المراط بعد التأكد من خلوصها من الشوائب[1].

ويتضح مما ورد سابقا أن سبك المعدن يعد أساسيا سواء بقصد التخليص من الشوائب أو بقصد تحويل المعدن إلى صفائح تمهيدا لمدها وقطعها.

المد والقطع:

يفيد المد في تحويل السبائك إلى صفائح مستوية مضبوطة الأبعاد، أما القطْع والذي ينعت أيضا بالتكريم[2] وعن طريقه تحول الصفائح المعدنية الممددة إلى قطع مدورة إذا كانت دنانير ومربعة إذا كانت دراهم.

ويتم المد بتسلم المدَّادين سبائك الذهب أو الفضة خالصة، فتتم إزالة ما علق بها من أوساخ أو غيرها بحميها على النار، ثم تُريَّش وتسوَّى بالمطرقة ثم تحمى مرة أخرى على النار إلى أن تتوهج مرات متتالية حتى تصبح سهلة القطع[3].

وبعد الفراغ من المد يتم الشروع في قطع السبائك وحدات ذات أشكال محددة، ثم تجمع القطع وتضرب كل اثنتين أو ثلاثة منها على حِدَة. وتحدَّقُ حتى تصبح متقنة، ثم يتم حميها في النار، وتوضع في صناديق بأعداد جد محدودة لمرات متتالية مما يساعد على اعتدالها ثم تشبب بعد إخراجها من الصناديق فتسلم للناظر كي يزنها ويتحقق من اعتدال أطرافها ثم يختبر جودتها قبل دفعها للطبع في حين يُرَد ما رفض

---

(١) نفسه، ص ص: ٨٩-٩٠.

(٢) نفسه، ص: ٩١.

(٣) نفسه، ص ص: ٩١-٩٢.

منها حتى تكون جيدة ومتقنة[١].

النقش والطبع:

يدل النقش على الخطوط التي يختص الفتاح[٢] في وضعها على الطوابع التي تضرب بها النقود . لذلك فعمله أساسي لكنه غير مسترسل مثل أعمال السك الأخرى. حيث يقوم بخط رسوم وكتابات عند حاجة دار السكة إليها. أما الطبع فهو ضرب الطابع على وجهي كل قطعة نقدية.

كان النقاش أو الفتاح عادة ما يمتلك صنعة تتميز بإتقانه للخط والتفنن والمهارة في وضعه على الطابع الذي يصنعه له الحداد بدار السكة. ونظرا لأهمية حرفة الفتاح مُنِعَ عليه الاتصال بالمتهمين بالغش والتدليس في النقود، تجنبا لانتقال معلومات وتقنيات الطوابع إليهم. كما كان لا يؤذن له بتغيير شيء من الكلمات والرسوم الموضوعة على أي طابع إلا بإذن من السلطان بوساطة الناظر، لكون الطابع يمثل علامة من علامات الدولة، وقد كان نقش الكلمات والرسوم على الطابع يتم بطريقة مقلوبه[٣] كي توضع الكلمات المطبوعة على النقود سليمة وصحيحة بعد ضرب الطابع عليها.

وتغلب على النقوش التي حملتها النقود المرينية الكلمات وتغيب فيها التماثيل والرسوم لأمر شرعي، ومن أهم العبارات الدينية المنقوشة «لا غالب إلا الله»، أما السياسية فتمثلها أسماء السلاطين على النقود على الأقل منذ عهد أبي سعيد عثمان[٤].

---

(١) العجلاوي: حرف السك النقدي، ص ص: ٢٩-٣٠.

(٢) الفتاح هو النقاش الذي يصنع خطوط الطابع الذي تضرب به النقود.

(٣) الدوحة المشتبكة، ص ص: ٧٢-٧٣؛ ابن خلدون: المقدمة، ص: ٢٢٦.

(٤) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج١، ص: ١٢٧.

وقد تكون النقود المرينية محتوية على معلومات تاريخية مثل تاريخ السك واسم دار السكة أو المدينة التي ضربت بها النقود. وجلي أن تكون النقوش الموضوعة على الدنانير مختلفة عن تلك التي وضعت فوق الدراهم، والأمر نفسه بالنسبة لأجزاء الدنانير والدراهم وذلك تمييزا لقيمة كل نوع منها.

وأوضح ابن خلدون بعض تقنيات الطبع حين ذكر بأن الطباع يضع الطابع على القطعة النقدية بطريقة مضبوطة ومقدرة ثم يضرب عليه بالمطرقة فتخرج النقوش مرسومة على النقد ظاهرة مستقيمة لكن الضرب يتم على جهة واحدة عدة مرات مع تدوير النقد الموضوع عليه الطابع. ونفس الشيء يتم على الوجه الآخر للنقد[١].

وكانت عملية طبع القطع النقدية تنجز بمعاينة الشاهدين. وبعد الطبع تتم مراقبة الناظر لها، الذي يَردُّ القطع غير المضبوطة الطبع كالتي يكون فيها الطابع خارجا عن دائرة الدينار أو عن أزياق[٢] الدرهم كي يعاد سبكها. فقد كان حرز الدينار والدرهم[٣] أن تكون دائرة الطابع متوسطة للقطعة لا تصل إلى أطرافها، وفي حالة رد القطع تقرض[٤] إشارة إلى الأمر بسبكها مرة أخرى، ثم مدها وقطعها وطبعها.

بعد طبع النقود ومراقبتها من طرف الناظر تحمى بالنار قصد إزالة ما علق بها من مادة الحديد أثناء الطبع، ثم تشبب وتنشف فتدفع للناظر الذي يزنها ويأمر

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ص: ٢٦١؛ الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص: ٩٣، ويقصد بالحرز صحة النقد.

(٢) يقصد بالأزياق الأطراف الأربع للدرهم.

(٣) المقصود بالحرز الجيد من الدينار والدرهم.

(٤) الحكيم: المصدر السابق، ص ص: ٩٢-٩٣.

الشاهدين بضبط الوزن الذي أرجعه السكاك ومقارنته بالوزن الذي قبضه في البداية. ويتم جمع الحساب على رأس كل شهر فيطالب السكاك بما بقي في ذمته من وزن وإلا يخصم من أجرته[١]. فقد كانت المعادن المدفوعة من طرف الصراف ترجع له بعينها مطبوعة[٢]. إذ كانت أشغال صراف معين لا تخلط مع أشغال غيره من الصرافين حفاظا على الأمانة وصيانة للسكة وحقوق الصرافين والسكاكين والدولة. وذلك تحت مسؤولية الناظر وبمساعدة من الشاهدين.

تميزت صناعة النقود في الفترة المدروسة بكونها النشاط الذي كان الناظر أو الأمين المسؤول عنه متقنا للصنعة، عارفا بأسرارها حتى يتمكن من أداء الوظيفة المنوطة به، ومنها تجنب الغش والتزييف في ضرب النقود الرائجة في الأسواق وتداولها بين الناس، وكان الملوك يتدخلون عندما يستفحل أمر الغش أو تتراجع مداخيل دار السكة. وذلك ما تم في طور قوة الدولة المرينية، وما لم يتم أو تم بدرجة أقل في الفترات التي تلت ذلك الطور سواء عند المرينيين أو عند من تبعهم من ملوك بني وطاس.

---

(١) العجلاوي: المرجع السابق، ص: ٣٣؛ الحكيم: المصدر السابق، ص ص: ٥٧، ٧١.

(٢) الحكيم: المصدر السابق، ص: ٧٧.

المبحث الثالث

الأشغال العامة والأعمال العلمية والفنية

تتمثل الأشغال العامة المنجزة بمدينة فاس في الفترة المرينية الوطاسية في تهيء شبكة الطرق والشوارع ودعمها، ومد القناطر والجسور، وجلب المياه عن طريق إنشاء تجهيزات مائية -هيدروليكية- تكمن في القنوات الاصطناعية والآبار والسقايات، وتهييئ فضاءات خضراء بغرس البساتين والحدائق والجنان التي كان بعضها منتزهات للخاصة والعامة. وأشرف سلاطين الدولة -خاصة المرينيون منهم- على القيام بأعمال دقيقة كانت تعرف عند المسلمين بالحِيَل الهندسية التي تُميزها الدقة والتركيب في الصناعة، والخبرة والمعرفة لدى صانعيها، مما مكن من إنشاء الناعورات أو الدواليب وهي آلات مهمة للتزود بالمياه، إضافة إلى صنع نموذج مصغر لمدينة جَبل الفتح داخل قصر فاس الجديد يمثل تعبيرا عن الاهتمام المريني ببلاد الأندلس وعن الفنية التي عبر بها صانعوه عما احتواه الموقع من أسوار وأحياء ومرافق جُسِّدت بشكل دقيق. وتم حشر الصانعين المحليين والأجانب في إنجاز الأشغال والأعمال المذكورة سيما الدقيقة منها التي تفَوَّق فيها العنصر الأندلسي الذي أفاد المرينيين بعد احتكاكهم ببلاد الأندلس، واطلاعهم على تميزها في الصناعات المركبة. وكان للدولة تمويل معظم مشاريع الأشغال والأعمال المنجزة بتوفير المواد والأدوات، واستئجار الأطر الخبيرة واليد الصانعة والعاملة.

المطلب الأول

الأشغال العامة

تمت هذه الأشغال بمجال ومحيط المدينة وهي تجهيزات حققت للسكان وأنشطتهم وسائل المرور والعبورعبرها والتزود بالمياه بواسطتها .وتكونت من الطرق والقناطر والقنوات المائية والسقايات و البساتين وغيرها.

*** الشوارع والطرق:**

هي مسالك تخترق النسيج الحضري يتنقل عبرها المارة القاطنون بالمدينة والزائرون لها، وتسلكها الدواب التي تحمل الأمتعة والبضائع.وقد أُنجزت في الفترة المدروسة بفاس شوارع وطرق كثيرة أهمها شُيِّد بفاس الجديد عند تأسيسه، مثل الشارع الكبير الذي يقع بين بابين رئيسين هما: باب عيون صنهاجة وباب القنطرة[1]، إضافة إلى عدة شوارع أخرى وطرق تضيق حتى تتحول إلى دروب داخل الأحياء السكنية.

وبالنظر إلى بنية شوارع وطرق فاس الجديد المنجزة في الفترة المرينية يمكن القول بأنها تتشابه مع بنية نظيراتها في فاس العتيق، وإن كانت بنية شوارع وطرق فاس العتيق أقوى وأمتن، ويعزى هذا الأمر إلى أن الفئات الاجتماعية التي كانت تقطن بمعظم مجال فاس الجديد تكونت من فرق عسكرية استقرت مؤقتا بفاس، وكان أفرادها دائمي التنقل في إطار الحملات التي نظمتها الدولة خارج فاس، أما

---

(١) ابن الأحمر،إسماعيل : روضة النسرين، في دولة بني مرين، تحقيق : عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط،، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص: ٢٩.

حي اليهود الذي لم يُعمّر إلاّ في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، كان قد أنشئ بمعزل عن فاس الجديد باعتباره حيا خاصا، والأمر نفسه بالنسبة للقصر السلطاني المحاط بالأسوار العالية المميَّزبأبواب خاصة تجعله في معزل عن الأحياء الأخرى.

كيفما كان الحال فقد أنجزت شوارع وطرق بِرَبَض النصارى –الحي العسكري–، عند تأسيس فاس الجديد من طرف أبي يعقوب يوسف منذ سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، وبتنفيذ من الصناع والحرفيين المختصين في الهندسة والتخطيط والبناء، الذين رسموا المحاور التي تمر منها الشوارع والطرق المذكورة. وكانت أنواع الصخور والأتربة مواد أساسية في إنشائها، ويعتبر الشارع الكبير أهم محاور فاس الجديد الطرقية؛ تميز بالاتساع امتدت معه الدكاكين والأسواق على طول جانبيه ، وعلى طرفيه بابين كبيرين. وتضيق الطرق كلما تم التوغل داخل الأحياء لتتحول إلى أزقة ودروب يكون بعضها متصلا بشبكة الطرق من جهة واحدة فحسب دون غيرها مراعاة لحرمة المساكن وساكنيها.

وحي اليهود يخترقه شارع رئيسي ينحصر بين بابين، تمتد على جانبيه محلات تجارية وحرفية، وتنتشر في بقية أجزاء الحي طرق وأزقة ودروب تتسع أو تضيق حسب كثافة الدور والسكان، ولم تختلف مواد وتقنيات إنشاء طرق وشوارع هذا الحي المنجزة من لدن ساكنيه وبتفويض من الدولة عما أنجزت به في ربض النصارى.

أما الحي السلطاني فقد نال أهمية متميزة بفضل شوارعه وطرقاته التي ربطت وحداته السكنية والقصر أهمها، وموصلة بينه وبين محيطه الخارجي، كما أنشئت طرق تصل بين فاس الجديد والعتيق.

ودعم المرينيون والوطاسيون شبكة الطرق بفاس العتيق وذلك بتجديدهم لما تعرض منها للتدميرأو التخريب: كشارع العطارين بعد تعرض سوقه لحريق سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م، وشارع الصباغين بعد تخريبه بالسيل الذي جرف دكاكينه والدور المجاورة له[١].. وبإنشاء شوارع وطرق جديدة مسايرة للتوسع الذي كانت تشهده المدينة القديمة مع مرور الفترات.

*الجسـور والقناطـر:

الجسر هو البناء الذي يوضع فوق المجرى المائي يربط بين ضفتيه، وعادة ما كانت مواد البناء فيه تتكون من الآجر و الحجر و الخشب ، ويختلف حجمه حسب اتساع المجرى، لذلك يتطلب بناء متينا قادرا على حمل الأشخاص والدواب وما تحمله من بضائع وأمتعة من جهة، ومقاومة جريان المياه وما يحدثه من رطوبة تؤدي إلى تآكل البناء من جهة أخرى. أما القنطرة فهي الجزء العلوي من الجسر الذي يربط جانبيه فقط .و لم يميز أهل فاس بين الجسر والقنطرة، فكانت المنشآت المشيدة من هذا القبيل تنعت تارة بالقناطر وتارة أخرى بالجسور. وقد بنيت أهمها على الوديان التي تعبر المدينة وخاصة وادي الجواهر ووادي الزيتون اللذين ينعتان عند دخولهما أسوار المدينة العتيقة بوادي فاس ووادي مصمودة.

وعرفت فاس في الفترة المدروسة إنشاء العديد من القناطر والجسور في نقط أساسية على الوديان المذكورة، وتمت إعادة بناء أخرى تهدمت وتخربت نتيجة كوارث طبيعية مثل الفيضانات ، كما شهد محيط فاس بناء بعض القناطر أيضا على

---

(١) الوزان، الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج١، ص: ١٩٣، ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٤.

الوديان الفاصلة بين مدينتي فاس ومكناسة.

فقد أنشأ السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني عند تأسيس فاس الجديد عدة قناطر من بينها التي تحمل أحد أبواب هذه المدينة المسمى باب القنطرة ، يمر عبرها وادي الجواهر وتنطلق منها عملية توزيع المياه على أحياء ومرافق المدينة بقسميها الجديد والعتيق، ولازالت معالم هذه القنطرة بادية للعيان رغم ما عرفه موقعها من تغييرات، وهي واقعة عند باب مولاي عبد الله الحالي. كما أنشئت بفاس الجديد قناطر أخرى لكنها تقل أهمية عن القنطرة المذكورة.

وتشَيَّدَت في عهد يعقوب بن عبد الحق كذلك قناطر خارج مدينة فاس أبرزها قنطرتي وادي النجا وماريز[1]، أتمم بناءالأولى خلفه يوسف بن يعقوب، وجُدِّدت في عهد السلطان أبي الحسن المريني نعتتها المصادر بقنطرة بني بسيل نسبة إلى التجمع السكني القريب من القنطرة. وأنجزت من طرف نفس السلطان -أبو الحسن- قنطرة وادي ردات خارج فاس[2].

وفي عهدي أبي سعيد وابنه أبي الحسن مُدَّت مجموعة من القناطر بفاس فقد بنيت في عهد الأول قناطر على غدير حمص في إطار التوسع العمراني الذي عرفته فاس الجديد، وقنطرتا باب السلسلة والصباغين على الوادي الفاصل بين العدوتين بفاس القديم سنتي ٧٢٥-٧٢٦هـ/ ١٣٢٥-١٣٢٦م، مع ماتم أثناء ذلك من تجديد

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب: ٤٠٦.

(٢) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص٢٩ ، ذكر أن باب القنطرة عرف في عهده بباب الوادي؛ ابن أبي زرع،علي : الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والنشر والوراقة، الرباط، ١٩٧٢،ص: ٩٠؛ المنوني: حضارة بني مرين، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ١٩؛ الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ٨٩؛ Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16ème, p : 217.

ما دمرته مياه الفيضانات. كما تم في عهد أبي سعيد أيضا تجديد وبناء أخرى هي قناطر أبي طوبى وكهف الوقادين وأبي برقوقة. هذه الأخيرة التي تقع على وادي الرصيف تم تجديدها أيضا من قبل الأمير أحمد الوطاسي. وتمثلت إضافة أبي الحسن بفاس العتيق في بناء قنطرتي الوادي والرصيف[1].

تلك إذن أهم القناطر والجسور التي أنشئت في العهد المريني –الوطاسي بفاس، نشطت أوراشها عند تأسيس فاس الجديد وتوسيعه، وبعد الهدم الذي أحدثته الفيضانات، وفي فترات الاستقرار وانتعاش اقتصاد الدولة. ولم تخل مرحلة ضعف الدولة من إنجاز القناطر، لكنها كانت بسيطة أو تدخل في إطار تجديد وإصلاح القناطر التي كانت قائمة.

والدولة في شخص السلطان هي التي مولت أعمال بناء القناطر، بتوفير المواد الأولية والأدوات اللازمة لذلك والمتخصصين في الإنشاء، في حين كانت اليد العاملة في تلك الأعمال تقدم خدماتها بصفة تطوعية تحت إشراف شخص يكلفه السلطان تنتهي مهمته بانتهاء العمل في الورش الذي كلف بإنجازه. وفيما يلي جدول لأهم القناطر المشيدة في العصرين المريني والوطاسي:

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص ص: ٤٩-٥٠؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٤؛ ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤١٨.

جدول: أهم القناطر المرينية بفاس:

القنطرة / الجسر	الموقع	تاريخ الإنجاز
قنطرة بفاس الجديد	باب القنطرة (قرب باب السبع)	سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م
قنطرة باب السلسلة (الطرافين)	عن يسار الداخل من باب سيدي العواد	أسسها أبو سعيد عثمان سنة ٧٢٥-٧٢٦هـ/ ١٣٢٥-١٣٢٦م
قنطرة الصباغين (ابن زكون)	عن يمين الخارج من الصباغين	٧٢٥-٧٢٦هـ/ ١٣٢٥-١٣٢٦م
كهف الوقادين (بين المدن)	تعرف في الطريق المار من المشاطين إلى حي بين المدن	عهد أبي سعيد عثمان
قنطرة الرصيف (ابن أبي برقوقة)	تهدمت حديثا (مدخل الرصيف حاليا)	عهد السلطان أبي الحسن المريني
قنطرة الوادي	واقعة على الوادي الفاصل بين العدوتين	عهد السلطان أبي الحسن المريني

*الحدائق والجنات:

تنعت أيضا بالبساتين والروضات وهي فضاءات خضراء بأشجارها وأعشابها، ورطبة بالمياه الجارية فيها. وتكمن أهميتها في تنزه سكان فاس بخاصتهم وعامتهم فيها، فضلا عن الاقتيات بثمارها، بل إن الزائرين لمدينة فاس كانوا أيضا يتمتعون بجماليتها ويتشوقون لرؤيتها عند مغادرتهم المدينة، و قد نظم أحدهم[1] فيها.

يا فاس حيّا الله أرضَكِ من ثَـرا ❁❁❁ وسقاكِ من صوْبِ الغَمامِ المُسبلِ
يا جنة الخلدِ التي أربتْ علــى ❁❁❁ عدنٍ بمنظرها البهيِّ الأجمَـلِ
غُرفٌ على غرفٍ ويجري تحتهـا ❁❁❁ ما ألذّ من الرّحيقِ السلسـلِ
وبساتينُ من سندُس قد زُخرِفـت ❁❁❁ بجداولَ كالأيّم أو كالفيصـلِ

وقد أولى مسؤولو الدولة أهمية لتهييء الحدائق والجنات، بغرس الأشجار ومد القنوات المائية والطرقات وبناء الناعورات وغير ذلك. وقد احتوت فاس الجديد ومحيطها على أهم المنتزهات. فقد كان روض المصارة جميلا بالأشجار التي غرست به والمياه الجارية فيه. وقد عين السلطان المريني يوسف بن يعقوب عاملا للنظر في تجهيزه سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٨م[2]. واهتم السلاطين في الفترات اللاحقة أيضا بهذا الروض فتوسعت مساحته بعد تعيين السلطان أبي الحسن المريني لمحمد بن حسين بن الخلوف الصنهاجي الحميري عاملا عليه، حيث أشرف على غرس زيتون به في منطقة غدير حمص بجانب الوادي. وبدوره وسع أبو عنان هذا الروض ودعم موارده المائية[3].

---

(١) هو الفقيه القاضي محمد المغيلي نزيل آزمور حسب ما ورد عند ابن القاضي: الجذوة، ١، ص: ٣١٥.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس، ص: ٤٠٧؛ ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٤٨.

(٣) ابن الأحمر وآخرون: المصدر السابق، نفس الصفحة؛ النميري: فيض العباب، ص: ١٧٥.

وضمت فاس الجديد فضاءات خضراء أخرى كالذي وجد بقرب القصر السلطاني ، تم فيه إنشاء بستان آمنة في عهد أبي عنان. وهيأ سلاطين بني مرين أيضا بساتين خارج فاس الجديد كروض الغزلان بدار ادبيبغ والحدائق التي تقع بين بابي الحديد والجديد بفاس العتيق[1].

واحتوى المحيط الذي يلي باب بوجلود وباب الشريعة على بساتين، لعل المرينيون ساهموا في تدعيمها وتجهيزها خصوصا في الفترة التي سبقت انتقال مقر السلطة إلى فاس الجديد. وقد عرفت البساتين التي توجد أمام بوجلود آنذاك ببساتين القصر في حين امتد روض يعرف بخندق النمر خارج باب الشريعة[2].

وإذا كانت البساتين المذكورة سابقا قد مثلت منتزهات خاصة لسلاطين الدولة وحاشيتهم، فإن بعضها كان منتزهات لعامة الناس مفضلا لديهم خصوصا روض المصارة الذي توافد عليه بكثرة سكان أحياء فاس الجديد والعتيق. وظل هذا الروض يثير اهتمام الزوار لعهد طويل . ويرجح أن يكون جنان السبيل الحالي قد مثل جزءا مهما منه .

*** المد بالمياه:**

تم المد أو التزود بالماء بتقنيات عدة تتمثل في بناء ناعورات أو دواليب على وادي فاس، وإنشاء قنوات مكشوفة ومطمورة تمر فيها المياه إلى الحدائق والبساتين والقصور والدور وإلى السقايات التي بنيت في عدة نقط من شوارع وأزقة فاس العتيق خاصة وفاس الجديد بشكل محدود.

---

(١) Massignon : Le Maroc, PP : 230-231.؛ ابن القاضي: الجذوة ج:١، ص: ٢٠٨؛ النميري: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) Massignon : Le Maroc, P : 235؛ ابن الأحمر وآخرون: المصدر السابق، ص: ٤٤.

الناعـورات:

نعتت أيضا بالنواعير أو الدواليب، وهي آلات لرفع المياه، وقد بنيت معظمها على وادي الجواهر الذي يجري بمحاذاة فاس الجديد.

وقد تطلب بناء الناعورات تقنيات هندسية دقيقة برع فيها العنصر الأندلسي، لذلك نشطت عمليات صنعها ونصبها بعد الاحتكاك المريني مع الأندلسيين في إطار الفتوحات والغزوات المرينية ببلاد الأندلس. وقد انطلقت ورشات صناعة الناعورات منذ عهد يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ) وتواصلت في عهد ابنه يوسف (٦٨٥-٧٠٦هـ)، وبلغت أوجها في عهد أبي عنان (٧٤٩-٧٥٩هـ) لتتراجع دون أن تتوقف نهائيا في فترات الدولة المتبقية.

وقد صنعت ونصبت أول ناعورة على وادي فاس (وادي الجواهر) بأمر من السلطان يعقوب، وبتنفيذ من طرف المهندس أبو عبد الله محمد بن الحاج الأندلسي الإشبيلي[١]، الذي نقل خبراته إلى المغرب أيضا في صناعة السفن وغيرها من الأندلس، وذلك بعد تقريبه من طرف السلطان المريني. وصنعت في عهد يوسف بن يعقوب ناعورات أخرى، فبين رجب ٦٨٥هـ وصفر ٦٨٦هـ تم بناء ناعورة كبرى على وادي فاس أيضا، وأخرى مماثلة على نفس الوادي في موضع قريب من قصر الدار البيضاء المشيَّد بدوره سنة ٦٨٦هـ، ويبلغ قطر الناعورة الأخيرة ستة وعشرين مترا[٢]، مما يعد دليلا على أهمية المواد والأدوات المستخدمة في بناء هاتين الناعورتين ودقة تقنيات صنعها، إذ طالت مدة الأولى وكبرت أبعاد الثانية. وارتفع عدد

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢، ص ص: ١٣٩-١٤١.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس، ص: ٤٠٧؛ النميري: فيض العباب، ص: ١٧٥؛ حركات: الحياة الاقتصادية في العهد المريني، مجلة كلية الآداب وع إ، الرباط، ع: ٥-٦، ١٩٧٩م، ص: ١٣٣.

الناعورات المصنوعة في عهد أبي عنان، حيث تجهزت ضاحية البلد الجديد بها بهدف مد الجنان المجاورة للقصر بمياه السقي. حيث ذكر النميري أن أبا عنان أضاف ناعورتين جديدتين تسببتا في تعطيل عمل الناعورتين الكبرى والصغرى المصنوعتين في عهد يوسف بن يعقوب[1]، وذلك نتيجة تراجع منسوب المياه، لقرب موقع ناعورتي أبي عنان من الناعورتين المعطلتين.

وشهد مطلع القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي صناعة نواعير جديدة بظاهر المدينة على وادي فاس من طرف مهندس إسباني تميزت تقنيات عمل إحداها بعدم التأثر بقوة الرياح، فكانت تدور ببطئ بمعدل دورة في كل ساعة[2].

لقد اعتمد صناع الناعورات على مواد أولية أبرزها الخشب إضافة إلى مواد ثانوية تمثلت في المعادن. وتطلبت هذه الصناعة أدوات وتقنيات توفرت لدى المهندسين المختصين أفادتهم في صناعتهم . ويُرجح أن تكون عمليات صنع الناعورات قد تمت في أماكن قريبة من المجرى المائي الذي نصبت عليه، كما من المحتمل كذلك أن تكون المرافق التابعة للقصر السلطاني قد احتضنت تلك العمليات خصوصا بالنسبة للناعورات ذات الحجم الكبير لما تتطلبه من وقت طويل في الإنجاز. ولعل تقنيات صنع الناعورات ذات الشكل الدائري كانت تبتدئ بصناعة كل جزء على حدة، ليتم بعد ذلك تركيب الأجزاء كليا ، فتصبح الناعورة ذات مركز ثابت ومحيط متحرك ينتهي بأكواب ترفع الماء من النهر لتصبه في القنوات الاصطناعية السطحية المعدة لصرف المياه. وكانت عمليات نصب الناعورات تجرى عن طريق تثبيتها في الجدران أو غيره إضافة إلى بناء أسوار تساهم في تجميع المياه

---

(١) النميري: المصدر السابق، ص ص ص: ١٧٦-١٧٧، ١٧٩-١٨٠.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ١، ص: ٢٢٠.

حول كل ناعورة.

ولفتت الناعورات التي نصبت على وادي فاس أنظار المتوافدين على المدينة . فقد قال ابن الخطيب واصفا الناعورة المصنوعة في عهد يوسف بن يعقوب، والتي يحتمل أن يكون صانعها هو ابن الحاج الإشبيلي، مادام أنه استقر بفاس الجديد إلى أن وافته المنية به سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٥ م[١]. وهذا نظم ابن الخطيب[٢]:

وقوراء من قوس الغمام ابتغوا لها ... مثالا أداروها عليه بلا شك

فبين الثريا والثرى سِرُّ جرمها ... وللفلك الدوار قد أصبحت تحكي

نصوغ لجين التبر في الروض دائما ... دراهم نور قد خلص من السبك

وترسل من شبهاتها ذا ذوابة ... فتنفي استراق السمع عن حوزة الملك

تذكرت العهد الذي اخترعت به ... وحلت فما تنفك ساجعة تبكي

لكن الناعورة الكبرى التي قيل فيها هذا النظم تعطلت عند بناء ناعورات عنانية. و مع ذلك فإعادة تشغيلها يعد أمرا يحتمل الصواب إذا كان قد تم التحكم في جريان المياه، أو أن دورانها كان يتم مؤقتا في الفصل المطير الذي يرتفع فيه منسوب مياه الوادي.وعموما أصبحت فضاءات فاس الجديد والظاهر الفاصل بينه وبين فاس العتيق مجالا تنتشر فيه الدواليب، لدرجة أن أحد الناظمين العدول قال متحدثا عن سوق الخميس الذي كان يعمر بين المدينتين العتيقة والجديدة[٣].

---

(١) ابن القاضي: الجذوة ، ١، ص: ٢٨٨.

(٢) بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب السلماني، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠، ص: ٢٠٨.

(٣) ابن القاضي: المصدر السابق، ١، ص: ٢٤٥.

إذا أتيت الخميس افعل توابلـــه من الخميس وإتيان دولاب

القنـوات المائيـة:

شهد مجال فاس الجديد بصفة خاصة إنشاء قنوات اصطناعية لمرور المياه، ساهمت في نقل المياه من مصادرها إلى الأحياء والمرافق والحدائق في تكامل مع بناء الناعورات. وقد مثلت المياه السطحية بوادي فاس مصادر رئيسية للتزود بالمياه، صنعت لها قنوات مكشوفة أو مطمورة أمر السلاطين بإنشائها[1] في فاس الجديد، وببعض محاور فاس العتيق كتلك التي تؤدي إلى السقايات. ولعل مادة الحجر المنجور اعتمدت في إنشاء القنوات المكشوفة، إذ ورد حديث عن أن هذه القنوات من الأنظمة التي كانت سائدة في مدن العالم الإسلامي ومنها مدينة فاس[2]. في حين أن القنوات المطمورة كانت تصنع من الفخار في الدور الصناعية الخاصة بذلك ،والتي تصنع قواديس تختلف أحجامها حسب كميات الماء التي تعبرها. وكانت تعد وسيلة مناسبة لنقل المياه إلى الدور والمنازل والقصور والمساجد والمدارس والسقايات وغيرها من المرافق. وشكلت القنوات المكشوفة أيضا وسيلة لنقل المياه لسقي البساتين. واستدعت عمليات مد القنوات المائية تقنيات هندسية ومعرفة بعلم المساحة وبشكل السطح. لذلك اعتمد صانعوها على أدوات للقياس والحفر والطمر والتبليط والبناء وغيرها. وقد وُصِف الصناع المتخصصون في المد بالمياه بالقنويين كانوا يستدعون من طرف السلطان لمباشرة أعمالهم التي عادة ما نشطت

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٢٠، الذي تحدث عن مد المياه إلى فاس الجديد من الوادي بواسطة ناعورة تفرغها في قناة مكشوفة داخل السور؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٧٢.

(٢) هيل، دونالد: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة فؤاد أحمد باشا، عالم المعرفة، ع٣٠٥، ص ص: ٢٤١، ٢٤٢.

عند تشييد منشآت عمرانية بالمدينة[1]، كما حدث عند بناء فاس الجديد.

السقايات:

هي بنايات تنبع فيها المياه التي تجلب إليها من الآبار والعيون عبر القنوات الاصطناعية، وتنتشر عبر الشوارع والأزقة بهدف تزويد الناس والدواب بالمياه. وقد أولت الدولة المرينية عناية لبناء السقايات في إطار تعاليم الدين الإسلامي الحنيف الداعية إلى تزويد عابري السبيل بمياه الشرب[2]. ولذلك احتوت مدينة فاس على عدد كبير من السقايات وصل إلى ستمائة يرجع عدد غير يسير منها للفترة المرينية الوطاسية. وكانت فترة حكم أبي الحسن المريني متميزة في إنشاء السقايات[3]، فقد ذكر علي بن فرحون المديني وهو رحالة مشرقي: «ما مررت -في بلاد المغرب- بسقاية... التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء فسألت عنها إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله»[4].

وتحتوي السقايات على أحواض تتجمع فيها المياه المتدفقة في جدرانها. وتتميز واجهاتها بزخارف وضعت على الجبص والزليج والحجر والآجر... واختلفت أشكال وأحجام السقايات حسب موقعها وظروف تأسيسها. فكانت الموجودة على شوارع تغص بالمارة كبيرة الحجم، بديعة الشكل أهمها سقاية تعرف باسم أبي الحسن -نسبة إلى السلطان المؤسس- التي تتواجد على زقاق حلق النعام المعروف حاليا

---

(١) استدعى السلطان أبو الحسن المريني القنويين في جملة أرباب الصناعات قصد بناء منشأة عمرانية بتلمسان. وهو نفس الأمر الذي كان جاريا بفاس، ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤٤٨.

(٢) وزيري، يحيى: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، ع٣٠٤، ٢٠٠٤، ص: ٤٠.

(٣) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص: ٤١٧.

(٤) المنوني: حضارة بني مرين، مذكرات، م٣، ص: ٢٥.

بالطالعة الصغرى. ولم تكن كل السقايات المشيدة بشوارع فاس من إنشاء السلاطين، بل كانت مجموعة منها من إنشاء الأوقاف كالتي تتواجد بقرب الجوامع والمساجد والمدارس والمارستان وغيرها، أو التي شيدت بعيدا عن المؤسسات الوقفية مثل سقاية برحبة الزبيب بنيت في إطار جلب الماء للقرويين[1].

(١) ابن أبي زرع: الأنيس، ص: ٦٦.

المطلب الثاني

الأعمال العلمية والفنية

رغم تخصص المدارس والجوامع وبعض المساجد في تقديم العلم، وما كان يرافق ذلك من الاهتمام بالأعمال المرتبطة به مثل الخط والزخرفة في الكتابة والتسفير وغيره، فإن القصر السلطاني احتضن بدوره أنشطة علمية أقبل عليها سلاطين الدولة، فاهتموا بالعلم وقربوا منهم العلماء، وكان ذلك مرفوقا بإنجاز الأعمال ذات الصبغة الحرفية. حيث كُتبت المصاحف والكتب، صُنعت لها ربعات متقنة، باعتماد عدة أدوات ووسائل وفرها الصانعون والحرفيون المتخصصون كالأقلام والمسطرات والأمدة والمحابر وغيرها. وفي عهد أبي عنان أنجز الحرفيون المختصون في الهندسة والبناء نموذجا مصغرا لمدينة جبل الفتح اعتبر من الأعمال الهندسية الدقيقة والنادرة.

- الأعمال العلمية والحرف المرتبطة بها:

تمثلت في صناعة أدوات الكتابة وموادها وخاصة الحبر، والأرضيات التي تمت عليها الكتابة إضافة إلى وسائل التسفير، أهمها الربعات.

١- أدوات ومواد الكتابة:

كان جهاز من الكتاب يعمل بالقصر السلطاني مهمته الأساسية كتابة الرسائل والظهائر السلطانية وتوثيق ممتلكات الدولة والمصاريف والنفقات وغيرها. ومارس عدة أمراء وسلاطين الكتابة أيضا حيث نسخوا المصاحف القرآنية. واحتاجت هذه

الأعمال إلى صناعة وسائلها من مواد وأدوات وغيرها، منها :

.الـرق:

الرق مفرد للرقوق، يقصد به الجلد الذي مثَّل أرضية للكتابة في العصر الوسيط. وقد صنع رق خاص لسلاطين دولة بني مرين من جلد الغزال كتبت عليه نسخ المصاحف القرآنية في عهدي أبي يعقوب يوسف وأبي الحسن علي(١).

ولم يكن الرق هو الأرضية الوحيدة للكتابة، بل كان الورق أيضا وسيلة في ذلك تم الحصول عليه من حرفيين خاصين نشطوا في إنتاجه.

.المـداد:

تعددت أنواع المداد حسب طبيعة المواد التي كتب به عليها وقيمة المادة المكتوبة. فقد صنعت أمدة من نوع جيد يليق بمقام السلاطين وبقيمة المصاحف وكتب السيرة النبوية التي كتبت من قبلهم أو بأمر منهم. واعتُمدت المواد النباتية في صناعة المداد وأشرفها العطور من مسك وورد وزعفران شعري، وصنع الحبر أو المداد أيضا من قشور الجوز وعود السواك ومحلول الذهب الذي كتبت وزخرفت به المصاحف القرآنية بصفة أساسية(٢).

---

(١) المنوني: الفقيه المنوني، أبحاث مختارة، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة المناهل، المغرب، ٢٠٠٠، ص: ٢٢٧، ٢٣٠؛ التازي، عبد الهادي: اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية بظاهر مدينة فاس، مجلة آفاق للثقافة والتراث، عدد ٢٢-٢٣، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، إدارة البحث العلمي والنشاط الثقافي بمركز الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ع٢٢، ص: ١٥٩.

(٢)- المنوني: المرجع لسابق، ص: ٢٢٤؛ وتاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، الطبعة الأولى، ١٩٩١ ، ص: ٦٢.

وقد تطورت صناعة المداد في فترة بني مرين. فبعدما تمت الكتابة في العصر الموحدي وصدر الدولة المرينية من دون مداد، أصبحت الكتابة على الرق أو الورق بالمداد الذي تطورت صناعته بتنوع ألوانه حيث ظهر اللونان الأزرق والأحمر فضلا عن اللون المذهب المائل إلى الصفرة. مما ساهم في انتعاش زخرفة الكتابات، إذ رسمت بعض الكلمات والحروف والنقط والفواصل بألوان مغايرة. لكن تلوين المداد سيزدهر بشكل واضح في الفترة السعدية بظهور تقنيات ومواد جديدة للحصول على الحبر(1).

.المحابـر:

عُرفت المحبرة في بلاد المغرب بالدواة، وهي وعاء يوضع فيه الحبر أو المداد المعتمد في الكتابة به. وقد صنعت الدواة في عصر بني مرين من مواد مناسبة لحفظ المداد وملاءمة جودتها وأهميتها لمكانة الكتاب والسلاطين، حيث كانت تزخرف محابر هؤلاء الأخيرين بكتابات منظومة، وتزوق بالتذهيب، ونورد نموذجين منها :

دواة السلطان أبي عنان التي كتبت عليها الأبيات التالية:

أنا دواة فـــــارس	❁❁❁	أبي عنان المعتمـد
حَلَّفت من يكتب بــي	❁❁❁	بالواحد الفرد الصمـد
أن لا يمد مــــدة	❁❁❁	في قطع رزق لأحـد

ورَدَّ أبو عنان حين تلى عليه ابن الخطيب هذه الأبيات قائلا: «لقد حلَّفتني، وإني بقسمي لها لبار إن شاء الله». وقد ذكر المقري في «أزهار الرياض» أنه شاهد في أيامه

(١) المنوني: أبحاث مختارة، ص ص: ٢٢٨، ٢٣٦-٢٣٧، تاريخ الوراقة، ص: ٦٢.

دواة عند أحد كتاب سلطان حضرة فاس تحمل البيتين الاخيرين، فاعتقد أنها هي دواة أبي عنان[١].

دواة السلطان أبي سالم: والتي حملت ستة أبيات من نظم أبي القاسم بن رضوان يدل مطلعها على توشيتها بالذهب وحسن صنعتها[٢]:

لَبِسْتُ محاسن الوشي البديـع ❁❁❁ وفَّقت بمنظري زهر الربيـع

وساعدت السعود صنيع شكلي ❁❁❁ فتم به حسن الصنيـــع

وشهدت صناعة المحابر تحسنا مع توالي فترات الحكم المريني-الوطاسي حيث عُدَّت محابر ذات أشكال مستطيلة وتحمل عدة تجويفات هي أوعية للأمدة المتعددة الألوان[٣].

. الأقـلام:

. إذا كانت الدواة أداة لاحتواء المداد، فإن القلم أداة لرفعه منها والتخطيط به على الصحف. ولابن الخطيب بيتين منظومين يتحدث فيهما عن الأدوات الثلاث بأسلوب ولغة جميلين[٤]:

ما رأت عيني عجيبـا ❁❁❁ كيـراع في دواة

غائصا يستخرج الـدر ❁❁❁ ببحر الظالمـات

---

(١) المقري: أزهار الرياض، ج١، ص: ٤٠.

(٢) المنوني: تاريخ الوراقة، ص: ٥٤.

(٣) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٢٣.

(٤) ابن القاضي: الجذوة، ١، ص: ٣٠٨

فقد أطلق لفظ اليراع على القلم والدر على المداد.

وكانت المواد النباتية والمعدنية وسائل لصنع الأقلام بفاس. لكن النباتية منها كانت أكثر تداولا لتناسبها مع خفةَ وسرعة الكتابة. في حين اعتبرت الأقلام المعدنية الفضية والذهبية رمزية تعبر عن قيمة حامليها. ومثَّل القصب وخشب الصندل مواد حولها الصانعون إلى أقلام بعمليات يدوية بسيطة. ومن الأقلام الرمزية الذي صنع للسلطان أبي سالم قلم فضي حمل بيتين منظومين من طرف أبي القاسم بن رضوان.

إذا شهدت بالنصر خطبة القنـــا	فملكت أمر الفتح من غير ما شرط

كفى شاهدا أني بفضلك ناطــق	لساني مهما أفصحت ألسن الحظ

. أدوات أخرى:

تطلبت عمليات النسخ والتصحيح أدوات مثل المقارض والسكاكين.كانت تصحح بها النسخ المكتوبة على الرق والورق، اللذان صنعا بملمس خشن يسمح بإزالة الأخطاء بالسكاكين، ومما نظم في ذلك أبيات منها ما قاله ابن رضوان أيضا[1]:

أرى سيف ابراهيم بيني وبينـــــه	مناسبة عند اعتبار المناســـب

بشرت حروف الكتاب عند التباسهـا	ويبشر حداه حروف الكتائــب

وفي هذا الكلام المنظوم حديث عن السكين ودوره في الكتابة .والإشارة واضحة إلى خدمة الناظم للسلطان أبي سالم المريني.

---

(١) المنوني: تاريخ الوراقة المغربية، ص: ٥٦.

واستعمل كتاب الدولة أيضا المسطرات التي توجه خطوط صحفهم، يراعى فيها التوازي واحترام القياس المناسب بين سطور الصفحة الواحدة. والأوصاف التي قيلت في هذه المسطرات توحي بتميزها عن المسطرات الحالية، حيث كانت تصنع من لوح الخشب وشكلها ذو زوايا أربع قائمة وطريقة استعمالها عند الكاتب تتمثل في وضعها على الكتاب ، ثم وضع خيوط فوقها ،وتوضع ورقة فوق تلك الخيوط ، ثم الضغط بقوة حتى ترتسم الخطوط في الورقة ، مما يساعد في توجيه الكاتب كي تكون كتابته منتظمة[1]، ولذلك فهذا النوع من المسطرات كان ذو حجم كبير يقارب أو يزيد عن حجم الورقة.

واحتاج الكتاب والخطاطون إلى المقلمات التي تُحفظ فيها الأدوات الأخرى للكتابة مثل الأقلام والمسطرات والمقارض والسكاكين وغيرها. فكان الجلد هو المادة المستعلمة في صنع المقلمات، واجهاتها الخارجية مزخرفة تزينها النقوش والخطوط وغير ذلك، وتحتوي كل منها على جهة خاصة بالأقلام والمسطرات وجهة أخرى خاصة بالمقارض والسكاكين. وقد تكون المقلمات معدة لحفظ الأقلام والمسطرات فقط.

واحتاجت أعمال الكتابة أيضا للمرملة ، وهي عبارة عن مسحوق يجفف به المداد المخطوط، يكون أحيانا مسحوقا من الرمل وأحيانا أخرى مسحوقا من الذهب عندما تكون الكتابات قرآنية أو سلطانية.

وتصقل الكتابات بمحلول الذهب بواسطة آلة تدعى المصقلة، مما يعطي للصحف والكتب المصقولة بها مظهرا متميزا[2].

---

(١) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٣٦.

(٢) نفسه، ص ص: ٢٢٣-٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٩.

وتم تحويل مادة الخشب أيضا إلى محمل الكتب ،كانت توضع فوقه المصاحف والكتب بقصد القراءة أو الكتابة، محمول بأرجل يتم جمعها حين الانتهاء من استعماله. ومن المحامل المصنوعة محمل للسلطان أبي سالم ابراهيم المريني صنعت له أرجل تتحول عند فتحها إلى بيت من نظم ابن رضوان أيضا[1]. مما يعد دليلا على تطور الإبداع عند الحرفيين الصانعين لمثل هذه الأداة.

٢- رسم الخط:

نهل الخط المغربي تقنياته من الفن المشرقي والأندلسي واتخذ خصوصيات محلية متميزة عنها. فقد ذكر الأستاذ المنوني أن الخط المغربي تأثر بالفن الأندلسي أكثر من تأثره بنظيره المشرقي. وسرد خمسة أنواع منتشرة له بالمغرب منها الخط المجوهر الذي حررت به الرسائل والكتابات السلطانية، والذي كان أكثر الخطوط استعمالا لجماليته، والخط المبسوط الذي كانت ترسم به المصاحف القرآنية[2].

قرّب الحكام منهم الخطاطين المحترفين الذين تعلموا حرفة الخط بفاس أو غيرها من المدن سواء داخل المغرب أو خارجه، إذ أن مدينة فاس المرينية أصبحت مكانا متميزا لتعلم الخط وتعليمه خاصة في فترات الاستقرار. فمكّنَ ذلك الملوك من الاستفادة من أعمال الخطاطين الذين أبدعوا في الكتابة وزخرفتها. وهذا ما جعل ابن عاشور التونسي يقول: «استتبعت العناية المرينية بتصحيح الكتب وضبطها عناية بتجويد الخط، وتجميل الطوالع، وإظهار التراجم والمقاطع، وإبداع التزويق والجدولة والتلوين والتذهيب»[3]، فجمالية الخط حسبه لا تكمن فقط في نوع الخط

---

(١) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٣٦، تاريخ الوراقة المغربية، ص ص: ٥٦-٥٧.

(٢) المنوني: تاريخ الوراقة المغربية، ص: ٤٧.

(٣) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٢٨.

المكتوب به، بل في زخرفة مستهلات الكتب وكتابة التراجم والمقاطع بألوان مغايرة ووضع الجداول والإبداع فيها والتزويق بأشكال هندسية وتذهيب الخطوط. ويضيف الأستاذ المنوني عند حديثه عن زخرفة الكتابة بأن فقرات وأجزاء الكتب كانت تفصل بدوائر هامشية، و تؤطر الصفحات بخط أو أكثر من أطرافها الأربع، وتستعمل الألوان المغايرة في الكتابة كالأخضر والأحمر والأصفر وما شابهها[١]. وكانت الصفحات وأحيانا الفقرات ترقم بشكل بارز أو لون مغاير بترقيم خاص عرف بالقلم الفاسي الذي مثل تطويرا للقلم الرومي[٢].

٣- صناعة الربعات:

الربعات هي صناديق من الجلد أو الخشب تصنع لتوضع داخلها المصاحف أو الكتب . وقد صنعت ربعات متميزة لسلاطين الدولة أهدوا أهمها لنظرائهم في البلدان الإسلامية، أو لبعض المعالم الدينية في العالم الإسلامي مثل البيت الحرام وبيت المقدس. وكانت الربعات الجلدية تصنع من جلد جيد بعد معالجة الدباغين له، في حين تحول الربعات الخشبية من عود الأبنوس والصندل ثم ترصع بالعاج وأنواع الجواهر ، وتغلف أحيانا بالجلد والنسيج الرفيع، وعادة ما كانت تذهب الواجهات الخارجية للربعات.

والصناعات العلمية المذكورة المنجزة في مرافق صناعية مخزنية مكنت من تقديم منتوج علمي في الفترة المرينية الوطاسية ، يمكن تلخيص أهم مابرز منه في المصاحف المخطوطة التي بعث الأهم منها مع الهدايا من لدن سلاطين الدولة :

---

(١) نفسه: ص ص: ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدلوماسي، ٢، ص: ٤١.

. مصاحف السلطان أبي يعقوب يوسف المريني:

أحدها بُعث ضمن هدية إلى المسجد النبوي مع ركب الحج الذي تقدمه شرفاء أمغار الصنهاجيين[١]، بعدما صنعت له ربعة مرينية بنفيس الدر وشريف الياقوت ورفيع الأحجار وقد أنجز من طرف مختصين في الخط والتسفير. والغالب على الظن أن هذا المصحف تم عمله بفاس وأرسل من تلمسان سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠١م حين كان السلطان محاصرا هناك لبني عبد الواد إذ لم تكن ظروف الحصار تسمح بإنجاز المصحف في تلمسان ومدينة فاس عاصمة الملك هي المؤهلة لمثل هذا العمل في تلك الفترة والله أعلم.

ولعل السلطان المذكور كتب بيده أو أمر غيره بكتابة مصحف آخر لازالت شذرات رقية نادرة[٢] منه محفوظة.

. مصاحف السلطان أبي الحسن علي المريني:

كتب عددا منها بيده بعدما تعلم الكتابة بخط جميل على يد الخطاط النجللي الذي كان كاتبَ وقته. وقد كتب السلطان المذكور أحد المصاحف على جلد الغزال في ثلاثين جزءا أهداها لبيت المقدس لا تزال محفوظة في متحفه[٣]. وتمت بعض عمليات تسفير بعض مصاحف أبي الحسن بفاس، في حين سفر البعض الآخر بتلمسان بعد الاستقرار بها. وكان أبو الحسن هذا عند حاجته إلى أعمال الخط والتسفير يحشر الوراقين الذين قد يأتونه من فاس إذا كان بتلمسان بحكم مكانته

---

(١) الناصري: الاستقصا، ٣، ص: ٨٣؛ السلامي، رشيد: وثائق مرينية، ١، ص ص: ١٣٣-١٣٨.

(٢) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٢٧.

(٣) التازي، عبد الهادي: اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية، مجلة آفاق للثقافة والتراث، ع٢٢، ص: ١٥٩.

عندهم. وقد اتسمت مصاحف أبي الحسن بالدقة وحسن التسفير صُنعت لبعضها ربعات خشبية من الأبنوس والصندل، ورصعت بالعاج، وغشيت بصفائح الذهب التي زينتها حبات الجوهر والياقوت، وغلفت بالجلد المذهب، ووضعت لها أغطية من الحرير والديباج وأغشية الكتان[1].

. مصاحف السلطان أبي عنان فارس المريني:

ميز كتابة أبي عنان الخط الحسن كتب به نسخ من القرآن الكريم وكتاب «الأحاديث الأربعين العلوية الشريفة». وقد صنعت لبعض المصاحف القرآنية التي خطها يده ربعات وضعت فيها ثم أرسلت إلى بلاد السودان في إطار الرحلة التي قادها ابن بطوطة، حيث كانت تقرأ المصاحف هناك وتختم في إطار تأبين وفاة أبي الحسن المريني[2].

. أعمال السلطان أبي فارس عبد العزيز:

. ساهم هذا السلطان في كتابة مصحف ابتدأ رسمه أبو الحسن وتابعه أبو عنان فأتمه ثم أهداه للمقام الخليلي. وكان أبو فارس بدوره مشتغلا بنسخ القرآن الكريم ووصف خطه بالحسن[3].

. أعمال محمد بن محمد بن زيان الوطاسي:

نسخ بخط يده صحيح البخاري في أربعين جزءا عام ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م و١١

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٣١٤.

(٢)- التازي، عبدالهادي :التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور إلى اليوم، ١٤٠٦-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٦-١٩٨٩م، عشر أجزاء، مطابع فضالة، المحمدية،ج ٧، ص: ٤٦.

(٣) المنوني: تاريخ الوراقة المغربية، ص ص: ٦٣.

جزءا من كتاب «الشفا» للقاضي عياض سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥٢م. والكتابان محفوظان بخزانة القرويين، وقد كان هذا الناسخ من عائلة الوزراء الوطاسيين لدى ملوك دولة بني مرين[١].

.مصحف السلطان الوطاسي أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبد الله محمد الشيخ (ت٩٦١ هـ/ ١٥٥٣م):

كتبه في ثلاثين جزءا صنعت له ربعة جميلة بعثت بعد فراغه من الكتابة سنة ٩٤٦هـ/ ١٥٤٠م إلى المدينة المنورة[٢].

ورغم إتقان السلاطين للخط، فإن أعمالهم كانت محتاجة إلى خطاطين وكتاب أنجزوا لهم ماطلبوه منهم وأبرزهم :

.محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني:

الذي توفي مغربا في المشرق بعد سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٩م، كتب لسلاطين بني مرين ومنهم أبو الحسن وأبو عنان، كان بارع الخط أنيقه[٣].

. محمد بن محمد بن رشيد:

كتب للسلطان أبي عنان ومن بعده، وكان حسن الخط بارعه ابن مقلة زمانه كما وصفه ابن الأحمر، كان يعيد بخطه ما يكتبه ابن رضوان، وكان قليل المعرفة والدراية

---

(١) المنوني: تاريخ الوراقة المغربية ، ص: ٦٦.

(٢): ، نفسه: ص: ٦٧.

(٣) ابن القاضي: الجذوة، ١، ص: ٢٢٥.

باللغة العربية[1].

. محمد بن يحيى الغساني البرجي:

من أهل غرناطة، كان قاضيا بفاس صدرا في الأدب حسن الخط والشعر والكتابة، خدم أبا عنان، توفي سنة ٧٨٦هـ[2]/ ١٣٨٥م.

ومن بين الأعمال التي كتبت لأحد أمراء بني مرين:

- كتاب «نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن» لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني كتبت منه نسخة للأمير محمد بن عبد القادر الوطاسي سنة ٨٦٥هـ كانت محفوظة بخزانة القرويين[3].

تلك هي أهم أعمال الخط والزخرفة والتسفير، وقد اتضح أن بعض سلاطين الدولة أتقنوا صناعة الخط، كتبوا بها المصاحف وبعض الكتب الشريفة، استعانوا بالوراقين في جمعها وتسفيرها، وقربوا كتابا لهم دراية بكتابة الخط لتحرير مراسلاتهم ومعاهداتهم ومواثيقهم.

- أهم الأعمال الفنية:

إن الأعمال العلمية التي سبق ذكرها كان الكثير منها في حاجة إلى مهارات فنية

---

(١) نفسه: ص: ٢٣١.

(٢) نفسه: ص: ٣١١.

(٣) الدباغ، محمد بن عبدالعزيز: جامعة القرويين وأثرها في حفظ التراث الإسلامي، أشغال ندوة «جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي» نظمها بيت آل الحبابي، الرباط، منشورات جامعة القرويين، ١٩٩٦، ص: ١٠٨.

تمت الإشارة إليها . لكن النشاط الصناعي المخزني احتاج أيضا إلى بعض الأعمال الفنية غير العلمية أبرزها صنع نموذج مصغر لمدينة جبل الفتح الأندلسية بقصر فاس الجديد في عهد أبي عنان، وصناعة أثواب خاصة للسلاطين بدار الطراز.

١ – نموذج مدينة جبل الفتح:

مثلت صناعة هذا النموذج تعبيرا عن الدقة والخبرة لدى صانعيه ،حيث كان السلطان أبو عنان قد امر بصنعته بمشوره السعيد في قصر فاس. وأهمية صناعة هذا النموذج مثلتها تقنيات التمثيل الهندسي للمعالم العمرانية والطبيعية التي حولت إلى أشكال مصغرة تمثلها بدقة وضبط بإنجاز من الصناع والحرفيين المختصين.

وللدول الإسلامية تجارب في التمثيل لكن عادة ما كان يتم بهدف بناء معلمة أو مدينة معينة[1]. لكن الجديد الذي أضافه صانعوا نموذج جبل الفتح هو صنعه على هيئة مدينة قائمة، وصناعته أيضا هي إبراز لمدى اهتمام الدولة المرينية بهذه المدينة وغيرها من مدن الأندلس التي كانت تواجه الزحف المسيحي.

ويصف الرحالة ابن بطوطة النموذج المصنوع بقوله: «وبلغ من اهتمامه (أبو عنان) بأمور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه الجبل المذكور، فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصونه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء... فكان شكلا عجيبا يعرف

---

(١) مثل ما حدث في عهد الملك عبد الملك بن مروان عند عزمه بناء قبة الصخرة بالقدس الشريف، ورد ذلك عند الرباط، ناصر: مفهوم العمارة في الكتابات الإسلامية في القرون الوسطى، عالم الفكر، العمارة، م٣٤، ص ص: ١٨-١٩.

قدره من شاهد شكل الجبل وشاهد هذا الجبل»[1].

وقد توصل الصانعون المختصون إلى تمثيل الجبل بعد معاينة المدينة القائمة وضبط وحداتها وتوثيق الأشكال والأبعاد، ثم تنزيلها بتعاون بين المهندسين والمختصين في البناء. إذ كانت مواد البناء معتمدة بشكل أساسي في صناعة النموذج إضافة إلى ما احتاجوه من مواد أخرى كالأصباغ، وذلك باستعمال أدوات تتسم هي الأخرى بالدقة.

٢ - نسج وطرز الأثواب الفاخـرة:

اعتبرت «دار الطراز» من المرافق الصناعية المتميزة بفاس الجديد، نُسجت داخلها الأثواب الخاصة بالسلطان وحاشيته بالشكل الذي يليق بمكانتهم. وكان «الناظر» هو المسؤول عن تسيير هذه الدار بتفويض وتعيين من السلطان[2] على غرار نظار الدور الصناعية الأخرى مثل دار السكة ودار الصناعة وغيرهما. ويبدو أن مسؤولية الناظر بدار الطراز كانت تكمن في توفير المواد الأولية للنسج والطرز كالقطن والصوف والكتان والحرير والمواد الأخرى الرفيعة كخيوط الصقلي وخيوط الذهب وغيرها بالكميات المطلوبة، وحَشْر المعلمين والصناع والمتعلمين للقيام بأعمال النسج والطرز، وحفظ الإنتاج المطلوب وتقديم ما هو مطلوب منه إلى السلطان الذي يستعمله مع فئة خاصة من الأقرباء ومسؤولي الدولة كلباس، أو يبعث أنواعا محددة كهدايا للبلدان الخارجية .

وقد ضمت دار الطراز أدوات وآليات النسج والطرز مثل المرمات والمغازل

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص ص: ٦٥٢-٦٥٣.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٢٦٦-٢٦٧.

ولوحات تحتوي رسوما وأشكالا توضع على الأثواب المنسوجة والمطرزة. واتسمت تقنيات العمل بالدقة والرونق. فكانت عمليات نسج وطرز الأثواب تتم بطريقة آلية تمكّن من وضع علامات مطرزة بألوان مغايرة على الأثواب[١]. وقد أشار ابن الخطيب في إطار حديثه عن «دار الطراز»، التي نعتها أيضا بدار الديباج، إلى تعرضها لحريق في سنة معينة من تاريخ الحكم المريني مما أدى إلى إتلاف عدة آليات كانت داخل هذه الدار مما يؤكد أهمية الصناعة التي كانت تنجز فيها.

ونسج الأثواب في دار الطراز استلزم أيضا خياطة ما هو مطلوب منها، وهو ما يحتمل تخصص خياطين خاصين يعملون في تلك الحرفة في مرفق صناعي تابع للدولة،أو إرسال ما هو مطلوب خياطته لحرفيين خاصين بالمدينة العتيقة.

لقد عبرت التقنيات الصناعية التي تمت بدار الطراز، والتنظيم الذي اتبع في تسبيرها عن التأثر بالنمط الأندلسي[٢] حيث كان رسم الطراز معتمدا لدى ملوك الأندلس الذي نقله عنهم ملوك المغرب. وهو بمثابة ظهير أو مرسوم يعين به السلطان الناظر على دار الطراز، ويحدد فيه طرق التمويل والإجراءات التي تواكب ذلك.

ولم ترد معلومات محددة عن توطين موقع دار الطراز، لكن من الوارد وقوع مكانها بفاس الجديد بقرب القصر السلطاني أو في أحد أطرافه كما أن إعادة إعمارها بعد الحريق يعد أمرا واردا أيضا.

تلك إذن هي أهم الحرف والصناعات المخزنية التي مكنت العسكرية منها،

---

(١) العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، مجلة فاس وإفريقيا، ص: ٩٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٢٦٧.

خصوصا عندما تكون أوضاع البلاد مستقرة، من ضمان هيبة الدولة العسكرية بالقيام بالحفلات والمعارك داخل المغرب و بالجهتين الشرقية والأندلسية، والدفاع عن حاضرة السلطان ورعيته بفاس، أما سك النقود فقد كانت أبرز نتائجه ازدهار الأنشطة الاقتصادية والمالية، ومؤسسة المخزن تبنت أعمال علمية وفنية كان الهدف منها إبراز عظمة الدولة، وقد تنوعت أصول وانتماءات الحرفيين المستخدمين من طرف الأنشطة المخزنية لتشمل عناصر أجنبية إلى جانب المحلية.

الفصل الثاني

الحرف والصناعات الوقفية

المبحث الأول: البناء والزخرفة

المبحث الثاني: التجهيزات والخدمات

المبحث الثالث: صناعة آلات الوقيت



أنجزت مؤسسة الأوقاف أو الأحباس حرفا وصناعات كانت المعالم التي أشرفت على تسييرها وماقدم فيها من خدمات في حاجة إليها .واعتمدت تلك المؤسسة في الإنفاق على الأعمال التي أنجزها الحرفيون والصناع على الأموال التي أوقفها السلاطين والناس لفائدة تلك المعالم (مساجد،مدارس،مارستانات ،زوايا...) وعلى ماكانت تدره الممتلكات الموقوفة من أموال عن طريق تفويت حقوق استغلالها للمشتغلين بالأنشطة الاقتصادية التي تحتضنها.

وقد اهتم عامة الناس بوقف ممتلكاتهم لفائدة المساجد ، كما أولى السلاطين العناية بها وبالمعالم الأخرى بتعيين الأموال المخصصة لدعم الأعمال والأنشطة الوقفية، وقد حرص سلاطين الدولة على التحكم في مؤسسة الأوقاف بتعيين المسؤولين عنها ، وعزل بعضهم –إن اقتضى الأمر ذلك–بالشكل الذي تكون معه هذه المؤسسة في خدمة الدولة.

وكانت كل معلمة وقفية تُسَير من طرف ناظر يسهر مع مساعديه على جمع الموارد المالية وإيداعها وصرفها في الوجوه المخصصة لها باستشارة السلطان. ووُضعت بعض مداخيل الضرائب رهن إشارة النظار قصد تدعيم إنجاز بعض المشاريع خاصة بناء وزخرفة المعالم العمرانية حين تكون أموال الأوقاف غير كافية.

وإضافة إلى أعمال البناء والزخرفة أشرفت مؤسسة الأوقاف على تجهيز المرافق الحُبسية وتقديم الخدمات للنزلاء بها من إطعام وتطبيب وتنظيف وحراسة وغيرها. مما نشط أنواعا من الحرف والصناعات المرتبطة بتلك الخدمات .كما احتضنت بعض المعالم الوقفية كالمساجد والمدارس أوراش صناعة آلات التوقيت بأمر من السلاطين وتحت مسؤولية النظار.

المبحث الأول

أشغال البناء والزخرفة

اهتمت مؤسسة الأوقاف ببناء وترميم وزخرفة المساجد التي كانت قائمة. فوجهت لجامع القرويين عناية بالغة، إذ عرف عدة إصلاحات وإضافات. كما أنشأت وأصلحت مجموعة من المساجد الأخرى بفاس الجديد والعتيق. واعتبرت المدارس العلمية إبداعا مرينيا حيث بُنيت بتمويل من الأوقاف مجموعة منها أدت إلى جانب الوظيفتين العلمية والاجتماعية وظيفة دينية بشكل متكامل ومتداخل. وقد شيدت من مال الأوقاف أيضا بعض الزوايا أهمها الزاوية المتوكلية بظاهر المدينة البيضاء. ومارستان سيدي فرج الذي أسس بمركز المدينة العتيقة.

وكانت المعالم المذكورة تشهد باستمرار أعمال بناء وإصلاح ما تضررمنها حتى تؤدي الوظائف التي أنشئت من أجلها.

المطلب الأول

البناء

شملت أشغال البناء توسيع وإصلاح وبناء المساجد الجامعة والراتبة[١] وبناء المدارس والمارستان والزاوية.

- المساجد:

ذكر ابن الخطيب حين وصفه مدينة فاس بأنها شهدت «عمران المساجد والجوامع، وإدامة ذكر الله في المآذن والصوامع»[٢]،وهو تعبير عما شهدته المدينة المذكورة طيلة عهودها ومنها الفترة المرينية التي شيدت خلالها عدة مساجد وأصلحت وجددت بعض من التي كانت قائمة.

. المساجد الجامعة:

تتمثل أهم الأعمال المنجزة في بناء الجامع الكبير بالمدينة البيضاء وإصلاح وتجهيز جامعي القرويين والأندلس.

(١) المساجد الجامعة هي التي تؤدى فيها صلاة الجمعة والصلوات الخمس، والمساجد الراتبة هي المخصصة لإقامة الصلوات الخمس فقط.

(٢)- ابن الخطيب،لسان الدين : معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كمال شبانة ، اللجنة المشتركة المغربية الإماراتية لنشر التراث الإسلامي ، صندوق إحياء التراث ، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م، ص: ١٧٢.

١- الجامـع الكبيـر:

بعد تأسيس بني مرين لفاس الجديد أسسوا بها الجامع الكبير سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٩م على يد محمد بن عبد الكريم الحدودي(١). وقد وصف ابن بطوطة هذا الجامع قائلا: «وهو الذي امتاز بالحسن وإتقان البناء وإشراق النور وبديع الترتيب»(٢). وذلك في خضم حديثه عن عناية أبي عنان بعمارة الجامع المذكور، وفي كلام ابن بطوطة إثبات لأهمية أعمال البناء والزخرفة التي تمت فيه، حيث استفاد من وجوده قريبا من القصر السلطاني، واحتضانه الأنشطة الدينية والعلمية، إذ كان يؤدي فيه سكان فاس الجديد صلاة الجمعة وتلقى داخله الدروس العلمية بحضور السلطان في كثير من الأحيان. كما عرف بهذا الجامع إحداث مجلس للقراء سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م في عهد أبي فارس عبد العزيز المريني(٣).

٢- جامـع القروييـن:

عرفت الفترة المرينية الوطاسية أعمال البناء والإصلاح لهذا الجامع نظرا لأهميته لدى الخاصة والعامة، وكثرة أوقافه، وتجنبا لأي ضرر قد يلحق ببنايته التي شهدت عدة إضافات منذ تأسيسه. فقد كان الجامع في حاجة إلى إصلاح وحداته ومرافقه التي أصبحت مهددة بالتدهور والسقوط مثل الصومعة والجدران ، كما أضيفت للجامع مرافق ووحدات جديدة كغرفة المؤقتين وزاوية القراء والخزانة وغيرها، وفُتحت في أطرافه أبواب جديدة، وصاحب أعمال البناء والإصلاح جلب قنوات

---

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ١٦٢.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٥٠.

(٣) المنوني: حضارة بني مرين من خلال منشآتهم، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٩.

جديدة إلى الجامع ساهمت في إغناء موارده المائية.

وأشرف على إنجاز الأعمال المذكورة -وهي الأهم في فترة البحث- ثلاثة نظار تعاقبوا على تحمل المسؤولية بموافقة من سلاطين الدولة المرينية منذ عهد يعقوب بن عبد الحق مرورا بأعقابه يوسف وأبي عنان ووصولا إلى أبي سالم. والنظار الذين سيروا الأشغال هم: قاضي الجماعة والإمام والخطيب بالجامع محمد بن أيوب أبي الصبر ثم والي المدينة الحدودي المشار إليه سابقا في إطار الحديث عن بناء الجامع الكبير، والقاضي أبو غالب المغيلي الذي عوض الحدودي بعد عزله من طرف السلطان.

فقد انطلقت أشغال البناء والإصلاح بالجامع منذ صدر الحكم المريني في عهد يعقوب بن عبد الحق. واستمرت في عهد أعقابه خاصة ابنه يوسف. ففي سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٤م استشار والي المدينة الحدودي السلطان يعقوب في نقض وإصلاح الجدار الشرقي بعد أن لاحظ أنه مشرف على السقوط فأجاز له ذلك وأمره بالإنفاق عليه من مال الجزية والأعشار إذا نفذت أموال الأحباس، فبنى الحائط وما والاه من السقف[(١)]. وفي عهد يوسف بن يعقوب أشرف القاضي الخطيب بالجامع أبي الصبر على تجديد صومعته سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٩٠م، بإذن من السلطان أيضا، الذي سمح له بالصرف من أموال أعشار الروم، لكنه رد عليه بأن أموال الأوقاف كانت كافية، فتمت عمليات تلبيس الصومعة بالجبص والجير، بعدما كانت مبنية بالحجر المنجور منذ تأسيسها سنة ٣٤٤هـ/ ٩٥٥م في فترة الحكم الزناتي. واستعان الحرفيون في تلبيسها بالمسامير الكبيرة التي دقت بين الأحجار كي تساعد على تثبيت ما لبست به، وبعد فراغ البنائين من التلبيس تم دلكه حتى صار مصقولا. فمكن ذلك من تجنب

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٦٨.

ضرر الطيور التي كانت تعشش بين الأحجار وتساهم في تدهور بناء الصومعة. وفي نفس التاريخ -أي ٦٨٨هـ- تم بناء غرفة على باب الصومعة خصصت لجلوس المؤذنين والمؤقتين[١]. وبذلك لم تعد عمليات بناء وزخرفة الصوامع بالحجر المنجور ذات فائدة، وهو ما يبرر زخرفة الصوامع المرينية بالزليج[٢].

وأشرف الناظر أبو الصبر كذلك على صنع عنزة[٣] جديدة لجامع القرويين من الخشب، تمت أعمال نقشها وزخرفتها وكتبت عليها عبارات دينية وسياسية، استغرقت مدة صنعها ستتين (بين ٦٨٧-٦٨٩هـ/ ١٢٨٨-١٢٩٠م) ، أنفق فيها الناظر من مال الأحباس، وتم تركيبها في قبلة الصحن فعوضت العنزة القديمة التي كانت قائمة هناك المصنوعة من خشب الأرز. ولذلك فهذا النوع من الخشب هو المرجح اعتماده في صناعة العترة الجديدة أيضا بحكم جودته، وأهميته في مثل هذه المصنوعات، إذ يُمْكنه مقاومة الرطوبة والحرارة. وكانت العنزة توضع في قبلة الصحن لتتحول إلى محراب للمصلين بأرضية الصحن في فصل الصيف[٤].

وقام الوالي الحدودي من جديد سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩١م بفتح باب مدرج بقبلة الجامع مقابلا لنظيره بجامع الأندلس، ثم جلب الماء إلى الجامع من عيون ابن اللصادي التي ذكر ابن أبي زرع أنها اصبحت تعرف بعيون الكوازين. حيث تم حفر

---

(١) نفسه: ص ص: ٥٦-٥٧.

(٢) يبدو شكل هذه الزخرفة في عدة صوامع من بنيها صومعتي مدرسة المدينة البيضاء ومدرسة البوعنانية.

(٣) لوحة خشبية مزخرفة توضع بين الصحن وقاعة الصلاة تعد محرابا للإمام في فصل الصيف.

(٤) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: ٦٥؛ التازي، عبد الهادي: جامع القرويين، المسجد الجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣،ج٢، ص: ٣٢٠.

قنوات مرت بأحياء المدينة عبر رحبة الزبيب. لكن هذين العملين تمّا دون مشورة السلطان الذي غضب من ذلك فعزل الحدودي من مهمته وعوضه بالمغيلي، ثم أغلق الباب الذي عرف بباب الحدودي[1]. ويوضح هذا العزل حرص السلاطين على مسؤوليتهم عن أية إصلاحات أو تعديلات يشهدها الجامع.

وبعد تآكل الحائط الجوفي(الشمالي) للجامع من جهة دار الوضوء وإيشاكه على السقوط، استأذن المغيلي السلطان يوسف بن يعقوب في بنائه وإصلاحه فأذن له بذلك، بتمويل خاص منه مقدما له خلخالين ورثهما من مال خاص لأبيه. فهدم السور وأُعيد بناؤه سنة ٦٩٩هـ/ ١٣٠٠م[2].

وفي عهد أبي عنان أُنشئت خزانة للكتب بالجامع سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م بأعلى المستودع الشرقي من الجامع بالناحية الشرقية من صحن الجامع، صُنعت من الخشب وضَمت رفوفا للكتب لها باب خشبية منقوشة. وبقيت كذلك إلى أن نقلت في عهد المنصور الذهبي السعدي إلى جدار القبلة بجانب المحراب[3].

ومن الملحقات التي أضيفت بأمر من السلطان أبي سالم المريني سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م، زاوية القراء التي أقيمت في الركن الشرقي من قبلة الجامع فوق ساباط[4]، رُتب بها قراء يختمون القرآن كل أسبوع. ولا زالت هذه الزاوية قائمة

---

(١) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: ٦٦؛ التازي: المرجع السابق، ج٢، ص: ٣١٨

(٢) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ص: ٦٨-٦٩.

(٣) الدباغ، محمد بن عبد العزيز: خزانة القرويين وأثرها في حفظ التراث الإسلامي، جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي، أشغال ندوة نظمها بيت آل الحبابي، منشورات جامعة القرويين، الرباط ١٩٩٦، ص: ١٠٧.

(٤) الساباط هو ممر مسقوف توجد فوقه زاوية القراء المذكورة بدرب الطويل بالسور الجوفي لجامع القرويين.

تحتوي على باب مدرج بدرب الطويل[١].

٣- جامع الأندلس:

شهد جامع الأندلس بدوره إصلاحات على إثر قدم بنائه وما لحقه من تخريب في زمن المجاعة والفتنة في الفترات المضطربة من حكم الموحدين. ففي سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م استشار الفقيه محمد بن مسونة السلطان يوسف بن يعقوب في إصلاحه فأذن له. وبذلك تم تجديد كثير منه وأصلحت مداخل أبوابه بتمويل من الأحباس. وجلب له الماء من وادي مصمودة بعد تخريب القناة التي كانت تمده بالمياه من خارج باب الحديد. كما سيتم بعد ذلك إصلاح القناة التي كانت مخربة أيضا في عهد أبي ثابت سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م بإنفاق من بيت المال وإشراف من العريف أحمد الجياني، مما جعل المياه تتدفق من جديد على جامع الأندلس من خارج باب الحديد[٢].

. المساجد الراتبة:

هي المساجد التي تؤدى فيها الصلوات الخمس والتي يرتب بها الأئمة للقيام بذلك. وقد بنى وأصلح بنو مرين الكثير منها سواء بالمدينة العتيقة أو الجديدة.

ففي عهد أبي يحيى الذي كان يسمى أيضا أبا بكر (٦٤٢-٦٥٦هـ) بنيت صومعة لمسجد بوجلود[٣] بالقصبة التي احتضنت أنشطة أجهزة الدولة قبل بناء فاس الجديد.

---

(١) المنوني، محمد: حضارة بني مرين من خلال منشآتهم، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٩.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس لمطرب، ص ص: ٧٦-٧٧.

(٣) Gambazard-Amahan, Catherine : Le Décor sur bois dans l'architecture de Fès, Centre National de la recherche scientifique de Paris 1989, P : 137.

وأصلح بنو مرين مسجدا من المساجد المشهورة بفاس يعرف بمسجد الشرفاء يعود تأسيسه إلى الفترة الإدريسية. وهو من البنايات الأولى التي شيدت عند تأسيس ادريس بن ادريس لمدينة فاس وعدوتها القرويين بقي على الطريقة التي بني عليها، كانت تقام فيه الخطبة قبل نقلها إلى جامع القرويين. ولم يزل على ذلك « إلى أن خر سقفه وتخلقت جدرانه وأشرف جميعه على السقوط والانكباب لتقادم العهد ومرور الأيام عليه فانتُدب لبنائه الفقيه شعيب بن محمد بن أبي مدين فشرع في نقضه وبنائه، ورد ما كان عليه من غير زيادة ولا نقصان» وذلك سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م[١].

ويتضح من ذلك مدى حرص المرينيين في عمليات إصلاح البنايات على المحافظة على النمط الذي بنيت به أول الأمر. استحضارا للذاكرة لدى السكان، وتقديرا لأعمال سابقيهم خاصة بالنسبة لمسجد مثل الشرفاء الذي له رمزية لدى سكان المدينة.

وبعد الهدم الذي لحق الأطراف الفاصلة بين عدوتي القرويين والأندلس بفعل فيضان وادي فاس سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٦م تهدمت كثير من المنشآت والبنايات منها مساجد تمت إعادة بناء اثنين منها هما مسجدا جزاء ابن برقوقة والسمارين بأمر من أبي سعيد عثمان[٢].

وفي عهد أبي الحسن علي بنيت عدة مساجد منها مسجد حلق النعام الذي يعرف أيضا بمسجد أبي الحسن إشارة إلى مؤسسه، بالطالعة الصغرى قريبا من المدرسة البوعنانية وذلك سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م. ويمركز المدينة تم بناء مسجد

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٧.

(٢) نفسه: ص: ٤١٤.

الصفارين في الحي الذي عرف أيضا بالشرابليين[١] إضافة إلى مسجد الوراقين في حي الوراقين على الواجهة الجنوبية لجامع القرويين[٢].

ومع منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بني مسجد باب عجيسة ورأس عين أصليتن[٣]. إذ يقع الأول قرب باب عجيسة أحد أبواب المدينة من الجهة الشمالية، أما الثاني فيوجد بحي عين أصليتن الفاصل بين حومتي باب عجيسة والطالعة الكبرى.

أما مدينة فاس الجديد فشهدت بناء مساجد لحداثة عهد تأسيسها منها مسجد الحمراء الذي ينفتح على الشارع الكبير الرابط بين باب عيون صنهاجة وباب القنطرة، ومسجد الزهر الذي شيد في عهد أبي عنان في آخر سنة من حكمه ٧٥٩هـ١٣٥٧م قريبا من سور القصر السلطاني الحالي مازال يعرف بهذا الاسم، ومسجد السوق الكبير الذي أشرف على بنائه حاجب السلطان أبي سعيد الثاني المسمى الطريفي بحي للا غريبة، وذلك سنة ٧٩٨هـ(٤)/ ١٣٩٦م.

---

(١)-احتضن حي الشرابليين الحالي الموجود على الطريق الغربي المؤدي إلى باب الشريعة حرفة الصفارين في الفترة المدروسة.

(٢)- لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ترجمة : نقولا زيادة، نشر مكتبة لبنان بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بنيويورك، بيروت ١٩٦٧ ، ص: ٤٦.

(٣)المنوني: مذكرات من التراث المغربي، م ٣ ،٣٨ .

(٤) توري، عبد العزيز: الأزهر، معلمة المغرب، م٢، ص: ٣٦٤؛ المنوني: المرجع السابق، م٣، ص: ٣٨.

جدول يبيّن مساجد مرينية بفاس:

اسم المسجد	تاريخ التأسيس	الموقع	المرجع[1]
بوجلود(٢)	فترة أبي بكر المريني (٦٤٢-٦٥٦هـ)	قصبة بوجلود القديمة	معلمة المغرب،م١٨، ص: ٦١٧٩
الجامع الكبير	٦٧٧هـ/ ١٢٧٧م	فاس الجديد(حي مولاي عبد الله حاليا)	الذخيرة السنية،ص: ١٦٢
ابن أبي برقوقة	٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م	جزاء ابن أبي برقوقة	الأنيس المطرب،ص: ٤١٤
السمارون	٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م	السمارون بمدخل الرصيف قرب سيدي العواد	الأنيس المطرب،ص: ٤١٤
حلق النعام	٧٤٢هـ/ ١٣٤١م	يقع في الزقاق الذي يربط بين الطالعتين الكبرى والصغرى قرب البوعنانية	جامع القرويين

(١) المراجع المقدمة مفصلة في الهوامش وفي اللائحة البيبليوغرافية

(٢)الأمر يتعلق ببناء الصومعة فقط التي أضيفت إلى الجامع الذي كان مشيدا قبل ذلك.

اسم المسجد	تاريخ التأسيس	الموقع	المرجع[1]
الصفارون	فترة أبي الحسن المريني	نُعت بمسجدالشرابليين يقع في الصفارين	لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤٦
الوراقون	فترةأبي الحسن المريني	يقع في حي الوراقين جنوب جامع القرويين	لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤٦
رأس عين أصلتين	منتصف القرن: ٨ هـ/ ١٤م	حي عين أصليتن قرب سقاية الدمناتي	مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٨
الحمراء	فترة أبي الحسن المريني	على الشارع الكبير بين باب السمارين وباب القنطرة	مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٨
الأزهر	٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م	فاس الجديد بجنوب السور السلطاني	معلمةالمغرب،٢، ص: ٣٦٤
للا غريبة	٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م	حي للا غريبة بفاس الجديد في قسمه الشرقي	مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٨

ولائحة المساجد المقدمة في الجدول لا تَحِصِر بالضرورة كل المساجد التي أسست في الفترة المرينية، إذ تم التركيز على التي بنيت بتمويل من الأوقاف وبدعم من المخزن.

وقد مكنت عمليات بناء وإصلاح وتجديد المساجد من المحافظة على البنية التي كانت قائمة من جهة، ومسايرة التطور المعماري والسكاني الذي كانت تشهده مدينة فاس من جهة ثانية.

- المـدارس:

هي بنايات تؤدى بها وظائف علمية، دينية واجتماعية. إذ كانت تقدم بها الدروس وتؤدى فيها الصلوات ويأوي داخلها الطلبة. ومولت أيضا الأوقاف التي تكونت بصفة خاصة مما خصصه السلاطين من أموال لعمليات بناء مدارس فاس التي تعد خطتها ابتكارا من بني مرين تعبر عن التفاعل مع المشرق الذي كان له سبق في تأسيس المدارس وإلقاء الدروس والوعظ بها[١] إلى عن النزول عند رغبة حكام دولة بني مرين في الإشراف على التعليم وتنظيمه والاهتمام به. وكان للأندلسيين وغيرهم فضل في إنجاز أعمال بناء المدارس فنقلوا إليها تقنياتهم ومهاراتهم. وباعتبار الفقهاء والعلماء طرفا رئيسيا في التعليم بالمدارس وغيرها، أبدى بعضهم معارضة لبناء المدارس، لم يثن السلاطين عن المضي في مشروعهم الجديد[٢].

وانطلقت أعمال بناء المدارس منذ صدر الدولة في فترة يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ)[٣].

---

(١) أسست بالمشرق الإسلامي مجموعة من المدارس أهمها مدرسة «نظام الملك» ببغداد، العودة إلى: Vilches, José, Miguel Puerta : Art nasride et mérinide, l'art de la médétérranée, renaissances en orient et en occident, 1250-1490, le rouergue, actes sud 2003, P : 162.

(٢)- من المعارضين لإنشاء المدارس إسحاق بن مطهر الورياغلي حسب: البادسي، عبدالحق: المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص: ٥.

(٣) بنيت أول مدرسة سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م من طرف يعقوب بن عبد الحق المريني حسب ما ورد عند ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ١٦٢.

فبنيت مدرسة الصفارين بشكل بسيط[1] بعد تحويلها من منزل كان قائما هناك . وقد تسارعت وتيرة البناء في فترة أبي سعيد عثمان وابنه أبي الحسن علي. وهي الفترة التي أسست فيها معظم المدارس. وبعد منتصف القرن ٨هـ/ ١٤م أسس أبو عنان أهم وآخر مدرسة مرينية عرفت بالمتوكلية أسوة بلقبه.

ولم تشهد فترة ضعف الدولة بعد وفاة أبي عنان بناء مدارس جديدة. وهو شيء يُبرَّر بالوضع العام المتدهور الذي قض كيان الدولة المرينية في الفترة المذكورة، استمر حتى في فترة ملوك بني وطاس، لم تتوقف معه أعمال التدريس والتعليم ما دامت المرافق العلمية من مدارس ومساجد قائمة. وهيئة التدريس من فقهاء وعلماء عاكفة على التوجيه والإرشاد والتكوين. وقد استمرت المدارس في أداء وظائفها لفترة زمنية ليست بالقصيرة شملت حتى فترات حكم السعديين والعلويين.

لا تختلف تقنيات البناء ومواده في المدارس عن أعمال البناء الأخرى. فقد تميزت تصاميم المدارس بخصوصيات روعيت فيها طبيعة الوظائف التي تؤديها المدارس، حيث تتوفر على صحون مكشوفة في معظم الحالات تتوسطها صهاريج أو نافورات، وتتكون كل مدرسة من طابقين أو ثلاثة يخصص الأرضي للتدريس والصلاة والثاني والثالث لإيواء الطلبة. وقد يأوي الطلبة أيضا في الطابق الأرضي كما هو الحال بالنسبة لمدرستي الصهريج والعطارين. كما تحتوي بعض المدارس على صوامع مثل الصفارين وفاس الجديد والمتوكلية (البوعنانية) ، كانت تؤدى بالأخيرة صلاة الجمعة. كما تحتضن المدارس ملحقات إضافية مثل الميضات داخلها ودور الوضوء خارجها والساعة المائية بالبوعنانية. وتتميز مداخل المدارس بالصغر أو البساطة تارة كما هو الشأن بالمدرسة المصباحية وبالكبر والفخامة تارة أخرى كما هو

---

(١)بساطة بنائها ملحوظة مقارنة مع المدارس الأخرى.

الشأن في مدارس الصهريج والعطارين والبوعنانية ، وذلك التباين رهين طبيعة المكان الذي فتحت به المداخل والظروف التي ميزت فترات التأسيس.

وهذا جدول يقدم المدارس المؤسسة بفاس ،وبعض المعلومات الإضافية عنها

جدول: المدارس المرينية

اسم المدرسة	تاريخ التأسيس	الموقع	المرجع
الحلفاويون	٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م	حي الصفارين في قبلة خزانة القرويين	جذوة الاقتباس، ١، ص: ٣٣٩
المدينة البيضاء	٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م	القصرالسلطاني الحالي بفاس الجديد	الأنيس المطرب، ص: ٤١٢
السبعيون	٧٢١هـ/ ١٣٢١م	بين جامع الأندلس ومدرسة الصهريج (عدوة الأندلس)	الأنيس المطرب، ص: ٤١٢.
الصهريج	٧٢١هـ/ ١٣٢١م	جنوب غرب جامع الأندلس ومدرسة السبعيين	الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: ٤١٢
العطارون	٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م	شرق سوق العطارين قريبا من جامع القرويين	الاستقصا ٣، ص: ١١٢

اسم المدرسة	تاريخ التأسيس	الموقع	المرجع
الوادي	٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م	حي: مصمودة على وادي مصمودة بعدوة الأندلس	مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٣٣
المصباحية	٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م	في جوف(شمال) جامع القرويين	المسند الصحيح، ص ص: ٤٠٥-٤٠٦
المتوكلية (البوعنانية)	٧٥١-٧٥٦هـ/ ١٣٥٠-١٣٥٥م	تقع في سوق القصر على زقاق الطالعة الكبرى	Inscriptions arabes de Fès, T10, PP 264-265

- المعالـم الأخـرى:

أهمها مارستان سيدي فرج المؤسس بقلب عدوة القرويين في صدر دولة بني مرين والزاوية المتوكلية التي شيدت في عهد أبي عنان بظاهر المدينة.

١- المارستـان:

ينعت أيضا بالبيمارستان وهو مستشفى لمعالجة لمرضى، أسسه يعقوب بن عبد الحق المريني بمركز المدينة بسوق الحناء قريبا من العطارين سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م. وعُرف بسيدي فرج اقتصرت وظيفته في البداية على مداواة المرضى ومعافاتهم. وقد تطورت وتحسنت وظائفه في فترتي أبي الحسن وأبي عنان، فأصبح ينزل به الغرباء عن المدينة لمدة ثلاثة أيام يطعمون وينامون فيه، علاوة على معالجة الأمراض العقلية

والجسدية التي تعتبر الوظيفة الأساسية للمارستان[1].

لقد بني المارستان في موقع متميز يمكنه من أداء وظائفه الاجتماعية بشكل أفضل، حيث ينفتح بابه الرئيسي على ساحة تنتهي إلى سوق العطارين الذي تُعْرض فيه الوصفات والأدوية المفيدة في معالجة مرضى المارستان، كما أن موقع المارستان يوجد قريبا من المرافق الحيوية بالمدينة مثل جامع القرويين وبعض المدارس مما ييسر تنقل الأطباء بين هذه المرافق والمارستان في إطار التكامل بين ما هو نظري يتمثل في إلقاء وتلقي الدروس، وما هو عملي يكمن في مباشرة معالجة المرضى.

٢- الزاوية المتوكلية:

تم بناؤها سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م في عهد السلطان أبي عنان، وقد مثلت تطورا في تنويع المرافق الدينية والاجتماعية. فكانت مخصصة لإيواء الغرباء والضيوف وإطعامهم، تؤدى فيها الصلوات. وقد ضمت هذه الزاوية عدة وحدات بعد بنائها تمثلت في غرف وقبات مخصصة لجلوس الواردين عليها لتناول طعامهم ولنومهم، ودور يقطن فيها المكلفون بالقيام بالأعمال في الزاوية والمسجد الملحق بها. وقد وصف ابن بطوطة عمارتها بالجيدة حين ذكر: «وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمص خارج المدينة البيضاء، فلا مثل لها أيضا في عجيب وضعها وبديع صنعها، وأبدع زاوية رأيتها بالمشرق زاوية سرياقص (سرياقوس) التي بناها الملك الناصر،

(١) المنوني: مؤسسات خيرية وإحسانات مادية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص ص: ٧٢-٧٣؛ ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤١٥؛ ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٩.

وهذه أبدع منها وأشد إحكاما وإتقانا»[١]، ويؤكد هذا النص أهمية الأعمال التي أنجزت في بناء الزاوية بظاهر المدينة البيضاء.

وورد وصف آخر للزاوية على لسان ابن جزي ناسخ رحلة ابن بطوطة فيه إشارة إلى باني الزاوية ووظائفها وتاريخ تأسيسها[٢]:

هي ملجأ للواردين ومـــورد ❁❁❁ لابن السبيل وكل ركب ساري

دار على الإحسان شيدت والتقـى ❁❁❁ فجزاؤها الحسنى وعقبى الـدار

هي آثار مولانا الخليفة فـــارس ❁❁❁ أكرم بها في المجد من آثـــار

لازال منصور اللواء مظفـــرا ❁❁❁ ماضي العزائم سامي المقـدار

بنيت على يد عبدهم وخديم بـــا ❁❁❁ بهم العلي محمد بن جـــدار

في عام أربعة وخمسين انقضـــت ❁❁❁ من بعد سبع مئين في الأعصار

ويعد افتتاح أبي عنان للزاوية المتوكلية دليلا على أهميتها. فقد رافقه نخبة من العلماء والفقهاء بعد صلاة الصبح من جامع القرويين إلى موقع الزاوية بظاهر المدينة البيضاء بعد انتهاء أشغال البناء بها، فاطلعوا على مرافقها المتعددة وعلى فن البناء فيها[٣]. فهي من المعالم المهمة التي أبدع فيها الحرفيون المختصون في البناء والزخرفة، وللأسف لا يمكن في الوقت الحالي الاطلاع على الفنون التي ميزت وحداتها بحكم

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٥٠.

(٢) التازي، عبد الهادي: اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية بظاهر مدينة فاس، مجلة آفاق للثقافة والتراث، ١٩٩٨، ص ص: ١٥٦-١٥٧.

(٣) نفسه

اندثار كلي تعرضت له الزاوية في فترة من الفترات العصيبة التي ميزت الأوضاع العامة للمغرب.

تلك أهم المعالم التي مولتها مؤسسة الأوقاف في البناء الذي سبقت الإشارة إلى أن تقنياته والمواد المستعملة فيه لا تختلف عن أعمال البناء العامة التي كانت تميز مدينة فاس كغيرها من المدن في الفترة التاريخية قيد الدرس.

المطلب الثاني

الزخرفة

إن الأهمية التي حظيت بها المعالم السابقة الذكر بحكم عناية الأمراء والسلاطين بها، والصبغة الدينية التي ميزت وظائفها جعلتها مجالا لإبداع الحرفيين في زخرفتها، فأفرغ هؤلاء طاقاتهم الفنية كي يروق الناظر إليها منظرها، وتكون مصدر افتخار للمدينة وأهلها.

وتختلف الزخارف حسب طبيعة المعلمة والظروف العامة التي رافقت تشييدها وخصوصيات موقعها وموضعها. إذ لوحظ الإنفاق في الزخرفة بالمدارس والزاوية مقارنة مع المعالم الأخرى التي لم تبخل فيها يد المحبَسين والمسيرين والمبدعين. مع بروز لفترات أبي الحسن أميرا وملكا وأبي عنان مقارنة مع الفترات السابقة، والعوائق التي طرحها المكان الذي أسست فيه بعض المعالم مثل مدرستي الصفارين والمصباحية وهو ما جعل بنية الأولى والواجهة الخارجية للثانية غير مساعدتين على الإبداع في الزخرفة.

وتعد التصاميم التي خطت بها المدارس عند بنائها وسيلة في الإبداع والزخرفة، حيث تختلف تصاميم المعالم الوقفية حسب وظيفة كل معلمة، فتقتصر في المسجد على الصحن الذي تمتد حوله قاعة الصلاة ودار الوضوء التي عادة ما توجد خارج سور المسجد في جهة مقابلة لإحدى واجهاته. في حين تتعدد وحدات التصاميم وتتسع في المدارس والزاوية عموديا إذ تضم كل مدرسة طابقين أو ثلاثة، وأفقيا إذ تحتوي المدارس على قاعات للصلاة والدروس وميضات وغرف الطلبة وسلاليم تؤدي إلى

الطوابق العلوية فضلا عن الصحون التي تتوسط بناياتها. وتتميز الزاوية بكبر مساحتها إذ شملت صحنا كبيرا به صهريج، يمتد شرقه جامع، تليه صومعة، وتقابله من جهة الغرب قبة، وتحتوي الزاوية على أبواب في أركانها الأربع أحدها يؤدي إلى دار الوضوء في الجهة الشمالية الغربية والأركان الثلاثة الأخرى تؤدي إلى دور يقطنها الإمام والمؤذن والناظر، واحتوت واجهتي الزاوية الجنوبية والشمالية على دارين إحداهما مخصصة لإيواء الضيوف والأخرى معدة للطبخ[١].

لقد أبدع المزخرفون على واجهات الصحن وأرضيته والصوامع وجدار القبلة بقاعات الصلاة والمداخل الرئيسية ، الذين أظهروا مهاراتهم الفنية على مواد مختلفة من رخام وزليج وجبص وخشب... يبرز أحد النصوص عند ابن مرزوق أهمية الزخرفة بالمدارس ذكر فيه : «وكلها (المدارس) قد اشتمل على المباني العجيبة والصنائع الغريبة والمصانع العديدة والاحتفال في النقش والجبص والفرش على اختلاف أنواع الزليج البديع والرخام المجزع والخشب المحكم النقش»[٢]. وطبيعي ألا تقتصر هذه الزخارف على المدارس بل شملت مختلف المعالم الوقفية حيث وصف ابن بطوطة الزخرفة بالزاوية المتوكلية «لا نظير لها في المعمور في إتقان الوضع، وحسن البناء، والنقش في الجص، حيث لا يقدر أهل المشرق على مثله»[٣]، ونفس الأمر ينطبق على المعالم الأخرى ولو بشكل أقل.

---

(١) النميري: فيض العباب، ص ص: ٢٠٦-٢٠٩.

(٢) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤٠٦.

(٣) التازي، عبد الهادي: اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية بظاهر مدينة فاس، مجلة آفاق للثقافة والتراث، ١٩٩٨، ص:١٥٦.

- الزخرفة بالرخـام:

استعملت أحجار الرخام في فرش الأرض، وتكونت منها الأعمدة و غطت لوحاتها بعض الأماكن من الجدران وشكلت مادة أساسية وهامة في الخصات والصهاريج التي تتوسط الصحون. ومن خصوصيات الرخام لونه الأبيض -مع وجود الرخام الأسود أيضا لكن بشكل جد محدود- والصلابة والصقيل بفضل حسن ملمسه وعدم تأثير الرطوبة فيه وعدم تدهوره[1].

لذلك شهدت المعالم العمرانية التي يسيرها نظار الأوقاف استعمال مادة الرخام في زخرفتها.

فعند القيام بالإصلاحات في جامع القرويين في أيام ولاية أبي الصبر ، تم فرش أرضية أحد أبوابه الذي يقابل دار الوضوء بقطع الرخام الأزرق والأحمر تصب عليها مياه تتدفق ببيلة الرصاص[2] كانت موجودة بالباب يغسل عليها الحفاة أرجلهم فعوضت قطع الرخام قطع الزليج التي كانت أرضية الباب مفروشة بها. وهذه القطع الرخامية من جنس ما فرش به الصحن، وفرشت بالرخام كذلك عدة بلاطات تتواجد بالفضاء المسقوف[3] من الجامع المذكور.

ولكثرة استعمال الرخام في المدرسة المصباحية أضحت تنعت بمدرسة الرخام[4]. فبأحجاره زينت أرضيتها وعتبات أبوابها والممر الفاصل بينها وبين أحد

(١) عدي، عزّى: الرخام، معلمة المغرب، م١٣، ص: ٤٣٢٠.

(٢) البيلة هي الخصة التي يتدفق فيها الماء.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ص: ٧٠-٧١.

(٤) ابن القاضي: جذوة لاقتباس، ج١، ص ص: ٤٥-٤٦.

أبواب جامع القرويين. كما وضعت بها بيلة رخامية ينبع فيها الماء جلبت لها من ألمرية الأندلسية، نقلتها عجلة من إحدى المراسي الشمالية للبلاد في اتجاه مدينة فاس، فوضعت في البداية بمدرسة الصهريج قبل أن تنقل في عجلة أخرى إلى المدرسة المصباحية وتثبت بها(١).

وشهدت المدارس التي سبقت المصباحية في التأسيس، كما هو الشأن بالنسبة لمدرستي الصهريج والعطارين استعمالا محدودا لمادة الرخام حيث زينت في الأولى الأعمدة الأسطوانية وعناصر معمارية أخرى. كما صنع بالمدرستين المذكورتين صهريجان زينا صحنيهما(٢).

وفرشت أرضية المدرسة العنانية أيضا بالرخام ووضعت في صحنها بيلة تمثل حوضا رخاميا تتجمع داخله المياه التي تنبع فيها. إلا أن هذه البيلة لم تحتل مركز الصحن، بل وضعت قريبة من المدخل الرئيسي لا يفصلها عن لرواق إلا مساحة قصيرة. ونصبت قطعتان رخاميتان عريضتان على القناة المائية التي تمر في المدرسة وتفصل الصحن عن قاعة الصلاة(٣).

وقد زينت البيلات الرخامية معالم أخرى مثل الجامع الكبير ومسجد الأزهر وبعض المدارس صنعت لها في شكل دائري، في حين وضع بالزاوية المتوكلية صهريج رخامي ذو شكل مستطيل(٤).

---

(١) نقلت البيلة من ألمرية إلى مرسى العرائش ثم إلى فاس، حسب ابن القاضي: المصدر السابق، الصفحتان كلاهما.

(٢) ابن مرزوق: المصدر السابق،، ص: ٤٤٨؛ الطاهري، أحمد صالح: العمارة في العهد المريني، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٨٠.

(٣) توري: البوعنانية: معلمة المغرب، م٢، ص: ١٨١٠.

(٤) نفسه: الأزهر، معلمة المغرب، م٢، ص: ٣٦٤؛ النميري: فيض العباب، ص ص: ٢٠٧-

كما وضعت بجدران بعض المدارس لوحات رخامية نقشت عليها كتابات تحمل معلومات تاريخية عن تأسيسها وتجرد الأملاك الموقوفة لفائدتها(١).

تلك هي أهم استعمالات الرخام علما انه احتل أماكن أخرى أقل أهمية، فكان يغطي أحيانا أسفل الجدران بالاشتراك مع الزليج، ويزين جانبي المحراب، ويستعمل في الأروقة وبيوت الوضوء وغرف التدريس وغيرها.

- الزخرفة بالزليـج:

الزليج قطع من تراب مطبوخ بالأفران ينعت بالمزهري(٢). وهو إما غير مصبوغ ولونه يميل إلى الحمرة أو مصبوغ بألوان متعددة أهمها الأزرق الكحلي(٣). ويستعمل النوع الأول -أي المزهري- في فرش الأرضيات التي تكون غير بارزة للعيان مثل قاعات الصلاة، في حين تفرش بالثاني المعروف بالتراب المطلي الأرضيات البارزة وأسافل الجدران والأعمدة والمحاريب وغيرها.

وقد استغل الفراشون(٤) والزلايجيون الألوان والأشكال الهندسية للقطع في إنجاز زخارف بالزليج. كما تم رسم كتابات على القطع التي توجد في الشريط الذي يحد لوحات الزليج من أعلاها إذ يفصلها عن أشرطة الجبص، وقد كان اللون

Vilches : art nasride et mérinide, P : 164.؛٢٠٨

(١) Aouni, Lhaj moussa: L'épigraphie et la ville, le cas de Fès à l'époque mérinide, II congreso internacional, La ciada en al-andalous y el Maghreb (Algeciras, 26-28 novembre 1999), granada, Espana, P : 84.

(٢) توري: الأزهر، معلمة المغرب، م٢، ص: ٣٦٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٦.

(٤) هم الحرفيون المختصون في فرش الزليج على الأرض والجدران.

الأسود هو المعتمد في وضع تلك الكتابات فوق قاعدة غير ملونة[1]،بالطريقة التي توضح ماهو مكتوب.

ومن أهم نماذج الزخارف التي أبدع فيها الزلايجيون:

. الأرضيات:

من بين الأعمال التي تمت عند بناء مسجد الأزهر بفاس الجديد فرش أرضية قاعة الصلاة بقطع المزهري المثمنة أي ثمانية الأطراف والأركان، في حين كست أرضية الصحن قطع الزليج الملونة تتوسطها نافورة ماء[2].

كما فرشت بالزليج أرضية الزاوية المتوكلية ومدارس العطارين والمدينة البيضاء والصهريج وغيرها فضلا عن المساجد.

. الأسوار والأعمدة:

كانت معظم أسافل حيطان المعالم الوقفية مزينة بالزليج الملون. ونفس الأمر ينطبق على الأعمدة سواء المواجهة للصحون أو الموجودة داخل القاعات والغرف المسقوفة[3]. فقد ذكر الوزان أن أعمدة أروقة العنانية كسيت بالزليج والذهب الرفيع واللازورد مما يعبر عن أهمية الزخرفة فيها[4].

---

(١) Vilches : Art nasride et mérinide, P : 163.

(٢) توري: المرجع السابق، م٢، نفس الصفحة.

(٣) Vilches : Art nasride et mérinide, P : 163.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٧٩.

. الصوامـع:

وزينت قطع الزليج واجهات الصوامع. إذ قدم النميري وصفا لزخرفة صومعة الزاوية المتوكلية التي اندثرت بعد مدة من تأسيسها «وهي من الصوامع صنائع وأعظمها بأشغال الزليج الملون بدائع، تفوق بمحاسنها الرائقة الرائعة الديباج»(١). كما زين الزليج صومعة المدرسة البوعنانية إذ كسى واجهاتها الأربع بأشكال هندسية تمثلت في المعينات المتشابكة التي تفصل الأقواس الموجودة فيها(٢).

. المحاريـب:

كسى الزليج بعض محاريب قاعات الصلاة مثل مدرسة الصهريج التي زين محرابها زليج جميل(٣).

لقد كانت الألوان الحية التي تصبغ بها قطع الزليج، وخفة وزنه مقارنة مع الرخام، وتوفره بفاس من الميزات التي أسهمت في شيوع استعماله في الزخرفة.

- الزخرفـة بالجبـص:

استعملت مادة الجبص أو الجص في زخرفة البنايات. وتمثلت أهمية هذه المادة في لونها الأبيض ومقاومتها للرطوبة والحرارة وسهولة تشكيلها ونقشها(٤).

وتركزت زخارف الجبص في واجهات الصحن وقاعات الصلاة، وخاصة

---

(١) النميري: الفيض، ص: ٢٠٩.

(٢) الطاهري، أحمد صالح: العمارة في العهد المريني، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٨١.

(٣) Vilches : Art nasride te mérinide, P : 163.

(٤) وزيري، يحيى: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، ع٣٠٤، ص ص: ١٠٩-١١٠.

جدار القبلة والأجزاء العليا من الأعمدة وحواشي الأبواب والنوافذ والأقواس إضافة إلى القباب والسقوف وغيرها.

ومن بين التقنيات التي اعتمدها الجباصون في زخرفة المعالم العمرانية الممتلكة من طرف الأوقاف، رقش تشكيلات نباتية وهندسية، وكتابات على مادة الجبص، إضافة إلى وضع المقرنصات التي تشبه بيوت النحل[1]، كانت توضع في أماكن محددة تلبس على عين الناظر إليها وتكسر الرتابة في البناء.

لكن واجهات الصحن تبقى متميزة في نقش الجبص ، حيث شكلت مجالا لإبداع الجباصين الذين استغلوا امتداد حيطانها وانفتاحها فوضعوا زخارف جصية في الأماكن التي تمتد بين الزليج الموجود في الأسفل والخشب الذي يوجد في الأعلى مما يلي الحلقة[2]. وكانت أحيانا لوحات الجبص تغطي ثلاثة أرباع واجهات الصحن، كما هو الأمر في مدرستي العطارين والبوعنانية. في حين خفت كثافة هذه الزخارف بالمعالم الأخرى، إذ لم تتجاوز في بعضها الأشرطة الأفقية التي تعلو الزليج وإطارات الأبواب والنوافذ. وهذا الأمر –قلة الزخرفة– تجسد بصفة خاصة في المساجد لعامل ديني.

كما أفرغ الجباصون طاقاتهم الفنية في جدار القبلة داخل قاعات الصلاة، باعتباره وجهة للمصلين، فتم تشكيل الجبص في المحراب والأماكن المحيطة به، فضلا عن الأشرطة التي تمتد كحزام يعلو زخارف الزليج أو الرخام، أو التبليط بأسوار القاعة وأعمدتها. وعادة ما كانت قاعات الجوامع والمساجد توفر لها قباب وأقواس تغنيها الزخارف الجبصية فتضفي عليها طابعا جماليا.

---

(١) نفسه: ص: ١٤٧.

(٢) الحلقة هي المكان المفتوح بسطح البناية غالبا ما يتخذ شكلا مربعا يطل على أرضية الصحن.

وشملت زخارف الجبص وحدات أخرى بالمعالم الوقفية مثل المداخل الرئيسية لبعض المعالم كالمدرسة البوعنانية وقاعات التدريس والأروقة وغرف الطلبة وبيوت الوضوء داخل المدارس ودور الوضوء خارجها وخارج المساجد. حيث اتسمت الزخارف في الأماكن المشار إليها بكونها خفيفة وبسيطة فرضتها نوعية هذه الأماكن ومواقعها وضيق مجالها أحيانا.

- الزخرفة بالخشب:

اعتمد المهتمون بزخرفة المعالم الحبسية أيضا على مادة الخشب التي كان لها دور في البناء والزخرفة معا، ومن مميزاتها سهولة وضع الزخارف عليها ولونها الغامق الذي تزيده الدهون جمالا، وتناسب وزنها وحجمها مع البناء، إضافة إلى طول المدة التي تعمرها في البنايات إذا ظلت محفوظة من مظاهر تآكلها وتدهورها كاندلاع حريق وكثرة الرطوبة. وعموما يعد خشب الأرز النوع المتناسب مع الأنواع الأخرى للبناء وقد حمل زخارف من نقوش وأصباغ[1].

واحتلت مادة الخشب أماكن محددة في البنايات أضفت عليها طابعا جماليا، فشغلت أجزاء من حيطان الصحون فوق الأعمدة وفي الحلقات والمداخل والنوافذ والأطراف الفاصلة بين الأروقة والصحون وبين هذه الأخيرة وقاعة الصلاة إضافة إلى السقوف وغيرها.

كما صنعت عوارض خشبية تفصل بين الأعمدة والأسوار من جهة، وبين الأقواس من جهة ثانية، مما أضفى رونقا على واجهات الصحون المزينة بتلك الزخارف في الأجزاء العليا منها. حيث توجد أفاريز خشبية تدور على الحلقة من

(١) Ahmed, Khaneboubi : Les premiers sultans mérinides histoire politique collection : et sociale, histoire et perspectives méditerranéens, éditions l'Harmattan, Paris, 1987 P 193.

أعلى السور بشكل دقيق ومنتظم، تزيد من جماليتها النقوش الموضوعة عليها والدُّهون التي تزيد من بريقها. وعادة ما تكون مادة الخشب المستعملة أسفل حلقات الصحون تغطي البناء فقط عكس العوارض لخصوصية المكان. إذ أن الحلقة معرضة أكثر للتدهور والتآكل بسبب عوامل الحرارة والرطوبة مما يستدعي استعمال الخشب في التزيين فقط لا في البناء.

زينت واجهات الصحون أيضا المشربيات أو الشبابيك الفاصلة بين الصحون والأروقة، والتي لها وظيفة الجدران، لكنها في الشكل مخرومة عبارة عن ستائر، تمكن بالإضافة إلى دورها التزييني من تهوية وتشميس داخل الغرف الموجودة خلف الأروقة، مع المحافظة على حرمتها إذ لا يتمكن المتواجد من داخل الصحن من تمييز ما يوجد داخل الغرف. ووضعت المشربيات في أماكن أخرى مثل تلك التي تحتل ما بين الأبواب الرئيسة والصحون في مدارس البوعنانية والعطارين والصهريج، إضافة إلى النوافذ. وقد صنعت المشربيات أساسا من الخشب المخروط الذي توصل أطرافه فيتحول إلى شبابيك تؤطرها الأسوار وعوارض الخشب المنحوتة والمصقولة والمدهونة.

وكانت السقوف كذلك مجالا لإبداع الصناع الذين لبسوا العوارض والألواح الخشبية بالأصباغ والأدهان ذات الألوان الغامقة والفاتحة، رسمت عليها أحيانا تشكيلات نباتية وهندسية. وصنعت في سقوف المعالم الوقفية قباب أو قُبب مقعرة من الداخل في السقف ومقببة من الخارج خلف السقف، أنجزها الحرفيون بتقنيات الحفر أي النقش والتشكيل والتركيب، مما أعطاها جمالا في عيون الناظر إليها. وبعض القباب كانت كبيرة الحجم مثل تلك الموجودة في المدخل الرئيسي للعنانية بين الباب ونهاية السلاليم المؤدية إلى داخل المدرسة. في حين تميزت قباب أخرى

بصغرها بناها الصناع في العديد من المعالم العمرانية الجبسية مثل الزاوية المتوكلية(١).

وقد احتوت المعالم الوقفية على زخارف وضعت على الخشب بعد صنعها من طرف النجارين، سوف يتم تناول الحديث بشأنها لاحقا اعتبارا لبعدها عن تخصص البناء مثل المنابر والكراسي وغيرها.

- الزخرفة بالحجر:

رغم ندرة الزخرفة بهذه المادة التي اعتمدت أحيانا في البناء، فإن أهمية إحدى المعالم الوقفية التي بنيت وزخرفت بها، تستدعي الحديث عنها فقد بني في آخر سنة من حكم أبي عنان المريني في ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م جامع الزهر الموجود في فاس لجديد، له مدخل زينته الحجارة ذات لون يميل إلى الصفرة المنتظمة، منقوشة ومنحوتة بزخارف نباتية وهندسية خفيفة(٢).

ولازال المسجد قائما بجوار سور القصر السلطاني الحالي الموجود خارجه من الجهة الجنوبية الشرقية، متميزا بانخفاض مستوى أرضيته عن أرضية الشارع الذي يمر على بابه بحوالي ٧٠ ستمترا، إذ ينحدر الداخل إليه في أدراج توجد على جانبي الباب الرئيسي.

تلك هي أهم الزخارف التي وضعت على عناصر البنايات، تحمل مضامين نباتية وهندسية وكتابية، تم إنجازها وفق تناسب كل نوع من الزخارف مع وظائف

---

(١)- بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة، ص: ٣٤؛ الجزنائي، أبو الحسن علي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ، ص: ٥٠؛ النميري: فيض العباب، ص:٢٠٨.

(٢) توري: الأزهر، معلمة المغرب، م٢، ص ص: ٣٦٣-٣٦٤؛ Aouni : L'épigraphie et la ville, P : 84.

المعلمة وأهمية موقع المكان داخل تلك المعلمة، ومدى تناسب الزخارف مع المادة المزخرف عليها.

ويمكن استخلاص كثرة الكتابات الدينية التي تكمن أساسا في آيات وسور القرآن الكريم بقاعات الصلاة وخصوصا واجهة القبلة دمجت معها زخارف نباتية وهندسية خفيفة. وحملت لوحات تأسيس المدارس كتابات تاريخية أنجز بعضها على الجبص والبعض الآخر على الرخام، واحتلت مكانا متميزا بقاعة الصلاة أو إحدى قاعات التدريس. وشملت الكتابات التاريخية أيضا الزخارف الموضوعة بالصحون والمداخل الرئيسية ، تشير إلى السلطان المؤسس أو تاريخ التأسيس... إلا أن الكتابات الأدبية هي التي كثرت خارج قاعات الصلاة وخاصة في الصحون والمداخل الرئيسية باستثناء المسجد. وتمثلت أساسا في أبيات منظومة وفي شعارات الدولة[1].

وتنوعت وتعددت المضامين الهندسية والنباتية بالمعالم الوقفية كانت مادتها الزليج، لعبت فيها الألوان الحية وأشكال القطع دورا متميزا في الزخرفة. في حين كثرت الزخرفة النباتية التي تجسدت في التوريق على الجبص بشكل أساسي وعلى الخشب والزليج بشكل أقل. مع احترام قاعدة الدمج والمقابلة بين أنواع الزخارف الثلاث الهندسية والنباتية والكتابية.

---

(١) توري: البوعنانية، معلمة المغرب، م٢، ص: ١٨١٠؛ الطاهري: العمارة في العهد المريني، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٨٢؛ Vilches : Art nasride et mérinide , PP : 162-164؛ Aouni : L'épigraphie et la ville, P : 85.

المبحث الثاني

التجهيزات والخدمات

بعد تمام أعمال البناء والزخرفة بمعلمة معينة، يشرف الناظر باعتباره مسؤولا عن التسيير بمدها بحاجياتها من ماء وإنارة وفرش وأغطية وأطعمة وغيرها. وذلك حسب الدور الذي تقوم به كل معلمة وحجمها وعدد الواردين عليها. ومادامت تلبية هذه الحاجيات تستدعي موارد مالية دائمة وقارة، فإن تعيين أوقاف كافية من أراضي وبساتين ودكاكين ومرافق اقتصادية تكترى كان الحل الأنسب لذلك.

وقد اعتمد النظار في تجهيز المعالم التي يديرونها وخدمة المتوافدين عليها على تشغيل حرفيين وصناع لديهم أحيانا، واقتناء الحاجيات من أسواق المدينة أحيانا أخرى. لهذا سيتم التركيز في هذا المبحث على التجهيزات والخدمات التي قدمت فيها هيأة الحرفيين والصناع أعمالها بإشراف وتمويل من الأوقاف.

المطلب الأول

التجهيزات

تجهزت المعالم الوقفية بما تحتاج إليه من مياه وإنارة كما صنعت لها المنابر والكراسي والخزانات وغيرها.

- جلب الماء:

الماء مادة حيوية في تدبير شؤون البنايات الوقفية، فبه تتم الطهارة والنظافة. ويعتمد عليه في الشرب والطبخ وغيره. وقد زودت الأنهار والعيون المعالم الحبسية بحاجياتها المائية عن طريق مد قنوات تمر منها أو تصل إليها انطلاقا من مصادرها حاملة لكتل مائية. وقد اعتمدت بعض المعالم على مياه الأنهار بحكم موقعها كالزاوية المتوكلية التي كانت تقع على وادي حمص[1] (وادي فاس) والمدرسة المتوكلية (البوعنانية) التي يمر بوسط صحنها فرع من فروع الوادي المذكور. في حين مدت المعالم الموجودة داخل النسيج الحضري لفاس العتيق بمياه العيون جلبت لها عبر قنوات مطمورة تكونها القواديس المتسلسلة إلى أن تصل إلى المعلمة. ففي فترة ولاية الحدودي شؤون جامع القرويين في عهد يوسف بن يعقوب مدت قناة جلبت الماء إلى جامع القرويين من عيون ابن اللصادي[2] التي تواجدت خارج باب الحديد، فمرت القناة برحبة الزبيب التي بنيت بها سقاية تجري بماء القناة، ثم مرت حتى وصلت إلى موقع باب الحدودي الذي بني في إطار الإصلاحات التي شهدها الجامع

(١) النميري: فيض العباب، ص: ٢٠٦.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٦٦.

الجامع في الجهة القبلية سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩١م. لكن إغلاق الباب لاحقا بأمر سلطاني[1]، أدى إلى تحويل الماء المجلوب إلى موقع آخر بالجامع أو غلق القناة نهائيا. وقد تكون السقاية التي أحدثت في الركن الشمالي الشرقي في فترات لاحقة للعصرين المريني والوطاسي مزودة بماء هذه القناة. وتم مد جامع الأندلس بدوره بماء مصدره موجود بعيون خارج باب الجديد قبل العصر المريني. وعلى إثر ما عرفته فاس من أزمات في أيام المجاعة والفتنة (٦١٧-٦٣٧هـ) خربت القناة المائية لجامع الأندلس ثم أصلحت فاستعادت حيويتها سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م في عهد أبي الربيع، رغم أن جامع الأندلس كان قد تزود بماء وادي مصمودة المار بعدوة الأندلس في أيام ولاية ابن مسونة لشؤون الجامع[2].

وبعد بناء مدرسة الصهريج في عدوة الأندلس أيضا قريبا من جامعها سنة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م صنعت قناة مائية مطمورة تمتد من خارج باب الحديد إلى المدرسة[3]. ولعل هذه القناة قد زودت أيضا ملحقات المدرسة بالماء،وهي السقاية ودار الوضوء وفندق الطلبة ومدرسة السبعيين. ولم تسعف الكتابات في التعرف على مصادر وأشكال تزويد المعالم الأخرى بالمياه لكن مياه وادي فاس كانت أساسية في تزويد معالم فاس الجديد والأحياء العليا لعدوة القرويين. في حين كانت مياه العيون معتمدة في جلب الماء إلى معالم عدوة الأندلس والأحياء السفلى بعدوة القرويين. وفي كلتا الحالتين كان القنويون[4] يوظفون مهارتهم الحرفية في الاتجاهات والمسافات التي

---

(١) التازي: جامع القرويين، ج٢، ص: ٣١٨.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ص: ٧٦-٧٧.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: ٤١٢.

(٤) هم الحرفيون المختصون في مد القنوات المائية وإصلاحها. هذا ما ورد مثلا عند ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤٤٨.

تسلكها القنوات، ومستويات الحفر وأشكاله، وحجم القواديس، معتمدين على تقنيات السطح الطبوغرافية وضغط المياه الجارية لضمان التزود المستمر والكافي بالمياه.

- الإنـــارة:

تمثلها الأشكال والوسائل المعتمدة في إضاءة وإسراج البنايات الحبسية. وأهمها صناعة الثريات التي توظف ليلا والشمسيات نهارا.

.الثريـــات:

دخلت في صناعتها مادة النحاس التي صنع منها هيكلها، ومادة الزجاج التي تتشكل منها أكوابها، ومادة الحديد التي تصنع منها السلاسل والأعلاق التي تربطها مع السقف، فتعلق في أماكن قريبة من المحراب على البلاطات الرئيسية، وتسرج بالزيت بوضعه في الأكواب وإيقاد النار فيه.

وقد عرفت المرحلة المرينية الوطاسية صناعة ثريات قليلة مقارنة مع الفترات السابقة. كما طرحت قضية إسراج الثريات نقاشا بين الفقهاء لما تتطلبه من كميات كبرى من الزيت، إذ كانت الثريا الكبرى بجامع القرويين تتطلب في إيقادها قنطارا وسبعة قلل من الزيت في ليلة واحدة، وما يسببه ذلك من كثرة الإنفاق وإسراف وتبذير لمال الوقف[1].

ومع ذلك صنعت ثريات أكبرها التي وضعت في الجامع الكبير بفاس الجديد على يد المعلم الحجازي الذي قام ببنائها بالجامع سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٩م، بعد فراغه

---

(١) ابن الخطيب الإحاطة، ٤، ص: ٢٨.

من صنعها فبلغ وزنها تسعة قناطير وخمسة عشر رطلا[1]. وقد تطلبت تقنيات صنعها دراية بالهندسة الصناعية، إذ يبدأ صانعها بإنشاء قاعدة دائرية كبيرة تتصل بها قطع مسبوكة دائرية يزداد صغرها مع الارتفاع من قاعدة الثريا إلى أعلاها، وتحتوي كل دائرة على أماكن دائرية فارغة توضع فيها الأكواب، كما تزخرف الثريا في الأجزاء الظاهرة منها سواء بالخرم أو بتلحيمها ببعض الأشكال الجميلة والبسيطة.

واعتمدت عمليات الإضاءة على أدوات أخرى مثل الحسكات التي توضع عليها الشموع[2]، والفوانيس التي يحملها الحراس في أيديهم والفنارات التي كانت تسرج في أعلى الصوامع[3]، ولعل نظار الأوقاف كانوا يحصلون عليها جاهزة من أسواق المدينة.

.الشمسيــات:

تستضيء المعالم العمرانية عامة في أوقات النهار بالشمس. حيث تعم أشعتها المناطق المنفتحة على الفضاء الخارجي مثل الصحون والأبواب والنوافذ والأروقة. في حين تمكن الشمسيات المصنوعة من الزجاج العراقي ذو الألوان المتعددة من إضاءة المناطق المحيطة بالمحراب داخل قاعات الصلاة، إذ كانت توضع في الفتحات التي تعلو المحراب تحيط بها لوحات الجبص المزخرفة[4]. وتتميز الشمسيات بجمالية منظرها وقيمة الزجاج الذي صنعت منه وتفاعلها مع أشعة الشمس من خلال دور

---

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ١٦٢، ١٨٨.

(٢) الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس بشرح عمليات فاس، تقديم وإعداد : هاشم العلوي القاسمي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.، ص: ٤١٣.

(٣) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص: ٥٤.

(٤) يشير النميري إلى جمالية الشمسيات بمسجد داخل الزاوية المتوكلية، فيض العباب، ص: ٢٠٦.

الألوان في ذلك. وقد عرفت المعالم العمرانية انتشار الشمسيات بها منذ فترات مبكرة من تاريخ مدينة فاس المؤسسة في نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. وقد تمثلت الإضافة المرينية في انتشار الشمسيات بالمعالم العمرانية عموما ومنها الحبسية من مساجد ومدارس وزاوية وغيرها.

- المنابـر والكراسـي:

هي منصات يجلس عليها الخطباء لإلقاء خطب الجمعة والعلماء لتقديم دروسهم ومواعظهم بالمساجد والمراكز العلمية.

.المنابــر:

اشتقت كلمة المنبر من نبر وانتبر، بمعنى ارتفع. لذلك فالمنبر منصة مرتفعة تتسع لوقوف وجلوس الخطيب أيام الجمعة[1]. وقد تم الشروع في صنع المنابر منذ عهد الرسولﷺ. واختلف الفقهاء والعلماء المهتمون بالسيرة النبوية حول اسم صانع منبره[2]. واعتبارا لكون المنابر تصنع للجوامع التي تقام بها الخطب، صُنع منبر للجامع الكبير على يد المعلم الغرناطي الرصاع المعروف بالأبانوسي الذي استغرق في إنشائه سنة واحدة بين رمضان ٦٧٧هـ ورمضان ٦٧٨هـ[3]. وعند تأسيس المدرسة البوعنانية صُنع لجامعها منبر يتكون من تسع درجات أُعد من خشب الأبنوس الجيد وتم ترصيعه بالعاج الذي كان يجلب من بلاد السودان[4]. وهو

---

(١) وزيري، يحيى: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، ع٣٠٤، ص: ١٤٣.

(٢) الخزاعي، التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٤.

(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ١٦٢.

(٤) لمليح، السعيد: المدارس المرينية ودورها الفكري في المغرب، نموذج مدارس مدينة فاس، دبلوم الدراسات العليا، إشراف: هاشم العلوي القاسمي وعادل نجم عبو، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

يحتوي على زخارف استخدمت تقنيات النحت والنقش والدهن، كتبت بواسطتها على الخشب الآيات القرآنية التي تحيط بها زخارف نباتية في الواجهات البادية للعيان.

.الكراســي:

هي منصات لجلوس الفقهاء والعلماء بقصد تقديم دروس العلم والوعظ. تتميز عن المنابر بضعف ارتفاعها على مستوى الأرض، وبساطة الصناعة فيها، وتعددها داخل كل مركز علمي بتعدد التخصصات التي تلقى فيها الدروس للطلبة. وقد تعددت الكراسي التي صنعت لإلقاء الدروس بعد تأسيس المدارس واستمرار أداء المساجد لهذه الوظيفة العلمية. فإضافة إلى فجامع القرويين الذي يعتبر مركزا علميا متميزا أُسندت إلى جدرانه وأعمدته ثلاثة عشر كرسيا بما فيها كرسيا الآذان ورواية الحديث يوم الجمعة[١]. وشهدت الفترة المرينية الوطاسية أيضا صنع كراسي بالمعالم الأخرى كالجامع الكبير وجامع للاًّ غريبة بفاس الجديد[٢] ومساجد المدينة العتيقة. وقد تكون الفترة المذكورة عرفت أيضا إحداث كراسي جديدة بالمساجد التي كانت مراكز علمية منذ عهود مبكرة خاصة جامعي القرويين والأندلس.

وبالنظر إلى تقنيات صناعة الكراسي فهي بسيطة تتم بتحويل النجارين الألواح

بفاس، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨-١٩٨٩م، ص: ١٤٥؛ العلوي، عبد العزيز: العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، عدد٥، ١٩٨٩، ص: ٦٤.

(١) المليح: المرجع السابق، ص: ٧٤.

(٢) وجود خزانة الكتب بهذا الجامع دليل على صناعة الكراسي له، الناصري: الاستقصا، ج٤، ص: ٩٠.

الخشبية إلى كراسي تختلف أشكالها وأحجامها[1]، قد يحتوي بعضها على جنبات وأريكة تريح جلوس المدرس.

- الخزانـات والمرافـع:

شكلت بدورها تجهيزات صنعت من مادة الخشب وقد احتوت الخزانات على الكتب الموقوفة لفائدة المؤسسات العلمية الحبسية، في حين كانت المرافع توضع عليها أحذية المصلين.

.الخزانـات:

تحتوي المراكز العلمية بفاس على عدة خزانات ضمت مصاحف وكتب معدة للقراءة والمطالعة وصل عددها ٣٣ خزانة[2]. ومن أهمها التي أقيمت بأمر من السلطان أبي عنان سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م بالجهة الشرقية من القرويين، في أعلى المستودع. ولهذه الخزانة باب جميل حمل زخرفة كتبت عليه عبارات توضح دور الكتب الموضوعة داخلها «جعلها (أبو عنان) وقفا مؤبدا لجميع المسلمين... على طلب العلم وإظهاره وارتقائه واشتهاره وتسهيلا لمن أراد القراءة والنسخ منها (الكتب) والمطالعة والمقابلة» وبقيت الخزانة قائمة للأغراض التي وقفت من أجلها في مكانها بالجامع إلى أن تم نقلها في العهد السعدي إلى جهة القبلة[3].

---

(١) أشار الوزان إلى وجود أشكال وأحجام مختلفة للكراسي المسندة إلى جدران جامع القرويين، وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٧٧.

(٢) التازي، عبد الهادي: جامع القرويين، ٣، ص: ٤٥٤.

(٣) الدباغ، محمد بن عبد العزيز: خزانة القرويين وأثرها في حفظ التراث الإسلامي: أشغال ندوة «جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي» نظمها بيت آل الحبابي بالرباط، منشورات جامعة القرويين، ١٩٩٦، ص: ١٠٧.

وأسس السلطان أبو سالم خزانة بغربي جامع الأندلس، كما وضعت للكتب خزانة بجامع للاغريبة بفاس الجديد بإشراف من مؤسس الجامع أبي عبد الله الطريفي[١].

احتوت المدارس بدورها على خزانات تودع بها المصاحف والكتب المختلفة، إذ حبس السلطان أبو يوسف يعقوب أحمالا منها جلبها من الأندلس وضعت بمدرسة الصفارين، التي تدعى أيضا على اسمه باليعقوبية، والأمر نفسه بالنسبة للسلطان أبي الحسن الذي حبس مصاحف وكتبا على المدارس التي نشطت عمارتها في عهده[٢].

وصنع الحرفيون الخزانات المذكورة آنفا بوضع الإطارات والرفوف والأبواب من الألواح الخشبية تضم داخلها الكتب وتغلق بالأقفال التي يحتفظ القيمون[٣] بمفاتيحها. وقد زينت واجهات الخزانات زخارف متنوعة.

. المرافـع:

هي ألواح خشبية توضع على ارتفاع من أسوار المسجد داخل قاعة الصلاة تخصص لوضع أحذية المصلين فوقها، وصناعتها بسيطة. ومع ذلك فقد كلفت النجارين بذل مجهود في القياس وقطع الألواح ونحتها ودهنها ثم تركيبها على الجدران.

---

(١) لمليح: المدارس المرينية، ص: ٢٢٦؛ الناصري: الاستقصا، ج٤، ص: ٩٠.

(٢) لمليح: المرجع السابق، ص: ٢٢٤؛ أسكان، الحسين: الإنفاق على التعليم بمدينة فاس بين القرن السادس والثامن الهجري، أشغال ندوة «المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ابن امسيك، البيضاء، ص: ٢٤٩.

(٣) القيّمون جمع لقيم وهو المكلف بإعارة كتب الخزانة للطلبة.

وورد في المعيار عند الونشريسي أن الفقيه عيسي بن علال المصمودي «سئل عن المرافع التي تعمل في المساجد ليعمل الناس عليها أخفافهم ونعالهم هل يعمل ذلك من مال الحبس أم لا؟ وكان السائل... أبو زيد الجادري (ت٨١٨/ ١٤١٥م) فأجاب بأن ذلك منفعة للحبس لا بأس به»[١].

والسائل من مؤقتي مدينة فاس والمجيب من فقهائها. كلاهما عاش في الفترة المرينية. ونص الجواب يحمل إثباتا على صناعة المرافع من طرف مؤسسة الأوقاف.

وقد تجهزت المعالم الوقفية أيضا بأشياء مصنوعة أخرى، منها ما هو معد من مادة الصفر مثل التفافيح التي توضع في أعلى الصوامع، وصفائح الصفر التي تغشى بها الأبواب، ومنها ما تم تهييئه من مواد معدنية أخرى كصفائح القصدير التي غشيت بها سقوف الزاوية المتوكلية[٢].

(١) الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس، ص: ٤١٣.

(٢) النميري: فيض العباب، ص ص: ٢٠٦-٢٠٩.

المطلب الثاني

الخدمات

احتضنت المعالم الحبسية نزلاء قدمت لهم خدمات متعددة من طرف العاملين فيها، حيث تمت أعمال طبخ الأطعمة ومداواة المرضى وما تطلبه ذلك من السهر على النظافة والحراسة وغير ذلك للمعالم المذكورة. وكانت هذه الأعمال تتم تحت مسؤولية النظار الذين يتكلفون بتوفير ما تتطلبه الخدمات من حاجيات ولوازم، ويراقبون ويشرفون على العاملين.

- طبخ الطعـام:

كان ضيوف الزاوية المتوكلية ونزلاء المارستان وطلبة المدارس في حاجة إلى إطعامهم، وتميزت الزاوية عن المعالم الأخرى في هذه الوظيفة، إذ كانت الإماء الموقفات على تلك المعلمة تقمن بتهييء الأطعمة[1].

فقد كانت الدار المعدة للطبخ من بين ما احتوته بناية الزاوية[2] وكان المتوافدون على الزاوية يتناولون الأطعمة التي تهيأ وتقدم لهم في قاعة خاصة بذلك، حيث تمثل دور الزاوية الأساسي في «الإرفاق بالواردين وإطعام المحتاج من القاصدين»[3].

وعين الناظر بمارستان سيدي فرج طباخين أشرفوا فيه على إعداد الطعام للمرضى والغرباء الذين ينزلون هناك، فقد كان بإمكان كل غريب عن المدينة

---

(١) نفسه، ص: ٥٠٤.

(٢) نفسه، ص ص: ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤١٣.

النزول في المارستان مدة ثلاثة أيام يقدم له الطعام ويتم إيواؤه[1]. ولعل إحدى غرف المارستان كانت تتم فيها أشغال الطبخ ،في حين تقدم الوجبات الغذائية للمرضى والغرباء بالغرف التي يأوون داخلها.

ويحكم أهمية الأطعمة المطبوخة بالزاوية والمارستان، وحاجة بعض الفئات التي تنزل خارجها إلى الإطعام كطلبة المدارس والمرضى بمستشفى الجذمى، والفقراء والمساكين، فمن الراجح تزويد هؤلاء بكميات من تلك الأطعمة أو ببعض الأنواع منها على الأقل كالخبز الذي كان يُتصدق به يوميا[2].

لقد كان النظار بالمعلمتين المذكورتين يقومون بالإشراف على أعمال الطبخ، إذ يقتنون ما تحتاجه تلك الأعمال من مواد تدخل في إعداد الوجبات وأواني تهيأ وتقدم فيها الأطعمة.

- التطبيب والصيدلة:

هما خدمتان متداخلتان، إذ كان الأطباء يفحصون المرضى والصيادلة يعدون لهم الوصفات. لكن المصادر كانت لا تميز بين التخصصين وتنعت العاملين فيها بالأطباء، إذ عيّن عدد منهم في البيمارستان داخل المدينة والمستشفى في ظاهرها. فقد قيل بأن هذا الأخير كان لا ينقص في تجهيزاته عما احتوى عليه المارستان. وهذا ما وضحه الناصري حين حديثه عن يعقوب بن عبد الحق المريني الذي عمل بعد استقامة الأمر له بأن «بنى المارستان للمرضى والمجانين ورتب لهم الأطباء لتفقد

(١) المنوني: مؤسسات خيرية وإحسانات مادية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٧٣.

(٢) الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ٦٥؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٤١؛ لوتورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١١٠، ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٨.

أحوالهم وكذا فعل بالجذمى والعمى والفقراء»[١]. وقد جدد أبو الحسن المريني رسم المارستان «بتعيين الأطباء والمسيرين لشؤونه من نظار وحراس وطباخين وممرضين وغيرهم»[٢]. ونفس الأمر بالنسبة لابنه أبي عنان إذ قام «بتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الأطباء لمعالجتهم والتصرف في طبهم»[٣].

لذلك يتضح أن التطبيب كان من أهم الخدمات التي احتضنها المارستان والمستشفى في فترة يعقوب. لكن في فترة أعقابه أبي الحسن وأبي عنان اقتصرت خدمة التطبيب على المارستان. ولعل هذا الأمر يُفسر بأن مرض الجذام الذي كان يعالج منه نزلاء المستشفى لم يعد مطروحا في عهد السلطانين الأخيرين. وقد نص رسم المارستان على تعيين أطباء وممرضين يساعدونهم في تطبيب النزلاء من المرضى.

لقد عالج الأطباء بالمارستان أمراضا جسدية وعقلية وشملت في بعض الفترات الأمراض النفسية أيضا، حيث كان يتردد على النزلاء موسيقيون بانتظام مرة أو مرتين في الأسبوع يقدمون لهم نغمات تساهم في تخفيف الضغط عليهم وفي معالجتهم، بل إن المارستان تداوت فيه حتى اللقالق التي تعرضت لكسر أو أصيبت بأذى[٤].

واختص مستشفى الجذمى في معالجة الأمراض المعدية التي تنتقل عدواها من شخص إلى آخر، في مقدمتها مرض الجذام الجلدي. فكان المصابون به يعزلون في حي خاص بهم قصد معالجتهم ومحاصرة المرض الذي أصيبوا به. وهذا ما حدث

---

(١) الناصري: المرجع السابق، ٣، نفس الصفحة.

(٢) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤١٥

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٩.

(٤) المنوني: المرجع السابق، م٣، نفس الصفحة.

للجذمى الذين كانوا يستقرون بحي خارج المدينة من جهتها الشرقية ثم نقلوا بعد ذلك إلى غربها[١]. ومعالجتهم تمت اقتداء بما حدث في فترة الخلافة الراشدة. إذ تم عز الجذمى في عهد عمر بن الخطاب (ض)[٢].

ومن غير المستبعد أن الناظر على المارستان الذي كان أحيانا يقوم أيضا بمهمة التطبيب[٣] هو من يتولى تسيير شؤون المارستان والمستشفى. لذلك حرص على توفير الوسائل والتجهيزات للأطباء وما يحتاجونه من أدوية وأعشاب ومراهم يعدون بها الوصفات. وكان موقع المارستان مساعدا في تلبية حاجياته الطبية فهو منفتح على حي العطارين الذي كانت به دكاكين خاصة بالأطباء والصيادلة، والقريب من حي العشابين الذي تقتنى منه مواد الوصفات.

- التنظيف:

كان الهدف من هذه الخدمة المحافظة على نظافة فضاءات المعالم الوقفية ومنافعها، وتمت أساسا بالكنس، إذ يدعى المكلف بالتنظيف الكناس نسبة إلى المكانس أو الشطاطيب . وقد يجمع الكناس بين مهمة التنظيف وأعمال أخرى مثل الحراسة وإيقاد المصابيح وغيرها[٤]. ويتخصص في هذه المهمة ببعض المعالم الحبسية منظفون وهو ما حصل بالمارستان الذي عين به عدد منهم إلى جانب طباخين

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص ص: ٣٤-٣٥.

(٢)- بنعبد الله، عبد العزيز: العلوم الكونية والتجريبية في المغرب (كيف تطورت خلال ألف عام)، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعةالأولى، ٢٠٠٠.، ص: ٧٣.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢، ص ص: ٥١٥-٥١٦؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١، ص: ٣٠٣.

(٤) الونشريسي،أحمد بن يحيى الونشريسي، أبو العباس: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ،ج٧، ص ص: ١٧-١٨.

وأطباء، وبالزاوية المتوكلية التي كانت فيها الإماء المتزوجات بالعبيد عينوا برسم تنظيفها والقيام بأعمال الإطعام والخدمات الأخرى[١]. كما كانت الجوامع وبعض المدارس محتاجة إلى متخصصين في التنظيف لكبرها وكثرة النازلين بها والمتوافدين عليها.

لقد تطلبت أعمال التنظيف عدة أدوات ومواد أهمها المكانس التي كانت توضع بالمستودعات[٢] وتكون تحت تصرف المكلف بالتنظيف، إضافة إلى المياه التي تنظف بها الصحون ودور الوضوء والميضات وغيرها. فضلا عن مادة الصابون لتنظيف اللباس ووسائل الفرش والأغطية بالزاوية والمارستان[٣]. ولعل فئة الطلبة كانت مساهمة في تنظيف المدارس التي تأوي بها.

- الحراسة:

يدعى المكلف بها الحارس أو البواب، ويقوم بفتح الأبواب وغلقها وحفظ الحصر والأشياء الثمينة التي تتواجد داخل المعلمة من أموال وثريات وغيرها. إذ احتوت الجوامع على مستودعات لحفظ الأموال التي توضع تحت تصرف الناظر مثل جامع القرويين الذي أجاز الفقهاء تعيين من يحرسه[٤]. لذلك كان شخص يطوف فيه قبل غلق أبوابه ليراقب خلوه من أي أحد قد يسرق ما به من أشياء ثمينة

(١) رابطة الدين، محمد: البيمارستان، معلمة المغرب، م٦، ص: ١٩٦٥؛ النميري: فيض العباب، ص: ٢١٣.

(٢) النميري: المصدر السابق، ص: ١٦٨، لمليح: المدارس المرينية، ص: ١٦٨؛ نفسه، ص: ٢٢٥.

(٣) الإشارة واضحة إلى تنظيف الخدم لملابس المرضى بالمارستان عند رابطة الدين محمد، المرجع السابق، م٦، ص:١٩٦٥.

(٤) وردت نازلة تجيز تعيين من يحرس جامع القرويين لما يحتويه من ثريات الصفر، عند الونشريسي: المصدر السابق، ج٧، ص:١٧١.

ثم يغلق أبوابه ويحتفظ بمفاتيحها. واستدعت بعض المعالم نوم الحراس ليلا داخلها تجنبا لأي سطو أو أذى قد تتعرض له. وكانت معالم أخرى لا تستدعي نوم الحارس داخلها بحكم تواجد نزلاء بها مثل الطلبة في المدارس أو لعدم توفرها على أشياء ثمينة قد تكون هدفا للسرقة. وساهمت الدور التي يقطنها الحراس أو غيرهم من مؤذين وأئمة ونظار في سلامة المعالم الحبسية من السرقة وهذا الأمر تميزت به الزاوية المتوكلية[1].

- وقد المصابيح:

يعرف صاحبها بالوقاد[2] الذي قد يجمع بينها وبين خدمة أو خدمات ذكرت آنفا. وبرزت هذه الخدمة في المساجد الجامعة بصفة خاصة لكبرها وما احتاجته من وقد الثريات والحسكات التي توضع فيها الشموع[3] والفوانيس وغيرها. والإشارة واضحة إلى قيام شخص بإيقادها ليلا بجامع القرويين كان يتسلم الزيت من الناظر ويضعه في أكواب الثريات وفي أدوات الإنارة الأخرى ليوقد النار فيها فيستضيء الجامع لتؤدى به الأنشطة الدينية والعلمية. ثم يقوم بعد انتهاء صلاة العشاء بإطفائها ليعاود إيقادها فجرا. إلا أن الثريات الكبرى كانت عادة ما توقد في مناسبات خاصة فقط تجنبا للإسراف في استعمال الزيت[4]. وعلى غرار القرويين كانت الجوامع الأخرى مثل الأندلس والجامع الكبير بفاس الجديد تتطلب هي الأخرى قيام شخص بإيقاد مصابيحها.

(١) النميري: المصدر السابق، ص ص: ٢٠٦-٢٠٩.

(٢) الونشريسي: المصدر السابق، ج٧، ص ص: ٨٥-٨٦.

(٣) الوزاني: تحفة أكياس الناس، ص: ٤١٣.

(٤) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ص: ٨٥-٨٦، ١٧١؛ ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤، ص: ٢٨.

وكان الوقاد شديد الحرص على تجنب أي حريق قد يحدث بفعل خطأ أو نسيان منه لإحدى المصابيح موقدة ليلا خصوصا الشموع الموضوعة في الحسكات وغيرها. فقد تمتد النار منها إلى الحصر وما شابهها لتأتي على المحتويات الأخرى.

قامت مؤسسة الأوقاف بتعمير أنواع من المعالم مستفيدة من الحرفيين الذين أنجزوا الأعمال السابقة بشكل مباشر بعد تعيينهم من طرف نظار الأوقاف وبشكل غير مباشر باقتناء النظار لبعض ما يحتاجونه جاهزا من الأسواق التجارية والحرفية. وقد تنوعت أعمال الحرفيين وكثرت أنشطتهم بتنوع وتعدد وظائف كل معلمة وقفية. فظلت مستمرة في الزمان والمكان مادامت الموارد المالية تتدفق عليها من مصادرها، ومادام المسؤولون حريصون على استمرار أداء وظائفها. حيث كان أي خلل قد يضعف أنشطة المعلمة أو يوقفها. وبالتالي يؤثر على الحرف التي لا استمرار لأنشطة المعلمة بدونها.

المبحث الثالث

صناعة آلات التوقيت

احتضنت بعض المعالم التابعة للأوقاف تصنيع أنواع من الآلات مثل الاسطرلابات والساعات الشمسية والرملية والمزاول ، التي مكنت من تحديد أوقات الصلاة والتعليم. وتبعا للتطور الذي عرفته صناعة هذه الآلات بالمعالم الوقفية بفاس في العصر المريني، توصل المؤقتون والمعدلون إلى صنع نوع مركب منها هو الساعات المائية التي تعمل بعضها بتكامل مع الأسطرلابات وقد تميز الأجانب في هذه الصناعة فحرص سلاطين الدولة على استمالتهم وجلبهم إلى فاس. وكانت معلمتا جامع القرويين والمدرسة البوعنانية مركزين هامين لتعديل وتركيب الساعات المائية هذه هي أهمها:

المطلب الأول

ساعة ابن الحباك (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

توصل المعدل أبو عبد الله بن الحباك إلى صنع أول ساعة مائية سنة ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م. ولهذا المعدل خبرة في التوقيت إذ هو الذي أخذ طالع مدينة فاس الجديد عند تأسيسها سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م[1]. وتم وصف ساعته المائية التي صنعها وركبها بجامع القرويين بالبساطة في الصنع وطريقة العمل. إذ قال عنها ابن القاضي بأنها «بدنا من الفخار... وجعل (ابن الحباك) على وجه الماء طستا من نحاس من خطوط وثقب يخرج منه الماء بقدر معلوم إلى أن يصل إلى الخطوط، فيعلم بذلك أوقات الليل والنهار في أيام الغيم»[2].

لذلك تمثلت بساطة صنع ساعة ابن الحباك في المواد التي تهيأت منها والأدوات التي تكونها. فقد كان الماء محركا أساسيا لها من إناء الفخار إلى إناء النحاس. وأما تقنيات عمل الساعة فبسيطة أيضا، حيث كان الماء يتسرب في إناء النحاس الموضوع فوق بدن الفخار المملوء بالماء، بقدر معلوم من الثقب الموجود في قعر الإناء الذي يرتفع منسوب الماء فيه مما يساعد المؤقت في تحديد الأوقات قياسا على الخطوط المعلمة داخل الإناء النحاسي. وبعد انتهاء امتلائه، يرد الماء إلى بدن الفخار فيكون قسما معلوما من اليوم قد انتهى ليتم عد أوقات القسم الموالي.

لقد وُضعت ساعة ابن الحباك بعد صنعها بالقبة العليا لجامع القرويين، تمكن

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٢٣٠.

(٢) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١، ص: ٥٤.

بفضلها المؤقت من تجاوز المبيت في تلك القبة[1] التي كان منها يحدد أوقات الليل باتباعه لحركات النجوم والكواكب من هناك، فضلا عن أوقات النهار التي كانت مواضع الشمس وما تخلفه أشعتها من ظل مساعدة في التوقيت. وبذلك أصبحت الأوقات تحدد وتعلن بتقنيات أدق خففت على المكلفين بالتوقيت مهامهم.

لكن بُعد المكان الذي وضعت فيه الساعة عن الصحن الذي يجلب منه الماء أدى إلى إهمالها بعد مدة من تشغيلها[2].

وقد تطلبت صناعة هذه الساعة المعرفة بأوقات الليل والنهار، التي اكتسبها المؤقتون أمثال ابن الحباك بدراسة علم التوقيت وممارسته، وبشكل وحجم الإناءين، ووزن إناء النحاس، وضغطه على سطح الماء الذي يؤدي إلى تسرب مضبوط للماء داخله ومقدار ارتفاع الماء فيه بتناسب مع مرور الوقت.

(١) التازي، عبد الهادي: الساعات المائية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص ص: ٥٥-٥٦.

(٢) نفسه؛ الحريري: تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، ص: ٢٨٥.

المطلب الثاني

ساعة الصنهاجي-ابن العربي (٧١٧هـ/١٣١٨م-٧٤٧هـ/١٣٤٨م)

صنع هذه الساعة أبو عبد الله محمد الصنهاجي سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٨م في عهد أبي سعيد عثمان (٧١٠هـ-٧٣١هـ)، وطورها أبو عبد الله بن محمد بن العربي سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٨م في عهد أبي الحسن في الوقت الذي كان فيه أبو عنان مشرفا على الأعمال بفاس نيابة عن أبيه الذي تواجد آنذاك بالجبهة الشرقية.

لقد تشكلت ساعة الصنهاجي من بدنين مصنوعين من الفخار يربطهما أنبوب نحاس مموه، ومن إناء نحاسي ومسطرة معلمة بأرقام الساعات والدقائق، ويضم هذه الأدوات هيكل مصنوع من خشب الأرز. وتم تركيب هذه الساعة بعد صنعها في ركن من أركان الغريفة المخصصة لجلوس المؤقتين الواقعة على مصعد صومعة القرويين[1] وقد رسمت على الجدران الذي يعلو الساعة أبراج وأرقام الساعات والدقائق[2].

وكان عمل ساعة الصنهاجي يحصل أيضا بجريان الماء من البدن الفخاري الأعلى إلى البدن الأسفل عبر الأنبوب بقدر معلوم، فيتسبب ذلك في صعود الإناء النحاسي الموضوع في البدن الأسفل مع ارتفاع منسوب المياه فيه. وكانت المدة التي يستغرقها الجريان والملء اثنا عشر ساعة هي مدة ساعات نصف يوم نهارا أو ليلا. وتستمر الساعة في عملها بإعادة ملء البدن الأعلى وابتداء تحديد الأوقات من جديد

---

(١) المبحث السابق، ص: ٦٢، وعرفت الغريفة أيضا بالقبة لعلها احتضنت أيضا ساعة ابن الحباك.

(٢) التازي: المرجع السابق، ص ص: ٥٧-٥٨؛ بنعبد الله: العلوم الكونية والتجريبية في المغرب، ص: ١٣٣.

وهكذا يستمر العمل[1].

ونتيجة ذلك ، مكنت ساعة الصنهاجي من ضبط أوقات النهار والليل أحسن من طريقة عمل ساعة ابن الحباك. إذ أن كمية الماء التي توضع في البدن الأعلى تتسرب منه إلى البدن الأسفل وتعادل مدة الانسكاب مدة الليل أو النهار. ويتم تحديد الأوقات خلال مدة جريان الماء بين البدنين بصعود المسطرة وتناسب ذلك مع الأبراج والعلامات الموجودة على الجدران.

لكن بعد مرور عقود من الزمن، أهمل المؤقتون العمل بهذه الساعة فتعطلت، مما جعل السلطان أبي الحسن المريني يعين مؤقتا جديدا هو أبو عبد الله محمد بن العربي الذي شغَّل ساعة الصنهاجي بشكل أفضل مما كانت عليه، ثم استمر في تطوير تقنياتها إلى أن تمكن سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م بعد تولي أبي عنان الحكم في فاس من صناعة اسطرلاب يشتغل بتكامل مع هذه الساعة يحتوي على رسوم تدور كلما أكملت المسطرة طلعتها من الإناء[2]. ولذلك فدورانه إعلانا عن التحول بين ساعات الليل والنهار.

إن الجديد الذي أضافه ابن العربي للتوقيت بفاس تمكنه من إعادة تشغيل ساعة لصنهاجي، وإدخال الاسطرلاب في تحديد الأوقات إلى جانب الساعة المائية.

---

(١) التازي: المرجع السابق، ص: ٥٩.

(٢) نفسه.

المطلب الثالث

ساعة التلمساني (٧٥٨هـ/١٣٥٧م)

عرفت فترة أبي عنان فارس (٧٤٩-٧٥٩هـ) بناء المدرسة المتوكلية التي تحولت هي الأخرى إلى مركز للتوقيت اعتبارا لأنشطتها العلمية والدينية. فقد كانت تلقى فيها الدروس وخطب الجمعة، إضافة إلى وجودها في القسم الغربي من عدوة القرويين على مرمى من مدينة فاس الجديد التي استفادت من الأوقات المعلنة من أعلى صومعة المدرسة البوعنانية.

والتوصل إلى صناعة هذه الساعة تم بأمر من أبي عنان للمؤقت أبي الحسن علي بن أحمد التلمساني المعروف بابن الفحام ،كي يقوم بإنشاء ساعة مائية بالمدرسة المذكورة[1]، فصنعها وتميزت بكبر الحجم والتركيب في تقنيات العمل، واحتلت واجهة من أعلى الجدران الموجود عن يسار الخارج من المدرسة إلى دار الوضوء وعن يمين الطالع بزقاق سوق القصر في اتجاه باب الشريعة.

كانت طاقة الماء أيضا محركة لساعة التلمساني. لكن تحرك الماء هذه المرة تم بطريقة آلية أو ميكانيكية دون تدخل من العنصر البشري، الذي أصبح دوره يقتصر على المراقبة وتتبع عمل الساعة ثم إعلان الأوقات. وتطلبت هذه الطريقة الآلية في العمل دخول الماء في قناة بأسفل الدار التي وضعت بها الساعة، والجريان عبر قناة في اتجاه الطابق العلوي الموجود فيه هيكل الساعة الخشبي. حيث يمتد هذا الهيكل أفقيا خلف الجدران الذي فتحت به طيقان ووضعت أسفلها طسوس نحاسية.

---

(١) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدلوماسي، ج٧، ص: ١٧.

تتكون الواجهة الخارجية للساعة البوعنانية من اثني عشر طاقا تنتظم أسفلها ثلاثة عشر طستا ،وهذه الطستات عبارة عن صحون متوجهة إلى الأعلى، تستوي على خشب الأرز المنقوش. كما تمتد عوارض خشبية منقوشة أيضا فوق الطاقات مغروزة من طرف واحد في الجدران، حيث تنطلق منه إلى أن تصل فوق مستوى الصحون في الفراغ الذي يفصل جداري الزنقة.

أما عناصر الساعة الداخلية فتتكون أساسا من أنبوب مصنوع من رصاص ومغشى بمادة الخشب يتحرك فيه الماء ويتقدمه هلال يدل على حلول الأوقات.

وبما أن هذه الساعة تعطلت بعد مدة طويلة من عملها، اجتهد الباحثون في التعرف على تقنيات عملها ، اعتماداً على الآثار التي لازالت لحسن الحظ، قائمة بالمكان الذي وضعت فيه الساعة عند صنعها. ولذلك يمكن إجمال ما توصلوا إليه في أن الماء يدخل من إحدى قنوات الشبكة المائية للمدينة التي تمر بالمدرسة، ليلج القناة التي صنعت للساعة من مادة الرصاص المغشاة بالخشب، ويصعد بقوة الضغط من أسفل دار «المكانة» إلى أعلاها عبر الأنبوب بسرعة مضبوطة ومحددة، ثم يمر عبر الأنبوب أيضا خلف الجدران، وعند وصول مقدمة الماء إلى طاق ينفتح هذا الأخير فتسقط صنجة (في حجم حصى صغير) من الطاق على الطست إيذانا بحلول ساعة معينة ولماء مستمر في الجريان فكلما وصل إلى طاق موال إلا وحلت ساعة موالية، إلى أن تنفتح كل الطاقات الإثني عشر فيكون نصف يوم قد مر ليتم الشروع آليا في تحديد ساعات نصف اليوم الثاني[١].

---

(١) Vilches, José Miguel Puerta : Art nasride et mérinide, art de la méditerranée, renaissances en orient et en occident 1250-1490, P : 63؛ توري، عبد العزيز: البوعنانية بفاس، معلمة المغرب، م٦، ص:١٨١١.

و كان المقري قد أضاف عن تقنيات عمل الساعة أن طائرين كانا يقومان بفتح الطاق وإسقاط الصنجة على رأس كل ساعة، في حين يقوم طائر ثالث بنقرات على قدر رقم الساعة التي حلت بصوت يسمع. كما ذكر الجزنائي أن قطرات الماء كانت تسقط من الطاق على الطست على رأس كل ساعة[1].

ورغم ذلك لازالت طريقة عمل الساعة ومحاولات إعادة تشغيلها تواجه عدة معوقات تقنية من بينها كيفية الانتقال بين ساعات النهار وساعات الليل بطريقة آلية. إذ يحتمل أن يتدفق الماء في الأنبوب بشكل متسلسل وعند وصول الهلال إلى آخر طاق وإعلان آخر ساعة في نصف اليوم الأول، ثم يعود إلى أول طاق ليبتدئ من جديد في تحديد أوقات نصف اليوم الموالي. لذلك فالهلال هو الدال على الساعة والانتقال بين الليل والنهار.

ويطرح انفتاح الطاقات وإسقاط الصنجات تساؤلات أخرى، مع العلم أن مهام الطيور المشار إليها يرجح أن يكون دورها شكلي فقط. في حين يكون للصنجات دور في انفتاح الطاقات. ومن غير المستبعد أيضا أن يكون للعوارض التي تمتد في الأعلى دور في ذلك إذا ما ربطت خيوط أو ما شابهها أما رجوع الصنجات من الطستات إلى خلف الطاقات فالأمر الوارد هو حصوله عبر قنوات خفية. إذ الإشارة واضحة إلى هذه التقنية في ساعة مائية صنعت لاحقا بالقرويين. كما أن وزن الصنجات الخفيف وحجمها الصغير يدعم ذلك.

لقد تطلبت صناعة التلمساني للساعة العنانية جهدا علميا وتقنيا كبيرا. إذ كان صانعها على دراية بالتوقيت والتعديل، ومكنته خبرته في التوقيت وصنع الساعات المائية من استغلال طاقات المياه الجارية بالقدر المناسب، والاستفادة منها في تحديد

---

(١) التازي، عبد الهادي: الساعات المائية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص ص: ٦٣-٦٤.

الأوقات وإعلانها بطريقة آلية ومضبوطة.

كما أعطى التلمساني بصنع هذه الساعة للتوقيت بعدا اجتماعيا تم فيه إشراك السكان والمارة في التعرف على الأوقات من خلال مشاهدتهم للطاق المفتوح المشير إلى ساعة معينة والهلال الموجود خلفه، وكان صنع هذه الساعة أيضا نزولا عند رغبة السلطان أبي عنان في إظهار عظمة الدولة المرينية وقوتها.

استمرت ساعة التلمساني في القيام بوظيفتها برعاية من المؤقتين منذ تأسيسها بعد منتصف القرن الثامن إلى غاية القرن ١١ أو ١٢ هـ/ ١٧ أو ١٨ م[1].

(١) نفسه، ص: ٦٥.

المطلب الرابع

ساعة اللجائي (٧٦٣هـ/١٣٦٢م)

قام المؤقت أبو زيد عبد الرحمن بن سليمان اللجائي بأمر من السلطان أبي سالم ابراهيم (٧٦٠-٧٦٢هـ) بصنع ساعة مائية وضعت بجامع القرويين. لكن السلطان اغتيل قبل فراغ المؤقت من صنع الساعة[1]. وقد أنشأها شبيهة في شكلها وتقنيات عملها بساعة التلمساني.

ووضع اللجائي الساعة بعد صنعها بغريفة المؤقتين. وهي عبارة عن حُجرة صغيرة تتكون من أربعة وعشرين طاقا ذات أبواب خشبية تنتظم أسفلها طاسات. وترتبط الطاقات والطاسات بقنوات تتدحرج منها الكرات. وتمتد فوق الطاقات قناة مائية يتحرك فيها الماء، وعارضة خشبية تمكن من دفع الكرات وإعلان حلول الساعات[2].

وتتميز تقنيات عمل هذه الساعة بدورها بالتركيب والآلية. إذ يتسرب الماء بقدر معلوم في الأنبوب الممتد فوق الطاقات، في الوقت الذي تنحني عارضة خشبية بحبل فوق الطاقات أيضا بطريقة آلية دقيقة ومضبوطة زمنيا بحسب سرعة الماء الذي يمر في الأنبوب.وعند وصول العارضة إلى طاق معين ينفتح بابه، فتتحرك الكرة المصنوعة من حجر ناري، وتسقط على الطاس معلنة عن حلول ساعة معينة.

---

(١) نفسه، ص ص: ٦٧-٦٨.

(٢) الدباغ، عبد العزيز: من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م. ص: ١١٧؛ التازي: المرجع السابق، ص: ٦٩.

ويتبع عمل الساعة بشكل متسلسل[١]، إلى أن ينتهي توقيت يوم ليشرع في تحديد أوقات اليوم الموالي بعد رجوع العارضة الخشبية بطريقة آلية إلى نقطة البداية، كما أن الكرة النارية عند سقوطها على الطست ترجع خلف الطاق من جديد في قنوات خفية وضعت لذلك.

وترتبط حجرة الساعة باسطرلاب يدير شبكة صفيحة الماء، إذ تمر قناة من الحجرة إليه لعل الماء لذي يتسرب فيها يدير صفيحة الاسطرلاب[٢] عند الانتقال من يوم إلى يوم آخر.

وبذلك جمعت ساعة اللجائي بين تقنيات ساعة الصنهاجي من خلال ارتباط عملها بالاسطرلاب، وتقنيات ساعة التلمساني التي تكونت أساسا من الطاقات والطستات وإعلان الأوقات بدفع الكرات. وتمثلت إضافة اللجائي في صنع ساعة تتكون من ٢٤ طاقا تمكن من تحديد كل ساعات اليوم.

إن مد ساعة اللجائي بالماء بشكل مستمر ومتسلسل تطلب ربط أنبوبها بإحدى قنوات الماء التي تزود جامع القرويين. ومن المحتمل أن ذلك كلف المؤقت اللجائي مد قناة من صحن الجامع إلى الغريفة خاصة بتزويد ساعته بالماء. كما أن استمرار عمل الساعة وإعلان الأوقات بالاعتماد عليها تطلب من المؤقتين تتبع ومراقبة العمل والتردد على الغريفة عدة مرات في اليوم.

تلك هي أهم الساعات المائية التي صنعت في العصر المريني، والتي تدرجت تقنيات عملها من البساطة إلى التركيب، وقد مكن صنعها من التخلص التدريجي

---

(١) التازي: المرجع السابق الصفحة نفسها.

(٢) نفسه: ص: ٦٩.

من التدخل المباشر للمؤقتين في سير عملها. إذ أصبحت الساعة المائية عبارة عن آلة لا يقوم المؤقت المكلف بها إلا بالمراقبة وتتبع العمل. فأتاح ذلك تجنب الإهمال الذي كانت تتعرض له الساعات المائية التي صنعت في المراحل الأولى، كما حدث لساعتي ابن الحباك والصنهاجي، إذ كان تدخل المؤقت بإعادة الماء من إناء إلى آخر والتردد على الصحن عند الحاجة إلى كمية من الماء، تعد عوائق كانت مهددة لاستمرار العمل بالساعة المائية. كما أن غياب المؤقت بشكل أو بآخر أو تعويضه بمؤقت آخر، يطرح صعوبة أيضا في وجه سير عمل الساعة المائية التي تعمل بطرق غير آلية. وما يبرر هذا القول هو صمود ساعتي التلمساني واللجائي لمدة زمنية طويلة.

ورغم الفتور في صنع الساعات المائية في نهاية فترة بني مرين وفي عهد بني وطاس. يبدو أن هذه الفترة كانت شاهدة على صنع بعض النماذج، تعد الساعة المتواجدة ببرج القرويين أهمها. إذ لازالت إحدى الواجهات الداخلية للبرج، الموجود على زقاق الشماعين قريبا من جامع القرويين، تحتوي على ساعة مدفونة في الجدار تتكون من ثلاثة عشر طاقا[1]، شبيهة بساعة التلمساني، يُرَجح أن لا تختلف تقنيات عملها عن التقنيات التي ذكرت بصدد ساعتي التلمساني واللجائي.

لقد اختلفت انتماءات الصناع المؤقتين الذين أطروا أوراش صناعة الساعات المائية. فإلى جانب العنصر المحلي، كما هو الشأن عند ابن الحباك والصنهاجي، ساهم العنصر الأجنبي في التصنيع، وهو الأمر المتعلق بالتلمساني نسبة إلى مدينة تلمسان التي صنع بها ساعة مائية لأحد ملوك بني عبد الواد[2]، واللجائي نسبة إلى إحدى المدن الأندلسية وغيرهما. وقد كان ملوك الدولة المرينية حريصون على الاستعانة

---

(١) نفسه، ص: ٧٠.

(٢) نفسه، ص ص: ٦٢-٦٤.

بالخبرة الأجنبية في هذا المجال وغيره من المجالات مستغلين الاحتكاك بالجبهتين الشرقية والأندلسية.

المطلب الخامس

آلات التوقيت الأخرى

إن صناعة الساعات المائية التي ارتبط بعضها بالاسطرلاب لم يغن المؤقتين على الاعتماد على أدوات أخرى في التوقيت مثل الساعات الرملية والشمسية أو المزاول[1] وغيرها من الأدوات والآلات التي ساعدت المؤقتين في تحديد أوقات الصلوات حسب ما تشهده من تغيرات يومية، وبداية الشهور والفصول والمواسم وغيرها. وهي مهام تكلف بها المؤقتون.

وتعدد مراكز التوقيت بمدينة فاس، وما رافقه من اهتمام المدرسين والطلبة بعلم التوقيت، أدى إلى انتشار آلات التوقيت في عدة مساجد ومدارس مثل الساعات الشمسية التي تعرف برخامات التوقيت ومجموعة من الأدوات الأخرى مكنت الطلبة والمصلين وغيرهم من الاستعانة بها في التعرف على الأوقات. إلا أن هذا الانتشار صحبه احتفاظ مركز جامع القرويين بأهميته في إعلان أوقات الصلوات بذل المؤقتون جهودا في تحديدها بدقة، واحتكمت كل مساجد ومدارس المدينة إليها. لذلك أصبح العَلَم الذي يُرفع عند حلول وقت الصلاة في أعلى الصومعة نهارا والفنار الذي يضيء في نفس المكان ليلا، مساعدين في اقتداء مختلف مساجد المدينة

---

(١) المزاول: تجمع على مزولة وهي رخامة كانت توضع مسامتة للشمس مثل تلك التي وضعت بأعلى صومعة جامع القرويين . ورد كلام عن ذلك عند الدباغ: من أعلام الفكر والأدب، ص: ١١٧؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ١، ص: ٢٣٧؛ نفسه: ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، نشر دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، رقم ٧ من سلسلة تراثنا الإسلامي، دون تاريخ ، ٢، ص: ٢٧٧.

بهما. وبحكم بعد المدينة البيضاء والقسم الغربي من المدينة العتيقة عن جامع القرويين، أصبحت صومعة المدرسة البوعنانية هي الأخرى تشهد رفع العلم وإضاءة الفنار في أعلاها بتنسيق مع ما يتم في القرويين واقتداء به، فمكن ذلك كل ساكنة المدينة من تجاوز التأخر أو الارتباك في إعلان حلول أوقات الصلوات. ومما قيل في العَلَم الذي كان يرفع في أعلى الصوامع النظم الآتي:

نور به عَلَم الإيمان مرتفع — للمهتدين به للحق إرشاد

يأتون من كل صوب نحوه فلهم — لديه للرشد إصدار وإيراد[1]

ويعبر ذلك عن استعانة الناس بالعلم المرفوع في التعرف على أوقات الصلوات في حالة عدم سماعهم للآذان أو بعدهم عن المسجد. والأمر نفسه انطبق على الفنار أو المصباح الذي يضيء ليلا أعلى الصومعة.

وقد كان العلم المرفوع ذو لون أزرق[2] إلا أن هذا اللون كان مقتصرا على يوم الجمعة في حين كان اللون الأبيض مميزا للعلم المرفوع في بقية الأيام. وذلك إبرازا لأهمية يوم الجمعة الذي يشهد إقامة الصلاة في المساجد الجامعة فقط ظهرا.

ولازالت عادة رفع العلم بأعلى الصومعة وإضاءة المصابيح هناك سارية المفعول لحدود الوقت الحالي.

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ٢، ص: ٥٠٨؛ نفسه، ج١، ص ص: ٥٤-٥٥؛ ابن لأحمر، إسماعيل: أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن المسمى نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، نشر مؤسسة الرسالة، مطابع دار الملاخ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص: ٤٥٤.

(٢) ابن القاضي: المصدر السابق، ٢، ص: ٥٠٨.

إذا كانت آلات التوقيت على اختلاف أنواعها لم تتطلب إلا مواد أولية متوفرة وبسيطة، أهمها المياه والخشب والرصاص ومواد صخرية ومعدنية، لم تكن تكلفتها المالية كبيرة، فإن هذه الآلات تطلبت عملا علميا وذهنيا وتقنيا من طرف صانعيها، الذين اكتسبوا معارف تلقوها من العلماء المتخصصين في التوقيت في عدة مراكز علمية ضمنها مراكز فاس، ومارسوا أعمال التوقيت بالمراكز الوقتية جعلتهم ذوي مهارات استغلوها في إنجاز أوراش لصنع آلات التوقيت السابقة الذكر بفاس بأمر من سلاطين الدولة وبإشراف من نظار المعالم الحبسية.

كانت تلكم أهم الأنشطة الصناعية الوقفية التي مكنت من تحقيق أغراض دينية وعلمية واجتماعية، تظافرت فيها جهود السلاطين وما خصصوه من أوقاف، وجهود أفراد المجتمع الذين خدموا المعالم الوقفية بما حبسوه من أموال لفائدتها، وخاصة الدينية منها، وبالتالي، فإن الدولة تمكنت من تقاسم الأدوار بإنشاء مؤسسة الأوقاف التي لبت بأعمالها أهداف السلطة وحاجيات المجتمع.

الباب الثاني

الحرف والصنائع الخاصة

مارسها الحرفيون والصناع بالمدينة خارج التبعية للدولة انتمى معظمهم إلى طوائف مكنت من تنظيم العمل الحرفي بتنسيق مع المحتسب[1].

وتم تصنيف هذه الصناعات والحرف إلى ضرورية بسيطة وكمالية مركبة، تتميز الأولى ببساطة أدواتها وأساليبها وتحقيقها لحاجيات السكان الأساسية داخل وخارج المدينة، من أدوات وآلات فلاحية ومصنوعات غذائية، وأثواب وملابس ومنتوجات أخرى، وتتصف الثانية بدقة تقنياتها وأدواتها وارتفاع قيمة منتوجاتها. ولهذا استجابت لطلبات الفئات الميسورة من الغذاء واللباس والبناء والمصنوعات المعدنية والجلدية وغير ذلك.

وتركزت الحرف الخاصة في عدوة القرويين، بينما قلت في كل من عدوة الأندلس وفاس الجديد.

---

(١) ترأس مؤسسة الحسبة: وهي إحدى الخطط التي كان لها دور مراقبة الأعمال الحرفية المنجزة من طرف أرباب الصنائع. و استمدت مشروعيتها من مبدأ «الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر» حيث قال فيها أبو الحسن الماوردي بأنها: «أمر بالمعروف إذا ظهر تركه و نهي عن المنكر إذا ظهر فعله» (النويري: نهاية الأرب، ص ٢٩١). و المحتسب هو من كان يتولى خطة الحسبة ، خضع تعيينه لعدة شروط أجملها ابن رضوان في «العدالة و النزاهة و معرفة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و معرفة طُرَف من الحساب لاختيار قيم المبيعات، و نسب الأسعار و شبه ذلك، و التيقظ لإقامة الموازين بالقسط، و الشعور بغش المتحيلين و الصرامة في الحكم، و عدم الالتفات إلى الشفاعات، لأن نظره منوط بحقوق عامة المسلمين، وإسقاط حق الجماعة لإرضاء واحد أو اثنين ليس بصواب» (الشهب اللامعة في السياسة النافعة، ص٣٢٧. و توّفر هذه الشروط في المحتسب يؤهله للقيام بمهامه الكامنة في «النظر و الحكم فيما يتعلق بالغش و التدليس في المعايش و غيرها في المكاييل و الموازين » ابن خلدون: المقدمة، ص٢٢٥)

الفصل الأول

الحرف والصنائع الضرورية البسيطة

الفصل الأول

الحرف والصنائع الضرورية البسيطة

ذكر ابن خلدون عن هذه الحرف والصنائع أنها حققت ضرورات المعاش، ووصف أنواعها بأنها متقدمة في التعليم، إذ يتمكن متعلموها من إتقانها في ظرف وجيز بحكم البساطة التي ميزت تقنياتها[1].

وحققت الصناعات البسيطة ضرورات البادية والمدينة. ومن فروعها صنائع فلاحية[2]،مكنت من صنع أدوات زراعية وما يحتاج إليه الفلاحون في أنشطتهم.

والفرع الثاني منها مثلته الحرف التي كانت تُحَصِّل الأقوات التي يتغذى بها سكان البادية والمدينة، نُعتت بحرف الغذاء[3]، كونتها أعمال الطحن والعجن والطبخ وعصر الزيت...

أما الفرع الثالث فمثلته صناعة الملبوسات[4]، وما أنتجته من أثواب وملابس يغلب عليها طابع البساطة واتقاء الحر والبرد بها.

والفرع الرابع سيتم فيه تناول الحرف الخدماتية تميزت فيها حرفتا الحمالين

---

(١) ابن خلدون: المقدمة: ص: ٤٠٠.

(٢) نفسه، ص: ٤٢.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه، ص: ٣٩٨.

والدلالين، كما شملت هذه الحرف الحجامة باعتبارها خدمة لصحة الإنسان، والبيطرة التي قومت الدواب ودفعت عنها الأمراض.

أما الفرع الخامس والأخير سيشمل أعمال البناء التي تدخل فيها صناعة الفخار، والصناعات الخشبية أهمها النجارة وبعض الصناعات الجلدية البسيطة.

المبحث الأول

الحرف والصنائع الفلاحية

تجسد أصناف هذه الحرف والصنائع الارتباط الوثيق بين مدينة فاس والبادية المحيطة بها. حيث كانت الخدمات – في الفترة المدروسة- متبادلة بين مدينة فاس والبادية المحيطة بها، إذ ضمنت الأولى استمرارها بفضل تزويد الثانية لها بحاجياتها، في وقت كانت المدينة المذكورة تمد سكان محيطها بمعظم حاجياتهم[١].

وبالنظر إلى أصناف الحرف الفلاحية بفاس وخصائص كل صنف منها ، فقد اكتسى بعضها أهمية من حيث كميات المواد المُحولة ونوعية المصنوعات التي ينتجها مثلما حصل عند الحدادين والعوادين مقارنة مع الأصناف الأخرى التي سيتم التطرق لها.

وخدمة الحرفيين للأنشطة الفلاحية بصنعهم للأدوات المستعملة فيها لا يعني أنهم لا يصنعون أشياء خاصة بالأنشطة الحضرية ولو أن عددها محدودا أو قليلا.

وفيما يلي أهم الحرف الفلاحية، حيث سيتم التعريف بها بالتحدث عن المواد المستخدمة فيها ، والأدوات والتقنيات المعتمدة عند ممارسيها، وأماكن ممارستها وأنواع المصنوعات وغير ذلك .

١- الحدادة:

هي معالجة مادة الحديد وتصنيعها وتشكيلها قصد الانتفاع بها. ويدعى

---

(١) مولاي هاشم العلوي القاسمي: مقدمة التقاط الدرر، ص ص: ٨١- ٨٢.

صاحب هذه الحرفة بالحداد[١]، كما يعرف أيضا بالقَيِّن الذي يجمع على قيون[٢]. وقد ورد ذكر الحديد في القرآن الكريم، إذ قال الله عز وجل: (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) [٣]، وفي هذا القول الرباني إشارة إلى قوة هذه المادة وما تحققه للناس من منافع وحاجيات.

تدخل الحدادة في نطاق الحرف المعاشية[٤] البسيطة، وتلبي مصنوعاتها الحاجيات الضرورية التي لا غنى لسكان البوادي عنها[٥]، الذين كانوا يقتنون الأدوات الزراعية المصنوعة من الحديد من فاس أو الأسواق المحيطة بها. كما لبى الحدادون بمصنوعاتهم بعض حاجيات سكان المدينة أيضا.

-الأدوات والتقنيات:

اعتمد الحدادون في حرفتهم على مجموعة من الأدوات أهمها الكير أو الزق المصنوع من الجلد أو المبني من تراب[٦]. ولهذه الأداة أهميتها في الحرفة إذ توقد وتتوهج بواسطتها النار عن طريق النفخ بها، مما يتيح للحداد إمكانية تطويع المادة التي يشتغل عليها سواء كانت قطعا حديدية أو غيرها. عن طريق وضعها في النار وقبضها باللقاط، ثم إخراجها ووضعها فوق زبرة الحديد، ليتم الضرب عليها بالمطرقة الثقيلة، وأحيانا يضرب عليها الحداد ومساعده بمطرقتين في آن واحد.

(١) العمري: الحرف والصناعات في الحجاز، ص: ٢٦٩.

(٢) الخزاعي التلمساني تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٨.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٤٠٠-٤٠١.

(٥) نفسه، ص: ١٥٣.

(٦) الخزاعي التلمساني: المصدر السابق، نفس الصفحة؛ العمري: المرجع السابق، ص: ٢٢٧.

واستعمل الحدادون أدوات وتقنيات أخرى تتم بها عمليات تصفية الحديد الخام وسبكه[١] وتخليصه تم مده في إطارات وقوالب معدة لذلك، مما يمكنهم من صناعة صفائح الحديد المتنوعة السمك والأبعاد، والمسامير وغيرها. واحتاج الحدادون في هذه الأعمال إلى أدوات وآليات ومواد كالمطارق والأمقاص واللقاقيط أو الكماشات والآنيات... فضلا عن النار والماء[٢].

- المصنوعات:

اختص الحدادون في عمل الصفائح والمسامير التي توضع في أرجل أو سنابك الخيل والدواب[٣]. كما صنعوا الأدوات الزراعية التي يحتاج إليها الفلاحون مثل السكك التي توضع في المحاريث الخشبية كي تساعدهم في شق الأرض وخدمتها، والقطاطيع والمناجل التي تفيد في حصاد الزرع[٤]، والفؤوس التي يعتمد عليها العاملون في البناء وحفر الآبار والقبور وغيرها.

وقدم الحدادون مصنوعات أخرى لأهل البادية والمدينة مثل شبابيك النوافذ والأقفال الحديدية، ومقارع الأبواب والصفائح، والمفاتيح التي تغشى وتغلق بها الصناديق، وهذه الأخيرة -أي الصناديق- أيضا صنعت من حديد[٥].

---

(١) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٤.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤٠..

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٢

(٤) مجهول: ذكر قصة المهاجرين المسمون بالبلديين، مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ١١٩٤٢، ص: ٤٣٤؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٢٢٠.

(٥) لوتورنو: المرجع السابق، ص ص: ٩١، ١٣٢؛ العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، أشغال ندوة: فاس وإفريقيا، ص: ٩٧.

وشهدت فاس وغيرها من المناطق استعمال سلاسل حديدية اختلفت أحجامها بعضها من الحجم الكبير من قبيل تلك التي كانت توضع في أبواب الأسواق الكبرى بالمدينة[١]، لم تتم الإشارة إلى صنعها، لكن تقنيات تحويل الحديد ترجح صناعة هذه السلاسل بفاس سواء عن طريق الحدادين أو بإسهام من حرفيين ذوو تخصصات أخرى. ولعل الحدادين اعتمدوا على حرفيين آخرين قدموا لهم مصنوعات حديدية يتممون صنعها مثل الصفائح والمقارع والسلاسل التي كانت تفرغ في إطارات خاصة قبل أن يتم الاشتغال عليها.

إن أعمال سبك الحديد وفرغه ومعالجته بالصنعة بعد تصلبه وإخراجه من الإطارات، مَكَّنت من صناعة أشياء كان الحرفيون والتجار والسكان في حاجة إليها كالمطارق واللقاقيط والصنجات الحديدية والموازين، لكنها تبقى قليلة الأهمية مقارنة مع المصنوعات الحديدية الفلاحية.

-أماكن ممارسة الحدادة:

كانت المنطقة القريبة من الوادي الجاري بين العدوتين من جهة القرويين[٢] مؤهلة لممارسة الحدادين لحرفتهم ، باعتبار هذه المنطقة تتيح سهولة الحصول على الماء من المجرى الذي يحتاجونه في تبريد الأدوات الحديدية التي تعالج بالنار، ولقربها من السمارين المختصين في تصفيح أرجل البهائم والدواب بالمكان الذي عُرِف بالبرزخ -ينعت حاليا بالرصيف-، حيث المدخل إلى قلب المدينة عبر باب سيدي العواد.

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٩؛ مارمول كربخال : إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية مجموعة من الأساتذة، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، الرباط ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/١٩٨٨-١٩٨٩م ، ج٢، ص: ١٤٨.

(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٤.

ولازال مسجدا هناك يعرف بجامع السمارين[١]. فالعلاقة إذن وطيدة بين الحدادين والسمارين من خلال تزود الأخيرين بالمسامير والصفائح من الأولين. وإضافة إلى القرب من الماء والسمارين هناك عامل ثالث برر تواجد الحدادين بالمنطقة القريبة من الوادي هو تعاملهم مع صانعي بعض الأنواع من الأسلحة التقليدية المصنعة من مادة الحديد[٢]، لا يستبعد تزويد الحدادين لهم ببعض حاجياتهم من هذه المادة.

أما الحرفيون المتخصصون في سبك وفرغ الحديد، فمحيط الوادي كان مؤهلا أيضا لاحتضان حرفتهم، بحكم حاجتهم إلى فضاء يتيح لهم استخدام الوسائل التي يعتمدونها في صنعتهم وفي مقدمتها الماء والنار. ومكانهم لا يحتمل أن يكون بعيدا عن مكان الحدادين للعلاقة المتواصلة بينهما.

٢- عمل العـود:

يقصد بالعود بعض أنواع الخشب الذي اشتغل بصنعته حرفيون كانوا يدعون بالعوادين. وقد صنع هؤلاء الآلات الخشبية الكبرى كعرائش العجلات والمحاريث ودواليب الطواحين وغير ذلك [٣]. ولهذا فحرفة العوادين خدمت الفلاحين في البادية العاجزة عن توفير حاجياتها، كما خدمت أيضا بعض الأعمال التجارية والصناعية بالمدينة.

وتقنيات حرفة العوادين بسيطة مقارنة مع النجارة ، إذ كان تحويل عود بعض الأنواع من الأشجار بأدوات ومهارات حرفية تمثلت أساسا في نجر الأعواد التي

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٢.
(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، نفس الصفحة.
(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، نفس الصفحة.

تصنع منها الآلات التي ذكرت آنفا، لذلك لم تتطلب هذه الحرفة الأنواع الجيدة من الخشب. كما أن تقنيات هذه الصنعة قلَّ فيها التكليف. فهي لا تستدعي إتماما صناعيا أو صقلا للخشب أو تلميعا له مثلما كان الأمر عليه في بعض الصناعات الخشبية الأخرى .

وقد اجتمعت دكاكين العوادين بمركز المدينة غير بعيد عن مكان ممارسة الحدادة ، وهو الواقع خلف الصباغين من جهة عدوة القرويين. وباب سيدي العواد الذي لا زال قائما في الرصيف شاهدا على أنه مؤدي إلى دكاكين العوادين التي توجد في ساحة هناك تعرف بالاسم نفسه (العوادون) في الوقت الحالي.

٣- صناعة الغرابيل:

يدعى المحترفون بها بالغرابليين أو التيالين . وقد مارسوا صناعة الغرابيل التي هي أداة تمكن من غربلة الحبوب والدقيق.

لقد اتسمت هذه الصنعة بتقنيات نسج التيل من خيوط الكتان أو ما شابهها، وهي متنوعة في دقة الخيوط وتقاربها. وكان الصانعون لهذه التِّيل يقومون بوضع ألواح خشبية دائرية على أطرافها تساعد بعد تطريقها بالمسامير في إتمام صنعة الغرابيل. وقد تصنع الغرابيل ذات أحجام كبيرة وأشكال مربعة، إذا كان الأمر يتطلب غربلة كميات كبرى من الزرع أو أنواع الحبوب الأخرى. ولذلك فالتيالون خدموا بصنعتهم الفلاحين من جهة وربات البيوت في البوادي والمدن من جهة أخرى.

وتواجدت دكاكين التيالين على الزقاق المؤدي إلى باب الشريعة فوق عين علو[1]

---

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٦.

وأسفل الشرابليين ولا زالت هذه السوق تعرف برأس التيالين[1].

٤- صناعة الظروف:

الظروف هي الأكياس التي كانت تخصص لخزن الدقيق والقمح. وقد اختص في عملها حرفيون مارسوا صنعتهم برأس التيالين -المذكورة آنفا-، واشتغلوا في ثلاثين دكانا هناك[2]. وصناعة الظروف والغرابيل متداخلتين إلى الحد الذي جعلهما مجتمعتين في حي حرفي واحد، حيث يوجه منتوجهما بصفة أساسية للفلاحين في البوادي[3]، وهو ما يفسر تواجدهم على طريق يعبره الداخلون إلى المدينة والخارجون منها. ولعل مادتي الكتان والقنب كانتا أساسيتين في نسج الظروف ثم خياطتها قبل عرضها للبيع، وخزن الدقيق يتطلب نسجا دقيقا تعد خيوط الكتان مناسبة له، أما خزن القمح أو الحبوب الأخرى فيستدعي نسجا أقل دقة وظروفا خشنة تنسجم صناعتها مع استعمال خيوط القنب كمادة فيها.

٥- صناعة السلال:

اعتمد صانعوا السلال على مادة القصب التي حولوا منها أشياء أخرى مماثلة كأقفاص الدجاج والطيور وغيرها. وقد توفرت في حدائق وبساتين المدينة وضفاف الأودية العابرة محيطها ومجالها مادة القصب التي تدخل في صناعة السلال وما شابهها.

---

(١) عين علو أو عين علون هي قسم من الطريق الواقعة بين العطارين وباب الشريعة، توجد أسفل رأس التيالين وأعلى عقبة الجزارين.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٨.

(٣) لوتورنو: المرجع السابق، نفس الصفحة.

وتمثلت التقنيات الحرفية لدى السلالين في اعتمادهم على المهارات اليدوية، حيث كانوا يقطعون القصب، ثم يعدونه ويقطعونه بالسكاكين، إذ تقسم كل قصبة عموديا إلى نصفين أو أكثر، ثم ينسجون قطع القصب بطريقة يدوية تحولها إلى سلال مختلفة الأحجام، معظمها من حجم كبير تخصص لاحتواء الزرع [(١)] وغيره من الحبوب كالشعير والذرة، ويتصف شكل السلال بكونه أسطوانيا يتقلص حجمه في الأعلى بالطريقة التي تتيح حفظ الحبوب. وقد كان الفلاحون عند شرائهم للسلال يطلونها من واجهتها الخارجة بالطين المخلوط بالتبن والماء حتى تحفظ الحبوب المخزونة داخلها.

أما صناعة الأقفاص فيبقى القصب فيها غير مفصول، أي على الشكل الذي يوجد عليه في الأصل، والذي يتم تهييئه ثم يقسم إلى قطع حسب الطول المطلوب، ثم تربط هذه القطع بالشكل الذي يحولها إلى قفص معد لإيواء الدجاج أو الطير ولا يمكنها الخروج منه. ويتيح للإنسان النظر إلى ما بداخل القفص وتقديم الطعام والماء له.

وقد ذكر مارمول أن الأقفاص صُنعت في ساحة معروفة بقبيب النقاش. وهي التي تدعى حاليا قبيب الناقص قريبا من العشابين،كما أشار أيضا إلى أن مكان صنع الأقفاص كانت تتواجد به سقاية قربها الحرفة المذكورة[(٢)]. ورغم عدم الإشارة إلى مكان صناعة السلال، فالمرجح أنه كان لا يبعد عن مكان صناعة الأقفاص، للتداخل في تقنياتها ولقرب المكان المعلوم من رحبة الزرع[(٣)] التي احتضنت باعة

---

(١) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٤.

(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٢.

(٣) ورد عند ابن عيشون أن رحبة الزرع كانت تتواجد بالحفارين أسفل سيدي عبد الله المكي. هذا الكلام ذكره الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس: سلوة الأنفاس في محادثة الأكياس ممن أقبر من

الزرع وزبناءهم، وهم من أقبل على اقتناء السلال.

ولذلك كانت تُوجه الأقفاص المصنوعة بشكل خاص لمربي الدجاج وهواة الطيور بالمدينة. أما السلال فكانت تخدم الفلاحين في البادية. ويمكن للحرفي الواحد صناعة الأقفاص والسلال وأشياء أخرى من القصب.

٦- صناعة الشرائط:

دخلت مادة القنب أساسا في صناعة الشرائط. وكان الحرفيون المختصون فيها يقومون بتجديل وغزل وفتل الألياف المكونة للشرائط[1]. وقد مارسوا هذه الحرفة في دكاكينهم التي تموضعت في مكان عرف باسمهم «الشراطين» الواقع بين باب السلسلة وملتقى الطرق المؤدية إلى الشماعين والبراطليين والقطانين. وسوَّقُوا في دكاكينهم الحبال والشرائط للزبناء[2].

واستعمل الشراطون تقنيات حرفية تمثلت في تنظيف وتنقية ألياف القنب مما يكون عالقا بها، ثم غزلها بالتقنيات البسيطة التي اختصت فيها النساء، ثم فتلها وتجديلها حتى تصبح عبارة عن حبال تختلف أنواعها وأحجامها.

ويبدو أن الشراطين صنعوا أيضا حبالا وشرائط من الدوم والحلفاء والكتان بتقنيات شبيهة بتلك التي اعتمدت في تحويل مادة القنب، ولا تختلف معها إلا في

العلماء والصلحاء بفاس، ج١، ص ص: ١٩٠-١٩١، طبعة حجرية، نسخة مصورة بمكتبة آل سعود بالبيضاء تحت رقم: ٠٤٦ ج مكرر، ولعلها- أي رحبة الزرع -تقع بالداخل إلى الزقاق المعروف باسمه الذي يحتضن ضريحه من النواعريين.

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٥؛ نفسه: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١١٤.

(٢) Massignon, L : Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, P : 231.

خصوصيات بعض المواد التي تطلبت تشميسها وتبليلها بالمياه، وهو الأمر الذي يخص مادتي الدوم والحلفاء فقط.

لقد استعملت الحبال والشرائط بمختلف أنواعها في أغراض منزلية كحمل الماء من الآبار، وفي أغراض حرفية كربط الأمتعة ونقلها من طرف الحمالين، فضلا عن الأغراض الفلاحية لدى أهل البادية.

٧- عمل الحلفاء:

تخصص في هذا العمل الحلفاويون الذين صنعوا السلال والقِفَف من مادة الحلفاء والدوم. لذلك نسبت حرفتهم إلى مادة الحلفاء. وتمت ممارسة هذه الحرفة بحي الصفارين في قبلة جامع القرويين [1] بجوار مدرسة الصفارين التي نعتت أيضا بمدرسة الحلفاويين.

وكانت المهارات والتقنيات اليدوية أساسية في صناعة سلال الحلفاء [2]. فإضافة إلى المراحل الأولية في الحرفة التي تكمن في تهيئ المادة الأولية حتى تصبح جاهزة للاشتغال عليها، كان الحلفاويون ينسجون خيوط الحلفاء أو خوص الدوم بأيديهم فيحولونها بذلك إلى ظفائر، ثم يعملون على خياطتها باستعمال المخيط وأشرطة الدوم المفتولة، ويصنعون لكل سلة أو قفة مقبضين في الأعلى يمكنان من حملها فارغة أو بما تحتويه من بضائع وأمتعة أو مواد كانت توضع فيها.

ولعل الفرق بين الحلفاء والدوم كمادتين معتمدين عند الحلفاويين هو أن الثانية أصل للأولى. إذ لا يتحول الدوم إلى حلفاء إلا بعد تقطيع فصائله إلى خيوط رقيقة

---

(١) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٤.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٢٩.

تنعت بالحلفاء.

واختلفت أحجام السلال أو القفف التي صنعها الحلفاويون. كما ساعدتهم مهاراتهم الحرفية في صنع أشياء أخرى مماثلة كَعُقُل الدواب، التي توضع في أرجلها، وقبعات من التبن أو سعف النخل[(١)].

٨- عمل البرادع:

قام البرادعيون بعمل البرادع الخاصة للدواب المتكونة من الحمير والبغال والخيول. لذلك كان شكل وحجم البردعة يتفاوت حسب نوع الدابة التي ستحملها. وقد صنعت البرادع ذات الحجم الصغير من مادة الدوم المظفور والمخيط الذي يحْشى بالتبن، ثم تحكم البردعة بعد ملئها بالتبن بالخياطة، وتوضع لها أحزمة ظفر في مؤخرتها، وعادة ما يخصص هذا النوع من البرادع الصغيرة التي عادة ما تخصص للحمير وأحيانا للبغال. أما بالنسبة للبرادع الكبرى فتصنع للبهائم من بغال وخيول من نسيج القنب المتوفر عند التيالين، حيث يقوم البرادعي بخياطته، ثم إدخال التبن فيه، وخياطة وصناعة أحزمة له، وصناعة ظفرين يوضعان في مقدمة ومؤخرة البردعة[(٢)].

وبالإضافة إلى عمل البرادع، تخصص الممارسون لهذه الصنعة في إصلاح ما تضرر منها.

وقد تنوع زبناء البرادعيين فتكونوا من الحمالين الكثيري العدد، إضافة إلى

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٢؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٤.

(٢) الوزان المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٧؛ الطويل، محمد حجاج: السرج، معلمة المغرب، م ١٥، ص ص: ٤٩٥٩-٤٩٦٠.

الفلاحين المتواجدين بالبوادي، وسكان المدن الذين كانوا بدورهم لا يستغنون عن استعمال الدواب كوسيلة رئيسية للنقل في الفترة الزمنية موضوع البحث.

تلك هي الأصناف الحرفية التي كانت مصنوعاتها موجهة للنشاط الفلاحي بصفة أساسية، وللأنشطة اليدوية المنزلية أيضا التي كانت في حاجة إلى مصنوعات حرفيي فاس. فالبادية المغربية في المرحلة الزمنية المدروسة كانت مجالا لممارسة الزراعة والرعي، وتعتمد على المدن القريبة منها للتزود بالمنتوجات الحرفية

المبحث الثاني

حرف الغذاء

تتمثل أهمية حرف الغذاء في تحصيل الأقوات التي يتغذى بها الإنسان. وتأتي على رأس هذه الحرف تلك التي تعالج الزرع بطحنه وعجنه وطبخه (١)، تليها حرف أخرى تمثلت في عصر الزيت من حبوب الزيتون، والجزارة التي توفر اللحوم، إضافة إلى المحترفين بإنتاج الحليب ومشتقاته، وتوفير الحوت والملح وغيرها من المنتوجات الغذائية.

وعادة ما تكون هذه الحرف موجهة لسد حاجيات الناس من المأكولات. أما تقنياتها فكانت بسيطة تغيب معها مظاهر الترف وما يصحب ذلك من التأنق والاستجادة في الصنع، إذ أن حصول هذه المظاهر يحولها إلى حرف تهتم بالكمالات.

١- طحن الحبوب:

كان القمح أو الزرع، ولا يزال، مادة غذائية رئيسية لدى سكان بلاد المغرب. والفترة المرينية الوطاسية شاهدة على تغذية الناس بأنواع أخرى من الحبوب مثل الشعير.

ولأهمية الحبوب في التغذية، حرص حكام الدولة على تأمين حاجيات سكان مدينة فاس ومحيطها منها كغيرها من المدن والمناطق، إذ كانت تخزن في المطامير التي تموقعت بقرب باب الشريعة (٢) ثم بفاس الجديد بعد تحول السلطة إليه. كما وفر

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٢.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١.

الفلاحون والتجار الحبوب ببيعها في رحبة الزرع التي وجدت بحي الحفارين أسفل المدينة العتيقة[١].

ومثلت المجاري المائية وسيلة لإقامة المطاحن بنقط متميزة بقوة الجريان فيها. وقد تأسست أرحاء الماء الطاحنة للحب منذ تأسيس المدينة واستمر إنشاؤها مواكبة للتطور الديمغرافي الذي شهدته المدينة، وهذا ما جعل ابن الخطيب في إطار وصفه لفاس: يقول بأن «أحجارها طاحنة»[٢].

لقد أحصى الوزان أربعمائة طاحونة كل واحدة تحتوي على عدة أرحاء، وأضاف بأن عدد الأرحية وصل إلى ألف رحى[٣]. لذلك فمعدل الأرحية بكل طاحونة تراوح بين اثنين وثلاثة. والأرحى هي الحجر الذي يطحن الزرع أو غيره من الحب تحصل حركته بالماء، أما الطاحونة فهي البناية التي تضم الأرحية.

واشتغل بالطواحين عدد هائل من العمال وصل إلى عشرين ألفا[٤]. وقد قاموا داخلها بطحن الحبوب للزبناء من أرباب المنازل، وللدقاقين المتخصصين في إنتاج وتسويق الدقيق بالمدينة، وقد امتلك بعض هؤلاء (الدقاقون) طواحين لهذا الغرض[٥].

وقدَّم أرباب المطاحن خدمة الطحن للزبناء الذين يحملون الحب في أكياس خاصة بذلك، مقابل مال أو دقيق بمبالغ أو أقساط محددة.

---

(١) الكتاني، محمد بن جعفر بن ادريس: سلوة الأنفاس في محادثة الأكياس، ج١، ص ص: ١٩٠-١٩١.

(٢) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٢.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٣٣.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣.

(٥) نفسه، ص: ١٨٧.

وأسهمت عمليات طحن الحبوب في اشتغال بعض العمال بحمل الدقيق إلى أرباب المنازل من الأرحى[1]. ولا شك أنهم قبل ذلك كانوا يحملون الحب من المنازل إلى المطاحن مقابل أجر بسيط كان يدفع من طرف أصحاب المنازل أو أرباب المطاحن.

بالإضافة إلى الأرحية التي اشتغلت آليا بالمياه، تم طحن الحبوب داخل المنازل أرحية يدوية مكنت الناس من الحصول على الدقيق اللازم للعيش. إلا أن أهميتها قليلة مقارنة مع أرحية الماء.

وصحبت عمليات الطحن وإنتاج الدقيق ممارسة حرفة جمع «النخالة»، وهي ألياف الحبوب تفصل عن الدقيق بعد غربلته داخل البيوت والمنازل. وقد كان النخالون يتجولون في أرباض المدينة يستبدلون هذه المادة بأشياء مثل المكانس[2] أوالشطاطيب. ثم يبيعون ما يجمعونه إلى البقارين الذين يستخدمون النخالة علفا لماشيتهم.

٢- عصر الزيوت:

كانت حبوب الزيتون أهم مصدر للحصول على الزيت الذي يستخدم في التغذية إضافة إلى الإنارة وغيرها.

ولذلك الغرض، توفرت فاس على معاصر الزيوت التي تنقل إليها أحمال الزيتون خاصة في موسم جني المحصول -عادة ما توافق مع موسم الحرث المتزامن مع فصلي الشتاء والربيع-. وقد وقعت معاصر الزيتون على أبواب المدينة وخاصة

---

(١) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص: ٧١.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١.

بابي عجيسة والفتوح، نظرا لأهمية موقعيهما كمدخلين رئيسيين إلى المدينة من المناطق الغنية بأشجار الزيتون، وقد سبق القول عن غنى المناطق المحيطة بالمدينة من جهتها الشمالية والشمالية الشرقية بحبوب الزيتون[١].

لقد تكونت المعاصر بدورها من أرحاء أو أحجار تطحن الحب، لكنها تدور باستخدام طاقة الدواب. وتميزت هذه الأحجار بأشكالها الدائرية ودوران كل حجر منها على محور عمودي ثابت بحوض من حجر أيضا قاعدته منصوبة على الأرض. كما اشتملت المعاصر أيضا على المكابس التي توضع فيها أكياس من الحلفاء[٢]، تعرف حاليا بالشوامي، يُوضع فيها مسحوق الزيتون قصد عصره من الزيت. بالإضافة إلى السلال التي يوضع فيها حب الزيتون والأواني التي تملأ بالزيت المعصور والمصفى من الماء ومما شابه من أوساخ وغير ذلك.

ومثلت المياه أيضا مادة أساسية معتمدة في عمليات طحن الزيتون وعصره، إذ بها كان يغسل الحب وتنظف الأواني والأدوات المعتمدة في الطحن والعصر واحتواء الزيت.

وقد اشتغل بمعاصر الزيتون عمال تعددت تخصصاتهم، فمنهم من كان يشرف على عملية الطحن، ومنهم من كان يشرف على عملية العصر، فضلا عن العمال الذين يحملون الزيتون ويفرغونه ويخلصون المعاصر من بقاياه ويحملون الزيت.

---

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٢٨؛ Massignon:Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, Carte VII, P: 95.

(٢) لوتورنو، المرجع السابق، ص: ١٢٩.

٣- طبخ الخبز:

تمت عمليات طبخ الخبز في الأفران التي كانت تتوزع بالأحياء السكنية للمدينة. ويلفت ابن الخطيب نظر القراء إلى كثرة الخبز الذي يطبخ بالأفران قائلا في حديثه عن مدينة فاس أن «مخابزها شاحنة»[١]. ويرجع هذا الأمر إلى كثرة الأسر القاطنة بدور المدينة، إذ كانت كل أسرة تطبخ خبزها بأقرب فرن بعد أن تتم عملية عجن الدقيق في البيت. وعادة ما كانت توضع علامة على خبز كل أسرة تميزها عن غيرها حتى لا تختلط خبز الزبناء في الأفران[٢]، وقد اختص أرباب بعض الأفران اختصوا في عجن وطبخ الخبز بهدف بيعه في دكاكين خاصة بأحياء المدينة. كما مارس بعض الدقاقين هاته الحرفة أيضا[٣]، لكن المحتسب ألزم كل منتج للخبز بوضع طابع خاص على الخبز التي يعرضها للبيع، وذلك بهدف تجنب الغش والتدليس فيها وتسهيل المراقبة من طرفه.

لم أقف في المصادر التاريخية على عدد الأفران. لكن الإحصاء الذي يتزامن مع الفترة الموحدية قدَّر عدد الأفران في فاس بـ ١١٧٠ فرن[٤]. وهو دليل على أهمية عدد الأفران في الفترة المرينية الوطاسية بالنظر لما شهدته المدينة من تطورات سكانية احتاجت إلى مثل ذلك العدد أو أكثر منه.

---

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٢.

(٢) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ١٢٨.

(٣) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٨.

(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٨؛ الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٤٤.

٤- الجـزارة:

احترفها الجزارون الذين كانوا يقومون بذبح وسلخ البهائم، من بقر وغنم وماعز وإبل، وتفصيل لحومها وعرضها للبيع. وقد تموضعت المجزرة وسط المدينة قريبا من النهر[١]، لتوفر المياه التي تحتاجها أعمال الذبح والسلخ. كما يمكن تبرير تواجدها هناك قريبا من مخرج المدينة بالمحافظة على صحة وسلامة السكان والمارة من روائح وفضلات الذبائح التي كانت مياه وادي فاس تنقلها بعيدا.

لقد خضعت المجزرة للمراقبة تجنبا للغش والتدليس. وكانت اللحوم بعد ذبحها وسلخها تنقل إلى دكاكين الجزارين قصد بيعها قريبا من العشابين بعدوة القرويين وبحومة صاريوة[٢] في عدوة الأندلس. وعرفت أسواق الجزارين بيع اللحم إلى جانب الشحم وسقط الذبائح والأكارع والرؤوس. وقد فضل أهل فاس لحم الضأن يليه في الأهمية بالنسبة إليهم لحم البقر ثم لحم الماعز فلحم الجمال الذي بيع لذوي الدخل الضعيف في الأحياء العامة التي يتردد عليها ضعاف القوم.

وقد استعمل الجزارون في حرفتهم مجموعة من الأدوات كالأشياء الحادة مثل السكاكين وغيرها والقطع واللوحات الخشبية التي يفصل ويقطع عليها اللحم، إضافة إلى الموازين والصنجات التي يوزن ويباع بها اللحم[٣].

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ١٢٩-١٣٠.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس، ص: ٤٢.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٧؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٢؛ ابن الأحمر وآخرون: المصدر السابق، ص ص: ٢٤-٢٥.

٥- صيد الحوت:

تسمى المحترفون بها بالحواتين الذين اشتغلوا بصيد الحوت وبيعه. وقد زخرت مياه وادي فاس ونهر سبو بأنواع من السمك أهمها الشابل المتميز بكبر حجمه ولذة طعمه والبوري والليبس والسيناج والبوقة[١].

وكانت الردود[٢] تكترى من طرف الصيادين بإذن من الإمام أو من ينوب عنه، وبموجب ذلك يسمح للمكترين باصطياد أنواع السمك مقابل تأدية قدر معين من المال وصل إلى عشرين ألف مثقال[٣]، وهو ما يعد دليلا على امتلاك أحباس القرويين لردود الوادي التي تقوم بكرائها للصيادين لمدة محددة قصد الانتفاع منها.

واقتصرت أوقات صيد الحوت في الشهور الممتدة بين شهري أكتوبر وأبريل[٤]. ويُفَسَّر ذلك بكون هذه الشهور عادة ما نشطت فيها عمليات الصيد بفعل سقوط الأمطار، وما يصاحب ذلك من ارتفاع منسوب المياه وخروجها عن مجاريها، مما كان مساعدا للصيادين على جمع الحوت واصطياده، إضافة إلى بساطة تقنيات الصيد ، وإقبال السكان على تناول الحوت في الشهور الباردة من السنة وماله من دور في

---

(١) الحميري، محمد بن عبد المنعم : الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤ ، ص: ٦٠٦؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٣٥.

(٢) جمع رد، وهي الأماكن المعوجة داخل المياه التي يستقر فيها الحوت وتعرف أيضا بالمضارب والمشارع، يمكن الرجوع إلى: الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس، تقديم وإعداد: هاشم العلوي القاسمي، ص: ٣٦٢.

(٣) مجموع أوله شرح منظومة العمل الفاسي: مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٤٤٧د، ص: ١٤.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٧؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٢.

تنشيط عمليات الصيد.

لقد عرض الصيادون الكميات المصطادة من الحوت في أسواق المدينة، وبعضها وُجِّه إلى مدينة مكناسة. وكان الحوت يدخل في الوجبات الغذائية للسكان داخل البيوت، وبعضه يطبخ في الدكاكين. وقد بيع الحوت غير المطبوخ في فاس بأثمان رخيصة لكثرة العرض، إذ لم يتجاوز سعر سمكة واحدة من الشابل فلسا واحدا. كما بيع الحوت أيضا بالوزن(١).

٦- الملاحـون:

توفرت مادة الملح في الأسواق بفضل عمل الملاحين ، وذلك بإنتاجهم لهذه المادة الغذائية التي تستعمل في تهييء الأطعمة وتحافظ على جودة عدة مواد غذائية. إضافة إلى استعمالاتها الأخرى غير الغذائية.

واعتُبِرت الملاَّحَة المتواجدة في محيط المصر(٢) من الجهة الغربية الممتدة على مسافة ثمانية عشر ميلا من مجشر الشاطبي إلى وادي مكس(٣) مصدرا غنيا بالأملاح. وكانت هذه الملاحة تكترى من طرف المحترفين بإنتاج وجلب الملح لمدة تحدد مع الجهة التي تمتلكها وهي مؤسسة الحبس بفاس. لذلك كانت عقود الكراء تتيح للملاحين القيام بجمع كميات الملح ومعالجتها وتنظيفها ثم نقلها إلى فاس قصد بيعها(٤).

---

(١) نفسها، الحميري: المصدر السابق، ص: ١٥٢.

(٢) المصر هو: المدينة أي فاس مادام الحديث عنها في البحث.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٣٥.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ج١ ص: ١٨٥.

وقد بيع الملح بأسواق فاس بأثمان رخيصة إذ وصل ثمن الحمل درهما واحدا، والحمل هو ما تحمله الدابة على ظهرها، وقدَّرَه ابن أبي زرع بعشرة أصوع[(١)]. لكن أسعار الملح كانت ترتفع كلما قلت كمياتها وازداد الطلب عليها[(٢)]. وكانت دكاكين تتواجد بوسط المدينة قريبا من مجمع الحمالين متخصصة في بيع الملح[(٣)].

٧- عمل اللبن:

اشتغل بهذه الحرفة اللبانون الذين تخصصوا في توفير الحليب والألبان بدكاكينهم التي تموضعت بعدوة القرويين قريبا من القطانين[(٤)]. وقد تزودوا بالحليب واللبن من البقارين المنتجين لهاتين المادتين. وكانت عمليات نقل هاتين المادتين إلى دكاكين اللبانين تتم في دنان خشبية مطوقة بالحديد ضيقة في فمها وعريضة في قعرها. وتمكَّن اللبانون بفضل تلك العمليات من القيام بتهييء وبيع اللبن الطري والحامض والرائب في محلاتهم[(٥)]. حيث كانت حرفتهم لا تتمثل فقط في البيع، بل في تحويل الحليب إلى رائب أو لبن أيضا. كما يبيعون الزبد الذي يستخلصونه من الحليب إلى السمانين[(٦)] بالمدينة.

واحتاجت هذه الحرفة لمهارة يدوية بسيطة ولآنيات يوضع فيها الحليب ومشتقاته، ويمخض فيها الرائب عند تحويله إلى لبن. وعادة ما كانت أواني الفخار أساسية في ذلك. أما عمليات البيع فكانت تتم في الآنيات التي يحملها الزبناء.

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس، ص: ٣٥.

(٢) نفسه.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٥.

(٤) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥١.

(٥) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص ص: ١٨٤-١٨٥.

(٦) نفسه.

٨- عمل السمن:

السمن مادة غذائية يتم تحويلها من الزبد عن طريق تمليحه. ونعت الحرفيون القائمون بذلك بالسمانين ، مما يعد دليلا على شيوع استهلاك السمن مملحا من طرف الناس في وجباتهم الغذائية آنذاك . وقد كان مربو الأبقار متخصصون في تجميع السمن بقصد بيعه. ومارس هذه الحرفة أيضا أشخاص يشترون الزبد أو السمن من البقارين أو اللبانين، ثم يبيعونه في السوق المخصص لذلك، كان موجودا بالقرب من سوق الدخان[1]، حيث بيعَ السمن الموضوع في أوراق الكُرْنب بالمزاد العلني بوساطة من الدلالين إلى جانب مواد غذائية أخرى كالعسل والزيت. وأوراق الكرنب المذكورة كانت متوفرة بسوق الخضر[2]، لكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة في البيع. إذ أن كميات السمن المعروضة استوجبت أيضا توفر أصحابها على آنيات أخرى من الفخار[3] أساسا.

٩- عمل الإسفنج:

تلقب أصحاب هذا العمل بالسفاجين ، وحرفتهم هي صنع وبيع نوع من الفطائر يدعى الاسفنج، وكان تهييئه يتم بطريقة يتقنها أصحاب هذه الحرفة، حيث يعجن من الدقيق ثم يقلى في الزيت، فيصبح جاهزا لتناوله في وجبة الفطور[4].

---

(١) نفسه، ص: ١٨٦.

(٢) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص: ٥٤٢.

(٣) تدعى بالجرار وكان حجمها يتسع لـ١٥٠ رطلا بيع فيها الزبد والعسل، ورد ذلك عند الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٦-١٨٧.

(٤) نفسه، ص: ١٨٦.

لقد اشتهر سوق الإسفنج منذ فترة سابقة لبني مرين[١]، وكان ينعت بسوق الدخان لكثرة الأدخنة المتصاعدة في الهواء نتيجة القلي في زيت الزيتون. وهذا الزيت مثل إلى جانب الدقيق مادتين أساسيتين في تهييء الإسفنج.

وتقنيات هذه الحرفة يدوية استعملت فيها آنيات الطبخ والعرض وموضع النار.

لقد تواجدت حوانيت السفاجين قريبا من العشابين على الزقاق المفضي إلى عين علو عبر الجزارين، وهو الزقاق المؤدي إلى الطريق الغربية الممتدة من العطارين في اتجاه باب الشريعة[٢].

وقد تحدث الوزان عن بيع كميات كبرى من الإسفنج كل صباح بفعل الإقبال الكبير على ذلك. فسوق الدخان من الأسواق الشعبية كان الناس يتوافدون عليه بكثرة، ورواده من البسطاء.

١٠- طهي الأطعمة:

شهدت فاس طبخ بعض الأنواع البسيطة والخشنة من الأطعمة في دكاكين خاصة. كان البسطاء والفلاحون يضطرون إلى تناولها ليسدوا بها رمقهم.

وقد احتضنت الدكاكين الواقعة بسوق الدخان وحول سوق الخضر عمليات طبخ هذه الأنواع مثل الأكارع التي كان الفلاحون يتناولونها باكرا،أي عند

(١) الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٤٥.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٦-١٨٨.

الإفطار[1]. كما شهدت دكاكين أخرى صناعة كرات من اللحم المفروم الذي يخلط مع كثير من التوابل ويقلى في الزيت ثم يقدم كطعام، ومصدر اللحم المفروم البقر الهزيل -أي المتقدم في السن- الذي بيع بثمن أرخص[2].

لقد احتاج طباخو هذه الأنواع من الأطعمة لآنيات الطبخ عادة ما تكون معدنية أو فخارية استعملت بوضعها على النار للطبخ فيها، وآنيات من الخزف والفخار يقدمون فيها الطعام، ومكان توقد فيه النار داخل الدكاكين. أما المواد التي احتاجوا إليها فكانت قريبة من دكاكينهم تتمثل في الخضر والتوابل واللحم المفروم والسقط والزيت وغيرها. وعادة ما استعان الطباخون بغلمان في حرفتهم.

تم تقديم أصناف الحرف الغذائية الضرورية البسيطة بفاس. وقد تميزت بعضها بتعدد وتنوع التقنيات المستخدمة فيها وارتفاع حجم المنتوجات التي تحولها، وكثرة العمال والزبناء، كما هو الأمر بالنسبة للمطاحن والمعاصر والأفران، وقد كانت مصنوعات هذه الحرف أساسية في تغذية السكان وفي تزويد أرباب الحرف الغذائية الأخرى بما يحتاجونه من مواد. وتجتمع أصناف الحرف المذكورة إضافة إلى ذلك في بساطة تقنياتها وآلياتها رغم التركيب الذي يميز بعضها نسبيا.

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٦.

(٢) نفسه.

المبحث الثالث

صناعات النسيج والملابس

هذا هو الفرع الثالث من الحرف الضرورية البسيطة. ويشمل بالإضافة إلى نسج الأثواب وخياطة الملابس ، نسج الحصائر التي يأتي ذكرها مع هذه الحرف لتشابه تقنيات نسجها مع تقنيات نسج الأثواب. وتعتبر حرفة الحياكة أهم صنف في هذا الفرع من الحرف،حيث كانت تشغل عددا كبيرا من العمال، وتبعتها في الأهمية حرفة الخياطة، في حين كانت الحرف الأخرى وضيعة اشتغل أصحابها فقط بإعداد المواد التي يشتغل عليها النساجون.

وسيتم تناول أصناف حرف فرع النسيج واللباس الضروري البسيط بالتدرج حسب التسلسل الذي يربطها، حيث ستتصدرها الحرف التي اختص أربابها في تهييء المواد الأولية المستعملة.

١-عمل الصوف:

اشتغل بهذا العمل حرفيون اختصوا في شراء الأصواف التي كانت تجز[١] من الأغنام التي يملكها مربوها في البادية، ثم تنقل وتباع في أسواق المدينة ومحيطها. ودعي هؤلاء الحرفيون بالصوافين الذين كانوا يشترون الأصواف ليقوموا بغسلها وتنظيفها وتشميسها وجمعها[٢] وعرضها للبيع للمهتمين بتحويلها داخل المدينة وخارجها. وقد أشارت بعض الأبحاث إلى تصدير قسم منها إلى الأسواق الخارجية

---

(١) الجز هو قطع أصواف الأغنام كل سنة على يد الجزازين، والجزة هي مجموع الصوف لكل رأس من الغنم.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص: ٢١٥

من بينها الأسواق الأوربية[1].

وقد استعان الصوافون بالغسالين في تنظيف الأصواف. وكان هؤلاء الغسالون يعملون أيضا في تنظيف أشياء أخرى غير الأصواف مثل الملابس والفرش والأغطية لأصحابها على مياه وادي فاس في عالية فاس الجديد[2].

٢- غزل الخيوط:

اختصت النساء في هاته الحرفة. وقد كن يقمن بتهيئة مواد الصوف والقطن والكتان للنسج[3]. واعتمدن في صنعتهن على تقنيات بسيطة، فقد كانت المرأة الغازلة تقوم بنفش وتنظيف المادة التي ستشتغل عليها، ثم تشرع في فتلها وتمديدها باستعمال حركات اليدين والرجلين ولولب خشبي تجمع فيه الخيوط يساعدها في عملها، يسمى بالمغزل، وبعد انتهائها من الغزل تجمع الغازلة الخيوط وما صنعته في ربطات تكون جاهزة للاستعمال من طرف النساجين.

وقد غُزلت مادة الصوف بكثرة مقارنة مع القطن والكتان. والدليل على ذلك بيع الصوف المغزول في سوق خاص قرب درب سلمى[4] بمركز عدوة القرويين، في حين كان غزل القطن يعرض بسوق خاص بالمكان الذي يبيع به القطن غير المغزول[5] -أي القطانين-، ولم ترد معلومات عن مكان بيع غزل الكتان، وهو مؤشر

(١) Dufourcq : L'espagne Catalane, P : 68-85.

(٢) لوتورنو: فاس قبل الحماية: ج١، ص: ١١٠.

(٣) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص: ٤٢٠؛ ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٨.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ١٣٤؛ Massignon:Le Maroc, P:232

(٥) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥١.

على ضعف الكميات المغزولة منه. وقد عملت الإماء[1] والحرات من النساء في الغزل داخل المنازل، وكانت الحرات منهن محترفات في الغزل يتسلمن الصوف أو غيره من الزبناء ثم يقمن بالغزل مقابل أجر يحدد في البداية[2].

٣- الحياكة:

هي الصناعة الرئيسية في نسج الأثواب، كان محترفوها يُدعون بالحاكة أو النساجين. وينعتهم العوام بالدرازة نسبة إلى الأطرزة التي اشتغلوا داخلها.

وقد أورد الخزاعي التلمساني في معنى النسج قائلا: «نسج الثوب ينسجه وينسجه نسجا، والصفة نساجة، والموضع مِنسج ومَنسج...». وقال أيضا: «أصل النسج ضم الشيء إلى شيء... أي ضم السدى إلى اللحمة»[3]. وأضاف ابن خلدون عند حديثه عن الحياكة أنها «نسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإلحاما في العرض، وإحكاما لذلك النسج بالالتحام الشديد، فيتم منها قطع مقدرة من الأكسية من الصوف للاشتمال، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس»[4]. ويستنتج من هذه النصوص أن عمل النساجين تمثل في مد خيوط السدى طولا، وخيوط اللحمة التي تكون أدق منها عرضا، ثم تجمع عن طريق نسجها باستعمال أدوات الحياكة التي تكمن أساسا في المناسج أو المرمات والأدوات الملحقة بها كتلك التي تحرك بها الخيوط بين اليمين واليسار من المنسج[5] المصنوع هو وأدواته

---

(١) ابن القاضي: المصدر السابق، ج١، ص: ٣٢٤.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٥٤.

(٣) الخزاعي التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٠.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٨.

(٥) هذه الأداة تعرف حاليا عند الدرازة بـ«النزق»، وتمكن من مد لخيوط الأفقية التي تمتد على عرض الثوب المعد لنسج.

من الخشب، والناعورات التي تجمع وترتب فيها الخيوط قصد نسجها. ويستخدم النساج أثناء عمله في المرمة بحركات اليدين والرجلين التي تفيد في جمع وضم السدى إلى اللحمة عند النسج. ويساعد النساج متعلمون ينوب بعضهم عنه أحيانا في النسج ويهيئ آخرون المواد التي تعد لنسجها، ويجمعون الأثواب المنسوجة.

وقد وصل عدد الأطرزة بفاس خمسمائة وعشرين دارا توزعت على الأحياء والأزقة، خاصة في المناطق النشيطة القريبة من الأسواق التي تزود النساجين بحاجياتهم من المواد الأولية ويسوقون بها منسوجاتهم. وتكونت كل دار مخصصة للنسج من ما بين طابق واحد وثلاثة، وكل طابق يتكون من قاعات فسيحة وتضم كل قاعة عدة مناسج يعمل في المنسج الواحد عنصران. وامتلك النساجون المناسج والآلات التي ينجزون فيها أعمالهم، واكتروا القاعات من مالكيها، وشغَّلت الحياكة عددا كبيرا من العمال بلغ عشرين ألف عامل[1].

ومارست النساء بمنازلهن أيضا عمليات النسج التي كن تتعاون فيه[2]. وكانت بعض أصناف المنسوجات من اختصاصهن غير التي كانت تصنع بالأطرزة، وذلك بغرض أن يتمكن من تسويقها وبيعها حتى تتجاوزن منافسة النساجين في الأثواب التي يصنعونها بكميات كبيرة وتباع بأثمنة أكبر من التي تباع بها الأنسجة المنزلية.

وكانت الأثواب المنسوجة من القطن والكتان تستعمل في الملبوسات، في حين كانت المنسوجة من الصوف تلبس أو توضع فوق ملابس القطن أو الكتان،

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٣.

(٢) القباب، أبو العباس أحمد: مجموع أوله شرح منظومة العمل الفاسي، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ١٤٤٧د، ص: ٢٢٤.

وتستعمل أيضا كأفرشة وأغطية.

٤- تلميع نسيج الكتان:

تخصص في هذه الحرفة أصحاب محلات تواجدت بحي القلقليين من عدوة فاس القرويين[١].

ولم تتحدث الكتابات التي أشارت إلى تلميع هذا النوع من المنسوجات عن طبيعة المواد والتقنيات المستعملة في ذلك. لكن الراجح هو أن بساطة نسيج الكتان وخشونته كانت تستدعي تلميعه حتى يلقى الإقبال عند البيع. ويحتمل أن تدخل المحاليل المعدنية والنباتية في التلميع الذي أعطى لهذا النوع من النسيج زخرفة بسيطة. ولعل النسيج الذي تم تلميعه هو القماش المزوق الذي كان يباع بسوق الخميس[٢] لأهل البادية وضواحي المدينة بشكل خاص.

٥- الخياطة:

عرف ابن خلدون هاته الحرفة بأنها «*تقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل بالمقراض قطعا مناسبة للأعضاء البدنية ثم تُلْحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلا أو تنبيتا أو تفسحا على حسب نوع الصناعة*»[٣] ويفهم من هذا التعريف أن حرفة الخياط هي تفصيل الأثواب عن طريق استعمال التقدير على جسم الإنسان بأخذ القياسات، ثم قص الثوب إلى القطع المقدرة بالمقص أو

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٢، لازال هذا الحي معروفا بهذا الاسم يحتضن زاوية سيدي عبد القادر الفاسي على يسار المتجه من مدخل الرصيف المحدث.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٥٥.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤١١.

المقراض، ثم خياطة القطع باستعمال الإبرة والخيط حسب نوع الخياطة المطلوبة، التي تختلف حسب تقارب وتباعد الخيوط المعتمدة في تلحيم القطع.

لذلك فالمهارة اليدوية للخياط اعتبرت أساسية في تحويل المنسوجات إلى ملبوسات، وأشار ابن خلدون أيضا إلى أن سكان البادية كانوا يميلون إلى لباس الأثواب منسوجة دون خياطة عكس سكان الحضر الذين أقبلوا على ارتداء الأثواب المخيطة(١).

لقد احتوت أسواق فاس على المواد والأدوات التي اعتمدها الخياطون، فإضافة إلى المنسوجات التي وفرتها دور النسيج، توفرت بأحد الأسواق مادة الخيط كانت تباع به هذه المادة(٢)، كما صنعت الإبر بالمدينة وبيعت الأمقاص والقالات(٣)التي استعملت في القياس

وكانت حرفة الخياطة تتم بدكاكين داخل المدينة، كما مورست أيضا داخل البيوت. فقد ضمت إحدى أزقة القيصارية دكاكين خاصة بالخياطين، إضافة إلى دكاكين أخرى بعدوة الأندلس غير بعيد عن وادي فاس(٤).

---

(١) نفسه، ص ص: ٤١١-٤١٢.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١.

(٣) القالات: جمع لقالة وهي أداة تقاس بها الأثواب عند بيعها أو تفصيلها بقصد خياطتها، وقد استعمل في مدينة فاس نوعين من القالات هما: الكتانية طولها ٥٥ ستيمتر والقالة الدرازية طولها ٤٦ ستيمتر، للاطلاع على ذلك يتم الرجوع إلى : المنوني : أبحاث مختارة، ص: ٨٥، وورقات، ص: ١٤١.

(٤) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص ص: ١٤٩، ١٥٥؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٤.

وتنوعت الملابس التي صنعها الخياطون، فشملت ملابس نسوية وأخرى ذكورية، والتي اختص البزازون في بيعها ،إذ انتشروا في أهم أسواق المدينة. كما بيعت بعض أنواع الملابس في الأسواق الخارجة عن فاس

٦- الحصارة:

تدخل الحصارة ضمن حرف النسج للتشابه في الآليات والتقنيات بينها وبين حياكة الأثواب. ويُعرف المحترفون للحصارة بالحصريين أو الحصايريين[1]، إذ يصنعون الحصر التي هي بسط من الخوص تفرش على الأرض وتغطي بعض الأنواع منها الجدران، وفي هذه الحالة تنعت بالحياطي في إشارة إلى تغطيتها للحيطان.

واعتمد الحصايريون في أعمالهم على خوص الدوم والحلفاء وغيرها، كانت تلحم بشرائط مصنوعة من الدوم أو الحلفاء أو القنب، وذلك بنسجها في المرمات على الطريقة التي تم الاشتغال بها في المرمات الخاصة بالأثواب مع وجود تغيير بسيط تجسد في دقة تقنيات حياكة الأثواب مقارنة مع نسج الحصر.

واحتاجت حرفة الحصارة لأعمال أولية تمثلت في إعداد مواد النسج، وخاصة القنب وفتائل الدوم والحلفاء أو مواد أخرى مثل «السمار» حتى تصبح جاهزة للاشتغال عليها. إذ يتم مد هذه المواد فوق المنسج ثم تنسج من طرف الحصايري ومساعديه لتصبح جاهزة، ويعد تحويلها إلى حصر مختلفة في النوع والشكل والأبعاد

---

(١) بوشعراء، مصطفى: الحصارة بمدينة سلا، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع٢٤، ٢٠٠١، ص: ١٢٧.

تباع للزبناء بدكاكين الشراطين المتخصصة في صنع وبيع القنب[1]، مما يوضح التداخل بين صناعة القنب ونسج الحصر.

وكانت بعض الحصر تزخرف بالأصباغ الملونة، توضع بواسطتها أشكال هندسية على واجهتها تضفي عليها جمالا.

كان أهل البادية والمدينة زبناء للحصايريين أو التجار الذين يبيعون الحصر. وقد احتاجت المساجد بدورها إلى عدد كبير من الحصر، حيث كان نظار الأوقاف والمشرفون على شؤون المساجد يكلفون الحصايريين بصناعة ما يحتاجونه منها بشروط يتم الاتفاق عليها مسبقا.

مكنت حرف النسج وصناعة اللباس من سد بعض ضروريات الإنسان بالمدينة ومحيطها، فأتاحت وقاية جسمه من الحر والبرد داخل المنازل وخارجها حتى يكون مستعدا للقيام بما هو مؤهل له.

(١) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥١.

المبحث الرابع

حرف الخدمات

الخدمات هي الأعمال التي أنجزها أشخاص داخل المدينة لبوا بواسطتها حاجيات أنشطة متعددة. ويعتبر عمل الحمالين أهم الخدمات المقدمة حيث قاموا بنقل الأمتعة والبضائع. إضافة إلى عمل الدلالين الذين مثلوا وسطاء في بيع وشراء عدة أنواع من المواد والمنتوجات. وقد تميز الممارسون لهاتين الحرفتين بكثرة العاملين فيهما، وبإحكام تنظيم أعمالهما، والتعاون والتآزر بين المحترفين بهما.

تباينت الحرف الخدماتية من حيث الفئات المستفيدة من أعمالها، إذ كان الحمالون والدلالون يخدمون عامة الناس، في حين خدمت الحرف الأخرى مثل أعمال الحراس والغسالين الصناع والتجار بشكل خاص، وقدم السقاؤون والخدم طاقاتهم ومهاراتهم لفائدة أرباب المنازل، وسهر الحجامون على تطبيب عامة الناس ووقايتهم من الأمراض، في الوقت الذي اختص فيه البياطرة في علاج الدواب.

١- الحمل و النقل:

مارس هذه الحرفة الحمالون الذين عملوا بحمل ونقل البضائع والأمتعة ومواد مختلفة داخل أسوار المصر[1] عبر الأزقة والدروب والأحياء والشوارع، كما كانوا أحيانا ينقلون بعض المواد من وإلى ظاهر المدينة مثل مواد وبقايا البناء، وقام الحمالون في بعض الأوقات بنقل الأخبار والرسائل إذ تولوا الإعلان عنها في أرجاء المدينة[2].

---

(١) المصر مصطلح يرادف المدينة كما أورده ابن خلدون، وسياق الحديث هنا عن مدينة فاس، الرجوع إلى المقدمة، ص ص: ٤٠٠-٤٠١.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ٤٦، ٨٢.

ومثلت الدواب من الحمير والبغال وأحيانا الخيول وسائل رئيسية عند الحمالين. وقد تميزت بنية المدينة بتوفرها على المرافق التي تمكن من إيواء الدواب كالأرويات أو الإسطبلات، والفضاءات والمساحات المخصصة للرعي داخل المدينة وحولها.

وقد استعمل الحمالون في حرفتهم بالإضافة إلى الدواب أدوات أخرى قليلة وبسيطة مثل الأكياس والحبال، ولوازم الدواب من برادع وغيرها. مما كان يساعدهم في حمل ونقل البضائع ذات الحجم والحمولة المرتفعين أحيانا، وكان الحمالون أيضا ملزمين أثناء عملهم بارتداء كسوة خاصة تتسم باللون الموحد والقصر[١].

وصل عدد الحمالين بفاس في الفترة المرينية ثلاثمائة شخص ينتمي جلهم لقبيلة إزرزاين البربرية. وقد عُرِفوا إلى وقت قريب بزرزاية نسبة إلى القبيلة المذكورة التي كانت تستقر بالمغرب الشرقي، ثم انتقلت إلى فاس منذ تأسيس هذه الأخيرة[٢].

كان عمل الحمالين يتم بصفة جماعية، وهو ما استوجب تنظيما ضمانا لاستمرار الحرفة وخدمتها لمن يحتاج إليها. حيث كان يتم تقسيم المنخرطين في الحرفة إلى فرق لكل واحدة رئيسا بحوزته صندوق تجمع فيه النقود المحصلة من طرف أفراد الفرقة. ويشرف أمين الحمالين في نهاية كل أسبوع على توزيع النقود على أفراد الحرفة.

مثلت الأبواب والساحات وملتقيات الطرق، أهم النقط التي كان يتجمع فيها

---

(١) نفسه، لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٨١.

(٢) Bernoussi Saltani : Les serviteurs de la cité, Fès médiévale « entre légende et histoire, un carrefour de l'orient à l'apogée d'un rêve, dirigé par Mohamed Mezzine, ;éditions Autrement, Paris, Série Mémoires N° : 13, 1992, PP : 184-187 لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٨١

الحمالون كي يكونوا رهن إشارة الزبناء. لكن الساحة التي كانت موجودة بمركز عدوة القرويين حول أهم أسواق المدينة في المكان المعروف حاليا بالنجارين مثلث موقعا رئيسيا لتجمع الحمالين.

تعامل الحمالون مع زبناء مختلفين أهمهم الحرفيين والتجار. وكان للجزارين حمالين خاصين بهم ينقلون لهم اللحم من المجزرة، الواقعة آنذاك على الوادي الفاصل بين العدوتين، إلى دكاكينهم عن يمين الخارج من العطارين إلى عين علون، ومكن عمل الحمالين من نقل الحبوب للتجار ولأرباب المطاحن من خدمة أصحاب الحمامات والأفران عن طريق حمل ما يحتاجونه من مواد توقد النار [١]. ولم يستفد من عمل الحمالين الحرفيون والناشطون المذكورون فقط، بل استفاد منه أيضا سكان المدينة وغيرهم.

٢- الدلالـة:

كان المتخصصون فيها ينعتون بالدلالين جمع دلال، وهي حرفة مهمة القائمين بها الوساطة في عمليات بيع وشراء البضائع بأسواق المصر، والدلال دعي أيضا بالسمسار [٢]. كانت مهمته هي عرض السلع على الراغبين في شرائها، والمناداة بصوت عال بثمنها، ثم تسليمها لمن قدم أكبر ثمن بعد رضى البائع به.

لقد اشترطت في شخص الدلال شروط الثقة والأمانة، اعتبارا لقيمة المعروضات التي تسلم له وتودع لديه قصد بيعها، وتجنبا لبخس حقوق البائع والمشتري. وقد أقر الفقهاء هذه الشروط في شخص الدلال بعد نقاش بينهم حول

---

(١) نفسها.

(٢) الخزاعي: تخريج الدلالات السمعية، ص ص: ٧١٨-٧١٩.

مشروعية ممارسة الحرفة. حيث توصلوا إلى ليتم الاتفاق على جوازها شريطة أن تكون الأجرة معلومة[١].

نظم الدلالون حرفتهم بفاس، إذ تواجدت فرقهم في أهم الأسواق، وكان كل واحد منهم يقوم بحمل البضاعة أو عينات منها إذا كانت الكمية كبيرة، ويطوف بها على الراغبين في شرائها من المتوافدين على الأسواق مساء كل يوم. حيث كانت تنطلق الدلالة من بعد الظهر إلى وقت متأخر من المساء. ويتم الشروع في الدلالة بعد افتتاح الثمن من أحد الزبناء أو من شخص عارف بقيمة البضاعة على أن لا يتم البيع له باعتباره فاتحا لسوم البضاعة فقط. وتدفع البضاعة لمن قدم الثمن الأكبر الذي يتوصل به البائع بعد خصم أجرة الدلال التي حددت في فلس واحد لكل درهم بالتقريب في أنواع من البضائع[٢]. لذلك فأجرة الدلال هي نسبة محددة من مبلغ البيع.

كان عمل الدلالين أيضا ذا صفة جماعية، حيث يجتمع هؤلاء بالسوق ويقوم بعضهم، موازاة مع عمليات الوساطة في البيع، بتدوين المبيعات، مما يوضح أن جمع الأجر وتوزيعه بينهم في نهاية الأسبوع كان أمرا حاصلا كما هو الشأن بالنسبة للحمالين. ورغم عدم توفر إحصاء حول العدد الإجمالي للدلالين، فإن المؤشرات المتوفرة حولهم تدل على كثرة العدد، فقد وُجِد في سوقين فقط مائة وثلاثون دلالا[٣].

ونشطت عمليات وساطة الدلالين في بيع مجموعة من السلع والمنتجات

(١) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص ص: ١٩٢-١٩٣؛ المهدي الوزاني: تحفة أكياس الناس، تحقيق:مولاي هاشم العلوي القاسمي، ص ص: ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٧؛ المهدي الوزاني: المصدر السابق، ص: ٢٣٩.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، الصفحة نفسها.

بالأسواق الكبرى خاصة بعدوة القرويين، ونذكر منها : القيصارية[١]التي سوقت بها الأثواب والأحذية ، وسوق الأقمشة الصوفية الغليظة الذي تموقع بالجوطية الحالية، وسوق الملف الذي بيعت فيه أصناف من الأقمشة المستوردة من أوربا اختص الغرناطيون في بيعها بأسواق باب السلسلة، وسوق الزيت الذي بيع فيه أيضا السمن والعسل والجبن والزيتون وعرف هذا السوق بقاعة الزيت، إضافة إلى سوق الكتبيين[٢].

٣- الحـراسة:

مارسها الحراس الذين اشتغلوا بحماية ممتلكات السكان والحرفيين والتجار داخل المدينة من النهب أو السرقة أو الحرائق أو ما قد تتعرض له من أذى. وعرف الحراس أيضا بالعسس[٣] دلالة على العسة التي تكون في الليل.

كانت حرفة الحراسة تمارس بوجود الحارس في المنطقة التي يتولى حراستها، إذ يغلق الأبواب ويراقب الحركة مستعينا في ذلك بوسائل كالفوانيس والكلاب والسلاح[٤] مثل العصي وأنواع من الأدوات الحادة التي تمكنه من الدفاع عن نفسه وعما يحرسه، وملاحقة وقبض من يهاجمه أو يريد السطو على الأشياء التي تحت نظره.

---

(١) تعد القيصارية من الأسواق المهمة في فاس تقع بين جامع القرويين (من جهة القبلة) وسوق العطارين (من شمالها) وسوق الشماعين (من جنوبها).

(٢) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٩؛ الوزان: المصدر السابق، الصفحة نفسها؛ المقري: أزهار الرياض، ج٤، ص: ٢١٣.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ٤٧، ٧٥، ١٦١.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ص: ١٩٠.

وعمل الحراس على حماية أسواق المدينة الرئيسية كالقيصارية وسوق العطارين وأسواق باب السلسلة، إضافة إلى مختلف الأحياء والمرافق التجارية والحرفية والسكنية. فقد تكلفوا بإحكام غلق الأبواب ومراقبة ما يوجد خلفها من بضائع وأمتعة وممتلكات، وذلك بالمكوث بها طول الليل مع نوم بعضهم في الأسواق أحيانا، حيث يوقظون من نومهم عند حدوث خطر ما[1].

التزم التجار والحرفيون والسكان بدفع أجور الحراس الذين يخدمونهم ولعل الأجور كانت تدفع بصفة جماعية من طرف أمناء الأسواق ومسؤولي الأحياء.

٤- الغسل:

الغسل أو التصبين لذلك عُرف أصحاب هذه الحرفة بالغسالين أو بالصبانين، واشتغل بها الرجال والنساء ، فكانوا يقومون بغسل وتصبين الثياب والأصواف وما شابهها من أغطية وأفرشة.

واعتبرت المجاري المائية والأماكن القريبة منها مفضلة في ممارسة الغسل والتصبين وذلك لأهمية الماء في هذه الحرفة، حيث يعد المادة الرئيسية التي تكاد تكون الوحيدة، إذا تم استثناء استعمال مواد للتنظيف مثل الصابون [2]. وبالنظر لأهمية الماء كانت للغسالين محلات وأماكن داخل المدينة وفي ظاهرها من الجهة الغربية، حيث يجري وادي فاس. فبداخل المدينة استقر الغسالون بدكاكين في الطالعة الكبرى أسفل السراجين في أكثر من عشرين دكانا، واشتغل آخرون بدكاكين متفرقة بالمدينة وصل عددها مائتين، وبخارج المدينة سكن الغسالون بأكواخ وصل عددها مائة

---

(١) نفسه؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٠؛ لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٤٧.

(٢) بنعبد الله: معطيات الحضارة المغربية، ج٢، ص: ٧١.

تواجدت على مياه الوادي بعالية فاس الجديد. وأصول ساكني هذه الأكواخ من البدو الذين هاجروا إلى فاس ومارسوا هاته الحرفة الوضيعة وقطنوا حيا وضيعا أيضا [١]. وكان هؤلاء على مقربة من مياه الوادي التي استغلوها في غسل وتصبين ما يقدمه لهم الزبناء من ملابس وأصواف وغيرها، في حين أن غسالي المدينة كانوا أحسن حالا بامتلاكهم للدكاكين التي يحملون إليها المياه ويغسلون ما يقدمه لهم الحرفيون أو التجار أو قاطنو الأحياء. إن كثرة عدد الغسالين وانتشارهم في مواقع مختلفة من مجال المدينة وضاحيتها، يفسر الحاجة الملحة إليهم وتنوع زبائنهم الذين تنوعت أنشطتهم من منزلية إلى اقتصادية تمثلها التجارة والصناعة.

واستلزمت حرفة الغسالين التوفر على مجموعة من الأدوات والآليات باعتبارها وسائل في ممارسة الحرفة. فقد كان لأصحاب الدكاكين منهم أوانٍ كبيرة تشبه الأحواض [٢]، تحوي المياه المستعملة في عمليات الغسل والمنقولة إليها من الجداول المائية أو من العيون والسواقي الموجودة بمناطق متعددة من مجال المِصْر. وإضافة إلى الأواني الكبرى احتاج الغسالون لآنيات صغرى يحملون بها الماء وينظفون داخلها الثياب أو الأصواف أو غيرها، فضلا عن قطع الخشب والحجر التي نعتت بالمصابن، والتي توضع فوقها المواد المراد تنظيفها ويفرغ عليها الماء ومواد التنظيف الأخرى، ثم يضرب عليها -إن تطلب الأمر ذلك- بقطع خشبية بالشكل الذي يخلصها من الأوساخ.

وقام الغسالون إضافة إلى الغسل والتنظيف بتشميس الأصواف والثياب

(١) المهدي الوزاني: المصدر السابق، ص: ٢٢٣.

(٢) مارمول؛ المصدر السابق، ج٢، الصفحة نفسها.

وجمعها وترتيبها[١] قبل تسليمها لأصحابها.

٥- السقـاية:

تدل على جلب الماء إلى المنازل أو إلى عابري المدينة. والإشارات المصدرية إلى هذه الحرفة قليلة، مما يبرر قلة شيوعها نظرا لكثرة المياه بالمنازل والأزقة. لكن مع ذلك احتاجت بعض الأسر إلى سقي الماء من مكان موجود خارج البيت الذي تقطنه[٢]، وذلك ما كان يضطرها إلى استئجار سقاء للقيام بذلك. وقد مارس بعض الأشخاص حرفة سقي الماء للمارة، بوضعه داخل قربة جلدية[٣] والطواف بالأزقة الكثيفة المرور يزودون الظمأى منهم بالماء مقابل أجر ونشطت حرفة هؤلاء في فصل الصيف لشدة الحرارة وكثرة الحاجة إلى الماء البارد الذي تحتويه قِرَبهم.

٦- الحجامة:

عالج محترفو الحجامة عدة أمراض أصابت الإنسان كالقروح وأمراض الصدر والشرايين والبرد وغيرها، إضافة إلى قيامهم بأعمال واقية للصحة مثل الختان والحلاقة.

وتمثلت تقنيات الحجامة في معالجة الأمراض في مواقع المحاجم بنقط متعددة من جسم الإنسان. وقد تم العلاج بطرق وتقنيات عدة أهمها الحجامة الجافة، وتجري بوضع الكأس فوق منطقة الألم، والحجامة الرطبة وذلك بشرط المنطقة المعالجة بآلة حادة تتيح خروج الدم، والحجامة باستعمال النار والكي لمواطن

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، الصفحة نفسها.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: نيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٥.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٧٤.

المرض[1]. ويفيد كل نوع من الأنواع المذكورة في علاج أمراض محددة. وتتوحد هذه الأنواع في كونها تمكّن من إزالة الدم المتعفن وتحسين دورته داخل الجسم وتوارده على مناطق معينة فيه.

يقوم الحجام أيضا بعمليات ختان الأطفال المعروفة أيضا بالإعذار، عن طريق إزالة جلدة من إحليل الطفل بواسطة أداة المقص أو الخيط ووضع الدواء على الجرح[2] بعد سيلان دم يسير.

مارس الحجام أيضا الحلاقة بإزالة الشعر من رؤوس الرجال والأطفال بواسطة أدوات كالأمقاص والمواسي والأمشاط. وقد استقر الحلاقون داخل الحمامات يمارسون حرفتهم هناك مقابل تأديتهم أجرا معلوما لأصحابها[3]، ومارسوا الحرفة أيضا بالدكاكين والأضرحة والأسواق والمنازل.

اختص الحجام في علاج أمراض الفم والأسنان، فكان يقلع السن أو الضرس الذي يسبب الألم لصاحبه باستعمال الكلاليب، كما عالج أمراض اللوزتين والحلق بالجراحة أو باستعمال النار والكي[4].

كانت حرفة الحجام تقتصر أحيانا على أحد التخصصات السابقة وتجمع أحيانا أخرى بين بعضها أو جميعها، لكن فئة الحجامين ضمت أشخاصا كانوا يعالجون

---

(١) الشطشاط، علي حسين: تاريخ الجراحة في الطب العربي (من القرن ٣ إلى القرن ٧هـ/ ٩ إلى ١٣م) رسالة دكتوراه في التاريخ، إشراف: ابراهيم حركات ومحمد بن سودة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٦-١٩٩٧، الجزء٢، ص ص: ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) نفسه، ص ص: ٥٧٦-٥٧٧؛ الونشريسي: المعيار المعرب، ج٨، ص: ٣٤٤.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٠.

(٤) بنعبد الله: العلوم الكونية والتجريبية، ص: ٩٨؛ الشطشاط: المرجع السابق، ص ص: ٥٠٢-٥٠٣.

الأمراض دون أن يكونوا ضالعين وعارفين بتقنيات العلاج، مما جعلهم ينعتون أحيانا بالجهلة.

٧- البيطرة:

كانت حرفة البيطرة تتم بالعناية بالدواب عن طريق وضع الصفائح في سنابكها[١]، وعلاجها من بعض العيوب والأمراض. إذ كان البيطري يقوم بعد تسلمه الصفائح من الحداد بتثبيتها في أرجل الدواب بواسطة المسامير. أما معالجة العيوب والأمراض فتمت عن طريق الكي والجرح وتحديد بعض الوصفات لها.

وكانت ضفة وادي فاس من جهة عدوة القرويين مجالا احتضن أيضا حرفة البيطرة بموقع قريب من الصباغين[٢]. ويُبَرَّر استقرارهم هناك ببعد المكان عن السكان وقربه من الحدادين الذين كانوا يزودونهم بالصفائح والمسامير.

وقد احتاج البياطرة في حرفتهم لأدوات تكونت من المطارق وزبرات حديدية التي يصلحون بها الصفائح ثم يثبتونها في أرجل الدواب، إضافة إلى الآلات الحادة التي يعالجون بها الدواب من الأمراض.

وقد اتهم الفقهاء البياطرة بالجهل وقلة الأمانة والورع، إذ كانوا يشخصون عيوبا في الدواب غير مصابة بها، وهو الأمر الذي كان يستغله أصحاب الدواب، فيردونها للذين اشتروها منهم بعد مدة من الاشتغال بها، وهو ما جعل الفقهاء لا يجيزون الرد في الدواب بعد مرور شهر على شرائها[٣].

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٢، ويقصد بالسنابك الأرجل.

(٢) نفسه.

(٣) أفتى في هذا الأمر الفقيه أبو محمد عبد الله العبدوسي والإمام القوري وهما من فقهاء فاس، ورد ذلك

لبت الخدمات التي قدمها الحرفيون في إطار تخصصاتهم السابقة حاجيات عامة الناس داخل المدينة. وقد تنوع الزبناء المستفيدون من الحرف الخدماتية، فكانت أعمال الحمالين والدلالين والحراس تقدم بصفة خاصة لفائدة التجار والحرفيين، أما أعمال الغسالين والسقائين فخدمت أرباب المنازل على الخصوص، في حين خدم البياطرة الحمالين بتصفيح دوابهم وإصلاح عيوبها. وقد خدم الحجامون فئة الأطفال فأدخلوا الفرحة عليهم وعلى ذويهم.

عند الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس، ص: ١٢٩.

المبحث الخامس

حرف البناء والفخار وتحويل الخشب والجلد

يعد البناء من أمهات الصنائع، ومن الحرف الضرورية في العمران، إذ يوفر المساكن أو المآوي للأبدان. وتتداخل أعمال تهييء مواد البناء في التقنيات مع صناعة الفخار بصناعة مواد البناء من آجر وزليج بنفس المواد والتقنيات التي يصنع بها الفخار.

والنجارة أهم صناعة في تحويل الخشب، ترتبط بها صناعات خشبية أخرى تلبى بمصنوعاتها ضروريات الناس، الذين كانت حاجاتهم ماسة إلى بعض المصنوعات الجلدية البسيطة أهمها النعال والأخفاف التي تُلبس في الأرجل.

المطلب الأول

حرف البناء والفخار

تمثلت حرف البناء في أعمال إعداد مواد البناء من جير وآجر وزليج إضافة إلى تشييد المباني، ومد القنوات التي تجلب المياه وتصرفها. وتمت أوراش صناعة الفخار في الأماكن التي صنعت بها بعض مواد البناء في محيط أسوارالمدينة والفضاءات الموجودة في أطرافها ، وتعتبر الأواني والقنوات التي تمر عبرها المياه أهم مصنوعات الفخارين.

١- عمل الجير:

دُعيت مادة الجير في بعض المصادر التاريخية باسم الكلس[١]، وهو ما يدل على أن أصل هذه المادة من صخور الكلس ذات اللون الناصع البياض تتخذه بعد طبخها في درجة حرارة جد مرتفعة. وهو ما عرفته أفران أو كوشات الجير المتميزة بكثرة العدد في المرحلتين المرينية والوطاسية، حيث قاربت و زادت عن العدد الذي أحصي في نهاية العصر الموحدي البالغ مائة وخمسة وثلاثين كوشة[٢]، وذلك بالنظر للحاجيات المتزايدة لهذه المادة نتيجة التوسع العمراني الذي عرفته المدينة باستمرار.

وقد توفر محيط أسوار المدينة على مواقع عمل الجير، فقد كان موضع القلة بالجهة الشمالية للمدينة غني بالصخور التي تحول إلى جير[٣]، ولا زال هذا المكان

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص ص: ٤٣٣-٤٣٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ص: ١٥٥.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٨؛ الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٤٤.

(٣) Massignon : Le Maroc dans le 16ème siècle, P P : 138 , 235-

نشيطا في هذا العمل. وكانت بعض الأماكن البعيدة نسبيا عن المدينة تزودها بحاجياتها من الجير، إذ ذكر الوزان أن الجير كان يستخرج على بعد ميل من مدينة فاس[١]، والجهات الجنوبية في اتجاه صفرو الحالية مؤهلة لذلك نظرا لانتشار صخور الكلس فيها.

وقد استعمل صانعوا مادة الجير تقنيات حفر الصخور ثم طبخها في الأفران أو الكوشات التي تبنى في موقع استخراج الصخور.

لقد تعددت استعمالات الجير في البناء، فكانت تلحم بخليطه قطع الأحجار والآجر التي يتم بها البناء، كما تُجَلَّل وتلبس به الحيطان، وتسقف به البنايات عن طريق وضعه فوق الألواح الخشبية[٢].

٢- عمل الآجر والزليج:

اعتُمِدت مواد صخرية في صناعة مادتي الآجر والزليج، لكن الثانية زادت على الأولى بالصباغة التي تطلى بها قطعها.

وقد احتوت المناطق المحيطة بفاس على كتل صخرية طينية، إذ أشار ابن الخطيب إلى أهمية هذا النوع من الصخور حين وصفه لمدينة فاس قائلا: «وطينها هائل»[٣]. فقد كانت الجهة الجنوبية بضاحية المدينة غنية بصخور الطين[٤]، التي حولها الحرفيون إلى آجر وزليج ومواد أخرى مثل الخزف، ولا زالت هذه الجهة

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ٢٢٥.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، ج١، ص ص: ٤٣٤-٤٣٥.

(٣) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٨.

(٤) Massignon : Le Maroc, P : 75.

تحتضن صناعة هذه المواد وتدعى بـ «اللواجريين» مما يشير إلى عمل الآجر بها.

كانت الأفران أيضا أهم الآليات المعتمدة في عمل الآجر سواء الذي يوجه للبناء أو الذي يحول إلى زليج. فالاختلاف بين قطع الآجر والزليج كان في الأبعاد فقط أما المواد والتقنيات فمتشابهة، إذ صنعت قطع الآجر مستطيلة وسميكة أما قطع الزليج فمربعة وضعيفة السمك. وقبل أن تطبخ القطع المذكورة في الأفران يتم خلط المواد الصخرية التي تدخل في صناعتها بالماء، ثم تفرغ في القوالب وتُشَمَّس. وعادة ما كانت الأفران الموجودة في محيط المدينة تصنع الآجر والزليج، إلا أن الوزان ذكر أن بعضها اختص في عمل الآجر فقط[1].

لقد مكنت عمليات طبخ الآجر والزليج في الأفران من تميز قطعهما بالصلابة، لكن قطع الزليج توجه بعد خروجها من الأفران لتصبغ منها الكميات المطلوبة بألوان مختلفة قبل تحويلها من طرف النقاشين إلى قطع صغيرة ومختلفة الأشكال كي تصبح جاهزة للفرش في المباني.

٣- البناء:

تعد هاته الحرفة أساسية في إنشاء المآوي للسكان . وتتميز بتعدد الأشغال المنجزة بواسطتها، المتمثلة في حفر أساسات الدور والمنازل بعد تخطيطها، ثم بناء الأسوار وأدراج السلاليم، ومد السقوف، وتركيب الأبواب والنوافذ، إضافة إلى بناء القرميد وتلبيس الجدران...

ويساعد البناؤون في هذه الأشغال متعلمون يستخدمون لديهم يتدربون على ممارسة مهارات وتقنيات حرفة البناء، كما يستأجرون أشخاصا يعتمدون على

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٢٥.

طاقاتهم العضلية في الحفر وحمل ونقل مواد البناء.

لقد اعتمد البنّاء على مادة الجير في البناء أو البني، والتي كانت تحلل بالماء، ثم «تخمر لمدة أسبوع أو أسبوعين على قدر ما يعتدل مزاجه (الجير) عن إفراط الناريَّة المفسدة للإلحام»[1]. بمعنى أن جودة خليط الجير لا تحصل إلا بعد الالتحام والانسجام الكبير بين أجزائه، حيث إن تعمير البنايات الطويل كان يستلزم جودة مواد البناء ومنها خليط الجير المستعمل في أشغال البناء.

ويتم الشروع في أعمال البناء بحفر أساس المبنى حيث كان البناء يبنى سور هذا الأساس بالحجر الملحم بالجير، ثم يتبع ذلك بناء الأسوار بالآجر أو الطوب[2]، وقد بنيت بالآجر معظم دور فاس العتيقة وبعضها بني بالحجر[3] أو الطوب، وهي المواد نفسها التي شيدت بها دور فاس الجديد. وتحتوي الدور المبنية على سلاليم تؤدي إلى المستويات الفوقية، التي بنيت بنفس الطريقة التي شيدت بها الأسوار لكنها اختلفت معها في التصاميم التي رُوعِي فيها تعدد الأدراج والانعطافات. واشتغل البناؤون أيضا بتسقيف المباني عن طريق تثبيت الدعائم الخشبية (الكايزة) بين سوري كل واحدة، ومد الألواح (الورقة) الخشبية فوقها، ثم إفراغ خليط الجير والتراب فوقها.

كما أشرف البناؤون على تركيب فصائل الأبواب والنوافذ في المداخل والفتحات، وثبتوا الشبابيك الخشبية (المشربيات) بالشرفات المنفتحة داخل المنازل.

وبعد الانتهاء من هذه الأشغال تتم عمليات تجليل الحيطان[4] وتلبيسها بخليط

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٣.

(٢) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص ص: ١٤٤-١٤٥.

(٣) نفسه.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٣١٤؛ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر عثمان:

الجير، ثم تبييضها[1] بخليط محلول الجير والجبص من طرف حرفيين مختصين أو من طرف مساعدي البنائين.

لقد احتاجت أشغال البناء المذكورة إلى أدوات تميزت بالبساطة، فأعمال البناء اعتمدت بدرجة أساسية على المهارات اليدوية. وما دامت أدوات البناء متشابهة بين الأمصار والأقطار، وفي ظل ندرة الإشارات المصدرية إليها، يمكن الرجوع إلى ما توفر من ذلك من معلومات على قلتها واستثمارها بالشكل الذي يوضح الصورة عما شهدته فاس، فقد أشار ابن الرامي في إطار حكمه في نازلة عُرضت عليه حول الإجارة والجعل في البناء، أن الأدوات التي على البنَّاء توفيرها هي القفاف والفؤوس والدلاء، وأوجز هذه الأنواع في عبارة واحدة هي «آلة البناء»[2]. لذلك كانت الأدوات الثلاث أساسية في أعمال البناء، إذ أن القفاف التي كانت تصنع بفاس[3] استعملت في حمل مواد البناء، والدلاء في حمل الماء، والفؤوس في أعمال الحفر وخلط مواد البناء وماشابهها. وقد ذكر ماسينيون[4] أن أداة الفأس كانت شعبية في القرن ١٠هـ/١٦م أي منتشرة الاستعمال، وأورد ابن الأحمر كلاما وضَّح فيه أن هذه الأواني وغيرها كانت تعرض للكراء بفاس.

وتطلبت عمليات البناء أيضا آنيات كبرى تفرغ فيها المياه وآلات أخرى للحفر

التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، دون تاريخ، ص: ٩١.

(١) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص ص: ١٤٤-١٤٥؛ بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة، ص: ٨٧.

(٢) ابن الرامي، محمد بن ابراهيم اللخمي: الإعلان في أحكام البنيان، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم ٦٦٨ د، ورقة ٣٤.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٢.

(٤) Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16 siècle, P : 220.

وإعداد مواد البناء مثل المسحاة والمعول والعتلة[1] وكلها مصنوعة من مادة الحديد ومقابضها من العود.

٤- مد القنوات:

القنوات أو القني هي التي كانت تزود المباني بالمياه المستعملة في الشرب والأشغال المنزلية، أو التي تصرف عنها المياه المستعملة في اتجاه المعدات[2].

ودعي المتخصصون في هذه الحرفة بالقنويين ،كانت أعمالهم تتمثل في ربط المباني بالفرع الرئيسي للماء عن طريق مد قناة بينهما تمكن من تزويد القاطنين هناك بالماء. وتطلبت هذه الحرفة من القنويين معرفة وخبرة بالتقنيات الهندسية للسطح الذي تمد فوقه القنوات وبجريان الماء التي يعبر قواديس الفخار[3]، حيث إن قوة الجريان تعد وسيلة في مد المباني بمرافقها ومستوياتها بالكميات الكافية والمستمرة من المياه. فالمباني وما تحتويه من مرافق كبيوت الطهارة والسقايات المنزلية والخصات أو البيلات والمطابخ وغيرها إضافة إلى تعدد مستويات المباني، استدعت كميات كافية من المياه توزع بواسطة قنوات معدنية على وحدات البنايات.

وقد اعتُمدت قنوات الفخار أيضا في صرف المياه المستعملة المتجمعة في المعدات التي تحفر في محيط المنازل.

وقد استعان القنويون في أعمالهم بمستخدمين يساعدونهم في حمل القنوات وخلط مواد البناء التي تربط بين القنوات، وحفر المحاور التي تمد فيها القنوات،

---

(١) العمري: الحرف والصناعات في الحجاز، ص: ١٩٨.

(٢) المعدات: جمع معدة وهي حفرة كبيرة الحجم كانت تسمح باحتواء المياه التي تصرف من المنازل.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٧٢.

والمعدات التي تفرغ فيها القاذورات.

ولم تكن كل المنازل مزودة بالقنوات المائية، فقد كان الكثير منها تحتوي فقط على العيون والآبار[١]، وكان عدد منها يتزود بالماء بسقيه من السقايات الموجودة في محيطها.

٥- صناعة الفخار:

مثَّل الطين مادة أساسية في صناعة الفخار. وكانت الأواني المنزلية والقنوات المائية أهم منتوجات الفخارين. وقد عُرف الفخارون أيضا بالقلالين نسبة إلى القلال كنوع من الأواني المنزلية، ودعيت إحدى حومات فاس بالقلالين داخل سور المدينة من جهة باب الفتوح[٢]، تميزت بوجود مقبرة بها، وهو ما يرجح أنها كانت في فترات سابقة فضاءات فارغة تحتضن أنشطة من بينها صناعة الفخار التي استغلت فيها الصخور الطينية، واستخدمت فيها وسائل أهمها الأفران التي كانت تطبخ فيها المصنوعات الفخارية.

واحتضن المحيط الخارجي للأسوار من الجهتين الشرقية والجنوبية[٣] صناعة الفخار إلى جانب بعض مواد البناء، إذ جمعتها المواد الأولية والطبخ في الأفران.

وبالنسبة للمواد الأولية المستعملة في صناعة الفخار فأهمها الطين بنوعيه

---

(١) نعتها ابن خلدون بالجباب وتحدث عن بنائها داخل المنازل بفاس، ورد ذلك بالعبر، ج١، ص: ٤٣٥.

(٢) الأنصاري، محمد بن محمد بن عبد الملك الأوسي المراكشي، أبو عبد الله : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، تحقيق: محمد بنشريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، القسمان الأول والثاني، ١٩٨٤ ص: ٣٦٦.

(٣) الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص: ٤٤؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤٠.

اللمطي ذو اللون الداكن الذي يصبح مائلا إلى الحمرة عند تعريضه للشمس والنار، وغير اللمطي الذي يتخذ الفخار المصنوع منه لونا أبيضا[١]. ولعل النوع الأول محلي، والنوع الثاني كان يجلب من مناطق بعيدة عن فاس، إذ أشار ماسينون[٢] إلى أن المناطق الواقعة جنوب فاس تمتد بها جبال مزدغة الغنية بالمواد التي يصنع بها الفخار.

لقد أنتجت دور الفخارة الفاسية الأواني المستخدمة في الأشغال المنزلية كالقدور التي تطبخ فيها الأطعمة، والقصعات التي يهيء فيها عجين الخبز، والقلال والأقداح والحلابات[٣] التي توضع فيها السوائل وأواني أخرى لطبخ وحفظ وتقديم الأطعمة من خبز وحليب ولبن وزيت، إضافة إلى التي استعملت في أغراض غير منزلية مثل الجرار ذات طاقة استيعابية وصلت مائة وخمسين رطلا كان يضع فيها الزياتون الزيت للمتاجرة فيه[٤]، والآنيات التي استعملها الحرفيون والتجار في مراحل الإنتاج والتخزين والعرض.

وإضافة إلى الأواني المذكورة آنفا، صنع الفخارون أيضا القنوات المائية[٥] التي تمر منها المياه العذبة المستعملة. وقد اختلفت أحجام القنوات الفخارية المصنوعة حسب اختلاف كميات المياه العابرة لها. وكانت بعضها مكشوفة تمر في المناطق

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٣.

(٢) Massignon : Le Maroc, PP : 75, 81.

(٣) ورد مصطلح الأقداح عند التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٥، الذي وصف ناحت الأقداح بالفخار، وأجاب القباب فيمن كسر آنية «الحلابة» وذلك في مخطوط مجموع أوله شرح منظومة العمل الفاسي، الخزانة العامة، رقم ١٤٤٧د، الرباط، ص ص: ٢١٨، ٢٢١.

(٤) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٦.

(٥) عرفت أيضا بالقواديس حسب ما جاء عند الونشريسي: المعيار المعرب، ج٧، ص ص: ٥٢-٥٣.

الفارغة من البنايات وتزود الحدائق والبساتين أساسا بالماء، أو مطمورة تحت الأرض بالأزقة والدروب وتحت المباني.

ساهم حرفيو البناء والفخار في توفير المآوي للسكان وتجهيزها، وتوفير الأواني الفخارية للأنشطة التي تمت داخل المنازل. وقد لبت صناعة الفخار أيضا حاجيات التجار الذين نقلوا المصنوعات الفخارية من فاس إلى الأصقاع القريبة والبعيدة إذ انتشر استعمال أهل السودان للفخار الفاسي.

المطلب الثاني

تحويل الخشب والجلد

تم تحويل هاتين المادتين إلى مصنوعات كانت ضرورية في العمران. وتعد النجارة أهم فروع تحويل الخشب، زود الحرفيون بواسطتها أهل المدينة وغيرهم بما يحتاجونه من أبواب ونوافذ وألواح وأعمدة خشبية، كما نشطت حرف خشبية أخرى بفاس مثل نشارة الخشب وصنع القباب والأوعية والأمشاط. أما الصناعات التي حولت مادة الجلد، فمنها إعداد مادة الجلد بنزع الصوف منها وتطريتها، وصناعة وإصلاح ما يحتاجه الناس من النعال والخفاف التي تلبس في الأرجل، إضافة إلى صنع الدلاء الجلدية.

١- تحويل الخشب:

سيتم تناول الصناعات الخشبية حسب تسلسلها وهي: النشارة والنجارة وصناعة القباب والأمشاط.

- النشارة:

مارسها النشارون الذين اشتغلوا بقطع أو نشر الخشب. وهي حرفة أولية لصناعات خشبية أخرى، قام النشارون فيها بإعداد وتهييء القطع الخشبية المختلفة الأشكال والأبعاد من جذوع الأشجار التي تعتبر مادة أساسية لديهم. وقد دعيت المشاغل أو المحلات التي مورست فيها هذه الحرفة بالمناشر. والتي تموضعت

بالمداخل الرئيسية للمدينة ببابي الفتوح وعجيسة[1]، كما وجدت مناشر أخرى على ضفة وادي فاس من جهة عدوة الأندلس اشتغل فيها الأسرى المسيحيون مقابل قوتهم طيلة أيام الأسبوع باستثناء أيام الجمعة وأعياد المسلمين[2]، مما يوحي بأن المناشر التي اشتغل فيها هؤلاء الأسرى كانت تابعة للدولة، لكن وجودها بالمدينة العتيقة قد يفسره تزويدها للمعالم الوقفية بما تحتاجه من أخشاب، في حين أن مناشر البابين الرئيسيين المذكورين استهدفت تزويد سكان المدينة بحاجياتها من الخشب، وكانت معظم الأخشاب التي تنتجها توجه إلى محلات النجارة.

واعتمد النشارون في حرفتهم على الطاقة العضلية، وعلى أداة «المناشير» المتعددة الأحجام والأشكال التي استخدمت في قطع ونشر الخشب، إضافة إلى بعض الأدوات الحادة الأخرى. وكانت الغابات المحيطة بالمدينة أو البعيدة عنها نسبيا مصدرا رئيسيا لمادة الخشب.

- النجـارة:

ذكر ابن خلدون بأن هذه الحرفة تدخل ضمن الحرف الضرورية في العمران[3]، إذ لبت منافع أهل البادية والمدينة. لكن العمران البدوي كان لا يحتاج إلا إلى البسيط منها مقارنة مع العمران الحضري. وقد ميزها التركيب في التقنيات إلى الحد الذي تحولت أحيانا إلى حرف تلبي الكمالات.

وكان الخزاعي التلمساني قد عرَّف النجار بأنه هو صاحب النجر، وحرفته

---

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤٠.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣؛ Massignon: Le Maroc, P: 235

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٠٥.

النجارة، كما عرف النجر بأنه نحت الخشب[1]. وعن تقنيات عمل النجارة أضاف ابن خلدون أن صاحبها يحتاج إلى «تفصيل الخشب... إما بخشب أصغر منه، أو ألواح ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة»[2].

وبفضل هذه التقنيات حول النجارون الخشب إلى مصنوعات مختلفة مثل الأبواب والنوافذ التي تركب بمداخل وفتحات المباني، والكراسي التي تستعمل في الجلوس، والصناديق بأحجامها المختلفة تخصص لوضع الأمتعة، التي ينقش ويزين بعضها ويرصع بالعاج[3]،كما صنع النجارون أيضا خزانات الكتب، والعماريات[4] أو المحفات[5] التي تزف فيها العرائس إلى أزواجهن،والنعش أو الآلة الحدباء[6].

ولبى النجارون بأعمالهم أيضا الحاجيات المنزلية، إذ كان النقش المحفور تقنية مميزة للأثاث المنزلي الذي استعمل بشكل محدود اعتبارا لاعتماد الناس على أنواع الأفرشة الأخرى مثل البسط والحصر والزرابي، كما صنع النجارون أيضا بعض الأواني من الخشب كالموائد التي تقدم عليها الأطعمة والرفوف التي توضع على

---

(١) الخزاعي التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٤.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٧

(٣) حركات، ابراهيم: الحياة الاجتماعية في عصر بني مرين، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع٥-٦ ،١٩٧٩ص: ٥١؛ العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، أشغال ندوة : فاس وإفريقيا،ع ص: ٩٧.

(٤) العمارية بيت صغير في قياس مقعد شخص واحد مصنوع من عود تحمل فيه العروسة على رؤوس الرجال، يطاف بها عليه ليلة زفافها. العودة إلى: الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس، ص: ٣٦٧.

(٥) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ١٣٥.

(٦) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ١٠٣، وقد نعت النعش بالآلة الحدباء إشارة إلى شكله المقبب في الأعلى، خصص لحمل الموتى.

الجدران[١].

وكانت أعمال النجارين تعتمد على أنواع من الأدوات والآلات مثل المناشير في قطع وتفصيل الخشب، والمطارق في دق المسامير لتلحيم فصائل الخشب والكماشات أو اللقاقيط في قلع المسامير[٢].

وقد اجتمعت دكاكين النجارين في مركز عدوة القرويين قرب عين علو[٣]، في الحي الذي لا زال ينعت بالنجارين وتمارس فيه الحرفة نفسها. كما احتوت عدوة الأندلس على دكاكين خاصة بالنجارة.

- صناعة القباب:

تم نعت العاملين فيها بالقبابين واشتغلوا بصناعة الأوعية الخشبية ذات الأشكال الأسطوانية[٤]، التي أفادت في احتواء أنواع من المواد السائلة كالماء والزيت واللبن وغير السائلة أهمها الحبوب.

لذلك كان القبابون في حاجة إلى أنواع وكميات من الخشب إضافة إلى قطع الحديد والمسامير.واستعملوا في حرفتهم أدوات ومهارات كانت تمكن من قطع العود ونحته وطرقه إلى أن يصبح عبارة عن قباب خشبية.

وأهم مصنوعات القبابين هي الصيعان المستعملة في كيل ووزن الحبوب وما

---

(١) نفسه، ص ص: ٣٦، ١٢٩-١٣٥.

(٢) العمري: الحرف والصناعات في الحجاز، ص: ٢٠٥؛ لوتورنو: المرجع السابق، ص: ١٤٨.

(٣) Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, PP : 232-233.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٤.

شابهها ، وفق النماذج التي كانت بحوزة أمين الحرفة[١]، وصنع القبابون أيضا دلاء وأسطلا[٢] تحمل فيها السوائل بالمنازل والحمامات وبعض الأنشطة الحرفية، واتسع حجم بعض الأوعية المصنوعة الحاملة للزيوت فوصل ما يعادل ثمانية وخمسين لترا [٣]. وكان الدباغون والصباغون يستعملون أوعية خشبية[٤] كوسائل في حرفتهم، يعد القبابون هم المؤهلون لصناعتها لهم.

واحتل القبابون دكاكين قريبة من السمارين في محيط الوادي الفاصل بين العدوتين من جهة عدوة القرويين[٥].

- صناعة الأمشاط:

الأمشاط هي أدوات ساعدت الناس في عمليات الاستحمام وغيرها واعتمد صانعوها على خشب البقس المجلوب من الريف الغربي وعلى أنواع أخرى من الخشب[٦]، حولوها إلى أمشاط بأدوات بسيطة ومهارات يدوية.

ولذلك نعت حي الذي احتضن هذه الحرفة بالمشاطين تكون من خمسة عشر دكانا تموضعت إلى الشرق من العطارين قريبا من الأبارين[٧].فحي المشاطين الموجود حاليا شرق القرويين مورست به هذه الحرفة بعد فترتي المرينيين والوطاسيين في إطار

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص: ٥٤٩؛ الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٥.

(٣) الوزان: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٤) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٧٤.

(٥) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٤.

(٦) Massigon : Le Maroc dans les premières années du 16 siècle, P : 83.

(٧) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٣.

التنقل الذي ميز أماكن الأحياء الحرفية مع مرور الفترات الزمنية.

ومن خلال ما تم ذكره عن الصناعات الخشبية السابقة يتضح أن أعمال النشارين كانت أساسية لدى الحرف الخشبية الضرورية الأخرى وعلى رأسها النجارة وقد ساهم ظهور الترف في تحول الحرف الخشبية إلى حرف كمالية ظهرت معها فروعا أخرى من الصناعات اعتمدت على الخشب كمادة أساسية في التصنيع.

٢- تحويل الجلد:

سيتم عرض حرف تحويل الجلد كذلك بالتسلسل والتي تضم تهييء وتطرية الجلود، والخرازة، والسكافة، إضافة إلى صناعة الدلاء الجلدية.

- تهييء الجلود:

يعرف أصحاب هذه الحرفة حاليا باللباطة، وكان دورهم الحرفي هو نزع الصوف أو الشعر من جلود الأغنام والأبقار والماعز، وتطريتها في أحواض الماء حتى تصبح جاهزة للتصنيع.

وكانت جلود الغنمي تعالج عن طريق نزع الأصواف منها، ثم تنظيفها. وقد اشتغل الحرفيون المختصون في معالجة هذا النوع من الجلود في مكان قريب من المجزرة الواقعة آنذاك على ضفة وادي فاس من جهة عدوة القرويين غير بعيد عن حي الصفارين. ويقرب مكان معالجة جلود الغنمي كانت تُعدُّ جلود البقري والمعزي بتطريتها في الماء وإزالة ما بها من شعر[1]، بالاستعانة في ذلك بالمواد المساعدة في إزالة الشعر. ويتميز نوعي البقري والمعزي عن النوع الأول (الغنمي) بالجودة

(١) الوزان: ص ص: ١٩١-١٩٢، مارمول: ص: ١٥٤.

وكثرة الطلب عليهما.

ويُمْكن تبرير ممارسة «اللباطة» لحرفتهم قرب الوادي بكثرة حاجتهم إلى الماء الجاري بالوادي، حيث كان ينقل في أواني خاصة بذلك تملأ به الصهاريج أو الآبار[١] التي تفرغ فيها الجلود، بعد إزالة الأصواف منها -إن كان الأمر يتعلق بنوع الغنمي- . وكان غسل الجلود بالمياه يتم عدة مرات بطريقة متسلسلة حسب تسلسل الصهاريج المعدة لذلك.

واستعان الحرفيون في تهييء الجلود بالأرجل والأيادي كما احتاجوا إلى مواد أفادتهم في إزالة الصوف والشعر من الجلود أبرزها الجير. وكانت الجلود التي تمت إزالة الصوف والشعر منها تملح حتى تحتفظ بجودتها ولا تتعفن.

- الخـرازة:

وُصفت الخرازة البسيطة الضرورية بكونها شعبية وعامة، إذ كانت مصنوعاتها موجهة لعامة الناس ذوي الإمكانيات القليلة في معظمهم. وقد صنع الخرازون الشعبيون أحذية تميزت بالتواضع والبساطة ينتعلها عامة القوم بالمدينة وسكان البوادي، ووصفت بكونها خشنة وناقصة الجودة.

واعتمد هؤلاء الخرازون في تحويل مادة الجلد والأغشية الواقية[٢] لها والخيوط التي تلحم بها، بأدوات بسيطة من قبيل الإبر والحشفات والسكاكين والأمقاص. كما كانت مهاراتهم الحرفية أيضا أساسية في صنع النعال والخفاف.

---

(١) Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, P : 223.

(٢) Massignon : Le Maroc, P : 122.

ولعل الخرازون الشعبيون كانوا مؤهلين لصناعة القرب الجلدية التي صنعت لخياطة جلد الماعز[١].

مارس الخرازون الشعبيون حرفتهم في دكاكين بأماكن متعددة من نسيج المدينة، وأهمها التي وجدت إلى جانب الإسكافيين بالطريق الغربي المتجه نحو باب الشريعة[٢]، إضافة إلى دكاكين متفرقة بالمدينة.

- السكافة:

عمل بهذه الحرفة الإسكافيون ، ولم تميز المصادر التاريخية في كثير من الحالات بينهم وبين الخرازين. لكن جلي أن ما يميز الإسكافيين هو إصلاحهم للأحذية والنعال والخفاف، مع قيامهم أحيانا بصنع بعض الأنواع ذات الأثمنة الرخيصة.

لقد اعتمد الإسكافيون في حرفتهم على أدوات وتقنيات تشبه التي استعملت من طرف الخرازين، مكنتهم من إصلاح الأحذية وصناعة الخشن منها، واحتاجوا إلى الجلد وبعض المواد الأخرى.

والحي الحرفي الواقع بالطريق الغربي الذي تمت الإشارة إلى ممارسة الخرازة به، احتضن عددا مهما من الإسكافيين، وهو معروف حاليا بحي الطرافين، احتوى على مائة وخمسين دكانا. ومارس الإسكافيون حرفتهم كذلك بمركز المدينة العتيقة، وبعدوة الأندلس التي احتوت على ثلاثين دكانا اشتغل بها الإسكافيون والخياطون[٣].

(١) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٧٤.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٤-١٨٨.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٨؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٥.

- صناعة الدلاء الجلدية:

مارس هذه الصناعة حرفيون مختصون بالطريق الغربي المؤدي إلى باب الشريعة أسفل التيالين في منطقة عين علو. واستعملت الدلاء التي كانوا يصنعونها في أغراض منزلية، إذ كانت تسقى بها المياه من الآبار [1]. لذلك فالجلد الخشن القليل الجودة كان معتمدا في صناعة هذا النوع من الدلاء والتي تتم خياطتها وتطريقها بالمسامير.

تميزت هذه الحرف التي حولت مادة الجلد ببساطة تقنياتها وقلة جودة مادتها إذ كان الجلد غير المدبوغ أو الرخيص الثمن هو المستعمل في التحويل.

من خلال ما ورد، يستنتج تعدد الحرف الضرورية البسيطة، وتنوع أصنافها، وقد لبت مصنوعاتها حاجيات سكان مدينة فاس ومحيطها. وسيتم في الفصل الموالي تناول حرف وصناعات كمالية مركبة كان قيامها على أساس البسيط والضروري من الحرف، حولتها أفكار الصناع والحرفيين إلى مركبة بتطوير تقنياتها والاهتمام بالإبداع في صناعتها تلبية للترف والغنى الذي ميز فئات داخل فاس وفي مناطق ومدن قريبة وبعيدة عنها.إن الحرف والصناعات البسيطة مكنت من تلبية حاجيات سكان مدينة فاس والبادية القريبة منها أساسا. وكانت عدة حرف من هذا الصنف تقدم منتوجاتها أيضا للعاملين في المركب والكمالي من الأعمال الحرفية.

---

(١) الوزان: المصدر السابق، الصفحة نفسها.

الفصل الثاني

الحرف والصنائع الكمالية المركبة

المبحث الأول: زخرفة المباني والفخار

المبحث الثاني: صناعات النسيج والملبوسات وتحويل الجلود

المبحث الثالث: صناعة المعادن والأسلحة

المبحث الرابع: الصناعات الشريفة

يتصف هذا القسم من الحرف والصنائع بأنه يُطلَب مع الكماليات ودواعي الترف التي تشهدها المدينة عندما يستبحر عمرانها. وقد ميز التركيب أيضا هذا القسم من الحرف مثل ما ميز حرف وصناعات مخزنية ووقفية، اعتبارا لكون التأنق فيها واستجادتها كان الغاية والهدف[1]. وقد كان للفكر دور في استنباط الحرف الكمالية المركبة من الحرف الضرورية البسيطة، إذ أن التسلسل والترابط وثيقا بينهما.

تنقسم الحرف والصناعات الكمالية المركبة إلى مجموعة من الفروع سيتم تناول كل واحد في مبحث خاص، جمعتها مظاهر الإبداع والتجديد في صنعها بالتقنيات التي استهدفت إبراز تميزها، وقد أنجزت تلك الإبداعات بفضل التنوع والدقة في الأدوات والمواد، إضافة إلى ارتفاع قيمة المصنوعات، وأهمية مواقع الأسواق، وإقبال فئات معينة من الناس عليها من ساكنة المدينة الذين نشطوا تصديرها إلى البلدان الخارجية.

---

(١) يستنتج هذا الكلام من آراء ابن خلدون تمت الإشارة إليها في تقديم هذا الباب في ص: ١٥.

المبحث الأول

زخرفة المباني والفخار

أبدعت أيادي الصانعين بالبنايات الخاصة، بالشكل الذي كان يضاهي ماميز البنايات الوقفية والسلطانية. وكان للتصاميم دور في إبداء التأنق والجمالية في البناء، إضافة إلى فرش الأرض والجدران بالزليج والرخام والجبص، وإظهار الزخارف الخشبية بمواضع مختلفة بالمباني.

وقد طبعت مظاهر التأنق والجمالية أيضا أعمال تحويل الحرفيين للأواني الفخارية إلى خزف باستعمال الأصباغ، التي طليت بها في أشكال هندسية ونباتية تعددت وتداخلت فيها الألوان.

واحتضنت مدينة فاس دُورا لصناعة الزجاج يبدو أن تقنياتها كانت تحاكي تقنيات الخزافين. واعتبرت المعالم العمرانية أهم المواقع التي استهلكت مادة الزجاج المصنوعة.

المطلب الأول

زخرفة المباني

تجسدها التصاميم التي كانت تشيد على أساسها البنايات وهي من اختصاص البنائين، كما تجسدها أيضا أشغال البناء التي دعى إليها الترف كفرش الرخام والزليج، ونقش ورقش الجبص والزخارف الخشبية بالأبواب والنوافذ والسقوف والحيطان والشرفات.

١- التخطيط والهندسة:

كان البناؤون [1] قبل شروعهم في أعمال البناء يُعِدّون التصاميم التي استفادوا فيها من منجزات سابقيهم من خلال البنايات التي كانت قائمة منذ تأسيس مدينة فاس، وكانوا ينهلون من الخصوصيات التي ميزت العمارة الإسلامية.

وقد تكونت تصاميم البنايات المرينية والوطاسية من عدة عناصر تمثلها المداخل والصحون والغرف والأروقة وغيرها. فالمداخل منكسرة ذات عطف واحد [2] يحفظ حرمة الآوين داخل المبنى أما الصحن الذي يتوسط البناية فهو شكل فناء مكشوف [3] تنفتح حوله الغرف والأروقة، ومعظم الصحون ذات أشكال مستطيلة أو مربعة تتوسطها خصات أو نافورات ماء، ويحتوي بعضها على سقايات في إحدى جهاتها،

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣١، الذي أشار إلى إنجاز البنائين للتصاميم.

(٢) وزيري، يحيى: العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، ع٣٠٤، ص: ١٧١؛ معلمة المغرب، م٣، ص: ٩٤٦.

(٣) وزيري: المرجع السابق، ص: ١٧١.

جهاتها، ودور هذه الصحون توفير التشميس والتهوية والارتباط بالفضاء الخارجي[١]. وتحتوي الدور على عناصر أخرى ثانوية كالمطابخ وبيوت الطهارة والسلاليم الرابطة بين الطوابق والمنافع الأخرى التي تكثر كلما كبرت مساحات المباني.

لقد تكونت معظم دور فاس من طابقين انسجاما مع دعوة الشرع الإسلامي إلى تجنب العلو في البنيان[٢]، ومكن ذلك من تناسق النسيج المعماري للمدينة. وحصل هذا التناسق داخل الدور أيضا التي وُصفت بأنها مجالس متقابلة[٣]، فكان الطابق السفلي منها مخصصا لاستقبال الضيوف بغرفة دُعيت بالإيوان[٤]أو القُبَّة في إشارة إلى جمالية القبات التي تزين سقوف الغرف الرئيسية، إذ ضمت الدور الكبرى قبتان فأكثر[٥].

وتتميز واجهات الصحون الأربع بامتداد الجدران عليها وانتصاب الأعمدة في الطابق السفلي، والأروقة أو الرفارف[٦] في الطابق العلوي. وتكون هذه الأروقة مسقوفة تفصل الصحون عن الغرف، وتنتهي في أطرافها بالمشربيات التي هي عبارة

---

(١) نفسه، ص ص: ١٢٣-١٢٤.

(٢) من بين ماجسد هذه الدعوة حديث شريف أجاب فيه رسول الله (ص) السائل عن أشراط (علامات) الساعة من ضمن ماأجابه به «...وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان ...» حديث رقم ٥٠، ج ١، ص ٣٢ ، صحيح البخاري ، تحقيق: صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت ،١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٦.

(٤) وزيري: المرجع السابق، ص: ١٧٢.

(٥) القلقشندي: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٦) نفسه.

عن شبابيك خشبية تصل الأعمدة وتسهم في الإضاءة والتهوية والزخرفة[١]. وتنتهي واجهات الصحون في الأعلى بحلقة يمكن للناظر منها من السطح أن يشاهد أرضية الصحن وواجهته. وتنفتح الغرف على الصحون بأبواب ونوافذ يضيق شكلها من الداخل ويتسع من الخارج[٢].

وترتبط طوابق البنايات بالسلاليم التي تحتل إحدى الأركان، وتتسم بالرتابة التي تكسرها أشكال الأدراج الموجودة في المنعطفات وتتسع السلاليم لمرور الأشخاص والأمتعة، ويمكن لعابرها أن ينتقل بين الطابق السفلي وسطح البناية.

وعلى عكس الواجهات الداخلية ميزت البساطة الواجهات الخارجية للبنايات، إذ قلت وكادت تنعدم الفتحات فيها، وإن وجدت فهي كوات صغيرة[٣] تفيد في التهوية بالشكل الذي يضفي حرمة المنازل.

أفادت هذه التصاميم في إبراز إبداعات الحرفيين وزخارفهم فأفرغوا طاقاتهم في المواضع البارزة للعيان وداخل البنايات. وكانت واجهات الصحون والغرف التي يجلس بها الضيوف مميزة في زخارفها عن العناصر الأخرى من البنايات.

٢- فرش الزليج:

إن فرش هذه المادة بالبنايات جعلت المحترفين بها يلقبون بالفراشين، حيث يقومون بتغطية أرضيات المباني وأسفل الجدران ومواضع أخرى، بقطع الزليج المصبوغة المتعددة الألوان أو غير المصبوغة التي تحمل حمرة نتيجة ما تعرضت له من

---

(١) وزيري: المرجع السابق، ص ص: ١٢٤-١٢٧.

(٢) نفسه، ص: ١٢٣.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٩١.

طبخ في الأفران.

وكانت صناعة الزليج من الصناعات التي يفتخر أهل فاس بممارستها[١]، وقد تميزت فترة بني مرين باستعمال قطع الزليج[٢] في فرش أرضيات البنايات وأجزاء من جدرانها. وأعطى التداخل والانسجام بين الألوان جمالية للأماكن المفروشة. وتكونت هذه الألوان من الأصباغ التي كانت تُدهن بها قطع الزليج، حيث تمثلت في «الأبيض والأسود والأزرق والأصفر والأخضر وما يركب من هذه الألوان وغالبه الأزرق الكحلي»[٣]، ودهن هذه الأصباغ الملونة كان من مهام اللواجريين[٤] الذين سبقت الإشارة إلى صناعاتهم للآجر وقطع الزليج. أما مهام الزلايجيين فتمثلت في فرش القطع وتشكيل الزخارف بها، بواسطة الأشكال الهندسية كالمربعات والمثلثات والمثمنات والدوائر وأنصافها وغير ذلك،وكانت الزخارف النباتية والكتابات الأدبية في تلك القطع تكاد تغيب لعدم تناسبها مع الزليج ومع البنايات الخاصة.

كان الزلايجية قبل شروعهم في فرش الأرض والجدران يقومون بتسويتها ، وقياس درجات الانحدار والاستواء بأداة «ميزان الماء»، وبعد ذلك يهيئون خليطا تدخل فيه مواد الجير والصخور والماء له دور في تثبيت القطع على الأرضيات المعدة للفرش، مستعملين مهاراتهم الحرفية في تشكيل القطع وإعداد اللوحات الزخرفية فيها، مستعينين بالأدوات والآلات اللازمة لذلك التي يستعمل البعض منها من طرف البنائين. يتدرج الزلايجي أثناء عمليات الفرش من وسط المجال الذي يتم

---

(١) ابن سودة، عبد السلام: أسماء الحرف المعروفة في مدينة فاس، دعوة الحق، العدد١-٢، ١٩٧١، ص ص: ١٠٧-١٠٨.

(٢) توري، عبد العزيز: العمارة المرينية، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٧٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٦.

(٤) ورد ذلك في حرفة «عمل الآجر والزليج» بالمبحث الخامس من الفصل السابق « من الباب الثاني .

فرشه إلى أطرافه التي تنتهي بأحزمة بارزة في أسفل الجدران وفي الشريط الذي يفصل الزليج عن الزخارف الجصية بالجدران.

٣- عمل الرخام:

حرفة العاملين فيها هي وضع أحجار الرخام في ذات الأماكن التي تفرش بالزليج. وقد أسهم ارتفاع أسعار مادة الرخام وندرتها بفاس[1] في قلة استعمالها في فرش البنايات الخاصة، عدا تلك التي امتلكها أفراد ذوو إمكانيات مالية تسمح لهم بذلك، إذ كانت منازلهم تحاكي القصور.

كانت مداخل الأبواب وممرات الحدائق وأماكن من الصحون خاصة الوسطى منها، التي توضع فيها الصهاريج أو الخصات والأعمدة وغيرها هي المجالات التي اشتغل فيها الرخاميون.

ويشرع الرخايمي في عمله بقطع الأحجار وتهيئتها وصقلها قبل وضعها على المجال المعد للفرش. وهي تقنيات يميزها التركيب خاصة حين يتطلب الأمر صناعة أحواض مجوفة تتجمع داخلها المياه. وقد اعتمدت هذه الصنعة على أدوات تمكن من القيام بالخرط والخرم والصقل[2]. كما أدمجت مادة الرخام مع الزليج في فرش المباني وهو ما أعطى لوحات منسجمة وجميلة ساهم فيها التداخل بين اللون الأبيض للرخام والأزرق الكحلي للزليج.

(١) Massignon : Le Maroc dans les premières années à la 16ème siècle, P : 75.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٥.

٤- نقش الجبص:

هي حرفة استهدفت تزيين البنايات بمادة الجبص. وتقنيات هذه الحرفة تحاكي تلك التي أنجزت بقصور السلاطين والبنايات التابعة للأحباس مثل المساجد والمدارس، لكن الاختلاف بينهما يكمن في المضمون، فقد اقتصرت الزخارف الجبصية بالمباني المدنية على التوريق النباتي والنقش الهندسي[1]، وقلت فيها الكتابات أو كادت تنعدم بحكم الخصوصية التي ميزت هذا النوع من المباني فهي ليست وقفية حتى تحمل كتابات دينية وليست سلطانية حتى تحمل كتابات سياسية.

لقد قام الجباصون بأعمال زخرفية في المباني الخاصة، إذ أسهموا بإبداعاتهم على واجهات الصحون وحواشي الأبواب والنوافذ وسقوف الغرف. وكان عملهم يبتدئ بعد فراغ البنائين من إنشاء الجدران، والزلايجيين والرخامين من فرش الأرض وما يليها في أسفل الجدران.

لقد اتسم عمل الجباصين بإنجاز الأقواس والحنايا والمقربصات بالمباني معتمدين على النقش والتوريق[2].

٥- العمل على الخشب:

تمثل هذا العمل في النقش والدهن والتشكيل . وقد شغل الخشب مواضع مختلفة من المباني استغلت فيها هذه المادة بازدواجية إذ كانت تشكل جزءا من البناء

---

(١) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص ص: ١٤٤-١٤٥، بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة، ص: ٨٧.

(٢) بنعبد الله: معطيات الحضارة المغربية، ج١، ص: ١١٦؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، الصفحتان نفسهما.

ولوحات زخرفية تزين البنايات في آن واحد. فقد نقشت الأبواب والنوافذ المصنوعة من الخشب ودهنت[1] أخشاب السقوف بالأصباغ التي زينتها، واحتوت الغرف الرئيسية على القباب المنقوشة والمصبوغة. كما كانت الواجهات العليا للصحون تغطيها لوحات الأخشاب التي وضعت لتكمل الرونق مع زخارف الزليج والرخام والجبص، وكانت هذه اللوحات بحكم بعدها عن أعين الناظر تغطيها الأدهان وتزينها النقوش.

وتبقى المشربيات أهم الزخارف الخشبية، وقد صنعت بفضل الخراطين الذين اشتهرت مدينة فاس بأعمالهم[2]. فقد ذكر ابن خلدون أن صناعة الخرط تتمثل في تهيئة قطع الخشب «ليحكم بريها وتشكيلها، ثم تؤلف على نسب مقدرة وتلحم بالدساتر فتبدو لمرأى العين ملتحمة، وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب»[3]. وقد اشتغل الخراطون بدكاكينهم شرق العطارين بزقاق رحبة القيس ودكاكين متفرقة على أحياء المدينة[4]، لكن أعمال الخراطين احتاجت إلى إتمام صنعتها من لدن النجارين الذين كانوا يلحمون المخروطات ويضمونها إلى بعضها حتى تتحول إلى شبابيك، وساهمت أعمال كلا الحرفتين المذكورتين في تزويد البنايات بالمشربيات بعد دهنها وإنهاء الاشتغال عليها فيتم تركيبها من طرف البنائين.

وإذا كانت الأدوات التي استعملها النجارون في تلحيم الدساتر معلومة لا تتعدى المطارق والمسامير، فإن الأدوات التي اعتمدت في خرط عناصر المشربيات

---

(١) وردت حرفة الدهانين عند ابن مرزوق: المسند، ص: ٤٤٨؛ وأدخلها ابن خلدون ضمن الحرف التي تتجه إلى الكماليات، المقدمة، ص: ٤٠١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٧.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٧.

(٤) الوزان وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩١؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٣.

تمثلت في آلة الخرط التي هي عبارة عن لوحة خشبية كبيرة تُمد بشكل أفقي فوق الأرض ولوحتان عموديتان إحداهما ثابتة والأخرى متحركة، ويمتد بين اللوحتين العموديتين محوران حديديان يثبتان القطعة الخشبية المراد خرطها. لكن المهارة الحرفية للخراط كانت أساسية في عمله إذ يقعُد حول الآلة التي تثبت فيها القطعة المعدة للخرط ويشتغل باستعمال يديه ورجله اليمنى، فيقبض بيده اليمنى المثقب الذي يتدلى منه خيط فيحركه، ويدير ويقرب الآلة القاطعة المثبتة في الأداة باليد اليسرى والرجل اليمنى، مما يمكنه من خرط الأشكال المطلوبة[1]. وكانت هذه الطريقة ولا زالت معتمدة لدى خراطي فاس.

واحتاجت البنايات المدنية لكميات كبيرة من المشربيات التي اختلفت أشكالها وأحجامها ووضعت أساسا في الشرفات وأعلى الأبواب والنوافذ وغيرها.

لقد أضفت هذه الزخارف المتنوعة، وما ميزها من انسجام وتناسق في إظهار التأنق والاستجادة في إنجاز المباني بفاس.

---

(١) علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر، دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، ج٣، ترجمة: زهير الشايب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٧٩، ص: ٢٣٩.

المطلب الثاني

صناعة الخزف والزجاج

عبَّرت صناعة الخزف عن تأنق سكان فاس وميلهم إلى استعمال أواني تستجيب لمظاهر الكمال والغنى. وموُرست بالمدينة صناعة الزجاج الذي وجه إلى تزيين المعالم العمرانية.

١- صناعة الخزف:

عرفت دور الفخارة بفاس تحويل أنواع من الأواني الفخارية إلى خزفية وذلك عن طريق زخرفتها بالأصباغ ذات الألوان المتعددة، التي استُخلصت من المواد الطبيعية بطرق كيميائية كان الخزافون على دراية بها. ورسمت بالأصباغ أشكال هندسية وتوريقات نباتية على أوجه الأواني الفخارية.

وقد ساهمت التقنيات الأندلسية في إغناء صناعة الخزف بفاس، سواء بتقليد الحرفيين المحليين لها، أو بممارسة الأندلسيين المتوافدين على المِصْر لها. فقد أشار الوزان إلى أن الخزف المايورقي ذو الجودة العالية كان يعرض بأسواق فاس[1]، وهو إما كان مجلوبا من بلاد الأندلس أو مصنوعا على الطريقة الأندلسية. وكيفما كان الحال فإن تأثر صناعة الخزف الفاسي بنظيرتها الأندلسية يعتبر أمرا حاصلا.

احتاجت حرفة الخزافين لآنيات الفخار التي كانت متوفرة بمعامل الفخار الفاسية وللأصباغ. واستعمل المشتغلون بها أدوات مثل الأقلام والريشات التي تتم

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٦.

بها عمليات طلي الدهان، فضلا عن آنيات بسيطة كانت تعد وتخلط وتوضع فيها الأصباغ.

٢- صناعة الزجاج:

عرفت مدينة فاس هذه الصنعة في الفترة الموحدية، إذ كانت المدينة تحتوي على إحدى عشر دارا لعمل الزجاج[١]. وتواصلت صناعة الزجاج بها في الفترة المرينية الوطاسية، إذ كانت دور العمل الخاصة بالزجاج تقع إلى جانب دور عمل الآجر خارج أسوار القسم العتيق من المدينة[٢] وهو ما يعد دليلا على تداخل عمليات صنع المادتين، اعتبارا لاعتماد الزجاج عند تصنيعه على الصخور والأصباغ والطبخ داخل الأفران. وذكر مارمول أن نسيج المدينة العتيق ضم مائة دكان للزجاجين[٣]، من الراجح أن دورها كان تجاري أكثر منه صناعي، وذلك بعرض المنتوجات الزجاجية المصنوعة محليا أو المستوردة من أوربا التي أصبحت مع تقدم العقود تعد منافسا قويا للصناعات الفاسية ومنها صناعة الزجاج[٤]. ومن غير المستبعد أن تكون دكاكين الزجاج المشار إليها مختصة أيضا في تحويل الأحجار[٥] الصلبة والصخور البلورية إلى مصنوعات عبارة عن نظم زجاجية وخرز وحلي كانت تعرض في الأصقاع البعيدة

(١) الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٤٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٨.

(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥٥.

(٣) نفسه، ص: ١٥١.

(٤) نشاط، مصطفى: ملاحظات حول المعاهدات التجارية المغربية في العصر المريني الأول، أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، كلية الآداب و ع إ، عين الشق، البيضاء، ج٢، ١٩٨٩، ص: ٦٢.

(٥) بنعبد الله: معطيات، ج٢، ص: ٨٢.

مثل بلاد السودان[١]. ولعل هذا تزامن مع تخصص اليهود في صناعة الزجاج بعد عزلهم عن الصياغة[٢]، وهم كانوا على دراية بتقنيات صنع هذه الأنواع من المصنوعات الزجاجية.

وأما الأنواع الزجاجية الأخرى، فلبت حاجيات المعالم العمرانية بوضع الزجاج الملون العراقي في النوافذ والفتحات التي عرفت بالشمسيات، إضافة إلى الزجاج العاكس للصورة المعروف بالمرايا[٣].

لقد عبرت الزخارف التي احتضنتها المباني الخاصة عن غنى العمارة المرينية الوطاسية، واستجابة صناعة الخزف والزجاج لحاجيات المجتمع الفاسي ولرغبات التجار الذين سوقوا بعض المصنوعات خارج فاس. وإذا كانت العمارة قد استمرت في تطورها وغناها، فإن صناعة الخزف والزجاج أصبحت تواجه منافسة قوية مصدرها الضفة الأوربية بمسلميها ومسيحييها.

---

(١) حافظي، علوي حسن: التجارة المغربية، معلمة المغرب، م٧، ٢٢٧٤.

(٢) السلامي، رشيد: وثائق مرينية، ج٢، ص: ١٤٠.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤، ص: ٢٨؛ النميري: فيض العباب، ص: ٢٠٦؛ الونشريسي: المعيار، ج٧، ص: ١٧١؛ التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٢، ص: ١٨٩.

المبحث الثاني

صناعات النسيج والملبوسات وتحويل الجلود

سيتم في هذا المبحث عرض تقنيات صناعة المنسوجات الفاخرة وما يتبعها من أعمال خياطة الملابس والأفرشة والأغطية. ويلي بعد ذلك التطرق للحرف المركبة التي تم بها تحويل الجلود إلى مصنوعات، إذ تعد الدباغة أساسية بالنسبة للصناعات الجلدية. وما يوحد حرف هذا المبحث هو صناعة ما يلبسه الإنسان وما يحفظ به جسمه.

المطلب الأول

صناعات النسيج والملبوسات

نزع الناس إلى التأنق في اتخاذ ما ينسج من أثواب وأغطية وكانت دُور الحياكة مكانا لصنع المنسوجات الفاخرة التي دعى إليها الترف، في حين احتضنت دكاكين الخياطين صناعة الملابس المرتفعة القيمة أبدعت فيها المهارات الحرفية. لكن الحياكة والخياطة لم تكونا الحرفتين القادرتين على توفير حاجيات الناس من المصنوعات المشار إليها، بل أسَّست لها وتَلَتْهَا حرف أخرى، سيتم تناولها لاحقا حسب تسلسلها.

١- قصر الخيوط:

عمل بهذه الحرفة القصارون الذين تمثلت مهامهم في قصر خيوط الحرير وأنواع من خيوط الصوف، وذلك بدقها وضربها وهي موضوعة في محلول منظف بالشكل الذي يساعد في تقلص وتلبد تلك الخيوط حتى تكون عمليات نسجها سهلة[1].

واحتاجت عمليات القصر هاته للمياه، وهو ما يفسر تجمّع القصارين على مجاري وادي فاس خارج باب الشريعة في اتجاه فاس الجديد، لكن بعض القصارين مارسوا حرفتهم على الوادي الفاصل بين عدوتي القرويين والأندلس أسفل المدينة العتيقة. ومجملا تم إحصاء مائة وخمسين معملا لقصر الخيوط بفاس في مروج مائية

(١) هيل: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة: فؤاد باشا أحمد، عالم المعرفة، عدد ٣٠٥، هامش، ص: ١٥١.

احتوت على مراجل وجفان تمت فيها عمليات طبخ الخيوط[١]. ومن خلال ذلك يتجلى بأن المراجل هي بيوت النار التي توضع فوقها الجفان المملوءة بالمياه المغمورة بالخيوط التي تطبخ فيها، وقد ساعدت مادة الرماد في الطبخ، حيث كانت تخلط مع المياه عند الطبخ، و حصل القصارون على هذه المادة بالطواف في المدينة وجمعها من السكان مقابل المكانس[٢].

لذلك اعتمدت عمليات قصر الخيوط على عمليات الضرب والطبخ، ولعل طبيعة الخيوط كانت تفترض عملية من العمليتين أو كلاهما. والراجح أن خيوط الصوف كانت تحتاج إلى الضرب في حين تحتاج خيوط الحرير إلى الطبخ.

لقد عرف العالم الإسلامي انتشار طواحين قصارة[٣] تم تشغيلها بطريقة آلية باستغلال طاقة المياه التي كانت تحرك الأحجار. وهو ما كان مساعدا في عمليات الضرب على الخيوط وقصرها. لكن الإشارات التي تدل على استعمال هذه التقنيات بفاس تظل غائبة في الكتابات المتوفرة.

2- الصباغة:

اختص محترفوها في صباغة خيوط الحرير ومواد القطن والصوف وأحيانا بعض المنسوجات والملبوسات. وكانت الصباغة التي يعتمدونها تستخلص من مواد نباتية ومعدنية[٤]. ويشرع الصباغون في عملهم بوضع مواد الصباغة في الماء بمقادير

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣

(٢) نفسه.

(٣) هيل: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) مطلوب، أحمد: معجم الملابس في لسان العرب، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ص: ١٧؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٤٩.

معلومة. ويتميز عملهم بتقنيات ووسائل تُمكن من تلوين الخيوط أو غيرها بعد وضعها في خليط الصباغة[١]. وكانت خيوط الحرير الموجهة للصبغ تجمع في وحدات تسمى الربطات[٢] تتيح سهولة صبغها من جهة، وقياس الكميات المصبوغة منها من جهة ثانية، في إطار العلاقة التي كانت تجمع الصباغين مع الحرارين، إذ كان الحرارون يدفعون مادة الحرير للصباغة، وإضافة إلى خيوط الحرير كان الصباغون يلونون أيضا بعض الأثواب والمنسوجات، لكن كميات هذه الأخيرة كانت قليلة.

كانت دكاكين الصباغين ولا زالت متموضعة بعدوة القرويين على ضفة وادي فاس بين قنطرتي باب السلسلة (قنطرة الطرافين حاليا) والصباغين أو جسر ابن زكون[٣]. وتوفُّر مادة الماء في الوادي يبرر تواجد الصباغين هناك، رغم أن هذا الحي الحرفي كان مزودا بصهريج جميل تتدفق فيه المياه[٤]، لكنه لم يغن الصباغين عن استغلال مياه النهر أيضا.

ولعل الصباغين استعملوا أيضا النار كوسيلة صناعية، إذ احتاجت بعض الأنواع من الصباغة إلى حرارة مرتفعة للمياه كي تصبغ بها الخيوط، وهو الأمر الذي يبرر كذلك مكان الصباغين، حيث تتوفر دكاكينهم على مكان وقد النار.

واستعمل الصباغون في صنعتهم آنيات بعضها من الحجم الكبير مصنوع من

---

(١) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص: ٣٢٣.

(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٤٩.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٤.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٢.

الخشب[1]، وبعضها أقل حجما مصنوع من الخشب أو من مواد أخرى كالأسطل والدلاء وغيرها.

وكانت الأمانة مشروطة في ممارسة حرفة الصباغة، نظرا لخطر الغش فيها مثل استعمال مواد غير مشروعة في الحصول على الصباغة[2].

وقد تعرض سوق الصباغين لحريق سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٦م فتم تجديده بأمر من السلطان أبي سعيد عثمان[3]، قصد سير العمل به وتحقيقه لحاجيات الناس إليه.

٣- عمل الحرير:

تنسب هذه الحرفة لمادة الحرير التي تعد أولية في عمليات النسج بأطرزة خاصة لذلك. وكان الحرارون يتسلمون مادة الحرير من الصباغين، أو من الدكاكين التي كانت تبيعه بالقيصارية[4]. وتتميز تقنيات نسج هذه المادة بالتطور نظرا لتعدد الألوان المستعملة في النسج ودمج الخيوط الذهبية معها أحيانا[5].

---

(١) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ٧٤.

(٢)- النويري ،أحمد بن عبد الوهاب ، شهاب الدين : نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستا تسوماس وشركاؤه، القاهرة، دون تاريخ، ج٦،ص: ٣١١؛ ابن هلال السجلماسي، إبراهيم: الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير، نسخة مصورة بمكتبة آل سعود بالدار البيضاء، تحت رقم 031 حـ ، ص: ٣.

(٣) ابن أبي زرع: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٤٩.

(٥) وردت فتاوى تنهى عن اتخاذ الأثواب المصنوعة من الحرير والذهب مما يدل على صنعها بفاس،العودة إلى ابن هلال: الدر النثير، ص: ٣، الونشريسي: المعيار، ج١، ص ص: ٣٤٤-٣٤٥.

وقد صنع الحرارون منسوجات فاخرة موجهة أساسا للنساء، مثل السباني وهي أغطية الرؤوس التي تتزين بها المرأة، والزردخاني وهو بمثابة منسوج خاص بالعرائس فضلا عن الأثواب التي تخاط بها ملابس وأحزمة النساء[١].

وكان عدد الأطرزة الخاصة بنسج الأثواب الحريرية قليل، وخاصة الأثواب التي كانت تقنيات صنعها متطورة مثل أطرزة الزردخاني الذي كان يصنع في أطرزة خاصة، وهذا النوع من النسيج لازال يحاك بطراز بحومة وادي الزحون متخصص في صنع هذا النوع من المنسوجات.

٤- عمل العقد:

تعنى هذه الحرفة بصناعة العقد التي يزخرف بها الخياطون الملابس، وتعرف أيضا بالأزرار أو البلوطات. وكانت تعد من خيوط الحرير[٢]، و لها دور تزييني للملابس. وكانت للعقادين دكاكين قليلة وسط المدينة غرب سوق الشماعين[٣]، يستنتج من المعلومات التي جاءت في كتاب «وصف إفريقيا» أنها التي تقع على الداخل إلى القطانين بعد عبوره لحي الشماعين أو الشراطين. والراجح أن العمل الذي مارسه العقادون هو تكليف النساء المحترفات بصناعة العقد في المنازل مقابل أجر معلوم، ثم تسلمها منهن وعرضها للبيع بدكاكينهم. ولازالت هذه الحرفة شائعة في أوساط النساء بفاس.

---

(١)- J. La panne – Joinville : Les métiers à tisser de Fès, Hespéris,Tome 27, P : 23 , 1949.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٤؛ الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٠.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٤.

٥- صناعة الضفائر:

كان للضفائر أيضا دور في تزيين ملبوسات النساء أيضا، بخياطتها على أطراف وحواشي الأثواب التي تكون بادية للعيان وتدعى الضفائر بالجدائل أو القيطان، يتم صنعها بتجديل وفتل خيوط الحرير مرات متوالية بطريقة يدوية من طرف مستخدمين لدى الخياطين أو العقادين، إذ كان هؤلاء الأخيرين يوفرون الضفائر للخياطين[1].

٦- طرز الأثواب:

الطرز هو وضع أشكال هندسية أو نباتية أو غيرها فوق الأثواب، عن طريق تعليمها وخياطتها بالحرير أو أنواع من الخيوط الأخرى. وقد اختصت حرفيات في هذه الصنعة، كن يقمن بطرز الأشكال على أثواب القمصان وأغطية رؤوس النساء والوسائد[2] وبعض المفروشات والأغطية ونطاقات النساء.

وقد تعاملت الطَّرازات مع الخياطين أو مع الزبناء مباشرة، إذ كن تقبضن الأثواب التي ستشتغلن عليها، مع تحديد الأجر الذي سيدفعه لهن الخياط، ونوع الطرز الذي ستقمن به، ملتزمات بتوفير الخيط والإبر والمرمات التي تعد أهم وسائل التطريز، فترسمن أشكالا معينة على الثوب ثم تطرزن الخيط ذو الألوان المناسبة عليه بالمهارات الحرفية.

---

(١) نفسه، ص: ١٨٩؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٩.

(٢) حركات، ابراهيم: الحياة الاقتصادية في العصر المريني، مجلة كلية الآداب و ع إ، الرباط، ١٩٧٨، عدد ٣-٤، ص: ١٣٥.

٧- صناعة نطاقات النساء:

عُرف أصحابها أيضا بالمجادلية[1] أو المضايمية، إذ صنعوا أنواعا من المجادل التي تحاكي في تقنيات ومواد صنعها الجدائل، حيث كانت تفتل أو تجدل خيوط الحرير بمهارات يدوية وتوضع لها المقابض فتصبح أحزمة تتمنطق بها النساء. وتميزت بعض أنواع النطاقات المصنوعة بأن لباسها يُعد مظاهر الفخر، فصُنعت عريضة واحتوت واجهتها الخارجية على ثوب مطرز في أشكال متعددة أبرزها المعروف بـ«طرز النطع» الدال على اللون الأصفر[2] تتكون مادته من خيوط الصقلي وتدمج معه أحيانا خيوط من الذهب.

٨- صناعة القلنسوات:

القلنسوة هي غطاء رؤوس الرجال. وقد ورد كلام بكتاب «بيوتات فاس» فيه إشارات إلى تقنيات صنعها، إذ ذكر صاحبه قيام صانعيها بعمليات التبطين والصبغ والتصفيف[3]. وذلك ما يتيح التعرف على مواد صناعتها، التي تكونت من ثوب سميك يكون في واجهتها الخارجية يغطيه ثوب خفيف أو تبطين من الداخل. أما صبغ القلنسوات فهو دليل على تعدد ألوانها، ولعل الصباغة كانت تتم قبل خياطة القلنسوات ، وبعد الخياطة يقوم صانعوها بتحديقها حتى تصبح جاهزة للبيع للزبناء.

وتعرف القلنسوات أيضا بالطرابيش أو الطاقيات، ولازالت بعض المحلات

---

(١) Massignon : Enquête sur les corporations, 1923-1924, P : 191.

(٢) ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، ص: ٤٦.

(٣) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٤.

تصنعها بالمدينة بزقاق البراطليين المؤدي إلى الشراطين.

٩- الخياطة:

إن دكاكين الخياطة التي تم التعرض لها عند الحديث عن الحرف الضرورية البسيطة[١] هي التي اختصت في تحويل الأثواب الفاخرة المصنوعة من مواد كانت لها قيمتها في المجتمع الفاسي إلى ملابس. ولا يختلف هذا النوع من الخياطة في التقنيات عن الخياطة البسيطة، إلا في الإضافات التي هدفت إلى إظهار التأنق. فالملابس الفاخرة المخيطة احتوت على عقد وجدائل وأشكال مطرزة. كما أن المهارات اليدوية تكون متفوقة عن التي تستعمل في الخياطة العادية البسيطة. لكن الخياطين أنفسهم هم من كان يمارس نوعي الخياطة المشار إليهما. وتميل النساء إلى البحث عن المهرة منهم لدفع الأثواب التي تردن أن تخاط بتقنيات جيدة.

١٠- صناعة الأفرشة والأغطية:

دعت أحوال الترف والدعة إلى استعمال الناس لأفرشة وأغطية صنعت من الأثواب الفاخرة، وبتقنيات الخياطة التي لحمت أطراف تلك الأثواب. وقد ساهم الحاكة والطرازات في توفير الأثواب التي صنعت منها الأفرشة والأغطية، التي استدعت اختصاص حرفيين مختصين في خياطتها. وبعد إتمام صنعتها يقوم أصحابها بحشو أثواب بعض أنواع الأفرشة بمواد الصوف أو القطن أو الكتان. ومن الأفرشة التي صنعت بفاس الزرابي والقطائف والطنافس واللحف والمساند والوسائد إضافة إلى أنواع أخرى من الأغطية[٢].

---

(١) الرجوع لحرفة الخياطة بالمبحث الثالث من الفصل السابق

(٢) النميري: فيض العباب، ص: ٢١٣؛ التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٣، ص: ٣٠٩؛

وبذلك لبت صناعات النسيج والألبسة حاجيات الناس الذين مالوا إلى طلب الكمالات في هذا الصنف من الحرف، الذي أبدع فيه الحرفيون بالتقنيات الطالبة للتركيب قصد إظهار مظاهر الحسن والتألق في التصنيع.

المقري: أزهار الرياض، ج١، ص:١٤٣.

المطلب الثاني

تحويل الجلود

مثلت الدباغة أساسا للصناعات الجلدية، إذ بواسطتها تم تحسين جودة الجلود المستعملة في عدة حرف كمواد أولية في التصنيع، سواء التي سيتم التعرض لها في هذا المطلب مثل الخرازة وصناعة أكياس النقود، أو التي سيتم تناولها عند التعرض لصناعة الأسلحة وبعض الصناعات المرتبطة بالفكر والعلم أو غيرها.

١- الدباغة:

صنفها ابن خلدون بكونها أهم فرع من فروع الصناعات الجلدية[1]. ومن خصائصها استعمال مواد معينة تعرف بالدباغ في تهيىء الجلد بتقنيات مركبة وعبر مراحل متسلسلة إلى أن يصبح الجلد مدبوغا وجاهزا للاستعمال في صناعات أخرى.

واشتغل الدباغون بتحويل مختلف أنواع الجلد من بقر وماعز وغنم وإبل، لكن النوعين الأولين تميزا بتركيب تقنيات دبغهما، في حين كانت دباغة الغنم سهلة، أما النوع الأخير فكمياته المدبوغة كانت قليلة.

ومرت الدباغة بعدة مراحل، لذا سيتم تناول كل مرحلة على حدة، مع الاعتماد أحيانا على كتابات متأخرة عن الفترة التاريخية المدروسة سدا للفراغ إن وجد، واعتبارا للتشابه في التقنيات رغم التأخر الزمني.

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٢٧.

- التنظيف الأولي:

مثلت عمليات تنظيف الجلود أولى مراحل الدباغة. وقد كانت الجلود التي تحمل إلى دار الدباغة تفرغ في البداية بأحواض مملوءة بالمياه المستعملة، بالنسبة لنوعي البقري والمعزي، اللذين يتطلبان مكوثا طويلا في أحواض الماء تتراوح مدته بين يوم واحد وثلاثة أيام، عكس جلود الغنم التي تنظف مباشرة في الماء النقي لتدخل دباغتها بعد ذلك المرحلة الموالية.

وتمكّن عمليات التنظيف الأولي من إزالة الأوساخ العالقة بالجلد، وتطريته حتى تسهل إزالة ما به من شعر وبقايا صوف وغير ذلك.

- التجيير:

يعد الجير في هذه المرحلة أساسيا، إذ يعتبر وسيلة لإزالة الشعر وبقايا الصوف وما يكون عالقا بالجلود من بقايا اللحم والشحم. فيتم وضع مسحوق الجير فوق كل وحدة من وحدات الجلود، لتزج بعد ذلك في الأحواض المحتوية على ماء الجير تعرف بـ«المجاير». وتتم هذه العملية لمرات متوالية بنقل الجلود من مجيار إلى آخر، حتى يسهل نزع الشعر من جلود البقر والماعز والجمال التي تعد العقبة الأساسية في هذه المرحلة من الدباغة. وقبل فراغ الحرفيين من التجيير يضعون الجلود في ماء نقي تضمه صهاريج تعرف بـ«المراكل» كدلالة على دَوْس أقدام العمال للجلود مرات متعددة حتى تتخلص الجلود من الجير والأوساخ.

- التبصاق:

تدعى هذه العملية أيضا بالتبزاق نسبة إلى بصق أو زبل الحمام. وهي مادة يكمُن

دورها في إزالة رواسب الجير من الجلد الذي يرجع له لونه الأصلي المائل إلى البياض. وكان الدباغون يحصلون على البزق من الذين يجمعونه في محيط المدينة[١] عن طريق شرائه منهم.

- التنخـال:

هي عمليات إدخال الجلود المبزقة إلى صهاريج تحتوي على خليط الماء والنخالة، بهدف إزالة رائحة البزق منها وفتح مسام الجلود، وإكسابها الرطوبة والنعومة، حتى تصبح مهيأة لاستقبال الدباغ[٢].

- الدبـغ:

يعتبر الدبغ أهم مرحلة في الدباغة،ويتم بإضافة مواد تعرف بـ«الدِّبَاغ» إلى الجلود تؤدي إلى تحسين جودتها وتحويل لونها. وقد عُرفت مواد الدباغ في المشرق بالقرظ[٣] وهو نوع من النبات، في حين نعتت في المغرب بتكاوت التي كانت تنقل إلى فاس من بلاد تافيلالت والأطلس المتوسط ومواد أخرى نباتية أيضا نقلت إليها من غابات المعمورة والأطلس الكبير[٤].

وكان الدباغون يقومون بتنقية هذه المواد وطحنها بأرحاء خاصة بذلك وجدت بعضها بالقرب من دور الدباغة، كالتي وُجدت بحي القلقليين من عدوة

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٤٨.

(٢) يقصد بالدباغ المواد التي تتم بها عملية دبغ الجلود ، ورد ذلك عند الخزاعي التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٣٦.

(٣) نفسه، ص: ٧١٥.

(٤) السعيدي، عبد السلام: دار الدبغ، معلمة المغرب، م١٢، ٢٠٠٠، ص ص: ٣٩١٨ الذي ذكر أن المواد النباتية الأخرى هي: الرباطي، البلدي وميموزا.

الأندلس[1]. وبعد ذلك يُضاف مسحوق هذه المواد إلى الماء الموضوع في صهريج ثم تغمر فيه الجلود التي تمتص الدِّباغ[2] بمكونَاتها في الماء.

- التلميع والصباغـة:

كان التلميع يتناسب مع جلود الماعز والغنم في هذه المرحلة من الدباغة، في حين تناسبت الصباغة مع جلود البقر والإبل. ويتم التلميع بوضع خليط مسحوق قشور الرمان والزيت على الجلد ثم حكه على قدور بها نتوءات، إذا كان الأمر يتعلق بجلود الغنم. أما جلود الماعز فتلمع عن طريق وضع خليط الماء والشب عليها ثم تدليكها بالزيت. وبالنسبة لصباغة الجلد فتحصل بإدخاله في طنجير نحاسي يحتوي على خليط خاص بالصباغة، ثم تسحب منه وتمسح وتدلك[3].

- التجفيف والتشميس:

بعد الفراغ من التلميع والصبغ، تنشر الجلود في أفنية خاصة تفقدها الرطوبة بعد أن تتعرض لأشعة الشمس ثم تدلك بالزيت، وتجمع فتوجه إلى السوق بقصد بيعها[4].

تلك هي أهم مراحل الدباغة التي تعددت فيها المواد والوسائل والتقنيات، حسب نوع الجلد وما يستحقه من أعمال لدبغه. ومن خلال الكتابات المصدرية يتضح أن الكميات المدبوغة من جلود الإبل كانت قليلة، وهو أمر واضح لقلة هذا

---

(١) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص: ٢١٥.

(٢) السعيدي: المرجع السابق، ص: ٣٩١٩.

(٣) نفسه، ص ص: ٣٩١٩-٣٩٢٠.

(٤) نفسه، ص: ٣٩١٩.

النوع من الجلد بفاس التي تبعد عن مصادره بالصحراء. وتنوع الجلود المدبوغة ووفرة ما عرض منها في الأسواق احتاج إلى عدد كثير من دور الدباغة سكت عنه الوزان، لكن البادي أنه فاق العدد المسجل في الفترة الموحدية وهو ٨٦ دارا[١]، نظرا للتطورات التي عرفتها المدينة على المستويات العمرانية والاقتصادية... وكانت أماكن تواجد المياه مفضلة لدى الدباغين الذين أنشؤوا حولها دورا خاصة بحرفتهم، خصوصا بالمناطق البعيدة عن الأحياء السكنية التي تضم فضاءات يمكن للحرفيين الاشتغال فيها، وحددت المصادر بعض أماكن الدباغة منها ضفة وادي فاس من جهة عدوة القرويين قريبا من الصفارين، وهو مكان لازال نشيطا في هذه الحرفة يعرف بشوارة حاليا ثم الطريق الغربي في اتجاه باب الشريعة، وحي القلقليين والعيون[٢].

٢- الخـرازة:

مارس هذه الحرفة الخرازون الذين اشتغلوا على الجلود المدبوغة بخرزها، أي خياطتها وتحويلها إلى أحذية انتعلها الناس رجالا ونساء وأطفالا. تدخل أنواع من الخرازة ضمن الحرف الكمالية دعا إليها الترف مثلها مثل الدباغة[٣].

وقد استعملت مواد وأدوات وتقنيات عند الخرازين. فإضافة إلى الجلود احتاج الخرازون مواد أخرى مثل الخيوط والأغشية الواقية[٤]. كما استعملوا أدوات في

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٠٤؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٨.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، نفس الصفحة؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٤؛ الونشريسي: المعيار، ج٧، ص: ٢١٥.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٠١.

(٤) Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16 ème siècle, P : 122.

عملهم، كالإبر والحشفات والسكاكين والأمقاص والمطارق والزبرات الحديدية وغيرها، حولوا بها المواد إلى مصنوعات. وكانت تقنيات الصنع عندهم تمثلها عمليات تفصيل الجلد ثم الشروع في خرزه وتتميم صنعته.

ومن أهم الأسواق والأحياء التي اشتغل فيها الخرازون سوق التجار بجهة باب السلسلة الذي اشتمل على حيين خاصين بالخرازين صنعت بهما أحذية لأعيان المدينة تم تطريزها بخيوط الذهب والحرير، وبيعت بأثمان مرتفعة لا يمكن لذوي الدخل البسيط شراءها[1]، وهي خاصة بالنساء. ومارس الخرازون أيضا بعدوة القرويين صناعة أحذية خاصة بالأطفال في حي قريب من السبيطريين تكون من خمسين دكانا. وعَرف حي القطانيين صناعة أحذية الرجال تنعت بالبلغة في حي زقاق البغل[2].

أما تسويق مصنوعات الخرازين فتم بوساطة من الدلالين وبمحلات التجار أو بعرض مباشر في محلات الخرازين. فقد كانت تُباع الأحذية في أسواق المدينة بالمزاد العلني، كما عرضت أنواع منها في الأحياء التي صُنعت بها، تولى التجار بيعها بالتقسيط حول جامع القرويين من جهته الجنوبية[3].

٣- صناعة الأحزمة:

هي الأحزمة الجلدية التي تتمنطق بها النساء ،كان العاملون فيها يسمون

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٩. ويبدو أن الوزان أطلق اسم سوق التجار على القيصارية التي احتلت مكانا شاسعا وسط عدوة القرويين.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٤-١٨٨؛ Massignon : Le Maroc dans les premières années du 16 ème siècle, P : 226.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٤.

الحزامون، الذين يزخرفونها بالحرير. وتقنيات صنعها تمثلت في تفصيل الجلد بقطعه بالمقص وفق المقاييس المطلوبة، ثم إعداده بالصنعة، وخياطة خيوط الحرير عليه بالشكل الذي تتناسب فيه ألوانها مع وجه الجلد، ثم وضع عقد تربط بين طرفي الحزام.

وقد اشتغل الحزامون بدكاكين لهم إلى اليمين من المتجه من الشماعين نحو القطانين في الزقاق الذي كانت تباع فيه القنب والحصر[1].

٤- صناعة أكياس النقود:

يدعى أصحابها بالبزاطمية، وقد تداخلت حرفتهم مع الحزامين، وهو الأمر المفسر لتواجد دكاكينهم جنبا إلى جنب في الحي المشار إليه سابقا[2].

وقد اختص البزاطمية في صناعة أكياس جلدية لاحتواء النقود خاصة بالرجال. وتتم صناعة تلك الأكياس باقتناء الجلد المناسب للصنعة وتفصيله وتزيينه بالتذهيب والتزويق المناسبين وإتمام صنعته، ويحتاج هؤلاء الصناع علاوة على الجلد لمواد أخرى كبعض الأغشية والخيط، وإلى أدوات مثل الأمقاص والسكاكين والمطرقات وأدوات القياس، ويقوم البزاطمية بعرض ما يصنعونه في سوق الدلالة.

٥- صناعة الأقراق:

كانت الأقراق تعرف أيضا بالقباقب، وذلك كُنْية على ما كانت تحدثه من أصوات في أرجل من يلبسها. والأقراق نعال أو خفاف قاعدتها من خشب التوت

---

(١) نفسه، ص: ١٨٥؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥١.

(٢) نفسها.

أو الجوز أو الليمون أو العناب يُزينها الجلد المطرز بالحرير الذي يقبض الأرجل، وتكون مصفحة بالحديد. واستقر صانعوا الأقراق في سوق خاص بهم هو سوق القراقين كان يقع في جهة المركطال الحالي بعدوة القرويين. واشتهروا بهذه الصنعة التي كانت منتوجاتها موجهة لأعيان المدينة الذين يلبسونها في أرجلهم خلال أوقات الشتاء والوحل الذي كان يملأ أزقة وشوارع المدينة[١].

واحتاج القراقون في حرفتهم إلى مادة الخشب بالأنواع المشار إليها سابقا، إضافة إلى أدوات تكونت من أشياء حادة تهيىء الخشب وتقطع الجلد، والمطارق والمسامير والإبر والخيوط وغيرها. ونظرا لقيمة المواد المستخدمة في الصنعة والمهارات الحرفية المستعلمة في التحويل، بيع هذا النوع من النعال بثمن مرتفع تراوح بين مثقال ومثقالين للزوج الواحد[٢].

وقد أثار إدخال الأقراق إلى المساجد جدالا بين الفقهاء الذين أجازوا ذلك شريطة تنظيفها [٣] قبل الدخول، مما يعلق بها من أوساخ ووحل. وهو دليل على شيوع استعمالها من طرف الناس في المدينة.

٦- مصنوعات جلدية أخرى:

صنع العاملون أهل الحرف الجلدية المذكورة آنفا أو أرباب حرف أخرى مصنوعات جلدية غير التي ذُكرت، كالزرابي الجلدية التي كانت تزخرف بالذهب والحرير والصغيرة الحجم استعملت في الجلوس عليها، وقد كانت تباع مع الأفرشة

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، هامش، ص: ٧٢، المحقق.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، الصفحة نفسها.

(٣) الونشريسي: المعيار المعرب، ج١، ص: ١٦.

والأغطية بباب السلسلة[1]. وصنعت بفاس أيضا المحافظ والحقائب أو الشكاير أتقن الحرفيون صنعتها بزخرفتها وتنميقها وتطريزها[2].

لا تحصر أنواع الحرف الجلدية المتحدث عنها في هذا المطلب المذكورة كل الصناعات التي اعتمدت مادة الجلد، إذ أن الجلد دخل أيضا في صناعات أخرى سيتم عرضها عند تناول صناعة الأسلحة في المبحث الموالي، وصناعة التسفير التي ترتبط بحرف الوراقة سيتم الحديث عنها في هذا الفصل أيضا.

---

(١) الوزان: نفسه، ص: ١٨٩، مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٤٩.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٤، التازي: التاريخ الدبلوماسي، ج٣، ص: ٨٩.

المبحث الثالث

صناعة المعادن والأسلحة

سبق التطرق لتصنيع معدن الحديد ضمن الحرف البسيطة، والحرف المركبة بدورها لن تستغني عن هذا المعدن خصوصا بالنسبة لبعض أنواع السلاح. وكانت المعادن الأخرى من نحاس وفضة وذهب وغيرها منشطة للصناعة المعدنية التي اعتمدت على التقنيات المتطورة واقتنيت مصنوعاتها لدواعي الترفة وقد اعتُبرت الأواني والحلي أهم المصنوعات المعدنية.

وإذا كانت دار الصناعة التابعة للدولة بفاس الجديد قد احتضنت صناعة أنواع من الأسلحة -سبق الحديث عنها عند تناول الصناعات المخزنية -، فإن أحياء حرفية بفاس العتيق شهدت عمليات تصنيع أسلحة أيضا أقل تطورا وتعد تقليدا للتقنيات المعتمدة، من مصنوعاتها السيوف والخناجر والقسي والدروع... هدف بعض هذه الصناعات كان الاستعراض والاحتفال. وهو ما جسدته صناعة زينة الخيل من سروج وتوابعها. والتطور الذي عرفته صناعة الأسلحة من طرف الخواص في المدينة العتيقة هو التوصل إلى ابتكار بعض أنواع السلاح الناري وأهمها البنادق.

المطلب الأول

صناعة المعادن

أهم فروعها هي صناعة الحلي والمجوهرات التي تخصصت فيها طائفة اليهود وصناعة الأواني النحاسية التي اعتبرت من الصناعات المهمة التي اختصت بها مدينة فاس. وقد اعتمد الحرفيون المشتغلون بحرف هذين الفرعين على المواد المعدنية بأنواعها المختلفة ومواد غير معدنية. وحضي فرع صناعة الحلي بعناية خاصة من الدولة تجنبا لعمليات الغش التي تضر بالأوضاع العامة للبلاد، في حين خضعت صناعة الأواني النحاسية التي صنعها الصفارون[1] لمراقبة الحسبة كغيرها من الطوائف الحرفية.

١- صناعة الحلي والمجوهرات:

نُعت المشتغلون بصناعة الحلي بالصائغين لمواد الذهب والفضة والنحاس، وضبطوا بحكم تكوينهم وتجاربهم تقنيات صناعة الجواهر فمارسوها، حيث ميزها التشابه مع الحلي من حيث القيمة المرتفعة للمعدن وتقنيات التصنيع. وإذا كان اليهود قد أقبلوا على هذه الصناعة وحرصوا على العودة إليها بعد أن منعتهم منها قرارات سلطانية، فإن المسلمين تعففوا في ممارستها لتعدد أوجه الربا فيها[2].

---

(١) هم حرفيون عرفوا بهذا الاسم لاشتغالهم بتصنيع النحاس الأصفر.

(٢) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٣٦-١٣٧؛ الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢١٩؛ السلامي: وثائق مرينية، ج٢، د دع، ص: ١٤٠.

- مفهومها:

شاع نعت صناع الحلي والمجوهرات بالصائغين أو الصواغ. وقال فيهم أحد الباحثين المشارقة[1] أنهم اشتغلوا بـ«حرفة الصائغ، وصاغ الشيء، أي هيأه على مثال مستقيم، وسبكه عليه، فانصاغ والصياغة تأتي بمعنى الصبغة أي حسن العمل»، وأضاف الخزاعي أن: «صياغة الشيء تعني سبكه»[2]. لذا فمفهوم الصياغة يدل على عمليات وضع القوالب أو الإطارات، وفرغ المعدن المذاب فيها إلى أن يتصلب ويصبح قطعا، تحول إلى حلي بعد معالجتها من طرف الصائغين بالتقنيات والمواد والأدوات والمهارات التي يكتسبونها.

- نظامها:

خضعت الصياغة لنظام خاص، إذ كانت أعمالها تتم بدكاكين داخل فاس الجديد أمام أعين الناس، قريبا من دار السكة. وكانت المصوغات المصنوعة هناك تطبع من طرف أمين الحرفة الذي يحتفظ «بقالب المعادن وأختام النقود»[3]، حيث كانت الحلي أيضا تحمل طابع السلطان مثلها مثل النقود التي تضرب بدار السكة، وهو الأمر الذي استدعى مراقبة دقيقة من طرف أمين الصواغ وأمين دار السكة تجنبا لوضع طوابع خارجية[4] مزورة على الحلي.

وبعد صنع الصائغين لما يصوغونه من حلي، يقومون بعرضها للبيع بفاس

---

(١) العمري، عبد العزيز: الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، ص: ٢٧٣.

(٢) الخزاعي، التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧٢٧.

(٣) الوزان: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٤) الحكيم: المصدر السابق، ص ص: ٧٣-٧٤.

القديم في أحد الأزقة القريب من سوق العطارين[١]، ويرجح أنه هو الذي لازال يسمى بسوق الصاغة بين الديوان والعشابين.

استفادت خزينة الدولة من الضرائب التي كان يدفعها الصائغون، وقد كان أمين الحرفة مكلفا إذ يرجح حصوله على ضريبة طبع الحلي من الحرفيين عند طبعه لمصوغاتهم.

- أدواتـهـا:

نظرا لطبيعة عمليات الصنع المركبة وكثرة الكميات المصنوعة، احتاج الصاغة لأدوات متعددة. فقد تمت الإشارة سابقا إلى الطوابع أو الخواتم التي كانت رموزها توضع على الحلي المصوغة، وقد احتاجت عمليات الصياغة أيضا إلى الأفران التي تطبخ فيها المعادن الخام والسبائك في مراحل متعددة من التصنيع، والقوالب التي خصصت لإفراغ المعدن المذاب، والمطارق التي تستعمل في الضرب، والقطع أو زبرات الحديد التي يضرب عليها، واللقاقيط، والأدوات الدقيقة والحادة التي تقطع وتخرط بها المعادن والجواهر، أو التي يتم بواسطتها الصقل والتلميع كالمباريد، فضلا عن الآنيات المختلفة الأحجام الطينية والمعدنية، والموازين والصنجات التي تقاس بها كميات المعادن والحلي[٢].

---

(١) الوزان: المصدر السابق، نفس الصفحة؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٧؛ المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص: ٣٣.

(٢) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص: ٧٤؛ الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ٢١٩؛ ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٤٠٣-٤٠٤؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٤٨.

- تقنياتها:

ميزها التركيب[1]، وذلك لتعدد مراحل التصنيع وتسلسلها وتداخلها، والقيمة المرتفعة للمواد والإتقان في الصنعة.

ونظرا لمعالجة صناع الحلي معدني الذهب والفضة، وحاجتهم إلى كميات أخرى من المعادن الأخرى والمواد غير المعدنية في معالجة المعدنين النفيسين، وتصنيعهم للجواهر المحولة إلى حلي تتزين بها النساء أو تدخل في ترصيع وتزيين المعادن المصنعة. فإنهم استعملوا في صناعتهم أدوات وتقنيات مترابطة ومتسلسلة.

لذلك كان الصائغ يستهل عمله في البداية بمعالجة المعدن الخام أو المسبوك فيذيبه ويتأكد من جودته بعد إزالة الشوائب منه، ثم يمد المعدن المذاب الجيد في قوالب مهيأة سلفا، مما يساهم في تحويل هذا المعدن إلى قطع مسبوكة صلبة بعد مدة معينة، ثم تُخرج تلك القطع، ليشرع الصانعون ومساعدوهم في الاشتغال عليها بالنقش والخرْم والتلميع والترصيع بالجواهر والطَّرق والتحذيق[2]، باعتمادهم تقنيات دقيقة ومهارات مكتسبة لديهم. ويميز التسلسل والتداخل عمليات صنعتهم، بطرق تتعدد حسب نوع الحلي التي يتم الاشتغال عليها وما تتطلبه من أعمال.

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٢٧.

(٢) تسجل ندرة المعلومات المصدرية عن التقنيات التي صنعت بها الحلي، وهو الأمر الذي جعلني أقيسها على ما ورد عن تقنيات صناعة النقود اعتبارا لقول الحكيم في دوحته، ص: ٧٤، أن «الصياغة والسكة تجمعهما النار والمطرقة والطابع»، ويمكن الاستعانة أيضا بما جاء عند ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٤٠٣-٤٠٤؛ ولوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ٩٩-١٠٠.

وعالج الصواغ أيضا الجواهر التي كانوا على معرفة بأنواعها وقيمها. حيث يقومون بعد اقتنائها بتهييئهاواستعمالها في ترصيع الحلي أو مصنوعات أخرى مثل السروج[1]، أو تحويلها هي ذاتها إلى حلي تتزين بها النسوة.

- أنواع الحلي والمجوهرات المصنوعة:

بالتقنيات التي صُنِّعت بها معادن الفضة والذهب، صنعت بها أيضا حلي من معدن النحاس، لكن هذا النوع الأخير كان لا يخضع للمراقبة التي خضع لها المعدنين النفيسين، مما سمح لصناع الحلي في المدينة العتيقة بالاشتغال عليه. وقد أدمج الصائغون الجواهر في عمل الحلي نظرا لقيمتها.

والجدولان المواليان يلخصان أنواع الحلي والمجوهرات التي تم تصنيعها من طرف صائغي فاس:

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٦٠٤.

- الحلي[1]:

اسم الحلية	موادها	دورها التزييني
الخواتم (م خاتم)[2]	الذهب أو الفضة	أصابع اليدين
الأساور/ الأسورة (سوار)	الذهب أو الفضة	حول كوعي الأيدي
الدمالج (دملج)	الذهب أو الفضة	حول كوعي الأيدي
الخلاخل (خلخال)	الذهب أو الفضة	بالأرجل فوق الأقدام
القلائد (قلادة)	الفضة والجواهر	حول الأعناق
العقود (عقد)	الجواهر (العقيق)	حول الأعناق
الأقراط (قرط)	الذهب والجواهر	تعلق بالآذان
الحلق (حلقة)	معدنية (النحاس)	تعلق بالآذان
المناطق/ المضمات (مضمة)	المعادن والجواهر	أحزمة تحيط بالنطاقات
التيجان (تاج)	المعادن والجواهر	فوق رؤوس العرائس
العماريات (عمارية)	معدنية (النحاس)	محمل تزف فيه العرائس

(١)- اعتمدت معلومات المصادر والمراجع الآتية في صياغة هذا الجدول: ابن هلال: الدر النثير، ص: ٥٤؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ٤٠؛ نفسه : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم ١٠ ج، مسطرته : ١٨ سنتيمتر، مقاسه : ٢٢ على ١٧/٥ سنتيمتر، عدد الصفحات : ٣٦٨، عدد الأوراق : ١٨٤، مكتوب بخط أندلسي جميل وواضح، دون تاريخ.، ص ص: ١٢٣-١٢٤؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ٩٩-١٠٠؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٧؛ الوزاني: تحفة أكياس الناس، ص: ٣٦٧، حافظي، علوي حسن: التجارة المغربية، معلمة المغرب، م٧، ص: ٢٢٧٤.

(٢) م = مفردها.

- المجوهرات[1]:

اسم المجوهرة	نوعها	مصدرها	مميزات صنعها
الصدف الحسن	صدف نهري	وادي الجواهر بفاس	معالجة خفيفة
الودع	صدف بحري	أوربا	تقنيات بسيطة
الياقوت	حجر كريم	منجم قرب أغمات	تطعيم الحلي
المرجان	حجر كريم	وفرته بالمياه البحرية في المغرب	خراطته
العقيق	جوهر	مناجم بالمغرب	تحويلُه إلى عقود
اللؤلؤ	جوهر	لعله جلب من الخارج	ترصيع السيوف والحلي
الجوهر النفيس	جوهر	بلاد المغرب	ترصيع التحف

ولا تحصر المعلومات الواردة بالجدولين السابقين كل أنواع الحلي والمجوهرات التي اشتغل الحرفيون بتصنيعها، بل أهمها فقط، إذ وردت إشارات مصدرية إلى أنواع أخرى مثل الشنوف التي يرجح أنها حلي معدنية كانت تزين بالجواهر، كما كانت الأحجار الصلبة والبلورية مواد حولها الصانعون إلى حلي زجاجية مثل النظم والخرز، فضلا عن السبحات التي كانت عبارة عن حبات تقبل عليها نساء

(١) صيغ هذا الجدول اعتمادا على المعلومات الواردة بالمصادر والمراجع الآتية: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٣٥؛ التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٧، ص: ٥٢؛ ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ٤٠؛ نفسه: الإحاطة، ج٤، ص: ٣٢٣؛ ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس، ص: ٢٥؛ بنكرعي، حليمة: العقيق، معلمة المغرب، م١٨، ص ص: ٦١١٣-٦١١٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٦٠٤.

البوادي[١].

كما كانت الفضة والنحاس تموه بمحلول الذهب والفضة بقصد تحسينها وتجميلها بالشكل الذي يساعد في إقبال النساء عليها اللواتي كن تقدمن على اقتناء الحلي والمجوهرات قصد التزين بها. في حين تعفف الرجال عن اتخاذ الحلي لتحريم الذهب عليهم[٢]، ولكون التزيين خاصية نسائية.

٢- صناعة الأواني النحاسية:

استعملت مادة النحاس بشكل أساسي في صناعة الأواني. ومثلت صناعتها مصدر افتخار لأهل فاس، إذ كانت تأتي بعد صناعة النسيج[٣]، من حيث الأهمية، وقد وجهت مصنوعاتها للسكان الحضريين الذين دعتهم أحوال الترف والغنى إلى طلبها[٤].

ودُعي صانعو الأواني النحاسية بالصفارين في إشارة إلى صناعتهم للأدوات والآلات والقدور من النحاس الأصفر[٥]. وكان الحصول على هذا النوع من النحاس يتم باستعمال مادة التوتيا التي تؤدي إلى تحويل لون النحاس من الأحمر إلى

---

(١) ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص: ٤٠؛ نفسه: ريحانة الكتاب، ص ص: ١٢٣-١٢٤؛ حافظي، علوي حسن: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٢٦-١٢٧.

(٣) العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، أشغال ندوة: فاس وإفريقيا، الدار البيضاء، ١٩٩٦، ص ص: ٨٥-٨٦.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٤٠١.

(٥) أبو سديرة، السيد طه: الحرف والصناعات في مصر الإسلامية، الهيأة المصرية العامة للكتاب، الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، ١٩٩١.، ص: ١٥٧.

الأصفر[1]. وهو عمل ليس بالضرورة أن يقوم به الصفارون، حيث كان بإمكانهم الحصول على الصَّفَر جاهزا[2] من أسواق المدينة. وسواء حولوا لون النحاس بأنفسهم أم اشتروه، فإن عمليات تصنيعه تبتدئ بتفصيل صفائحه إلى قطع بواسطة الأمقاص وفق الأبعاد المطلوبة، ثم الضرب عليها بالمطارق قصد تطويعها خاصة إذا كانت سميكة.

واحتاجت بعض أنواع الأواني إلى تقنيات النقش بأدوات حادة ، إذ يضرب عليها الصانع بمطارق خفيفة وبدقة ومهارة حرفية، فيشكل بذلك لوحات تحمل زَوْقَات معينة عادة ما تكون هندسية تدمج معها زخارف نباتية في شكل متشابك ومتداخل.

واختصت بعض المحلات في صناعة المخروطات من النحاس التي اشتهرت بها مدينة فاس[3]، كانت صناعتها تتم بتذويب المعدن وفرغه في قوالب معدة لذلك، وإخراج الأشكال المفروغة منها بعد تصلبها، ثم إتمام صنعتها بتحسين خراطتها وصقلها وتلميعها. واعتبارا لكون المخروطات تعد أجزاء تلحق بالأواني النحاسية، فإنها كانت تتطلب تلحيمها مع تلك الأواني من قِبَل الصانعين، ثم صقلها لإزالة آثار التلحيم وتلميعها، وتوجيه بعض الأنواع منها للتحلية بالذهب أو الفضة[4] في المحلات الخاصة بذلك.

---

(١) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، ص: ٢٨٤؛ حافظي، علوي حسن: التوتيا، معلمة المغرب، م٨، ١٩٩٥، ص: ٢٦١٦.

(٢) الصفر اسم عرف به النحاس الأصفر.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٧، نقلا عن مسالك الأبصار للعمري.

(٤) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٢، ص: ٣٠٩.

ولذلك فقد ميزالتعدد أشغال الصفارين وهو ما تطلب تعدد تخصصات الحرفيين ومساعديهم، التي شملت النقش والخرط والتلحيم والتلميع، فضلا عن تطويع المعدن بالضرب بالمطارق الذي كان يخص الأواني ذات الحجم الكبير كالمستعمة في الطبخ على النار.

وتنوعت مصنوعات الصفارين، كما تعددت أشكالها وأحجامها حسب حاجيات الناس منها ، الذين بذلوا مجهودات في الاستجابة إليها. فقد صنعوا أواني استعملت في الأشغال المنزلية مثل القدور[1] المعتمدة في الطبخ، كانت صناعتها تستدعي توفير صفائح متوسطة السمك ولم تكن محتاجة إلى نقش. كما صنعت الطناجير المتباينة الأحجام منها ما استعمل في الطبخ في أوقات الحفلات، وما اعتمده الحرفيون في طبخ بعض المواد التي يستخدمونها، وهو الأمر الذي حصل عند الدباغين[2] والصباغين والخلاعين[3]. ومن الأواني المنزلية الأخرى التي صنعها الصفارون وتطلبت منهم نقشها البقارج التي تحمل فيها المياه، والطستات التي تقدم للضيوف قصد غسل أياديهم فيها، قبل وبعد تناول الوجبات الغذائية، إضافة إلى الأباريق والبراريد المخصصة لطبخ الشاي[4] وغيره، والصحون والأطباق والميادي التي تقدم فيها الأطعمة، ومباخر الصفر[5] والمرشات الحاملة للطيوب.

كما صنع الصفارون بالإضافة إلى الأواني مصنوعات أخرى خدموا بها الحرفيين

---

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٢٨.

(٢) السعيدي، عبد السلام: دار الدبغ، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٣٩١٨.

(٣) هم صانعو الخليع بطبخ لحم البقر مع الأدم.

(٤) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص: ٤٧؛ السلامي: وثائق مرينية، ص: ٣٥.

(٥) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٢، ص: ٣٠٩؛ المقري: أزهار الرياض، ج١، ص: ٢٤٣؛ ابن الأحمر: نثير الجمان، ص:٤٢٧.

والتجار وأرباب المنازل والمحلات وعامة الناس. فقد اعتُبرت الصنجات النحاسية من المصنوعات النحاسية المتصفة بخراطتها الجميلة[1]، وهي ذات أوزان صغرى كالأوقية والرطل وما بينهما من أوزان، إضافة إلى الأقفال[2] التي تغلق بها الأبواب، والمطارق التي تعددت استعمالاتها، والقنوات المائية التي كوَّنَت منها شبكة توزيع الماء داخل المنازل والمحلات[3].

وقد احتضنت قبلة جامع القرويين أعمال الصفارين[4]، وهو مكان له أهميته الكامنة في تواجده بمركز المدينة، قريبا من الأسواق و المعالم المعمارية الكبرى، ومن الوادي الذي كانت مياهه تستعمل كمادة أولية في مراحل التصنيع[5]. إلا أن أماكن خراطة النحاس وما تطلبته من إقامة للأفران وإيقاد للنار استدعت بعدها النسبي عن حي الصفارين تجنبا لإيذاء رواد السوق ومحيطه، وضفة الوادي مؤهلة لممارسة أعمال الخرط مادام أربابها في حاجة إلى المياه قصد تبريد وتنظيف المخروطات.

لم تكن المصنوعات الذهبية والفضية والنحاسية التي سبق ذكرها، هي كل المواد المعدنية التي حولها الصناع، لكنها الأهم، إذ عرفت فاس تصنيع معدن القصدير الذي غشيت به سقوف البنايات[6]، يرجح أن يكون الحرفيون الذين نعتوا

---

(١) بنعبد الله: معطيات الحضارة المغربية، ج٢، ص: ٦٨؛ النويري نهاية الأرب، ج٦، ص ص: ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) هيل، دونالد: العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، عالم المعرفة، ع٣٠٥، ص: ١٩٤.

(٣) الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٧٠.

(٤) الوزان: م س، ج١، ص: ١٨٤.

(٥) لوتورنو: م س: ص: ٤٠.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٥.

بالقزادرية[1] هم من أشرف على تصنيعه، رغم أن هذه الحرفة تطلق أيضا على الذين يصلحون الأواني النحاسية والفضية. كما صنعت من النحاس أيضا الثريات، ومن الرصاص القنوات المائية، وهيمنة الصناعات التي أشرفت عليها الدولة ومؤسسات الأوقاف على مثل هذه المصنوعات كان داعيا لعدم التعرض لها في هذا المقام.

(١) بنعبد الله: المرجع السابق، ج١، ص: ٨١.

المطلب الثاني

صناعة الأسلحة

كانت بعض الأحياء الحرفية في المدينة العتيقة نشيطة في تصنيع أنواع من الأسلحة، تموقعت بباب السلسلة وفي محيط النجارين وعلى الطريق الغربي في اتجاه باب الشريعة. مما يوحي بأن هذا التوزيع مرتبط بالتزود بالمواد الأولية وفي مقدمتها الحديد والخشب والجلد فضلا عن الماء، والتسلسل والترابط مع بعض الصناعات الأخرى وخاصة الحدادين، وتسويق المصنوعات حيث كانت أعمال الصنع والبيع تتم في آن واحد بالمحلات خصوصا التي وقعت على شارع غاص بالمارة مثل الطريق الغربي المشار إليه.

مثلت زينة الخيل، والأدوات والآلات الحربية فرعان أساسيان من الأسلحة المصنوعة، زود بها الحرفيون الفرق العسكرية التي تولت الدفاع عن كيان الدولة، وأفراد المجتمع الذين استخدموها في أنشطة غير عسكرية كالصيد والفروسية، والتجار سواء كانوا أجانب أو محليين.

١- زينة الخيول[1]:

الزينة هي المصنوعات التي جهزت الخيول، والتي تكونت من السروج وما يرتبط بها من سقط[2]. وتجهيز الخيول بأدوات الزينة بهدف إنجاز المعارك الحربية

---

(١) وردت هذه العبارة عند الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٩؛ وعند مارمول، إفريقيا، ج٢، ص: ١٥١، وتعني الأدوات التي تجهز بها الخيول قصد امتطائها.

(٢) وردت كلمة «السقط» بمصادر من بينها: فيض العباب، ص: ٢٣٥، وتدل على اللوازم الملحقة بالسرج.

وإقامة الاستعراضات للفرق العسكرية أمام السلطان، إضافة إلى أعمال غير حربية كالفروسية والسفر وغير ذلك.

وقد دخلت عدة مواد أولية في صناعة السروج والسقط، وهي الجلود والخشب والمعادن والقنب... حولها الحرفيون بمهاراتهم ، التي مالوا فيها إلى إضفاء طابع جمالي على ما صنعوه منها. مما جعل مدينة فاس تستقطب الاهتمام ليس المحلي بل الأجنبي أيضا، حيث حملها التجار إلى الآفاق البعيدة. كما تضمنت هدايا ملوك المغرب سروجا وأنواعا من[1]، لا يمكن نفي مساهمة الحرفيين الخواص فيها.

- السـروج:

تنعت أيضا بالمطايا الفارهة، وانتعشت صناعتها في فترات استقرار وازدهار الدولة وتحسن معيشة الناس، التي يميلون معها إلى ركوب الفاره[2].

تميزت صناعة السروج بأنها تتم عبر مجموعة من المراحل المتسلسلة، تعددت معها تخصصات الحرفيين والمواد والأدوات والتقنيات التي اعتمدت من طرفهم، وتتمثل هذه المراحل في:

. الحدوات أو القرابيس:

الحدوة هي الشيء المهم والبارز في السرج، الذي تتشكل هيأته بها، وتصنع من

---

(١) الصيرفي، علي بن داود: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، مصر، دون تاريخ، ج١، ص:٤٧٣؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ص: ٦٠٤-٦٠٩، الذي تحدث عن هدايا موجهة من أبي الحسن إلى بلاد مصر.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق، ج١، ص: ٤٣٠ ؛ التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٧، ص: ٢٠٣.

الخشب ذو النوع الجيد. وهو الأمر الذي استدعى وجود الدكاكين المتخصصة في صنعها بالقرب من النجارين قصد التزود منهم بالخشب ذو الأبعاد المناسبة.

وأهم عمل يقوم به صانعو القرابيس بعد جلب الخشب هو نجره، فقد ذكر ابن القاضي عند ترجمته لسيرة أحد الفقهاء[1] أنه كان يقوم بعد تعليم الأطفال بطالعة فاس بـ«نجر أعواد السرج»[2]، والمكان المذكور يقع على الطريق الغربية التي تنطلق من العطارين في اتجاه باب الشريعة، وهي التي كانت تمارس بها أيضا النجارة. وكلمة الأعواد تدل على الأخشاب التي تُعَدَّل ليتم تهييئها وتسميرها بالكيفية التي تحولها إلى قربوس له دور في ركوب الفارس للفرس وثباته على ظهره.

. أغطية السـروج:

هي أغطية جلدية. تصنع للقرابيس على يد صناع مختصين، ولهذه الأغطية المصنوعة دور حفظ وستر أخشاب السروج، إذ يُثبت الجلد فوق الخشب عن طريق خرزه، وتطلبت صناعة الأغطية- المشار إليها -جلودا من النوع الجيد لكونها تكون بادية للعيان. ويبدو أن تقنيات هذه الحرفة كانت متأثرة بنظيرتها الأندلسية ، فقد ذكر الوزان أن صناعة سروج فاس كانت تعتمد على «جلد الماعز القرطبي»[3]، و الأمر – في تقديري- لا يتعلق باستيراد الجلد، بل بنقل تقنيات الصنع من طرف الأندلسيين الذين هاجروا إلى فاس، مادامت مادة الجلد توفرت في المغرب صبدرت منه إلى أوربا منذ فترات سابقة لتلك التي عاشها الوزان[4]. وقد كانت بعض قطع جلد الأغطية

(١) أحمد بقر الله الفشتالي السلوي المتوفى سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦٢ م.

(٢) ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس، ج١، ص ص: ١٢٦-١٢٧.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٩.

(٤) السلامي، رشيد: وثائق مرينية، ج٢، ص: ١٤٥ -د.د.ع- الذي استعرض مضمون معاهدة أبي

تدفع لصناع خاصين لزخرفتها، ثم تُضم بعد تسلمها منهم إلى القطع الأخرى المصنوعة من جلد أقل جودة تغطي الأماكن غير البارزة[١]، وتخرز ثم تثبت على القربوس بإحكام. وقد أضاف الوزان عن شكل غطاء السرج بتكونه من ثلاث زوائد بعضها فوق بعض[٢] يستنتج أنها تحمي الفارس من خشونة وصلابة خشب القربوس.

. زخرفة أغطية السروج:

ذكر في الكلام عن الحرفة السابقة، أن قطعا من الأغطية كانت تسلم لصناع متخصصين في زخرفتها، يقومون بتذهيبها بالطرق والتقنيات التي كانت تذهَّب بها المنتوجات الجلدية الأخرى. وتضفي عملية التذهيب على السرج جمالا بزخارف جميلة «زواقات» تزينه. وكانت بعض الأنواع من أغطية السروج تزخرف أيضا بترصيعها بالجواهر النفيسة[٣]. ولم تكن كل السروج تزخرف بالتذهيب أو الترصيع أو بهما معا، بل كانت الإمكانيات المختلفة للزبناء تستوجب صناعة سروج لا تحمل زخارف.

وبالإضافة إلى صناعة السروج كان محترفوها يقومون بإصلاح المتضرر منها للناس. وكانت الطالعة الكبرى مكانا نشيطا في صناعة وإصلاح السروج[٤].

الحسن المريني مع ملك ميورقة سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٩ من بين ما تمنعه تحويل الجلد من المغرب إلى أوربا.

(١) عطا الله الجمل، شوقي: الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري والمؤثرات التي تأثر بها، المناهل، ع٢، ١٩٧٥، ص: ٢٦٢.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٨-١٨٩.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ص: ٦٠٣-٦٠٤.

(٤) نعتت عند الوزان بالطريق الغربي في اتجاه مدرسة أبي عنان، المصدر السابق نفس الصفحتين.

- السقط:

هي توابع السروج واللوزام الأخرى لتجهيز الخيل. وتكونت من الركابات والمهاريز واللبانات والألجم والأزمة والطقوم وغيرها، صنع بعضها من مادة الحديد والبعض الآخر من الجلد أو القنب أو غير ذلك.

.الركابات:

مفردها ركاب، واسمها يدل على أنها تساعد الفارس في الركوب بوضع أحد قدميه قصد امتطاء فرسه، ثم إدخالها في زوج الركاب المرتبط بالسرج في وسط طرفيه.

وكان صناع الركابات على دراية بحرفة معالجة الحديد إلى درجة نعتوا فيها بالحدادين، اعتبارا لاعتمادهم على مادة الحديد في الصنعة، وهو ما كان يستوجب ممارسة حرفتهم قريبا من الحرفيين الذين يُصنِّعون الحديد بمركز المدينة في جهة باب السلسلة.

وبالنسبة لتقنيات الصنع فتتمثل في فرغ الحديد داخل الأشكال المعدة له، ثم إخراجه وتعديله وتصويبه عن طريق المعالجة بالنار والضرب بالمطارق، ثم تبريد أزواج الركابات في الماء، فصقلها وتلميعها[١]، إلى أن تصبح جاهزة.

واختص في صنع الركابات مع ما شابهها من مصنوعات حديدية حرفيون أيضا، بالطريق الغربي بجانب الدكاكين التي كانت للسراجين هناك[٢]. والراجح أن

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٢؛ مارمول إفريقيا، ج٢، ص ص: ١٥١، ١٥٤.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٨.

مركز المدينة كان يحتضن أعمال إعداد الحديد، لتوفر ما يلزم ذلك من استعمال المطارق والنار والتبريد في المياه، في حين أن الحي الغربي بالطالعة الكبرى شهد الأعمال الأخرى المتممة للصنعة كالزخرفة والصقل والتلميع.

. المهاميز:

هي أدوات حديدية توثق برجلي الراكب للخيل عن طريق إحكام ربطها على الخفاف في أسفل الأرجل(١) بالشكل الذي يحمي الراكب، ويتحف منظر الركوب. وصنعت هي المهاميز من طرف المختصين في تحويل الحديد بالمراحل والتقنيات التي كانت تصنع بها الركابات(٢)، فالاختلاف بينهما كان في الشكل فقط.

.اللبانات:

ذكرت في المصادر بالعطف على النوعين السابقين(٣)، لذا فإن مادة صنعها هي الحديد وتقنياتها شبيهة بتقنيات النوعين السابقين، ودورها تمثل في زخرفة الراكب عن طريق وضعها في قدميه.

. الألجم:

نعتت أيضا باللجم أو اللجامات، ومفردها لجام، ويتكون من أداة حديدية توضع بفم الفرس، وزمام يصنع من الجلد وله دور في تثبيت اللجام بربطه على رأس الفرس بين طرفي الفم وأعلى الرأس. ويرتبط الزمام بأسفل اللجام، يمكن الفارس

---

(١) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٢٨٦.

(٢) الوزان، ص: ١٩٢.

(٣) مارمول، ص: ١٥٤.

من التحكم في قيادة فرسه. وكان رأس اللجام أو الجزء الحديدي منه يصنع بالطُّرق التي تمت بواسطتها صناعات الركابات والمهاميز واللبانات[١]، بتهييء الحديد ومعالجته بالنار ثم تبريده وصقله وتلميعه، وقد مُوهت بعض اللجم بالذهب[٢] مثلها في ذلك مثل أنواع السقط الحديدية الأخرى. أما الأزِمَّة فتصنع من الجلد وتزخرف بالحرير وخيوط الذهب لكن صناعتها تتم على يد المختصين في صناعة جلود السروج[٣].

. الشكائم[٤]:

تدعى أيضا الأزمة، تصنع من الجلد، وتوضع على رؤوس الخيل لها حبل من قنب يقبضه صاحب الفرس، إذ به يستطيع قيادة الفرس دون لجام[٥]. وعادة ما تستعمل الشكيمة للفرس أثناء الاستراحة من المعارك أو من الاستعراض أو من غيرها. كما تتم قيادته بها بقصد تدريب أو تقديم ماء أو علف أو كلئ له.

. الأحزمة:

تقبض بها السروج على ظهور الخيل، وأحدها[٦] يحيط ببطن الفرس بالارتباط من الطرفين الأسفلين للسرج ويسمى النطاق والآخر بطاقمه أو صدره، إذ يصل الجهتين الأماميتين، ويسمى هذا الأخير الدير، وقد صنعت أحزمة السروج من

---

(١) الوزان: ج١، ص: ١٨٨؛ مارمول: ج٢، ص: ١٥١.

(٢) الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص: ٤٧٣.

(٣) مارمول: ج٢، ص:.١٥١.

(٤) أو الشُّكم، الوزان: ج١، ص: ١٨٥.

(٥) مارمول: ج٢، ص: ١٥١.

(٦) الطويل، محمد حجاج: السرج، معلمة المغرب، م١٥، ص: ٤٩٦٠.

الجلد وزخرفت بالحرير[١].

. أنواع السقط الأخرى:

تنافس الصناع في إبداء الزخارف على السروج وسقطها. وساهم تزايد الإقبال على منتوجاتها، في تنويع صنع لوازم السرج، حيث صنعت قطع حديدية تعلق بطاقم السرج[٢] من طرف الحدادين المتخصصين في صناعة الأدوات الحديدية الأخرى للسرج. واستعمل الجلد أيضا في صناعة أغطية خاصة بصدور الخيل وفي صناعة خفاف ينتعلها الفرسان[٣]، وأغطية جلدية إضافية توضع فوق السروج تكون غير مخروزة عليها، والتي أصبحت تدعى الغبارات[٤]، إضافة إلى شماسات توضع على عيني الفرس تقيه من الشمس، وقد زخرفت هذه المصنوعات الجلدية بالحرير والتذهيب. كما صنعت من الحرير أيضا جدائل توضع في طقوم الخيل وسيور تعلق بالركابات[٥].

٢- الأدوات الحربيـة:

هي أدوات اعتمدها الفارس عند ركوبه الخيل، واستعملها الراجل أيضا عند قيامه بعمل يتعلق بحرب أو استعراض أو صيد أو غير ذلك. وتميزت الأدوات أو الآلات الحربية المصنوعة بمحاكاة التقنيات التي كانت سائدة من قبل، مع الاستفادة

---

(١) الوزان، ج١، ص: ١٨٥.

(٢) الوزان: ج١، ١٨٨.

(٣) نفسه، ص: ١٨٥.

(٤) العيساوي، فاطمة: جوانب من علاقة المخزن بالحرف (١٨٢٢-١٨٩٤)، د د ع، كلية الآداب و ع إ، الرباط، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، إشراف: ابراهيم بوطالب، ص: ٩٧.

(٥) الوزان: ج١، ص: ١٨٩؛ مارمول: ج٢، ص: ١٥١.

من التطورات الحاصلة بالشكل الذي ساهم في إبراز خصوصيات للمصنوعات عما كان سابقا. وقد لعب العنصر الأندلسي والاحتكاك مع المسيحيين دورا في إبراز تلك الخصوصيات.

ومثلما تنوعت المواد المعتمدة في صناعة المطايا والسقط، سجل التنوع أيضا في مواد صناعة أدوات الحرب، حيث شملت المعادن والجلود والخشب والقنب والحرير... استخدمت في تحويلها وسائل وتقنيات صناعية.

وتجاورت الأماكن التي احتضنت صناع الأدوات الحربية مع التي صنعت فيها زينة الخيل، وذلك بحكم التقارب في المواد والتقنيات والأهداف.

- الرمـاح:

مفردها رُمح، ويسمى صانعها بالرَّماح، وحرفته الرِّماحة [1].

يتكون الرمح من دراع يتميز بطوله ورأس حادة تتكون من مواد معدنية تلقب بالسنان[2]. وقد تنوعت المواد التي دخلت في صناعة أدرع الرماح فصنعت من الحديد أو الخشب أو القصب. وكانت للرماحين دكاكين ذات شكل مستطيل يميزها الطول الذي تطلبه طول الرماح المصنوعة، وذلك بحيي باب السلسلة في ساحة كبرى خلق الصباغين وبدكاكين في الطريق الغربي فوق دكاكين السراجين [3].

(١) الخزاعي التلمساني: تخريج الدلالات السمعية، ص: ٧١٠.

(٢) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٧، ص: ٤٧.

(٣) الوزان: ج١، ص: ١٨٩؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٤.

- السهـام:

تجمع على سهم، وتتميز عن الرمح بقصرها وقذفها بالأقواس، كما نعتت بالنبال أو الحِراب. وقد استعملت كنوع من السلاح عند الفرسان وأحيانا من لدن الرماة. وقد نشطت منطقة بضفة وادي فاس بعدوة القرويين في صناعة السهام [١]، من الراجح أنها نفس المنطقة التي احتضنت صناعة الرماح أو على مقربة منها.

- القسـي:

تدعى أيضا بالأقواس، تجمع على قوس. تمثل دورها في قذف السهام، صنعت من مادة الخشب من نوع النشب[٢]، وذلك بنجرها من قبل صانعيها. وعُرِفت مناطق صناعتها بالمنجرات.

وقد شهدت مدينة فاس صناعة أنواع من القسي مثل القوس العربية التي تواجد هواتها بالمدينة. وممارسة الرماية بهذه القوس أو غيرها تطلبت التدريب عليها في المرامي المخصصة لذلك [٣].

ومع التطور الذي شهدته صناعة الأقواس أدمجت في صنعتها مواد معدنية مثل الفولاذ، إذ كانت هذه المادة [٤] تثبت على طرفي القوس النصف دائري الذي يرتبط بالمحور العمودي، عادة ما كان هذا المحور يتكون من حبال جيدة الصنع تقذف منها

---

(١) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٤.

(٢) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٦.

(٣) حركات، ابراهيم: الحياة الاجتماعية في عصر بني مرين، مجلة كلية الآداب و ع إ، الرباط، ١٩٧٩، ع ٥-٦، ص: ٥١.

(٤) الوزان: ج١، ص: ١٩٢.

السهام[١].

ولم تكن مادة الفولاذ هي الإضافة الوحيدة في صناعة القسي، بل كان للجلد دور في زخرفتها مع مواد غيره. مما جعل صاحب فيض العباب يصف القسي التي حملها أرباب الصناعات حين استقبالهم للسلطان أبي عنان بأنها «بديعة الحسن»[٢].

- السيوف:

تجمع على سيف، وهي أداة أساسية تسلح بها المحارب، بوضعها في غمدها وشدها في حزامه، يشهرها في وجه الأعداء كلما كان في حاجة إليها. وقد استعمل السيف في غير المعارك كالتداريب والاستعراضات.

لقد دخل الحديد في عمل السيوف حيث أُعِدَّت منه نصَاله التي تمثل الجزء الأهم فيها (السيوف)، وتمت صناعة هذه النصال بتهييئ القطع الحديدية من لدن الحدادين وتحويلها إلى أدوات حادة عن طريق حميها بالنار والضرب عليها بالمطارق وتبريدها في الماء، ثم صقلها بعد ذلك على يد صناع خاصين وُجِدوا قريبا من الوادي بجانب الصيادين[٣] البائعون للحوت في جهة العشابين الحالية.

وتكونت السيوف أيضا من المقابض المصنوعة من الخشب[٤] المرصع بعضها بالعاج، تلحم بعد صنعها بالنصال. ولعل المقابض كانت تصنع من طرف صانعي الأغمدة للانسجام الذي كان يربطهما.

---

(١) مارمول، ج٢، ١٥٤.

(٢) النميري: فيض العباب، ص: ٤٩٨.

(٣) الوزان، ج١، ص: ١٨٧.

(٤) العمري: الحرف والصناعات في الحجاز، ص: ٢٠١.

- الخناجر والمواسي[1]:

صنعت هي الأخرى مع السيوف، إذ كانت موادها وتقنياتها واحدة، لذلك كان الجزء الحديدي منها يصنع بباب السلسلة، في حين تصنع لها الأغمدة ثم تصقل وتتمم صناعتها على يد صناع خاصين في جهة العشابين مع السيوف والرماح التي يباع قسم منها هناك[2].

وتتميز الخناجر والمواسي عن السيوف في الشكل، حيث تعد قصيرة وصغيرة الحجم.

- الغمادون:

هم حرفيون اختصوا في صناعة أغمدة السيوف والخناجر والسكاكين. أعدُّوها من مواد معدنية، وخاصة الحديد والخشب والعاج وتم تمويه بعضها بالذهب.

وقد أكدت المصادر التاريخية وجود سوق الغمادين قريبا من الموقع الذي كانت تصنع فيه السيوف والخناجر وغيرها من الأدوات الحربية. وتعرض هذا السوق بدوره لحريق مع أسواق مجاورة له سنة ٦٤٦هـ[3]/ ١٢٤٩م، مما يُعد دليلا على نشاطه الحرفي في العصر الموحدي. وقد استمر نشاطه الحرفي بعد تجديد بناء الأسواق التي أُحرقت.

وقد شهد سوق الغمادين صنع أغمدة من مواد معدنية تم معها دمج مادتي

---

(١) المواسي هي السكاكين التي استعملت كأداة حربية حادة، وردت عند الوزان، ج١، ص: ١٨٥.

(٢) الوزان: ج١، ص: ١٨٧، مارمول، ج٢، ص: ١٥٢.

(٣) ابن أبي زرع، علي: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢ ص: ٧٣.

الخشب والعاج. لكن الوزان تحدث عن صناعة أغمدة جلدية مع مصنوعات جلدية أخرى تعد من توابع السروج بمركز المدينة شمال زقاق الشراطين [١]. ولعله هو الحي الذي لازال معروفا بالجوابين قريبا من سوق السقاطين الذي نشط في صنع وبيع السروج ولوازمها.

- التروس والـدرق:

إن كلمة الترس ترادف الدرقة، وتدل على أداة حربية صُنعت من الجلد، يلبسها المحارب بربطها على ظهره [٢] حتى تقيه مما قد يتعرض له من هجومات، قد يكون غافلا أوغير منتبه لها.

وكانت مادة الجلد التي صنعت منها التروس أو الدرق تتسم بجودتها، كانت تجلب إلى فاس من بلاد السودان، ومصدر هذا النوع من الجلد حيوان يسمى الضبي كان يعيش بمنطقة نول لمطة بالصحراء الإفريقية، لذلك عرف هذا النوع باللمطي [٣].

لقد مارس صناع الدرق اللمطية حرفتهم بالطريق الغربي الذي نشط في صناعة الأسلحة، حيث امتلكوا دكاكين تقع بين الإسكافيين (الطرافين) وغاسلو الثياب، يقابلهم صقالو الركابات وغيرها من المصنوعات الحديدية [٤]. واتَّصفت الدرق المصنوعة بالجميلة، كما ميزتها الخفة والصلابة، وبعضها ذو شكل مثمن [٥]، وبعضها

---

(١) الوزان، ج١، ص: ١٨٥.

(٢) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي، ج٧، ص: ١١٤.

(٣) ناعمي، مصطفى: الدروق اللمطية، معلمة المغرب، م١٢، ٢٠٠٠، ص: ٤٠٢٦.

(٤) الوزان، ج١، ص: ١٨٨، مارمول، ج٢، ص: ١٥٣.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤، ص ص: ٣٢٣-٣٢٤.

الآخر بيضوي أو دائري، تتكون من عدة طبقات يتم جمعها بطريقة متقنة[1].

واقتبس صناع الدرق الفاسية تقنيات صنعتهم مما كان يقوم به نظراؤهم في البلدان الإفريقية فصنعوها على طريقتهم[2].

لقد ظهر تأثير صناعة الدرق اللمطية بفاس في بلاد الأندلس وأوربا، التي كانت تستقبل كميات من الدرق المصنوعة بالمغرب، وتصنع كميات أخرى على طريق صنع المغاربة لها[3].

- السـلاح الناري:

عرفت جهة باب السلسلة بالمدينة العتيقة صناعة أسلحة نارية من طرف عناصر أندلسية[4]، من المفترض أنها نقلت تقنيات متطورة لهذه الصناعة من الأندلس، التي استفادت من الاحتكاك مع الأوربيين وأبرزت إبداعاتها وابتكاراتها في صنع هذا النوع من السلاح. ولازال أحد الأسواق بالجهة المذكورة -أي باب السلسلة- يعرف بالنيارين يوحي اسمه بصناعة نِيَر أو أَزْنِدَة[5] البنادق أو المكحلات. والنير هو الجزء المهم في المكحلة، إذ يحصل بواسطته الضغط على الذخيرة سواء، كانت بارودا أو رصاصا لتخرج من فوهة البنادق أو المكحلات. ويرجح أن يكون حي النيارين

(١) ناعمي، مصطفى: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، نفس الصفحة.

(٣) نفسه؛ العلوي، عبد العزيز: علاقة التجارة الصحراوية بالتجارة البحرية في المغرب المريني، كلية الآداب و ع إ، الدار البيضاء، عين الشق، أشغال ندوة، ج٢، ص: ٢٧٠.

(٤) الوزان، ج١، ص: ١٩١؛ مارمول، ج٢، ص: ١٥٤.

(٥) النَّيَر جمع نِير، والأزندة جمع زِنَاد، لهما نفس المعنى، إذ يدلان على الأداة التي يضغط عليها حامل البندقية حتى تخرج منها الذخيرة.

قد احتضن صناعة الأجزاء الأخرى من المكحلات التي تتمثل في السرير والفوهات(١). وهذه الأخيرة عبارة عن جعبات حديدية، أما السرير فهو الهيكل الخشبي للبندقية أو المكحلة يسمى المتخصص في صنعته بالسرايري(٢).

وكان الحرفيون الفاسيون على دراية أيضا بصناعة البارود، الذي توصل أحد الحكماء سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م إلى صنعه بطرق كيميائية بعد اشتقاقه من معدن الرصاص(٣). والبارود عبارة عن مسحوق أسود، يستعمل معدن الملح أيضا في صنعته. وكلما تحولت الذخيرة إلى حبات أكبر، إلا ونعتت بالرصاص الذي كان شائع الاستعمال لدرجة أن الفقهاء جوزوا دفعه في الزكاة(٤).

وصناعة حبات الرصاص تطلبت صناعة بنادق ذات فوهات أكبر عرفت بالمدافع شاع أيضا استعمالها في الصيد(٥).

رغم هذه التطورات التي شهدتها صناعة الأسلحة النارية، والتي أبدع فيها الحرفيون الخواص، فإن مؤسسات الدولة والإمكانيات التي توفرت عليها جعلتها متميزة عن الصناعات الخاصة في تصنيع الأسلحة المتطورة ومنها النارية كما وكيفا.

---

(١) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٢٤.

(٢) زمامة، عبد القادر : أسماء الحرف المعروفة بفاس، مجلة اللسان العربي، ع٤، ص: ٩٩.

(٣) الفاسي، محمد بن عبد القادر: مجموع أوله شرح منظومة العمل؛ الفاسي، مخطوط ب: خ ع، رقم ١٤٤٧ د، ص ص: ١٠٥-١٠٦.

(٤) نفسه، ص: ١٠٥.

(٥) نفسه، ص ص: ١٠٥-١٠٦.

المبحث الرابع

الصناعات الشريفة

كانت بعض أصناف الصناعات مقدرة في أعين الناس، ومن الفروع التي تنتمي إليها هذه الأصناف الوراقة التي هي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد... وأمثال ذلك. ثم الطب الذي هو حفظ الصحة للإنسان، وتلحق بهذين الفرعين مجموعة من الحرف والصنائع التي نالت موضع الشرف أيضا، وذلك لتداخلها معها، أو قياسا على تشابه منزلتها معها عند عامة الناس وخاصتهم. لذلك تشمل الوراقة بدورها حرفا أخرى مثل صناعة الرق والورق وغيرها، كما تدخل حرفا أخرى في الطب مثل الصيدلة وجلب وإعداد العشوب، كما سيتم تناول حرف خارج فرعي الوراقة والطب ضمن الحرف الشريفة مثل الطبخ والعطارة وصناعة الشمع.

المطلب الأول

حرف الوراقة

صنف ابن خلدون الوراقة مع الحرف المعاشية غير الضرورية وعرفها بأنها «حافظة على الإنسان حاجته، ومقيدة لها عن النسيان، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار والعلوم في الصحف، ورافعة رتب الوجود للمعاني»[1]. ويحصل ما ذكر في هذا النص بممارسة حرف الوراقة التي أوجزها ابن خلدون أيضا في «الانتساخ والتصحيح والتسفير»[2]. وأعمال الانتساخ والتصحيح تتم بتوفر الأرضيات التي تتم الكتابة عليها، وهي مواد توفرها صناعة الرق والورق، كما تتطلب أيضا صناعة الأقلام والمحابر والمداد ومجموعة من الأدوات والوسائل الأخرى. أما التسفير فهو صنعة تطلبت أنواعا من الجلد ومهارات حرفية تمكّن من ضم وتجميع الكتب والمؤلفات.

١- صناعة الرق:

مثَّل الرق أو الجلد أرضية للكتابة في العصر الوسيط، واستمرت صناعته لذلك الغرض إلى غاية القرن ١٣هـ/ ١٩م، إذ ظلت تكتب عليه الإجازات القرآنية والوثائق العدلية[3]. وكانت للرقاقين العاملين في هذه الحرفة عدة دكاكين حول باب الجنائز من جامع القرويين[4]، وممارستهم للصنعة بهذا المكان دليل على شرف

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٠؛ نفسه: المقدمة، : ٤٠٠.

(٢) نفسه، العبر، ج١، ص: ٤٢٧.

(٣) المنوني، محمد: أبحاث مختارة، ص: ٢٣٠.

(٤) نفسه.

حرفتهم، وقد أتاح لهم هذا المكان قربهم من سوق بيع الجلد الذي يوفر المادة التي يشتغلون عليها، ومن سماط العدول[1] والمراكز العلمية التي ينشط بها زبناؤهم من موثقين وعلماء وطلبة. وبالإضافة إلى المهارات الحرفية استعمل الرقاقون أدوات حرفية مثل الآلات الحادة التي يقطع ويصقل بها الجلد، ووسائل قياس الأبعاد.

٢- صناعة الورق:

مثلت هذه الصناعة تطورا في الكتابة أو النساخة التي تحولت من الرق إلى الورق الذي كان يعرف أيضا بالكاغيد وصناعته لبت الطلبات التي تزايدت بفعل كثرة التآليف والكتابات. وقد شهدت فاس كغيرها من مدن العالم الإسلامي صناعة الورق، حيث كانت تعتبر مع مدينة سبتة أهم مراكز إنتاج هذه المادة قبل عصر بني مرين، فقد ضمت فاس الموحدية «أربعمائة حجر لعمل الكاغيد»[2] كانت تتحرك هذه الأحجار بطاقة المياه فتمكّن من تحويل القطن والكتان إلى ورق وفق الطريقة الصينية التي انتقلت إلى العالم الإسلامي منذ القرن ٥هـ/ ١١م[3]. وكان الناظم يوسف بن محمد بن النحوي المعروف بأبي الفضل القاطن بقلعة حماد ببلاد إفريقية، والزائر لمدينة فاس سنة ٥١٣هـ/ ١١٢٠م، عبَّر عن صناعة الورق في فاس بقوله واصفا المدينة[4].

هذا نسميك أم روح لراحتنا ... وماؤك السلسل الصافي أو الورق

(١) أطلق السماط على الدكاكين التي كان العدول يحررون فيها الوثائق للناس، ووجدت حول جامع القرويين بجهته الجنوبية الغربية.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٨.

(٣) هيل، دونالد: العلوم والهندسية في الحضارة الإسلامية، عالم المعرفة، ع ٣٠٥، ص: ١٥٠.

(٤) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص: ٥٥٢.

لذا فتقنيات صناعة الورق بالأحجار الطاحنة كانت شائعة بفاس استمرت إلى أوائل المائة التاسعة للهجرة. وقد صحب ازدهار صناعة الورق تصديره إلى إسبانيا نظرا لجودته وأهميته. كما انتقلت تقنيات صناعته إلى مصر على يد رجل عرف بعبد الله السوسي الذي كان هنالك يصنع ورقا جيدا وشفافا يكتب عليه بيده[1].

ومع تدهور الدولة المغربية منذ المرحلة الأخيرة من تاريخ الحكم المريني، وصعود نجم الدول الأوربية، أضحى الورق المغربي وضمنه الفاسي يتعرض لمنافسة حادة من الورق الأوربي، الذي شاع استعماله في المدن المغربية، وهو ما عبرت عنه النوازل الفقهية بإصدار حكم على استعمال الورق المصنوع من طرف الأوربيين في الكتابة بفعل التشكيك في طهارته.

تكاد تنعدم المعطيات الميدانية عن صناعة الورق بفاس، بحكم طول فترة التوقف التي عرفتها، مما ساهم في اندثار معالمها الكامنة أساسا في الأحجار الطاحنة. بيد أن بعض المصادر التاريخية تضمنت إشارة إلى حومة الكغادين التي كانت تقع بجهة باب الفتوح على مقبرة دفن بها فقهاء وعلماء ومتصوفة مثل عبد الرحمن الهزميري (ت٧٠٦هـ/ ١٣٠٧م)، وعبد العزيز الورياغلي (ت٨٨٠هـ/ ١٤٧٦م) ومحمد بن غازي (ت٩١٩هـ/ ١٥١٤م)[2]. ويطرح ذلك استفسارا حول احتضان

---

(١) المنوني: تاريخ الوراقة المغربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات-٢- ١٩٩١، ص ص: ٥٧-٥٨؛ حركات: الحياة الاقتصادية في العصر المريني،مقال بمجلة كلية الآداب وع.إ.الرباط، ص: ١٣٥.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص ص: ٦٥-٦٦؛ ابن القاضي : درة الحجال، ج٢، ص: ١٤٧.

هذه الحومة لصناعة الكاغيد، وهو أمر غير وارد في فترة بني مرين-بني وطاس، ومشكوك فيه في الفترات السابقة لها بحكم ضعف النشاط الصناعي في هذه المنطقة المنتمية لعدوة الأندلس والتي لم تتوفر بها شبكة قوية من المياه يمكنها تحريك الأحجار التي تسهم في تصنيع الورق.

٣- التسفير:

هي حرفة تجليد المصاحف والكتب، وقد اعتبرها ابن خلدون الفرع الثالث من حرف الوراقة[١]، ومكنت هذه الحرفة من جمع أوراق المصحف أو الكتب بين دفتي الجلد، وزخرفته بالحرير والكتان والتذهيب وغير ذلك.

وعرفت حرفة التسفير بهذا الاسم في المغرب دون المشرق، وهي مشتقة من كلمة السِّفر الذي يدل على عدد من الأوراق المجتمعة تصل إلى ١٥٠ أو ٢٠٠ ورقة وتضم جزءا من الكتاب أو كله أو عدة كتب مثل المجاميع التي اشتهرت بها خزانات فاس. إلا أن الأستاذ المنوني يربط التسفير أيضا بالسَّفر البعيد الذي يستلزم جمع الكتب وتجليدها تسهيلا لنقلها، حيث يجمع الكتاب الواحد عدة أجزاء[٢].

واعتمد المسفرون في حرفتهم على مواد تتكون من الجلد الذي يحصلون عليه من أسواق المدينة، حيث تعرض للبيع بعد معالجته من طرف الدباغين[٣]، ومن مواد أخرى مثل التي اعتمدت في الزخرفة. ويشرع المسفر في عمله بعد اختيار الجلد المناسب للتسفير، ثم ربطه بإحكام لكراريس الكتاب التي توضع بين دفتي الجلد

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٢٧.

(٢) المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٢٣٤.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٤.

بعد تفصيله ومعالجته، ويحرص المسفر في عمله أن تكون أوراق الكتاب متساوية في الملزم، وبعد التجليد يشرع في زخرفة واجهة الكتاب بالتذهيب[١]. وأحيانا يصنع ربعات خشبية أو جلدية للمسفرات.

ولم تتوفر معلومات عن المكان الذي احتضن عمليات التسفير، لكن الأمر الوارد هو أن مركز عدوة القرويين ومحيط جامعها هو الذي كان مناسبا لذلك، بحكم القرب من جامع القرويين والمدارس التي كانت مراكز للإنتاج العلمي، لما تحتضنه من علماء وفقهاء وطلبة اشتغلت نخبة منهم بالتأليف، ولممارسة بعض الحرف الشبيهة بالتسفير هناك مثل صناعة أكياس النقود والمحافظ الجلدية وغيرها[٢].

وكان المسفر ملزما بتوفير الجلد والاشتغال عليه بالتزويق والخرم وغير ذلك، في حين يلتزم صاحب الكتاب أو الكتب بدفع أجرة مقابل ذلك[٣] بعد التعاقد بينهما قبل الشروع في العمل.

٤- صناعة وسائل وأدوات الكتابة:

يعتبر المداد مادة اعتمدت في الكتابة على الرق والورق، لذلك كانت الكتابة في حاجة إليه وإلى أدوات أخرى احتضنت فاس صناعتها مثل المحابر التي يفرغ فيها الحبر، والأقلام التي ترفعه منها ويخطط بها في الكتب، إضافة إلى المقلمات والمساطير وغيرها.

---

(١) جادة، محمد: التسفير، معلمة المغرب، م٧، ص ص: ٢٣٦٨-٢٣٦٩.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٥؛ التازي، عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي، ج٣، ص: ٨٩.

(٣) الوزاني: تحفة أكياس الناس، ص: ٣٥٤.

وقد تم تناول صناعة المداد أو الحبر في إطار الحرف المخزنية، والذي كانت تتعدد أنواعه حسب طبيعة المواد التي استخلص منها، كما تعددت ألوانه[١]. وهي نفس الطرق التي ميزت صناعة المداد لعامة الناس مع شيوع استعمال الأمِدَّة[٢] الأقل جودة والتي تكون في متناول المحتاجين إلى الكتابة بها.

أما المحابر التي يفرغ فيها المداد بقصد الكتابة، فصنعت معظمها من الخزف، وهو نوع كان في متناول فئة الطلبة والعلماء والفقهاء. وحملت المحابر زخارف أبرزتها إبداعات صانعي الخزف ، واستعمالها في الكتابة هو الذي تطلب مثل هذه الزخارف.

وإذا كانت معظم المحابر خزفية، فإن معظم الأقلام حولت من مادة القصب، وبعضها صنع من الخشب[٣]، تقنيات صنعها تتمثل في قطْع مادة الصنع وتهييئها إلى أن تصبح حاملة لرؤوس حادة، لها دور في حمل وتخطيط المداد، أما الأجزاء الأخرى من الأقلام تفيد في قبضها والتحكم فيها.

تمثلت الأدوات الأخرى للكتابة في المقلمات التي تودع فيها الأقلام، والمسطرات التي تعد موجهة في وضع الخطوط على الأوراق وغيرها. لكن مثل هذه الأدوات لم تكن شائعة الاستعمال إلا عند القليل من الذين خططوا الكتب والمؤلفات.

إن الشرف الذي جسدته حرف الوراقة هو مساهمتها في حركة التأليف وتوفير

---

(١) المنوني: أبحاث مختارة، ص ص: ٢٢٧-٢٣٠؛ نفسه: تاريخ الوراقة المغربية، ص: ٦٢.

(٢) الأمدة جمع مداد.

(٣) المنوني: أبحاث ممتازة، ص ص: ٢٢٣-٢٢٤.

المصاحف والكتب، كما تمثل الشرف أيضا في تموضع هذه الحرف بأماكن متميزة في مركز المدينة حول جامع القرويين.

المطلب الثاني

حرف التطبيب

حرص القائمون بها على دفع الأمراض عن الناس وحفظ صحتهم ووقايتها وقد مارس هذه الحرف الأطباء والصيادلة والعشابون وغيرهم، تكاملت أعمالهم بالشكل الذي لم يستغن طرف منهم عن الطرف الآخر. فكان الأطباء يشخصون الأمراض ويقدمون الوصفات، أما الصيادلة فيعدون الأدوية التي يصفها الأطباء للمرضى، في حين يوفر العشابون العشوب للناس وللصيادلة التي يحتاجونها في إعداد الوصفات.

ومثلت دكاكين بحي العطارين ودكاكين حي العشابين القريبة منها الأماكن التي عرفت ممارسة حرف التطبيب بفاس.

١- الأطباء:

كانت مهمتهم هي تشخيص الأمراض وتقديم الوصفات للمصابين بها قصد معالجتهم. وقد تردد على الأطباء بفاس علية القوم في الوقت الذي كان فيه عامتهم يتلقون طبا شعبيا[1]، ويتداوى الذين في حالات صعبة بالمرافق التي كان يرعاها السلاطين تخصص لها أوقاف بغرض تقديم الخدمة الطبية لهم[2].

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٠.

(٢) احتضن مستشفى الجذمى ومارستان سيدي فرج الخدمة الطبية بشكل مجاني برعاية من الدولة، وتم تناول ذلك في إطار الأنشطة التي أشرفت عليها مؤسسة الأوقاف في الفصل الثاني من الباب الأول من هذا البحث.

ولم يكن الأطباء الذين يعالجون المرضى من الناس ممارسين لمهنة الطب بمفردها، فعادة ما كانوا يقومون بعمل آخر موازي مثل العلم والفقه، كما قد يجمعون بين الطب والصيدلة أو بينه وبين بيع الأعشاب. إذ يمكن للشخص أن يتردد عليهم بأحد الأماكن التي تمارس بها هذه الأعمال أو حين الفراغ منها بمنزله، كما قد يتم استدعاؤهم -أي الأطباء- إلى منازل المرضى قصد تطبيبهم إن كانت وضعيتهم تفرض ذلك، أو كان مرضهم معجِّزا لتحركهم.

وقد تعددت تخصصات الأطباء منها معالجة أمراض العظام والمفاصل، التي تتم جبر العظام المكسورة وذلك بوضع الجبيرة على مكان الكسر، في حين كانت المفاصل تعالج إما بالكي أو الدلك أو غيره[1].

واختص بعض الأطباء في معالجة أمراض الجهاز الهضمي التي كانت تحصل نتيجة خلل في أعضائه المتمثلة في المعدة والأمعاء والكبد أو في بعضها أو أحدها. فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأصل كل داء البردة». والحمية هي الجوع الذي له دور مفيد في علاج أمراض الهضم، أما البردة فهي إدخال الطعام على الطعام قبل هضم الأول، والهضم هو طبخ الغذاء بأعضاء الجسم التي تكمن في الفم والمعدة والكبد وغيرها إلى أن يتحول الغذاء إلى جزء من الجسم وفضلات تخرج منه[2]. لذلك نصح الأطباء المرضى باستعمال الحمية الغذائية، ووصفوا لهم أغذية يتناولونها بانتظام، وإذا استعصى العلاج بالحمية والأعشاب يلجؤون إلى طرق أخرى منها استعمال الأدوية والوصفات الطبية[3].

---

(١) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص: ٧٠؛ بنعبد الله: العلوم الكونية والتجريبية، ص: ٩٨.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ص: ٤١٥-٤١٧.

(٣) بنعبد الله: المرجع السابق، ص ص: ٩٩-١٠٠.

وعُرف الأطباء الذين تخصصوا في علاج أعراض العيون بالكحالين، إذ عالجوا حالات الرمد والدمعة، كما اعتمدوا على الجراحة لعلاج أمراض العيون المعقدة، أو الأشخاص الذين فقدوا البصر(١).

٢- الصيادلة:

كانت حرفتهم هي إعداد الأدوية وبيعها في دكاكينهم التي تواجدت بسوق العطارين.

وكان الصيادلة يهيئون وصفات عادية كان الناس يقبلون على استعمالها في الوقاية والعلاج، كما يتعاونون على إعداد الوصفات التي يقدمها الأطباء للمرضى.

وأصبح الصيادلة في نهاية العصر المريني يجمعون بين الصيدلة والطب أو بينها وبين إعداد وبيع العشوب(٢).

٣- العشابون:

حرفتهم جمع وجلب الأعشاب إلى المدينة وإعدادها واستخلاص وصفات منها للعلاج أو للوقاية من الأمراض.

وكانت للعشاب معرفة بالنباتات ومصادر جلبها. لذلك كان يقوم بشرائها من الأشخاص الذين ينقلونها إلى فاس من محيطها أو من مناطق بعيدة عنها، ولا يغنيه ذلك عن السفر إلى المناطق التي تتوفر على أنواع الأعشاب المطلوبة.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ٤٧٦؛ بنعبد الله: المرجع السابق، ص ص: ٧٣، ٩٩.

(٢) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٠؛ المنوني: مؤسسات خيرية وإحسانات مادية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٧٤.

وكانت عمليات إعداد الأعشاب تتم بالدور أو الدكاكين، ثم يتم عرضها بهذه الأخيرة، وكانت بعض أنواع العشوب تحول إلى مساحيق بعد دقها وطحنها.

ويُقَدم العشاب وصفات العشوب للأشخاص المتوافدين عليه بطلبهم لها منه، أو بوصفها لهم من قبله أو من قبل الأطباء مع توضيح طريقة إعدادها واستعمالها.

لقد اجتمعت دكاكين العشابين في سوق خاص بهم يقع شمال ساحة الحمالين، وكانت هذه الساحة تتموضع في حي النجارين الحالي. ويَحُدُّ العشابين من الجنوب سوق الجزارين ومن الشمال سوق الدخان. وكان حي العشابين محاطا بسور تباع به أيضا الخضر، بلغ عدد دكاكينه أربعين[1]، وهو السوق الحالي المعروف بالجوطية.

تراجعت حرف التطبيب في نهاية الفترة المرينية وفي مرحلة حكم الوطاسيين. وقد حاول الممارسون لها مسايرة هذه التطورات بالجمع بين أكثر من تخصص مثلما ما حدث للصيادلة الذين أصبح بعضهم يمارس حرفة العشابين، والأمر نفسه بالنسبة للتخصصات الأخرى.

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٦؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص ص: ١٥١-١٥٢.

المطلب الثالث

الحرف الشريفة الأخرى

تبرز منها حرفتا العطارين والشماعين، اللتان اشتهرتا بسوقين من أفضل الأسواق رواجا وإقبالا عليهما بفاس، كلاهما احتل موقعا متميزا بقربه من مركز المدينة الذي مثله جامع القرويين وبكثرة العابرين له باحتلاله شارعا رئيسيا.

وتلحق بهاتين الحرفتين حرفة الطباخين الذين نالوا الشرف بتقريبهم من طرف خاصة المدينة بغرض إعداد الأطعمة الفاخرة لهم.

١ - العطارة:

مارس العطارون صنع وبيع العطور. وقد تم تعريف العطار في المصادر الإسلامية باسم الداري، فقد روى القضاعي في الشهاب عن رسول الله ﷺ قال: «مثل الجليس الصالح مثل الداري إن لم يجدك من عطره علقك من ريحه»، وذكر الثعالبي في كتاب «التمثيل والمحاضرة» أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لو كنتُ تاجرا ما اخترْت على العطر شيئا»[1]. وفي الحديث والأثر السابقين إشارات إلى أهمية حرفة العطارة سواء من حيث نبلها أو مردوديتها، وهي الصفات التي نعت بها عطارو فاس[2].

وقد تمثلت مهمة العطار في صنع عطور تستعمل بعضها النساء في التجميل،

---

(١) الخزاعي، التلمساني: تخريج الدلات السمعية، ص: ٧٠٤.

(٢) Massigon : Le Maroc, P : 233.

واللواتي كن تترددن على دكاكين العطارين، والبعض الآخر تُطَيب به الأماكن وعامة الناس.

وضمت مدينة فاس سوقين للعطارين الأول بعدوة القرويين، وهو سوق كبير بلغت دكاكينه مائة وسبعين دكانا وسط العدوة يمتد من مدرسة العطارين شرقا إلى عقبة الجزارين غربا[1]. والثاني بعدوة الأندلس وهو أقل كبرا وأهمية من الأول إذ لم تتعد دكاكينه الثلاثين، وجد بمنطقة جرواوة شرق الكدان وشمال باب الفتوح وحي الفخارين، وكان هذا الحي (العطارين) قائما ونشيطا في القرن ١٠هـ/ ١٦م[2]، لكنه اندثر بعد ذلك بفعل تراجع نشاطه، وما تعرضت له المدينة من أعمال تخريب، عكس حي العطارين بعدوة القرويين الذي كانت الدولة تولي له أهمية خاصة، إذ تم تجديده بعد ما تعرض لحريق.

لقد سوقت بالعطارين مواد توفرت بالبيئة المحلية أو جلبت من الأصقاع البعيدة وخاصة بلاد المشرق الإسلامي والهند. وأهم العطور المسوقة هناك هي : المسك والعنبر الرمادي، والعقيق الذي يصنعه اللبار والورد الأحمر والقرنفل وتاسرغينت والشب بأنواعه. وقد أقبل السكان المحليون والمتوافدون على المدينة على اقتناء هذه العطور، كما حملها التجار إلى مناطق خارج فاس مثل بلاد السودان[3].

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٣؛ المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص: ١٤١؛ Massignon: Enquête sur les corporations de Fès, PP: 194-195

(٢) الوزان: المصدر السابق، نفس الصفحة؛ Massigon : Le Maroc, P : 234

(٣) زمامة، عبد القادر: من مساجد فاس، مسجد اللبارين، مجلة البحث العلمي، ع٤١، ١٩٩٣، ص ص: ٣٧-٣٨؛ حافظي، علوي حسن: التجارة المغربية، معلمة المغرب، م٧، ص: ٢٢٧٤؛ Massignon: Le Maroc, P: 104

٢- صناعة الشمع:

اختص فيها الشماعون ، وكان الشمع المصنوع من قبلهم يستعمل في الإنارة وله رمزية باستخدامه في الحفلات والمناسبات الدينية والدنيوية كالمواسم والأعراس.

ومارس الشماعون حرفتهم في زقاق رئيسي عرف باسمهم، يمتد من الباب الغربي لجامع القرويين الذي يعرف أيضا باب الشماعين إلى أن يصل إلى زقاق الشراطين، كان يضم مصانع للشمع[١].

وتقنيات السبك هي أهم ما ميز تصنيع الشمع[٢]، وشهد النحل أهم مصدر لصناعته. إذ يصفى، ثم يتم تذويبه وإفراغه في الإطارات الخاصة به، ثم يخرج منها بعد تصلبه في أحجام وأشكال متعددة. تحتوي كل شمعة على فتيلة توقد النار فيها وتمثل المادة البيضاء وقودها.

وقد كان الشماعون يعرضون الشموع الجميلة التي يصنعونها بدكاكينهم هناك. لكن زقاقهم احتوى أيضا على دكاكين بيعت فيها الفواكه[٣]، وهو الأمر الذي لازال ساريا، وعلى فندق احتضن نشاطا ماليا تابعا للدولة [٤]، واستمر ذلك النشاط إلى أن خرب هذا الفندق نتيجة ما تعرض له من حرائق في فترات متأخرة عن الفترة المدروسة.

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٤.

(٢) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس، ص: ٢٣.

(٣) الوزان: المصدر السابق، نفس الصفحة، مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٠.

(٤) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص ص: ٢٣٢-٢٣٣.

ووصفت حرفة الشماعين بأنها نبيلة [١] ونظرا لكون قسم من منتوجها كان موجها للمعالم الدينية والعلمية، إذ أضيئت به المساجد والمدارس وغيرها، كما أن موقع هذه الحرفة كان قريبا من أهم معلمة دينية وعلمية بالمدينة، علاوة على المردود التجاري الذي كان يحققه المحترفون بها.

٣- الطبخ:

احترف بعض العاملين بطبخ الأطعمة لفائدة الخاصة من القوم. وعادة ما نشطت هذه الحرفة في أوقات المناسبات والاحتفالات، كان الطباخون يقومون فيها بإعداد الأطعمة. كما شهدت بعض الدور الكبرى بفاس استقرار طباخين بها بصفة دائمة يهيئون ما يحتاجه أهلها من مأكولات.

وكانت الوجبات الدسمة أهم ما يهيئه هؤلاء الطباخين، وتكون اللحوم والأسماك والدجاج والطيور والبيض مواد أساسية لإعدادها بالطبخ أو الشي أو القلي. ومن أهم وصفات لحوم الضأن والبقر التي كان خاصة القوم يتناولونها يوميا البرانية، المروزية، الكرونبية، اللفتية، البسباسية [٢]... ، ويلاحظ أن أسماء بعضها مشتقة من أنواع الخضر التي تدخل في طبخها، ولازالت بعض هذه الوصفات معروفة لدى أهل فاس وغيرهم. كما هيأ الطباخون أيضا القديد من لحم العيد، وأعدوا الخليع من لحم البقر عن طريق طبخه مع الأدم (الزيت والسمن). ودخلت الأكارع وسقط رؤوس المواشي أيضا في إعداد الأطعمة [٣]، إذ هيئت بواسطتها

---

(١) ابن الأحمر وآخرون: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) Abderrahim Benhadda, Laïla Benkirane : Nourriture, Fès Médiévale, entre légende et histoire, un carrefour de l'Orient à l'apogé d'un rêve, série mémoires, éditions autrement, n° 13, Paris, 1992 P: 160. ؛ الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٦.

(٣) نشاط، مصطفى: التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني، مجلة أمل، ع١٧، ١٩٩٩، ص: ٨.

أطباق داخل المنازل.

عبرت الحرف والصنائع الكمالية المركبة بتعدد حرفها وأصنافها، والمواد والتقنيات التي حُولت بواسطتها، والتوزيع الجغرافي لها على مجال المدينة، عن الإمكانيات المتوفرة آنذاك لدى أهل فاس المقبلين على ما تنتجه وتقدمه، ولدى التجار، سواء كانوا أجانب أو محليين، في نقلها وتسويقها بمناطق ومدن مختلفة. وكان الانعكاس الاقتصادي والاجتماعي أكثر بروزا وفعالية عندما تكون الدولة متحكمة في كيانها ومحافظة على الاستقرار، خاصة وأن المصنوعات التي لها طلب كمالي ومركب استدعت توفر مثل هذه الشروط كي تزدهر وتنتعش مادامت آفاقها مرتبطة بشكل أوثق مع الأسواق الخارجية القريبة من فاس والبعيدة عنها.



الباب الثالث

الأدوار الاقتصادية والاجتماعية للحرف والصنائع

الفصل الأول: الأدوار الاقتصادية للحرف والصنائع

الفصل الثاني: الأدوار الاجتماعية للحرف والصنائع



انعكست الأنشطة الحرفية والصناعية على الميدانين الاقتصادي والاجتماعي.

فعلى المستوى المالي ساهمت دار السكة في توفير النقود، وجنت الدولة موارد ضريبية من الحرفيين، إضافة إلى استفادة الأوقاف منهم نظير استئجار محلاتها لهم.

أما على مستوى القطاعات الاقتصادية الأخرى، فكان النشاط التجاري أكثر حظا في الاستفادة من الأعمال الحرفية. حيث عُرضت المصنوعات في الأسواق بفاس، فأقبل عليها التجار الذين سوقوها داخل المدينة وخارجها. كما زوّد الفلاحون الصناعَ بالمواد الأولية وبعض الأدوات المصنعة التي يحتاجون إليها.

وعلى المستوى الاجتماعي ساهم النشاط الحرفي في انتظام معظم القائمين به في طوائفَ خاصة كان لها الأثر الإيجابي في تعاون المنخرطين فيها وتآزرهم، وانعكاس ذلك على أوضاع أسرهم وذويهم وعامة الناس بالمدينة.



الفصل الأول

الأدوار الاقتصادية للحرف والصنائع

المبحث الأول: الدور المالي

المبحث الثاني: الدوران الفلاحي والتجاري



أثرت الأعمال الحرفية و الصناعية المنجزة بفاس في النشاط المالي، فكانت عمليات سك النقود أساسية في صرفها للناس كي يعتمدوا عليها في الأداءات المالية التي تربطهم مع مؤسسات الدولة و أفراد المجتمع.

و انعكس النشاط الحرفي بفاس على النشاطين الفلاحي و التجاري، إذ ارتبطت المدينة المذكورة بالبوادي المحيطة بها فتزودت منها بما احتاجته الأعمال الحرفية من مواد أولية و فلاحية، و زودتها بحاجيات سكانها من الأدوات و الآلات و المواد المصنوعة. و كانت التجارة منشطا أساسيا للعلاقات التي ربطت فاس بمحيطها القريب بالآفاق البعيدة، و بذلك كانت أسواق فاس لدى التجار المحليين و الأجانب الذين كانوا يحملون منها كميات و أنواع من المصنوعات و يجلبون إليها ما تحتاجه من مواد و منتوجات.

المبحث الأول

الدور المالي للحرف والصنائع

تكاملت الحرف المنتسبة للدولة مع التي يديرها الخواصُّ بالمدينة العتيقة في أداء هذا الدور، فقد أفرزت صناعة النقود بدار السكة أعمالا بفاس الجديد مارستها طائفة اليهود بشكل خاص، وتولّت توفير النقود لتداولها في الأسواق، وذلك من خلال امتلاكها لدكاكين تُمارَس فيها عملياتُ الصرف بعد تحصيل النقود من دار السكة.

وكان للسلاطين دورٌ أساسي في صرف النقود ، فهم المسؤولون عن صناعة السكة، يدفعون المعادن اللازمة للحصول على كميات نقدية تساعدهم في تسيير شؤون الدولة.

وبهذا النشاط مثّلت النقود المضروبة بفاس وسيلة لإنجاز المعاملات المالية ببلاد المغرب وخارجها، منافِسة بذلك باقي العُملات المغربية والأجنبية، إلا أن هذا النشاط تأثر بالغش في النقود الذي حَرِص ملوك الدولة المغربية على محاربته، لكنهم ما لبثوا أن استسلموا للغشاشين في فترات الضعف.

أما الدور المالي للحرف الخاصة فقد تجسد أولا في المردود الجبائي الذي كان يُدِرُّ على خزينة الدولة موارد مالية، وتجسد ثانيا في الحقوق المالية الأخرى التي كان أرباب بعض الحرف والصنائع يقدمونها لمؤسستي المخزن والأوقاف نظير استغلالهم للمحلات والأماكن التي تعود ملكيتُها للمؤسستين المذكورتين.

المطلب الأول

نظام الصرف

تدخل بلاد المغرب ضمن الأقاليم المعتدلة (بلدان الحوض المتوسطي) التي ذكر ابن خلدون أن أهلها يتعاملون بالنقدين[١]: الدينار والدرهم اللذين كانا يُضْرَبان بدار سكة فاس الجديد.

وقد كان السلطان والصرافون زبونين رئيسيّين لدار السكة، يدفع كل طرف منهما معدني الذهب والفضة كي تُضرَب له نقودا، لكن الصرافين يؤدون الأجور مقابل تلك الخدمة، عكس السلطان المعفى من ذلك باعتباره مسؤولا عن الدولة المتلكة لحق سك النقود[٢].

فالنقود التي تُضرَب للسلطان فكانت تُشحَن بمخازنه التي وصفها ابن الخطيب بأنها «محمولات الأقتاب»[٣]، تدفع منها ومن الأموال التي تجمع من مصادر أخرى مصاريف ونفقات الدولة المتعددة كرواتب الموظفين والمستأجرين والجنود، وتؤسس بها المباني، وتدعم بها الأوقاف، وتصرف منها الجَرَايات والصدقات...

أما النقود التي سكّها الصرافون فتوجه إلى دكاكينهم قصد مبادلتها مع ما يمتلكه الناس من ذهب أو فضة أو نقود، وقد وُكِّلت لليهود عمليات تصريف الفلوس -على حدِّ تعبير الحكيم المديوني- بالدراهم والدراهم بالفلوس بالمدينة في عهد أبي يوسف يعقوب بعد إخراجهم من القيصارية وعزلهم عن الحرف التي

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٨٢.

(٢) الحكيم: الدوحة المشبكة في ضوابط دارا لسكة، ص ص: ٩٤-٩٦.

(٣) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٦.

اتُّهِموا بممارسة الغش مع المتعاملين معهم من المسلمين[١]. ومهمة الصرف هاته تبدو بسيطة ومحصورة تتلخص في مبادلة النقود ولا تتعداها إلى مبادلتها بالذهب والفضة، ويُعزى ذلك إلى تجنُّب الغش والتدليس المتَّهمين به. إلا أن ممارسة اليهود للصرف سوف تتطور بعد ذلك خاصة بعد انتقالهم إلى فاس الجديد في جوار السلطان وقربهم منه ومن دار السكة، حيث سمح لهم بممارسة حرف منها الصرف والقبض والصياغة، حيث كانت محلاتهم توجد قريبا من دار السكة مجاورة لمحلات الصياغة[٢]، التزموا فيها بمبادلة النقود بالنقود أو بوزنها مقابل ذهب أو فضة وهو ما يسمّى بالمراطلة، كما مُنعوا من إنجاز عمليات الصرف ب«النَّظِرَة» و«الخِيّار» و«المشُورَة» و«الحَوَالة»، ومُنعوا أيضا أن يستبدلوا رديء النقود بجيِّدها وذلك بهدف تجنُّب الغش والربا، إذ يعتبر الصرف من أضيق أبواب الربا، ولذلك كان المشروطُ في إنجاز الصرف الأداءَ فوراً وفي عين المكان دون رد إلا بالشروط التي حددها الفقهاء[٣].

لقد حرص المخزن على حماية عمليات الصرف من مظاهر الغش والتدليس لما في ذلك من ضرر على المجتمع والدولة، مما استوجب طواف ناظر السكة على الصرافين لمراقبة ما لديهم من نقود جاهزة للصرف وتبيان خلوِّها من طوابع خارجية[٤]، وهو مؤشر على اتهامهم بتزوير النقود بتقليد صنعها في محلاتهم، علما أنهم كانوا على علم بتلك التقنيات نظرا لممارسة بعضهم للصياغة وتعاملهم مع دار السكة.

(١) مجهول: ذكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين، نسخة من مخطوط في مجموع، ص: ٤٣٥.

(٢) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٧.

(٣) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١١٩-١٢٠.

(٤) نفسه، ص: ٧٣.

وقد كانت أعمال الغش والتدليس التي ثبتت في حق الصرافين اليهود سببا في عزلهم عن الصرف والصياغة والقبض المتهمين فيها، بظهير من أبي الحسن المريني سنة ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م، لكنهم سيعودون لممارسة الحرف ذاتها في عهد أبي عنان عام ٧٥٦هـ/ ١٣٥٦م بعد أن التزموا له بعدم الغش والتدليس، ثمّ ما لبثوا أن عاودوا الكرة مرّة أخرى فتمّ عزلهم عن تلك الحرف في عهد أبي فارس عبد العزيز المريني[1]. وقد سمحت لليهود الظروفُ العامة التي عرفتها نهاية دولة بني مرين وفترة بني وطاس بعدهم بالعودة إلى ممارسة مهنة صرف النقود بفاس الجديد.

وإذا كان اليهود قد تمكنوا من الاحتفاظ بحق صرف النقود في معظم الفترات، فإن الغموض يلفُّ الفترات الطويلة المتقطعة التي كانوا معزولين فيها عن ذلك، والراجح أن أعمال الصرف قد أنيطت في تلك الفترات بدار السكة مادامت هذه المؤسسة قد استغلت المداخيل التي تحصلها في ضرب نقود للصرف ، حيث سمي المال الموفر لديها ب»الفايد« الذي كان بعض السلاطين ينمونه عندما يبدو لهم تناقصه ، وهو الإجراء الذي قام به السلطان أبي الحسن، حتى تستمر دار السكة في أداء الوظائف المنوطة بها.لذلك فدار السكة كانت مؤهلة لتعويض اليهود في صرف النقود أثناء منعهم عنها ، حتى في الأوقات التي تراجعت فيها عن نظام العمل بالفايد[2]. مادامت الضرورة تستدعي طرفا يقوم بوظيفة الصرف .

وسواء كان الصرافون من اليهود أو من المسلمين، أفرادا أو مؤسسات، ورغم ما شاب عمليات الصرف من غش وتدليس، فإن مهمتهم ضمنت توفير النقود للمحتاجين لها،سواء كانوا تجارا أو غيرهم ومكنتهم من إنجاز أعمالهم. إذ كانت

---

(١) السلامي، رشيد: وثائق مرينية، ج٢، ص: ١٤٠؛ الحكيم: المصدر السابق، ص: ١٣٧.

(٢) الحكيم: المصدر السابق، ص ص :٩٤-٩٦.

النقود الرائجة بأسواق فاس وغيرها متنوعة ومتعددة القيم والأثمان موجهة للأسواق قصد التعامل بها. وقد شكَّل الدينار الذهبي والدرهم الفضي نقدين أساسيين في المعاملات المالية ليس داخل المدينة فحسب بل خارجها أيضا[1]، إذ مثلا العملة التي كانت تضربها دور السكة المغربية، نافست العملات الخارجية. فقد كانت مدينة فاس مصدرا أساسيا للعملة النقدية[2]، اعتبرت وسيلة للحصول على البضائع من بلاد السودان وفي مقدمتها الذهب[3]، كما شاع التبادل مع المسيحيين الإيبيريين بالدينار الذهبي الذين كانت تضرب لديهم عملة ذهبية موافقة له نعتت أيضا بالدينار[4]، فضلا عن التبادل مع البلدان الإسلامية للاشتراك معها في أصل ضرب الدينار والدرهم.

وحرص ملوك الدولة في الفترتين المرينية والوطاسية على حماية العملة المضروبة لديهم باشتراطهم على الدول التي تتعامل معهم ضرب نقود تتوافق قيمها مع التي تضرب محليا[5]. مما كان يمهد لتيسير مبادلة البضائع والنقود سواء كانت هاته الأخيرة محلية أو أجنبية. وهذا ما يلمس من حديث الوزان في كتابه «وصف إفريقيا» ، الذي ألفه بإيطاليا ، عن الأسعار والأجور التي كانت تتم وتحدد بفاس ذكر قيمها الإيطالية مثل كارينو وبايتشو وكواطرينية[6]، مما يعبر عن إمكانية حصول تكافؤ

---

(١) بنعبد الله: معطيات الحضارة المغربية، ج٢، ص: ٨٩؛ Dufourcq: L'espagne catalane et le maghreb, P: 170.

(٢) العلوي: عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، مجلة فاس وإفريقيا، سلسلة ندوات ومحاضرات. ٣، ١٩٩٦، ص: ٩٠.

(٣)- بوفيل: تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ، تنقيح : روبن هاليت، ترجمه إلى العربية : الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة فاريونس، بنغازي، ١٩٨٨ ص: ٢٥٢.

(٤) Dufourcq : L'espagne Catalane, P : 68.

(٥) المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص: ١٣٦.

(٦) الوزان: وصف إفريقيا، ص ص: ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩- ١٩١.

العملات المحلية والأجنبية من حيث القيم. ولم يكن الحرص المتحدث عنه مرغوبا فيه من ملوك المغرب فقط، بل من الملوك الأجانب أيضا مادام الهدف الأسمى هو ممارسة التجارة البعيدة المدى خاصة لدى بلدان متوسطية تجارية مثل المغرب وإيطاليا.

المطلب الثاني

الأداء الجبائي

استفادت الدولة المغربية من الحرف والصناعات التي كانت تنجز بمدينة فاس ماليا، عن طريق استخلاص الضرائب مقابل الخدمات التي كانت توفرها لها. وكان ملوك الدولة يلجؤون إلى تنويع وزيادة قيم الضرائب عندما تضعف أحوالهم وتقل الموارد لديهم. وفي مقابل ذلك كان المجتمع في شخص علمائه وفقهائه يحتج على فرض الضرائب غير الشرعية، مما كان يؤدي إلى إلغائها في عهدي أبي سعيد عثمان وأبي الحسن علي المرينيين[1].

وقد شهدت الدولة منذ نهاية فترة بني مرين تراجعا في مداخيل الضرائب وطريقة جبايتها، إذ ضعف مردودها نتيجة تفويت الدولة ممتلكات هامة للخواص، وعدم قدرتها على استخلاص بعض أنواع الضرائب مثل الجزية من أهل الذمة، بل أصبح الجهاز الذي يستخلص الضرائب غير تابع للدولة يقدم بموجبه مال معلوم للدولة مقابل الحصول على حقوق الجباية ، مما يعد مؤشرا على التعسف الذي تعرض له الحرفيون وغيرهم عند دفع الضرائب المستحقة عليهم.

١- الضرائب الشرعية:

يتكون هذا النوع من الضرائب من الزكاة والأعشار والجزية، لكن الأخيرة تعد الأهم من حيث المبلغ المالي المدفوع بموجبها مادام الأمر يتعلق بالحرف في حين أن النوعين الأولين ساهمت فيهما مداخيل الحرفيين والصناع بنسبة أقل مقارنة مع

---

(١) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ١١٩، ٢٨٣؛ السلامي وثائق مرينية، ج٢، ص: ٣٥١.

القطاعين الفلاحي والتجاري. علما أن الأعشار لا تشمل الحرفيين بل التجار والفلاحين.

- الجزيـة:

لقد أدى اليهود مقابل ممارسة أعمالهم الصناعية والتجارية مبلغا ماليا هاما عند نقلهم للملاح بفاس الجديد وصل ثلاثون ألف دينار ذهبي كل سنة، وهو المبلغ الذي أدوه أيضا منذ استقرارهم بالمدينة العتيقة بين أغلان وحصن سعدون في العصر الإدريسي[1]. والمبلغ المدفوع يعبر عن أهمية الأنشطة التي كانوا يمارسونها وما كانت تدره من مداخيل أدوا منها ضريبة الجزية بشكل منتظم ومستمر لعهد طويل. وقد كان العامل المكلف بتسيير شؤون طائفة اليهود هو الذي يشرف على جمع مبلغ الجزية من أفراد الطائفة ويسلمه إلى الملك على رأس كل سنة[2]. وهذا دليل على أن هذه الضريبة كانت تؤدى بشكل جماعي، لكن هناك من ذكر أن هذه الضريبة قبل أن تؤدى جماعية كانت فردية لكن هذا الطرح يعد مستبعدا، بحكم النظام الخاص الذي يميز طائفة اليهود، والصعوبات التي تطرح عند أداء كل شخص منهم الجزية.

لقد مكنت مداخيل الدولة من الجزية من تمويل مشاريع بناء المعالم العمرانية الدينية والعلمية، كما ساهمت في أداء أجور المرتبين لدى الأحباس من طلبة ومدرسين وأطباء ومرضى وغيرهم.

وبحكم تدهور أوضاع الدولة لم تعد السلطة قادرة على استخلاص مبلغ الجزية -كما يستنتج من بعض الكتابات- إذ أصبح اليهود يتحكمون في دواليب الدولة

(١) مجهول: ذكر قصة المهاجرين المسمون بالبلديين، مخطوط في مجموع، ص: ٤٣٣.

(٢) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٦.

بإصدار قراراتها، والسيطرة على أهم الأنشطة الاقتصادية بالمدينة، فقد تسلموا دار الصناعة بفاس الجديد من الشريف الجوطي[1] الذي حكم عقب سقوط دولة بني مرين. وامتلكوا دكاكين القيصارية بالمدينة العتيقة في عهد سلف الجوطي وهو عبد الحق آخر ملوك بني مرين، مقابل تقديمهم هدية سنوية له يحتمل أن تكون معوضة للجزية، وقد أصبحت هذه الهدية تقليدا سنويا لهم ولمن رغب في دفعها معهم من المسلمين الذين كان رفضهم كافيا لإخراجهم من دكاكينهم بالقيصارية[2].

-الزكـاة:

إذا كانت ضريبة الجزية قد أُخذت من أهل الذمة، فإن ضريبة الزكاة تقابلها عند المسلمين سواء كانوا تجارا أو حرفيين، يلتزمون بإخراج ربع العشر على ما يستثمرونه من أموال في أنشطتهم بعد مرور الحول.

وكان سلاطين بني مرين حريصون على استخلاص هذا النوع من الضرائب أيضا بحكم مشروعيته من ناحية، وأهميته المالية من ناحية أخرى. لذا عينوا هيأة تشرف على جباية الزكاة تتكون من عاملها ومرافقين له ضمنهم فقهاء. فقد ذُكر أن أبا الحسن المريني خاطب الإمام أبي فارس القَوْري في الخروج مع عامِل الزكاة لكنه رفض مما أثار غضب السلطان[3]. وكانت الأنشطة الحرفية بحجم رؤوس أموالها تستدعي دفع مبالغ الزكاة المترتبة عنها من قبل المحترفين بتلك الأنشطة، إلا أن المبالغ المحصلة منها كانت ضعيفة مقارنة مع التي يدفعها التجار، بحكم قلة رؤوس الأموال المستثمرة لديهم ، إذا تم استثناء بعض الحرف التي كان أربابها يمارسون

---

(١) نفسه، ص: ١٥٧.

(٢) مجهول: ذكر المهاجرين المسمون بالبلديين، ص: ٤٣٦.

(٣) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص:

الصناعة والتجارة في آن واحد. وقد مال ملوك الدولة إلى ترك دفع الزكاة من طرف الحرفيين والتجار بالمدينة حرا دون إجبار[1]، نظرا لتورع وتدين معظمهم، ودور الفقهاء والخطباء والمحتسب وغيرهم في حثهم على دفع حقوق الله المترتبة عليهم، كما أن انتظام الحرفيين في طوائف وترؤُّس الأمناء لها كان أداة مناسبة لتسريع صرف مبالغ الزكاة.

٢- المكـوس:

هي ضرائب غير شرعية فرضها السلطان على التجار والحرفيين بأسواق المدينة وأبوابها. وقد أدى الحرفيون أنواعا من المكوس استخلصتها الدولة منهم سواء عند قيامهم بأعمالهم أو عند بيعهم لما يصنعونه من منتوجات، كما كانوا يؤدون المكوس بشكل غير مباشر نظير إدخالهم للمواد الأولية إلى المدينة.

- مكوس التصنيع:

تمت تأدية هذا النوع من الضرائب بدار السكة التي مثلت استثناء. إذ تعد النشاط الوحيد الذي تقوم به الدولة يؤدى نظيره مقابل من المال، وببعض الأنشطة الأخرى التي مارسها أرباب الحرف والصناعات.

- **ضريبة السك:**

أورد الحكيم المديوني في دوحته أن الصرافين الذين كانوا يدفعون المعادن كي تضرب لهم نقودا أدوا مقابل ذلك ضرائب استمرت خلال مرحلة معينة في ضرب

---

(١) أباضة دسوقي، ابراهيم: النظام الضريبي المغربي بين الماضي والحاضر، المناهل، ع٢، ١٩٧٥، ص: ٣١٤.

نقود للصرف من طرف دار السكة، ثم بذلت أجورا للعاملين بدار السكة بعد ذلك[1]. ولعل الدولة هي التي كانت تتكلف بصرف أجور العاملين في المرحلة الأولى ثم تخلت عن ذلك بحكم كثرة النفقات وتطور أوضاع وظروف الحكم.

- مكس الطحن:

كان أرباب مطاحن الزروع بالمدينة العتيقة ملزمون بأداء هذه الضريبة للدولة، وذلك بحجة ملكية الماء التي ترجع إليها، حيث كانت الأرحاء تدور بمياه الوديان المخترقة لفاس مما يمكن من طحن القمح والحبوب الأخرى للزبناء. وقد كان الملك يأخذ نصف ريال عن كل كيل يطحن بفاس العتيقة، في حين كانت مطاحن فاس الجديد غير ملزمة بأداء هذه الضريبة اعتبارا لعود ملكيتها إلى السلطان، وطحن حبوبه وحبوب حاشيته بها[2].

- مكس الدبـغ:

كان الدباغون الذين اجتمعت معاملهم حول مجاري المياه داخل المدينة العتيقة وخاصة في أسفل مجرى الوادي الفاصل بين العدوتين، يدفعون ضريبة درهم عن كل جلدة دبغت، مما كان يوفر دخلا مهما للدولة منها قدر بألف مثقال نظرا للكم الهائل من الجلود المدبوغة الذي قدر بـ ١٢٠ ألف جلدة، ولم يشر الوزان الذي وردت عنده هذه الأرقام شيئا عن المدة الزمنية[3].

---

(١) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ٩٤-٩٦.

(٢) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٨.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٠٤.

• مكس الذبح:

أدى الجزارون مقابل ذبح رؤوس الماشية بالمجزرة رسوما، فكانوا يدفعون ريالا عن كل خروف يذبح هناك[1]، ورغم أن أنواع المواشي الأخرى لم يذكر عنها شيء فإن ضريبة ذبح الماعز مساوية أو تقل عن التي كانت تدفع عن الأغنام، في حين ترتفع ضريبة ذبح الأبقار.

لم يرد شيء عن الدوافع الذي تحكمت في فرض المكوس على الدباغين وداخل المجزرة، لكن الراجح أن استغلالهم للمياه كان مبررا لجباية الرسوم منهم.

- مكوس التسويق:

وكان الكثير من الصناع يتولون شراء المواد الأولية التي يحتاجونها، وبيع ما يصنعونه منها في الأسواق، لذلك التزموا بأداء مكوس مقابل ذلك خاصة عند بيع المصنوعات بالمزاد العلني في الأسواق المهمة كالقيصارية التي سوقت بها الجلود المدبغة والأحذية المطروزة والأثواب المنسوجة، وقد تكلف الجباة باستخلاص الضرائب عند بيع مثل هذه المصنوعات[2]. وتحمل الصناع أيضا الضرائب المفروضة على المواد التي تُدْخل إلى المدينة يتم دفعها للجباة في الأبواب باستثناء بعض المواد المعيشية. وهو ما ساهم في ارتفاع قيمة هذه المواد قبل تصنيعها، فقد وصلت الضريبة

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ص: ١٩٦، والريال الذي يدفع على الخروف أورده الوزان بأنه بيوتشان اللذان يتساويان معه بمقارنته مع ما ورد عند مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٨ حول الطحن إذ ذكر مارمول نصف ريال وكافأه بيوتشي عند الوزان، ص: ٢٣٣.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٩؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٩.

المفروضة على الداخل إلى المدينة مثقالين عن كل مائة مثقال[١] أي بنسبة اثنين في المائة (٢٪).

كان المردود المالي الذي يحصله المخزن من الحرفيين مهما بالنظر إلى أهمية المواد التي يحتاجونها، ويحولونها إلى مصنوعات، تسوق داخل المدينة وتحمل إلى الآفاق.

المطلب الثالث: الحقوق المالية الأخرى

يؤدي الحرفيون أقساطا مالية بشكل منتظم للجهات التي كانت تمتلك مرفقا صناعيا أو جزءا منه. وتمثلت هذه الجهات في الدولة والأوقاف والأشخاص، وقد كانت أحيانا الملكية مشتركة بين أكثر من طرف من الأطراف الثلاثة بحكم التطورات التي عرفتها المدينة منذ تأسيسها، حيث تم شراء الأملاك العامة من طرف الأشخاص، وفوت الكثير منها إلى الأوقاف بحكم الورع والتدين الذي تميز به أهل فاس، إذ أوقفوا أملاكهم لصالح المعالم الدينية والعلمية.

وملكية الأراضي التي شيدت عليها مدينة فاس في الأصل تعود للدولة، إذ أن الملوك أقطعوها للناس كي ينشؤوا فوقها المباني[٢] التي من ضمنها الدكاكين والمحلات الحرفية، ولذلك اعتبرت جزاء يؤدي المستغلين عليه أجور الكراء للدولة أو الجهة التي اشترته منها. وتنعت المباني التي تمارس بها الأنشطة الحرفية بالجلسة[٣] نسبة إلى جلوس الحرفيين بها، وقد تعود ملكيتها لأشخاص سواء كانوا ممارسين

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ص: ١٩٦.

(٢) الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٢٦.

(٣) مجهول: ذكر قصة المهاجرين المسمون بالبلديين، ص: ٤٣٦ Massignon:; Enquête sur les corporations d'artisans et de commerçants 1923-1924, d'après les réponses au questionnaire transmis par circulaire du 15 novembre 1923 sous le timbre de la direction des affaires indiquées et du service des renseignements, 1924, P: 79.

للحرفة أم لا، وللأوقاف التي حبست لفائدتها.

ومورست بعض الحرف في الردود[1]، وهي ضفتا وادي فاس والأودية المحيطة بها، تعود ملكيتها لمؤسسة الأوقاف، لذا كان الحرفيون الذين يستغلونها يؤدون مبالغ مالية سنوية لهذه المؤسسة مقابل ذلك.

وعموما كانت أجور الكراء رابطا أساسيا جمع بين الحرفيين وأرباب الأملاك، وأديت معظم وأهم هذه الأجور لمؤسسة الأوقاف وهذه هي أبرز الحالات.

١- كراء الردود:

هي مجاري المياه وضفافها والتي كانت مصلحتها مضافة إلى الحبس، يقوم الإمام أو الناظر بكرائها للحرفيين الذين يشتغلون فيها لأجل محدد وبمبلغ معلوم متفق عليه. فقد كان القصارون الذين يطبخون الخيط على ضفة وادي فاس، والصيادون الذين يصطادون الحوت من مياهه ومن مياه نهر فاس أيضا، والملاحون الذين يجمعون الملح من وادي مكس على بعد أميال من فاس، يؤدون مبالغ مالية سنوية للمكلفين بالحبس[2]. وجامع القرويين كان هو المستفيد الأكبر من هذه المداخيل نظرا لأهميته الدينية والعلمية لدى أهل فاس، وملكيته للردود كانت من باب دفع المضرة وجلب المنفعة[3]، والمضرة المدفوعة هي ما قد ينشب من نزاعات حول ملكيات الردود، والمنفعة المجلوبة هي الأموال التي تكترى بها الردود وتصرف في مصلحة عامة.

---

(١) ورد تعريف الردود بأنها هي أماكن اعوجاج الوادي التي يجتمع فيها الحوت حسب ما جاء عند الوزاني، المهدي: تحفة أكياس الناس في شرح عمليات فاس، ص: ٣٦٢.

(٢) مجموع أوله شرح منظومة العمل الفاسي، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم ١٤٤٧د، ص: ١٤.

(٣) الوزاني، المهدي: المصدر السابق، ص ص: ٣٦٢-٣٦٣.

٢- كراء المطاحن:

رجعت ملكية معظم المطاحن في فاس إلى أحباس الجوامع والمدارس. لذلك كانت تكترى من المشتغلين بها سواء كانوا يطحنون الحب للزبناء أو يصنعون الدقيق ويبيعونه. وكان مبلغ كرائها مرتفع يصل إلى مثقالين لكل رحى[1]، وما دامت كل طاحونة تتوفر على عدد من الأرحية قد يصل خمسة، فإن مبلغ كراء الطاحونة الواحدة يصل إلى عشرة مثاقيل في هذه الحالة ولعل هذا المبلغ كان يستخلص كل شهر من طرف المكلفين بجمع كراء الحبس.

٣- كراء الأطرزة:

وُقفت كثير من الأطرزة أو دور النسيج على الأحباس. وكان كل طراز يتوفر على العديد من المرمات التي تستعمل في النسج وعادة ما كان صاحب الطراز سواء في شخص فرد أو مؤسسة (الأوقاف) يكتري أماكن النسج للنساجين بصفة مشتركة[2]، إذ يتولى النساجون داخل الطراز جمع مبلغ الكراء وتقديمه لقابضه كل شهر.

٤- كراء أماكن الحلاقة بالحمامات:

اشتغل الحلاقون داخل الحمامات بأماكن خاصة بهم يؤدون مالا معلوما لأرباب الحمامات مقابل الجلوس فيها. وقد يكون أصحاب الحمامات بدورهم مكترين لها من الجهة التي تمتلكها، لذلك كان المبلغ المحصل من الحلاقين مساعدا لهم. ولعل هؤلاء -الحلاقين- كانوا يجلسون بقرب مدخل الحمام يحلقون رؤوس

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٣.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣.

المستحمين، وعند نهاية عملهم في المساء يجمعون آلياتهم ويتركونها مودعة في الحمام[1] إلى أن يبتدئ يوم عمل جديد عندهم.

تلك هي أهم المرافق الحرفية التي كانت تذر مردودا ماليا مهما مقابل استغلالها من طرف الحرفيين. وكانت مؤسسة الأوقاف هي أهم طرف استفاد من مداخيل كراء هذه المرافق الكبرى حيث جمعت مداخيل مالية من كراء المحلات والدكاكين الصغرى التي يشتغل بها الحرفيون والتي امتلكت عدد كبيرا منها، مما ساهم في ارتفاع مردود الحبس، إذ وصلت بالنسبة لجامع القرويين فقط عشرة آلاف دينار في بعض السنوات[2]. وكان النظار حريصون على استخلاص أجور الأكرية من الحرفيين وغيرهم، إذ عينوا قباضا لها[3]، يتجولون على رأس كل شهر لجمعها. وجرى العمل بفاس بأن يتكلف القباض بجمع حقوق الحبس المالية ويقدمون ما جمعوه للناظر الذي يضع المال المقبوض في مستودع المال بعد خصم أجرته وأجرة القباض والفراض والشهود ومن بيده الزمام منه[4].

لقد تأثرت مداخيل الدولة المالية في فترات الضعف، إذ لجأ السلاطين إلى بيع الممتلكات المحبسة بعد كتابة عقود استرجعوا بموجبها الأملاك من الحبس ثم باعوها قصد التغلب على الصعوبات المالية التي كانوا يعانون منها ،على أساس استرداد الأحباس لتلك الأموال بعد انفراج الأزمات. وقد حصل ذلك في فترة أبي سالم ابراهيم الذي باع قاعة دار الدبغ بالقلقليين بمبلغ خمسين دينارا من الذهب

(١) نفسه، ص: ٢٣٠.

(٢) Khaneboubi : Les premiers sultans mérinides, P : 126.

(٣) المنوني: ورقات عن حضارة المرينين، ص: ١٢٦.

(٤) الوزاني، المهدي: مصدر سابق، ص: ٣٦.

العين لأحد الأفراد من المدينة[١]، كما امتلك اليهود جلسات الدكاكين بالقيصارية وسط المدينة بعد شرائها من الحبس، وامتلكوا أيضا مرافق صناعية تابعة للدولة مثل دارا لصناعة[٢].

(١) الونشريسي: المعيار المعرب، ج٧، ص ص: ٢١٤-٢١٥.

(٢) مجهول: ذكر قصة المهاجرين، ص: ٤٣٦؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٧.

المبحث الثاني

الدوران الفلاحي والتجاري

تكاملت الأنشطة الاقتصادية بخدمة بعضها للبعض الآخر، وتميز النشاط الصناعي كذلك بتسلسل فروعه وانعكاس بعضها على البعض الآخر. فالصناعات والحرف المخزنية مكنت من توفير التجهيزات الأساسية للصناعات الخاصة مثلا، إذ وفرت المياه التي كانت أساسية في بعض التخصصات الحرفية، ومدت الطرق والجسور، وبنيت وجددت بواسطتها بعض الأحياء والأسواق، مما أفاد الحرفيين مع غيرهم من التجار والسكان والزوار.

كما انعكست الحرف والصنائع على النشاط الفلاحي الذي تزودت منه بالمواد المحولة إلى مصنوعات كالزرع الذي حول إلى دقيق، والقطن والكتان والحرير التي حولت إلى منسوجات، ومادة القنب التي حولت إلى حبال وشرائط، وشهد النحل الذي صنع منه الشمع، والزيتون الذي عصر زيتا... كما تزود الفلاحون أيضا بحاجياتهم التي صنعت داخل المدينة مثل المحاريث والمكاييل والسلال والظروف...

وكان تبادل التأثير بين الصناعة والتجارة أكثر بروزا وجلاء، فالتجار اعتبروا وسطاء بين الصناع والفلاحين من جهة، وبينهم وبين غير الفلاحين من جهة أخرى. حيث حملوا المواد التي كانت الحرف والصناعات محتاجة لها سواء من المحيط القريب أو البعيد، كما قاموا بعمليات تسويق المنتوجات المصنعة كذلك، رغم أن الحرفيين كانوا أحيانا يتولون بيع منتوجهم بأنفسهم مثلهم مثل الفلاحين الذين

يتكلفون بحمل واقتناء المواد والمنتوجات من وإلى المدينة، لكن أعمال هؤلاء تبقى محدودة مقارنة مع أعمال التجار. وما دام الأمر كذلك، وما دام تأثير الصناعات بعضها في بعض قد تم تناوله في ثنايا البابين الأول والثاني، فإن التركيز سيعتمد على تبادل التأثير بين الصناعة والتجارة.

المطلب الأول

جلب المواد الفلاحية الأولية

كانت الحركة الصناعية التي تشهدها مدينة فاس في حاجة إلى مواد فلاحية أولية، تحول إلى المدينة من المناطق المتوفرة عليها سواء كانت في المحيط القريب من المدينة، أو في مناطق المغرب الأخرى، أو خارجها. وقد تحمل التجار مسؤولية نقل تلك المواد وإدخالها إلى المدينة وبيعها للمحتاجين إليها.

١-المواد الفلاحية:

اتسم محيط مدينة فاس بتوفره على المواد الفلاحية الجبلية وفي مقدمتها الأخشاب وعلى المنتوجات الزراعية إذ «لها (فاس) من المحرث العظيم سقيا وبعلا»[١]، مما ساعد كثيرا من سكان عدوة الأندلس بفاس على انتحال «الحراثة والفلاحة»[٢]، كما توفرت بمحيط المدينة المواشي التي سهر الفلاحون على تربيتها واستغلالها في إنتاج اللحوم والأصواف والجلود لفائدة الحرفيين والصناع داخل المدينة الذين اهتموا بشراء تلك المواد منهم.

- الأخشاب:

استخدم الحرفيون كميات كبيرة من الخشب في تسقيف المباني، وكان خشب الأرز مفضلا في ذلك إذ كان يجلب «من جبال بني يازغة، وهي بنحو الثلاثين ميلا

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٣٣.

(٢) نفسه، ص: ٤٣.

عنها (فاس)، يصل كل يوم منه أحمال كثيرة فلا يعدم فيها بوجه، وقد يعمل العود منه في الموضع الذي يناله ماء ألف سنة وأزيد لا يعفن ولا يستاس (يُسَوَّس)» (١)، ويوضح ذلك أهمية هذا النوع من الخشب المتمثلة في طول مدة تعميره وجودته. لكن المباني الفاسية سُقفت بأنواع أخرى من الخشب المتوفرة مثل الزيتون(٢) والعناب... واعتبرت جبال بني بهلول مصدرا رئيسيا لخشب البلوط الذي يحمل إلى فاس(٣)، كما نقلت من بلاد الهبط كميات من خشب البقس الذي كان يعتمد في صناعة الأمشاط، وخشب الأبنوس الذي صنعت منه المنابر والصناديق والعلب الخشبية(٤).

- المنتوجات الحيوانية:

استقبلت مدينة فاس من هذه المنتوجات رؤوس المواشي، وجلودها وأصوافها. كما سُوِّقت بالمدينة نفسها بعض المنتوجات الأخرى مثل شهد النحل الذي استعمله الشماعون وحرير دودة القز الذي استعمل في صناعة النسيج، وكانت بلاد السودان مصدرا لمادة حيوانية متميزة تدعى العاج. وبلاد الصحراء مصدرا لجلود لمطية.

• رؤوس الماشيـة:

دخلت إلى فاس مختلف أنواعها من أبقار وماعز وأغنام(٥)، لكن النوع الأخير لقي إقبالا على استهلاك لحومه مقارنة مع النوعين الآخرين، في حين دخلت كميات

---

(١) الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٣٥، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص: ٣٥.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٢.

(٣) الجزنائي: المصدر السابق، نفس الصفحة؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص: ٣٥.

(٤) الوزان: وصف إفرقيا، ج١، ص: ١٩١؛ Massignon: Le Maroc dans les premières années du 16ème siècle, P: 85.

(٥) Massignon,L : Le Maroc, PP : 84, 95.

محدودة من رؤوس الجمال لبعد المدينة عن أماكن تربيتها. وكانت المواشي معفاة من أداء الرسوم في الأبواب، وتوجه بعد دخولها إلى المجزرة فتذبح وتسلخ من طرف الجزارين(١)، ثم تحمل لحومها إلى دكاكينهم وسط المدينة في حين تحمل الجلود قصد بيعها بالسوق المخصص لذلك. ونقلت إلى مدينة فاس جلود لمطية مصدرها حيوان الضبي -تمت الإشارة إليه سابقا - الذي كان يعيش في المناطق الصحراوية والساحلية(٢) وصنعت من هذا النوع من الجلود الدرق والتروس اللمطية بفاس.

- الأصواف:

ورد عند ابن خلدون أن بلاد المغرب توفرت على مادة الصوف مثلها مثل بلاد المشرق لكثرة البوادي بها(٣). وقد زودت هذه الأخيرة مدينة فاس بحاجياتها من الأصواف، فكانت المناطق الجبلية المحيطة بالمدينة من جهتها الشمالية الغربية غنية بالأصواف التي تعد قطعان الأغنام مصدرها، فضلا عن مناطق أخرى بعيدة من المدينة(٤).

- شهد النحل:

تم تسويق هذه المادة بأسواق فاس(٥)، التي تحتوي على مادة الشمع باعتبارها

---

(١) L.M: Le Maroc, PP : 228, 232.

(٢) العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، أشغال ندوة :فاس وإفريقيا، سلسلة ندوات ومحاضرات، ٣، ص: ٩٨.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج١، ص: ٤٣٠.

(٤) Massignon : Le Maroc, PP : 96-97.

(٥) مجموع أوله شرح منظومة العمل الفاسي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٤٤٧د، ص: ٢٢٩.

أولية في صنع الشموع، وهي من المصنوعات التي تفتخر فاس بإنتاجها.

- الحريـر:

شهدت ضواحي مدينة فاس تربية دودة القز في أشجار التوت[١]، ودور هذه الدودة تمثل في الحصول على الحرير الطبيعي الذي استعمل في صناعة المنسوجات الفاخرة. وكانت أسواق المدينة أيضا مجالا لبيع أوراق التوت للمهتمين بتربية دودة القز، حيث نعت أحدها بسوق الورقة[٢]. ومثلت الجبال التي تقع إلى الجنوب الغربي من فاس ومنطقة زرهون موردا أساسيا للحرير المستخدم في النسج داخل الأطرزة الفاسية[٣]. إلا أن اعتماد صناعة النسيج على الحرير الطبيعي المحلي لم تحصل إلا ابتداء من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، وقبل ذلك كان الحرير يستورد من البلدان الخارجية[٤].

- العـاج:

مصدره أنياب وعظام الفيلة التي توفرت في إفريقيا جنوب الصحراء، تم تحويل كميات منها إلى بلاد المغرب[٥]، فاستعملت في صناعات متميزة بفاس، حيث

---

(١) الطويل، محمد حجاج: دودة القز، معلمة المغرب، م١٢، ص: ٤٠٩٥.

(٢) الدبيش،عبد الوهاب: فاس المرينية (٦٧٤-٧٥٦هـ/ ١٢٧٦-١٣٥٨م) :المجال والمجتمع وعلاقتها بالدولة، دبلوم الدراسات العليا، إشراف : مولاي هاشم العلوي القاسمي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨-١٩٨٩م، ص: ١٠٣.

(٣)- Massignon : Le Maroc, PP : 96-97.

(٤) الطويل: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) العلوي، عبد العزيز: العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي، مجلة كلية الآداب وع إ بفاس، ع٥، ص: ٦٤.

رصعت بها المنابر والصناديق والعلب.

- المنتوجات الزراعية:

من هذه المنتوجات ما هو أساسي في عيش السكان من زرع وزيتون، ومنها ما يستخدم في النسيج كالقطن والكتان، كما تدخل ضمنها مواد ثانوية كالقصب والحلفاء وسعف النخيل وهي مواد توفرت داخل المدينة أو حولها. وعموما كانت المناطق الفلاحية المغربية غنية بهذه المنتوجات التي اعتمدت في مجموعة من الحرف والصناعات الفاسية.

• الزرع:

مثل الزرع مادة أساسية في عمل المطاحن التي حولته إلى دقيق تغذى منه الناس، وقد كان الحصول على الدقيق يتم أيضا بطحن مواد أخرى كالشعير والذرة. وقد أنتجت المناطق المحيطة بفاس كميات مهمة من الزرع الذي نقل إلى المدينة وبيع في سوق خاص عرف برحبة الزرع التي تموضعت بحي الحفارين[١]، داخل عدوة القرويين، ولعل عدوة الأندلس كانت تتوفر هي الأخرى على سوق خاص ببيع الزرع، وكانت مطامير وأهراء الزرع[٢] تعد مزودا للسكان بهذه المادة الغذائية في أوقات الأزمات.

• الزيتون:

حولت المعاصر حبوب الزيتون إلى زيت، واحتلت هذه المعاصر أماكن قريبة

---

(١) الكتاني، محمد: سلوة الأنفاس، ص: ١٩٠.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ص: ٤١، ٤٠١.

من بابين رئيسيين هما باب الفتوح وباب عجيسة[١]. ولذلك فالمناطق القريبة من البابين المذكورين هي المؤهلة لتسويق حبوب الزيتون، فضلا عن الأسواق الموجودة خارج فاس، أما مصادر الزيتون فكانت متنوعة منها القريب من فاس والبعيد عنها.

• القطن:

ذكر عند بنعبد الله أن بلاد المغرب كغيرها من البلدان المتوسطية انتشرت فيها زراعة القطن بفضل المهاجرين العرب[٢] إليها من المشرق. ولذلك تحولت ضواحي فاس إلى أماكن لإنتاج الكميات اللازمة لصناعة المنسوجات القطنية[٣]، وبدورها كانت مناطق تادلا وسلا والعرائش مجالات لزراعة مادة القطن[٤].مما أسهم في مد مناسج مدينة فاس بحاجياتها منها حيث ضمت فاس سوقا خاصا ببيع مادة القطن يعرف بالقطانين توفر على ثلاثين دكانا[٥]، لكن مادة القطن جلبت إلى الأسواق أيضا من بلدان خارجية مثل السودان[٦]. وكان حي القطانين الحالي مكانا نشيطا في تسويق مادة القطن خلال الفترة المرينية الوطاسية[٧].

• الكتان:

زرعت هذه المادة بنفس المناطق التي احتضنت زراعة القطن، فقد كانت المناطق

---

(١) لوتورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ٩٢؛ فاس في عصر بني مرين، ص: ١٢٨.

(٢) بنعبد الله، عبد العزيز: معطيات الحضارة المغربية، ج١، ص: ٤٨.

(٣) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٤٩.

(٤) بنعبد الله: المرجع السابق، ج٢، ص: ٦٨.

(٥) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٥؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٣.

(٦) بوفيل: تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ص: ٢٥٢.

(٧) يستنتج ذلك مما ورد عند الوزان، المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١.

الموجودة في جنوب وجنوب شرق فاس موطنا لزراعة هذه المادة [1]. وأشار ابن الخطيب إلى أن ضواحي مدينة سلا عرفت أيضا هذه الزراعة إذ وصف سلا بأنها «معدن القطن والكتان»[2]. وكان نساجو مدينة فاس في حاجة إلى هذه المادة – الكتان– التي حولوها إلى منسوجات تتميز بخشونتها مقارنة مع المصنوعة من القطن.

- القنب:

احتضنت زراعتها أيضا ضواحي المدينة، وسوقت مادتها الخام بدكاكين في حي الشراطين، ووجهت مادتها لصناعة الحصر والظروف والحبال والشرائط[3]، وغيرها.

- مواد زراعية أخرى:

من بينها الخضر التي استعملت في أعمال الطبخ، والقصب الذي صنعت منه السلال والأقفاص، وسعف الدوم الذي حول إلى حلفاء وصنعت منه القفاف والعقل التي تربط بها الدواب وغيرها، وسعف النخيل الذي صنعت منه الشطاطيب أو المكانس. وكانت حدائق وبساتين فاس ومحيطها مجالا مزودا لفاس من حاجياتها من المواد بما فيها سعف النخيل إذ كانت تغرس أشجاره بغرض جمالي وتزييني.

---

(١) لوتورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١٧٢؛ Massignon: Le Maroc, P: 84

(٢) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٥٢.

(٣) Massignon: Le Maroc, P: 96؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص : ١٤٢؛ نفسه : فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١١٤.

كانت المواد الفلاحية التي تزود الصناعات الفاسية بحاجياتها تنقسم إلى مواد معيشية في مقدمتها التي يتغذى منها السكان، وكمالية أهمها التي تصنع منها مواد منسوجة من الحرير والقطن ومصنوعات خشبية مثل المنابر، وقد حُدِّدت أسعار المواد المعيشية الغذائية من لدن المحتسب وهو ما جعل المؤرخين يدونون أسعارها في حين كانت المواد غير الغذائية تخضع للعرض والطلب وترتفع أثمان البيع كلما كانت تلك المواد كمالية وتنخفض كلما كانت معاشية.

وهذه لائحة لأسعار المواد الغذائية تقدم في الجدولين التاليين:

الأسعار عند تولي يعقوب بن عبد الحق المريني[1]

المادة	وحدة البيع	الثمن
القمح	الصحفة الواحدة	٧ دراهم
الشعير	الصحفة الواحدة	٣ درهم
الدقيق الطيب	ربع قنطار	١ درهم
العسل	ثلاثة أرطال	١ درهم
الزيت	أربعة أرطال	١ درهم
السمن	رطل ونصف	١ درهم
لحم البقر	مائة أوقية	١ درهم
الكبش	رأس واحدة	٦ دراهم
الشابل الطري	فرد واحد	١ قيراط
	ثلاثة	١ درهم
الملح	حمل (١٠ أصوع)	١ درهم

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص ص: ٩٤-٩٥؛ نفسه: الأنيس المطرب، ص: ٣٥.

الزبيب	ربع قنطار	١/٥ درهم
التمر	ستة أرطال	١ درهم

الأسعار في موسم المجاعة (سنتي ٧٢٤-٧٢٥) [١]

المادة	وحدة البيع	الثمن
القمح	الصحفة الواحدة	٩٠ دينارا
	المد الواحد	١٥ درهما
الدقيق	أربع أواقي	١ درهم
اللحم	خمس أواقي	١ درهم
الزيت	أوقيتان	١ درهم
العسل	أوقيتان	١ درهم
السمن	أوقية ونصف	١ درهم

ويلاحظ من خلال الجدولين الفرق الشاسع بين الأسعار المسجلة في السنوات التي تكون الأقوات فيها متوفرة، و التي تكون فيها معدومة نتيجة مجاعة أو قحط أو جفاف أو حروب أو غير ذلك. وقد كان السلاطين يتدخلون للحد من الارتفاع الذي تعرفه الأسعار، إذ أن أبا سعيد عثمان الذي عاصر مجاعة ٧٢٤-٧٢٥هـ/ ١٣٢٥-١٣٢٦م فتح أهراء الزرع فبيع المد بأربعة دراهم[٢]، بعدما كان يباع بخمسة عشر درهما، أي أن سعره انخفض بحوالي ثلاثة أرباع.

(١) نفسه: الأنيس المطرب، ص: ٤٠١.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤٠١.

وإذا تم استثناء فترات الأزمات فإن أسعار المنتوجات الغذائية كانت رخيصة سواء في فترة الحكم المريني أو الوطاسي إذ أشار الوزان الذي عاصر الفترة الأخيرة -الوطاسية- إلى بيع الخضر بأثمان رخيصة[1] وهو الأمر الذي سجل أيضا في فترات الحكم المريني. ويدعم ذلك تحدث بعض الرحالة والمؤرخين عن رخص أثمان المواد الغذائية بفاس مقارنة مع مدن ومناطق العالم الإسلامي. فقد جاء عند الحميري في معرض حديثه عن فاس أن «نعمها كثيرة، والحنطة بها رخيصة، وفواكهها كثيرة وخصبها زائد»[2] وذكر ابن بطوطة[3] أن أثمان اللحم والسمن والقطاني والفواكه والخضر رخيصة بفاس مقارنة مع بلاد مصر والشام.

٢- المواد الأوليـة:

مثلتها المواد الخام غير الفلاحية، التي تكونت أساسا من الصخور والأتربة المستغلة في أعمال البناء، والمواد المعدنية المحولة إلى مصنوعات عدة، فضلا عن بعض المواد التي تعد قليلة من حيث الكم والاستعمال مقارنة مع النوعين الأولين.

- الصخور والأتربـة:

تشيدت بها المباني والطرق والشوارع والقناطر وغيرها. ومحيط مدينة فاس تميز باحتوائه على أنواع كثيرة من الأتربة والصخور ساعدت في امتداد وزحف العمران على المجال منذ تأسيس المدينة. لذلك يقول الجزنائي[4] عند وصفه لموقع فاس بأنه «معدن الجبص والصلصال وأنواع الحجارة والرمال وذلك على اختلاف أنواعه

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٦.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص: ٤٣٤.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٥.

(٤) الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٣٥.

متيسر يصرفه الناس في منافعهم».

فالجبص الذي ورد في النص يستخرج مع الجير من صخور الكلس التي اغتنت بها المناطق المحيطة بالأسوار من الجهة الشمالية والشرقية للمدينة. أما الصلصال فوجد بكميات كبرى مع الطين في محيط الأسوار الجنوبية الغربية لها ، وهما نوعان من الصخور الهشة استخدمت في صناعة مواد البناء من آجر وزليج وقرميد ومواد الفخار[1]. ومن الصخور المعتمدة المستعملة في تسقيف المباني تربة الترس[2] التي تتميز بلونها الداكن المعبر عن الخصوبة، وهي في متناول الناس بالمناطق المائلة إلى الانبساط خارج المدينة، ونقلت إلى فاس أيضا أحمال كثيرة من الرمال[3] كانت تزخر بها ضفاف الأودية مثل وادي فاس وسبو.

وللصخور الصلبة كذلك أهمية في أعمال البناء أيضا، وعادة ما توفرت بالمناطق المرتفعة المحيطة بفاس. ففضلا عن الحجارة التي كانت وجدت بكثرة في محيط المدينة، تنافس الناس في استعمال أنواع من الحجارة التي تتميز بجودتها وقلتها، وفي مقدمتها أحجار الشست ذات اللون الأسود التي استخرجت بجبال الأطلس[4]، وأحجار الرخام الأبيض احتوت عليها مناطق من المغرب أيضا كالأطلس المتوسط وجنوب شرق مراكش[5]، كما جلبت من بلدان خارجية وفي مقدمتها ألمرية[6] الأندلسية.

---

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٦، والذي قال عند وصفه لمدينة فاس بأن «طينها هائل»؛ Massignon: Le Maroc, P: 97

(٢) ابن الخطيب: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص ص: ٦٥-٦٦.

(٤) Massignon : Le Maroc, P : 75.

(٥) نفسه.

(٦) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص ص: ٤٥-٤٦؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، ص: ١٧٦.

وشهدت أسواق مدينة فاس بيع بعض مواد البناء مثل الجبص والرمل[1]، أما أنواع الصخور الأخرى بفعل كثرتها بالمناطق المحيطة بالمدينة جلبها الناس منها بقصد استغلالها في أنشطة حرفية أو غير حرفية، دافعين فقط مصاريف نقلها. ومع ذلك فبعض مجالات استخراج الطين والصلصال والكلس استغلها المالكون للأراضي التي تتوفر بها صخورها، ففتحت بها أوراش لصناعة مواد البناء، وكانت بعضها مملوكة من طرف الأوقاف التي احتاجت إليها نظرا لكثرة الأعمال المعمارية التي تنجزها. والمواد الصخرية المذكورة آنفا هي التي استعملت بكثرة لتوفرها عكس أنواع أخرى من الصخور مثل أحجار الرخام المرتفعة أثمانها ، لذلك لم تجلب إلا من طرف المخزن أو الأوقاف أو الفئة الميسورة من الناس.

- المعـــادن:

تتعدد أنواعها ، منها ما هو نفيس مثل الذهب والفضة، ومنها ما هو غير نفيس كالنحاس والحديد والرصاص والزنك والقصدير... كما تعددت استعمالاتها فقد صنعت منها السكة وأنواع من الأسلحة، وأنفقت في أغراض تزيينية عدة على الجلود والبنايات وغيرها. واحتوت مناجم المغرب على أنواع من المعادن في حين جلبت أخرى من بلدان خارجية.

• الذهــب:

تدعى هذه المادة حين تكون خامة بالتبر، استقدمها التجار بكميات كبرى إلى فاس من بلاد السودان[2]، وكان المغاربة منهم يدفعون مقابل جلبها بعض المواد

(١) ابن الأحمر: المصدر السابق، ص: ٦٦.

(٢) العلوي، عبد العزيز: العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي، مجلة كلية

والمنتوجات المغربية مثل الملح والنحاس والفضة[١]. وحرص سلاطين الدولة على تأمين الطرق التي ينقل عبرها الذهب من بلاد السودان إذ كانت مدينة سجلماسة محطة أساسية قبل وصوله إلى فاس[٢]، كما كان ينقل أيضا إلى فاس عبر طريق مراكش[٣].

• الفضـة:

كانت مكامن هذا المعدن موجودة ببلاد المغرب وبلدان الشمال الإفريقي، حيث ذكر ابن الخطيب أن معدن الفضة توفر بجبال آسفي[٤]، واحتوت عليه مناطق أخرى مثل سوس، تادلا، سجلماسة وتامدولت[٥]. لكن كثرة استخراجه من هذه المناطق أدت إلى تراجع كمياته وقلتها[٦]، وهو ما كان يدفع إلى البحث عنه في مناجم جديدة. ومما يدل على قلة الكميات المستخرجة من الفضة عدم تلبية كل حاجيات أهل السودان من الأشياء التي كانت تصنع من هذا المعدن مثل الحلي[٧] وارتفاع قيمة بيعها التي كانت أحيانا تفوق قيمة بيع الذهب.

الآداب وع إ بفاس، ع٥، ص: ٦٢.

(١) نفسه، ص: ٥٩.

(٢) نفسه، ص: ٦٢.

(٣) Dufourcq : L'espagne catalane, P : 136.

(٤)- ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص: ٦٢.

(٥)- الكتبية، سعاد: البنية الاقتصادية لطوائف يهود المغرب الأقصى في العصر الوسيط، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، ع٣، ٢٠٠١، ص: ٥٩؛ El alaoui, abdelaziz: L'impact social du commerce transsahrien sur le maroc,le cas des juifs, revue amal, n 18, 1999, casablanca.

(٦) العلوي، عبد العزيز: العلاقات التجارية والثقافية، مرجع سابق، ص: ٥٩.

(٧) نفسه.

• النحـاس:

كان هذا المعدن متوفرا بكثرة في فاس[١]، وقد تم نقله إليها انطلاقا من مجموعة من المناطق المغربية[٢]. وكان التجار يضطرون أمام تراجع كمياته إلى التوجه جنوبا للبحث عنه، فقد استخرج من أقا وبعض المناطق التي توجد شمال السودان مثل تكدا، إذ أكد ابن بطوطة أن لأهلها (تكدا) دراية في سبك النحاس وتحويله إلى قضبان يتبايعون بها[٣]، ولذلك فالنحاس المحمول إلى فاس كان إما مسحوقا أو مسبوكا.

• التُّوتِيـا[٤]:

تعرف أيضا بالكلامينا[٥]، وهي مادة أوكسيد الزنك، -وتجسد دورها في تحويل لون النحاس من الأحمر إلى الأصفر[٦]. ولعل بعض مكامن بلاد السوس استخرجت منها هذه المادة[٧] ثم نقلت إلى فاس وغيرها من المدن، كما كانت متوفرة أيضا ببلاد إسبانيا[٨].

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار: ص ص: ٦٧٨-٦٧٩.

(٢) العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، مرجع سابق، ص: ٨٦.

(٣) ابن بطوطة: المصدر السابق، الصفحتان نفسها.

(٤) حافظي، علوي حسن: التوتيا، معلمة المغرب، م٨، ص: ٢٦١٦.

(٥) هيل، دونالد: العلوم الهندسية في الحضارة الإسلامية، عالم المعرفة، ع٣٠٥، ص: ٢٧٠.

(٦) الحريري، عيسى: تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٢٨٤.

(٧) حافظي: مرجع سابق، ص: ٢٦١٧.

(٨) هيل :مرجع سابق، الصفحة نفسها.

• الحديد:

كان خام هذه المادة المعدنية أساسيا في عدة صناعات أهمها صناعة الآلات والأدوات الفلاحية، وصناعة سقط السروج، وتوفر معدن الحديد في مجموعة من المناجم المغربية منها جبل عوام ببلاد فازاز والريف الشرقي والأطلس الكبير والمنطقة الساحلية جنوب وادي تانسيفت[1]. وأفاد ابن بطوطة عندما تحدث عن رحلته إلى بلاد السودان عن وجود مادة الحديد بإحدى المناطق التي تقع جنوب الهكار على مفترق الطرق التي تتجه إلى مصر وتوات[2]. كما كانت بلاد أوربا تحتوي بدورها على معدن الحديد، ولذلك كانت مدينة فاس تتزود بحاجياتها من هذه المادة وخاصة من المناجم المغربية.

• المعادن الأخرى:

احتاج الصناع إلى معادن غير التي تم عرضها سابقا، وذلك عند معالجتهم الأولية للمعادن وأثناء أعمال تحويلها إلى مصنوعات. ونظرا لنقص الكميات المحتاجة منها فقد سكتت المصادر عن أماكن استخراجها وطرق تحويلها إلى فاس. إلا أن ذلك لا يمنع من الحصول على بعض الإشارات التي أكدت اعتماد الصناع على معادن الرصاص والقصدير والزنك والكبريت والزئبق[3].

ومما سبق نستخلص أن بلاد السودان كانت موطنا لمعدن نفيس هو الذهب، الذي أسهم في تنشيط الحركة التجارية والصناعية، إذ استبدلت كمياته بأنواع من

---

(١) العلوي: فاس والتجارة الصحراوية، ص: ٨٧؛ Massignon: Le Maroc, P: 81

(٢) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص: ٦٨٠.

(٣) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ٥٤،٥٠؛ السلامي: وثائق مرينية، ج٢، ص: ١٤٠.

البضائع المحلية والأجنبية. وأما بلاد المغرب فاحتوت على المعادن الأخرى التي فاقت حاجيات التصنيع بالنسبة لبعض الأنواع مثل النحاس، وسجلت عجزا في تلك الحاجيات بالنسبة للبعض الآخر مثل الفضة، مما كان دافعا لممارسة التجارة البعيدة مع أوربا ومناطق أخرى قصد الحصول على الكميات والأنواع المعدنية المطلوبة.

- المواد الأولية الأخرى:

احتاجت الصناعات والحرف الفاسية لأنواع أخرى من المواد الخام بقصد تحويلها إلى مصنوعات منها ما هو نفيس بقيمته كالجواهر، ومنها ما هو شريف باستعماله كالعطور، إضافة إلى مواد أخرى استعملت في أعمال الدبغ. بل إن كثرة الصناعات والتنافس فيها أدى إلى الإقبال على مواد أثارت معارضة الفقهاء لعدم مشروعية استعمالها كشعر الخنزير ودم التنين.

- **الجواهر:**

أقبل عليها الحرفيون المختصون أساسا في صناعة الحلي ومعظمهم من اليهود، وقد استغلوا الجواهر في ترصيع مصنوعات الصياغة الذهبية والفضية، ومنتوجات حرفية أخرى، وسوقت بعض أنواع الجواهر دون أن تدمج في التصنيع مع مواد أخرى سواء معدنية أو غير معدنية.

وكانت البيئة المحلية توفر بعض أنواع المجوهرات، في حين تستورد الأنواع النادرة من أوربا أو بلدان العالم الإسلامي أو بلاد الهند.

فكانت مياه وادي فاس تزخر بجوهر الصدف الحسن[١]، ثم استخراج اللؤلؤ والمرجان من سواحل إفريقيا الشمالية ومنها السواحل المغربية ليحولا إلى مدينة فاس قصد تصنيعها، واغتنت مناطق بلاد المغرب بأنواع من الجواهر الأخرى كالياقوت والعقيق اللذان استعملا في صناعة الحلي والمجوهرات بفاس.

ووفر التجار الجواهر الأخرى التي انعدمت أو قلت في المغرب، حيث جلبوها من بلدان بعيدة، فكانت بلاد مصر مصدر الجواهر مثل الزمرد والزبرجد واللازورد، وحولت من بلاد الهند الأحجار الكريمة والماس والياقوت، وبدورها كانت بلاد الأندلس وأوربا مصدر تزود ببعض أنواع الجواهر من بينها الودع[٢] الذي كان يسوق بكميات كبرى من طرف المغاربة في بلاد السودان لكن يبدو أنه لم يصنع أو كانت أعمال معالجته بسيطة. وهو أمر يبين أن بلاد أوربا أصبحت مع تقدم فترات القرنين ١٥ و١٦م تنافس مدينة فاس في تصنيع الجواهر وتسويقها.

• العطور:

تدعى أيضا بالطيوب التي استعملت في تطييب أو تعطير البيوت والأشخاص، وفي أغراض طبية إثر دخول بعض أصنافها في صناعة الأدوية وإعداد الوصفات.

وكانت بلاد الهند مصدرا رئيسيا للعطور التي تصدر منها إلى مناطق العالم. كما احتوت بعض مناطق المغرب أنواعا من العطور مثل العنبر الذي توفر ببلاد السوس وبيع بثمن لا يقل عن مثقال للأوقية[٣]، أقبل عليه التجار البرتغاليون والفاسيون

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٣٥.

(٢) العلوي، عبد العزيز: علاقة التجارة الصحراوية بالتجارة البحرية في المغرب المريني، كلية الآداب و ع إ، الدار البيضاء، عين الشق، أشغال ندوة، ج٢، ص : ٢٨٣.

(٣) معلمة المغرب، م١٥، ص: ٥١٥٣.

هناك. أما الأنواع الأخرى التي احتاج إليها العطارون بفاس فمنها الند والزباد[1] والقرنفل والورد وغيرها كثير.

- مـواد أخرى:

احتاجت الأعمال الحرفية في فاس إلى أنواع أخرى من المواد لم تذكر سابقا، لقلة أهميتها سواء من حيث الحجم أو القيمة، رغم طلبها في صناعات كثيرة ومتنوعة بفاس. حيث احتاج الدباغون في أعمالهم إلى مواد اعتمدت في دبغ الجلود أهمها تكاوت التي جلبت من تافيلالت، وزبل الحمام الذي حمل من محيط وجوار المدينة[2]. وكان الصباغون بدورهم في حاجة إلى الأصباغ التي أعدوها من مواد طبيعية، لكنهم استعملوا أحيانا مواد أثارت معارضة الفقهاء مثل الأرشلة التي كانت تعد من البول، وشعر الخنزير، ودم التنين، في حين طلب المشتغلون بحرف وصناعات أخرى مواد مثل الصمغ والشب وغيرهما.

وإجمالا، لا يمكن حصر كل المواد التي حولت إلى أرباب الصنائع بفاس، إلا أن الأهم منها تمثل في المواد الفلاحية والمعدنية، والتي كان التجار سواء المحليون أو الأجانب وسطاء في حصول الصناع عليها. وكانت السلطات المحلية بمدينة فاس كنظيراتها بالمدن الأخرى تقنن دخول هذه البضائع بمراقبة عدم إدخال الممنوع منها، وأداء الرسوم على الذي يسمح بولوجه الأبواب، مع إعفاء المواد الغذائية من الرسوم كي لا ترتفع أثمانها على مستهلكيها.

---

(١) بوفيل: تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ص: ٢٤٦، وقد أشار إلى استيراد الزباد من بلاد السودان.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٤٨.

المطلب الثاني

تسويق المنتوج الحرفي

لبت الأنشطة الحرفية بمدينة فاس الحاجيات المحلية والأجنبية من البضائع والسلع التي كانت تصنع بالدكاكين والمحلات، وتقتنى عن طريق بيعها داخل المدينة وحمل كميات وأنواع منها إلى خارجها. فقد سوّق التجار المحليون والأجانب المنتوج الحرفي الفاسي في الآفاق البعيدة، فوصلوا إلى بلاد السودان جنوبا، وأوربا شمالا وبلدان العالم الإسلامي شرقا فضلا عن المدن والمناطق المغربية.

وحرص سلاطين الدولة على ضمان انتعاش النشاط الاقتصادي ومنه والتجاري، فعالجوا الأزمات التي أضرت بالتجارة والحرف داخل المدينة مثل الحرائق والفياضانات، وعقدوا اتفاقيات ومعاهدات تجارية مع الدول الأوربية حُددت فيها شروط والتزامات الجانبين المغربي والأوربي، حرصا على المنافسة المتكافئة بينهما لكن التغيرات والمستجدات السياسية كانت تؤثر على سير العلاقات المغربية الأوربية بالشكل الذي أضر في بعض الفترات بالصناعة المغربية ومنها الفاسية، إذ ساهم ضعف الدولة المغربية من جهة وقوة الدول الأوربية من جهة أخرى في إدخال المنتوجات المصنعة الأوربية للأسواق المغربية وغير المغربية ، وهو الأمر الذي تفاقم في نهاية العصر المريني وطيلة الفترة الوطاسية.

١- التسويق داخل مدينة فاس:

جمعت مدينة فاس بين النشاطين الصناعي والتجاري، حيث وصف ابن الخطيب نشاط هذه المدينة قائلا بأنها كانت «واسعة التجارة، آخذة من الصناعة

بشيء غير يسير»[١]. وقد ضم النسيج العمراني لمدينة فاس «أسواق مرتبة منسقة»[٢]، تعد تعبيرا عن التنظيم المجالي الذي عرفته المدينة، حيث انتظمت الأسواق الحرفية في الأماكن الموجودة وسط المدينة وعلى الطرقات والشوارع التي يتوافد عليها الناس بكثرة، البعيدة عن الأحياء السكينة وعن الأحياء والمحلات الحرفية أيضا -التي تتخصص في التصنيع والإنتاج بدرجة أولى-.

وتباينت الأسواق التي تباع فيها المنتوجات الحرفية من حيث حركتها التجارية، وذلك حسب تنافس الناس في طلبها، ومدى وفرتها، والمواقع التي تعرض فيها. وتولى الحرفيون تسويق منتوجاتهم أحيانا عن طريق جمعهم بين العملين الصناعي والتجاري، خصوصا إذا كانت دكاكينهم تقع على طريق مزدحمة يعبرها سكان المدينة وزائروها، في حين اختص التجار في تسويق أنواع من المنتوجات الحرفية الأخرى. ومركز عدوة القرويين أهم الأسواق التي بيعت فيها المنتوجات الحرفية المحلية، إضافة إلى المناطق الأخرى من هذه العدوة وعدوة الأندلسيين وفاس الجديدة. لكن حركة البيع بالقسمين الأخيرين كانت ضعيفة مقارنة مع عدوة القرويين. واحتضن المجال الفاصل بين فاس العتيقة والجديدة سوقا أسبوعيا يوم الخميس[٣] عرضت فيه بعض منتوجات الحرفيين، وهو سوق يلحق بالأسواق المحلية للمدينة رغم امتداده خارجها.

ومارس النشاط التجاري بفاس أشخاص تتعدد أصولهم وأعراقهم، تميز منهم اليهود والأندلسيين. فمن بين ما ذكره مارمول عن اليهود أنهم «يحسنون التصرف

---

(١) بوطالب، عبد الهادي: وزير غرناطة لسان الدين ابن الخطيب، ص: ٨٢.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٣٣.

(٣) لوتورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١٧٧؛ نفسه: فاس في عصر بني مرين، ص: ٥٥.

ويظهرون ذكاء كبيرا في العمليات التجارية»[١]، حيث اختص عناصر هذه الطائفة في بيع الحلي والمجوهرات التي كانوا يصوغونها، كما أتاحت لهم إمكانياتهم المالية في فترات ضعف الدولة امتلاك معظم دكاكين القيصارية[٢] التي تعتبر أهم سوق تجاري بفاس بالنظر لتنوع البضائع التي تعرض فيه وكثرة كمياتها. لكن الغش والتدليس الذي مارسه هؤلاء أدى إلى منعهم من التجارة في المواد التي يمكنهم إلحاق ضرر بالمسلمين فيها، ومع ذلك كانوا حريصين على العودة لممارسة الأنشطة التي منعوا منها بعد الحصول على موافقة السلطان[٣].

أما الأندلسيون فكان بحوزتهم ظهيرا سلطانيا يتيح لهم ممارسة الحرف الفاضلة، ومنها الأنشطة التجارية[٤]. لذلك تواجدت عناصرهم بأسواق هامة داخل مدينة فاس مثل القيصارية[٥].

وقد ازداد تردد كل من اليهود وأهل الأندلس على مدينة فاس مع تزايد الزحف المسيحي الأوربي بشبه جزيرة إيبيريا من الشمال نحو الجنوب إلى غاية سقوط غرناطة سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩٢م.

وسبقت الإشارة إلى أن القيصارية تعتبر أهم سوق بفاس، وقد أهلها لذلك موقعها المتواجد إلى الغرب من جامع القرويين وإلى الجنوب من سوق العطارين الذي يعد أيضا متميزا بين أسواق فاس. وتتكون القيصارية التي نعتها الوزان بسوق

(١) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٥٦.

(٢) مجهول: ذكر قصة المهاجرين المسمون بالبلديين، مخطوط، ص: ٤٣٦.

(٣) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ص: ١٣٦-١٣٧.

(٤) الدبيش: فاس المرينية، ص: ١٨١.

(٥) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٤٩.

التجار من خمسة عشر حيا نشطت فيها الحركة التجارية والصناعية، ولها اثنا عشرة بابا وهي محاطة بسور، تمت داخلها عمليات بيع عدة منتوجات سواء التي تصنع في أحيائها أو التي تجلب إليها من أحياء أخرى خارجها.وكان البيع يتم في القيصارية بالمزاد العلني، إذ يطوف الدلال بالبضاعة بعد ختمها من طرف المكلف بجباية الضرائب -الذي يقبض أجرا معلوما عن السلع التي تباع هناك-، وقد وصلت ضريبة بيع كل قطعة قماش نصف ريال (بايوتشو)، وعرضت بها الأقمشة والملبوسات والأفرشة والأغطية والجلود والحلي والعطور[1]. وبذلك فقد كان لهذا السوق دور في بيع ما يصنع بالقيصارية وبالأحياء والمحلات الحرفية التي لا تتوفر على دكاكين لعرض السلع مثل الأطرزة ودور الدباغة. كما كانت له أيضا أهمية في عرض السلع بكميات كبيرة كل يوم، حيث تنجز عمليات البيع بالدلالة بعد الظهر[2]، وقد توافد التجار المحليون والأجانب على القيصارية الذين فضلوا اقتناء المتوجات عن طريق شرائها بالمزاد بالنظر إلى التنافس الشديد بين الصناع في جودة مصنوعاتهم واحتكام الأسعار لقاعدة العرض والطلب.

وضمت عدوة القرويين أسواقا أخرى هامة أبرزها سوق العطارين الذي يمتد من باب المدرسة إلى عقبة الجزارين يقع بين بابين يغلقان ويحرسان في الليل. وتتسلسلت مجموعة من الأسواق على الطريق الغربي الذي يلي سوق العطارين إلى أن تصل إلى باب الشريعة[3]، وأهمية هذا الطريق تمثلت في كثافة مرور الناس المحليين

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص ص: ١٨٩-١٩٠؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص ص: ١٤٨-١٤٩؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٤١.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٧؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٤٩.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٨، ١٩٠؛ مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص ص: ١٥٢-١٥٣.

والأجانب الذين يقبلون على ما يحتاجونه من معروضات.

واكتسبت الأزقة الأخرى التي تنطلق من جامع القرويين أهمية أيضا في تسويق المنتوجات الحرفية، إذ يمتد زقاق الشماعين من الباب الغربي للجامع الذي يدعى أيضا باب الشماعين في اتجاه الشراطين. وعلى الواجهة الجنوبية للجامع المذكور تمتد أسواق لبيع الكتب وصناعة وبيع المصنوعات الجلدية، حيث نعت لأسواق بالسبيطريين الذي يرجح أن يكون مخصصا في بيع الجلود – مثلما ما هو عليه الأمر حاليا–، وفي الجهة الشرقية للجامع تتواجد ساحة بها محلات خاصة بالصفارين تخصصت في التصنيع أكثر من التسويق، وبالجهة الشمالية تميزت حارة قيس بتوفرها على أسواق حرفية أهمها المشاطون والأبارون وخراطوا الخشب[1]، ولذلك كان محيط جامع القرويين نشيطا في حركته الحرفية والتجارية.

وتنشط الحركة التجارية كذلك بالأسواق التي تتاخم حي العطارين من جهته الشمالية. كما يحتوي حي باب السلسلة على أسواق أطولها الذي يمتد من أعلى قنطرة باب السلسلة إلى مشارف الضريح الإدريسي، ويعتبر الشراطون أهم أسواق هذا الطريق الذي تُعرض فيه منتوجات صناعية أخرى، وتتوفر بحي العشابين عدة أسواق منها الجزارين وسوق بيع الأقمشة الصوفية الخشنة. وسوق الخيط وألياف الكتان[2].

أما عدوة الأندلس فحركتها التجارية ضعيفة، حيث ضمت داخلها أسواقا في مقدمتها التي بيعت فيها أساسا الأثواب والعطور والفخار ومجموعة من الأسواق على الشوارع والطرقات خاصة العابرة للكدان في اتجاه باب بين مسافر وتلك التي

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٤، ١٩١؛ ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ٧٣.

(٢) مارمول: المصدر السابق، ج٢، ص: ١٥١، الوزان: المصدر السابق، ص ص: ١٨٦-١٩١.

تؤدي إلى باب الفتوح[١].

وبالنسبة لفاس الجديد فأهم الأسواق فيه تنحصر بين بابي القنطرة وعيون صنهاجة بربض النصارى إضافة إلى الأسواق التي احتوى عليها حي اليهود[٢].

ويمكن تبرير قوة المنتوج الحرفي في عدوة القرويين مقارنة مع عدوة الأندلسيين والمدينة الجديدة، بقوة حركة التصنيع وعوامل أخرى مثل كثافة حركة السكان والمارة وأهمية التجهيزات والمرافق ووفرة المياه... وكان النشاط التجاري أيضا يضعف في الأحياء الحرفية التي تختص في التصنيع أو التي تتواجد بعيدا عن مراكز وأماكن التسويق وهو الأمر الذي يعني ضفتي وادي فاس والصناعات التي تمت في جهتي باب السلسلة والعشابين وغيرهما. وغلبت التجارة المعاشية على حركة الدكاكين والمحلات التي تواجدت في عمق الأحياء السكنية التي لبت متطلبات قاطنيها من حاجياتهم المنزلية وفي مقدمتها المصنوعات الغذائية والمكانس... وهو الأمر نفسه عند الباعة الذين كانوا يطوفون ببعض المنتجات داخل أحياء وأزقة المدينة كالذين كانوا يستبدلون المكانس التي يتجولون بها الرماد والنخالة[٣] مع أرباب المنازل.

وهذه لائحة للأسواق التي عرضت بها المنتوجات الحرفية مدعمة المعطيات النوعية والكمية والأماكنية، وهي مرتبة حسب أهميتها التجارية.

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣؛ Massigon: Le Maroc, P: 234؛ العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، ندوة :فاس وإفريقيا، سلسلة ندوات ومحاضرات - ٣-، ص: ٨٥.

(٢) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص ص: ١٥٦-١٥٨.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص ص: ١٨٧، ١٩١.

جدول[١]: الأسواق الحرفية

اسم السوق	موقعه	معروضاته	معطياته الإحصائية
القيصارية	مركز عدوة القرويين جنوب العطارين	الأقمشة، الجلود، الحلي، العطور	١٢ بابا، ١٥ زقاقا
العطارون	بين مدرسة العطارين وعقبة الجزارين	العطور، مواد الطب والصيدلة	١٥٠ أو ١٧٠ دكانا
	جرواوة بعدوة الأندلس	العطور، الأثواب	٣٠ دكانا
الشماعون	غربي جامع القرويين	الشمع، البز	٤٠ دكانا
الصاغة	ساحة قريبة من العطارين «الصاغة الحالية»	الحلي والمجوهرات	ساحة تضم دكاكين
الصفارون	قبلة جامع القرويين	الأواني النحاسية	دكاكين في ساحة الصفارين
السراجون	الطريق الغربي قرب البوعنانية	السروج وتوابعها	٩٠ دكانا
باعة الأحذية	حي السبيطريين	الأحذية	١٥٠ دكانا

(١) لا يحتوي الجدول على المصادر والمراجع المعتمدة لكون معظمها ذكر عند التعرض للحرف الخاصة في الباب الثاني من هذا البحث.

اسم السوق	موقعه	معروضاته	معطياته الإحصائية
الخرازون	جنوب جامع القرويين	نعال للأطفال	٥٠ دكانا
	حي القطانين بزقاق البغل	بلغة للرجال	غير متوفرة
السبيطريون	جنوبي جامع القرويين	يرجح عرض الجلود فيه	غير متوفرة
النجارون	سوق النجارين الحالي	مصنوعات خشبية	غير متوفرة
القراقون	قريبا من سوق المركطال الحالي	القباقب الخشبية المزخرفة	دكاكين
سوق الخيط	حي العشابين قريبا من باعة الصابون	خيط الكتان	ساحة ذات أربعة أروقة (تربيعة)
سوق الغزل	قرب درب سلمى بعدوة القرويين	الصوف المغزول	ساحة
السقاطون	حي باب السلسلة	سقط السروج	غير متوفرة
الغمادون	حي باب السلسلة	أغمدة السيوف وما شابهها	غير متوفرة
النيارون	حي باب السلسلة	المكحلات والبنادق	١٢ دكانا
الرماحون	الطريق الغربي «سوق القصر»	الرماح	دكاكين مستطيلة

اسم السوق	موقعه	معروضاته	معطياته الإحصائية
التراسون	الطريق الغربي بالطالعة الكبرى بين الإسكافيين والغسالين	التروس والدرق اللمطية	دكاكين
الكتبيون	الواجهة الجنوبية لجامع القرويين	الكتب والمسفرات	٣٠ دكانا
الزجاجون	في محيط ساحة الحمالين بحي النجارين الحالي	الزجاج	١٠٠ دكان
الأبارون	زقاق رحبة القيس شرق العطارين	الإبر	٤٠ دكانا
المشاطون	زقاق رحبة القيس قريبا من الأبارين	الأمشاط الخشبية	١٥ دكانا
الخراطون	زقاق رحبة القيس شرق الأبارين	مخروطات خشبية	دكاكين قليلة
العشابون	قريبا من سوق الخضر بعدوة القرويين	العشوب	٤٠ دكانا
الشراطون	حي باب السلسلة	الشرائط،الحبال القنب، الحصر	بين قنطرة باب السلسلة و الضريح الإدريسي

اسم السوق	موقعه	معروضاته	معطياته الإحصائية
الحزامون	عن يمين الخارج من الشماعين إلى القطانين	نطاقات جلدية نسوية	دكاكين على الزقاق
الإسكافيون	الطريق الغربي «الطرافين الحالية»	بيع وإصلاح الأحذية	٢٠٠ إسكافي
التيالون	الطريق الغربي	الغرابيل، الأكياس	٣٠ دكانا
القبابون	حي باب السلسلة	قباب وأسطل خشبية	بعض الدكاكين
بيع النسيج الصوفي	قرب الجزارين بعدوة القرويين	المنسوجات الصوفية المحلية	٨٠ إلى ١٠٠ دكان
الفخارون	باب الفتوح	الفخار والخزف	حي خاص
السلالون	الطريق الغربي «سوق القصر»	السلال القصبية وما شابهها	٥٠ دكانا
الحدادون	الطريق الغربي «سوق القصر»	سقط السروج وأسلحة حادة	غير متوفرة
الجزارون	عن يمين الخارج من سوق العطارين إلى عين علو	اللحم	٤٠ دكانا
الدقاقون	حي العشابين	الدقيق	بيعه مع مواد أخرى في ٢٠ دكانا
الزياتون	حي العشابين	الزيت، السمن، العسل...	٥٠ دكانا

معطياته الإحصائية	معروضاته	موقعه	اسم السوق
١٠٠ دكان مبيعاتها كل يوم ٢٠٠ مثقال	الفطائر،اللحوم، الأسماك المطبوخة	حي العشابين	سوق الدخان
زقاق صغيرعارض به دكاكين	خيام وسراديق البادية	قريبا من القطانين	البرصة
سوق مسافته ربع ميل	منتوجات مختلفة	فاس الجديد	الشارع الكبير

ولم ترد بالجدول عدة أسواق طغى فيها العمل الحرفي على العمل التسويقي، ومنها دكاكين البردعيين والحلفاويين وصانعوا الدلاء الجلدية، حيث كانت مصنوعات هذه الأحياء الحرفية لسكان البوادي عن طريق عرضها بالأسواق المحيطة بفاس ومنها سوق الخميس[1] الذي كان يعمر كل أسبوع في المنطقة التي تفصل فاس الجديد عن فاس العتيق، كما كان بإمكان الأشخاص الذين يمرون بأماكن التصنيع داخل المدينة اقتناء ما يحتاجونه من مصنوعات مباشرة من صانعيها.

ونظرا لتوافد التجار المحليين والأجانب على الأسواق الحرفية لابتياع السلع والبضائع، فقد تنافسوا على المتميز والجيد منها، لذلك ارتفعت أسعار المنتوجات الكمالية منها خصوصا في الفترات التي انتعشت فيها الأوضاع العامة للبلاد. ولم تشر المصادر التاريخية إلى أسعار هذه المواد إلا عرضا بحكم عدم خضوعها للتحديد مثل المواد الغذائية، إذ بيعت حبة الصدف الحسن وهو نوع من الجواهر بمثقال ذهب

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ٥٥.

وأقل وأكثر وبذلك وصفت قيمة بيعه بالمرتفعة[١]. وهو الوصف الذي نعتت به أيضا أثمان بيع القباقب الخشبية التي كان ينتعلها أعيان القوم، حيث تراوح سعر الزوج الواحد منها بين مثقال ومثقالين[٢]، كما يعد تردد الناس على الأسواق دليلا على النشاط الذي عرفه تسويق المنتوج الحرفي فقد خرجت نساء المدينة من أجل قضاء حاجياتهن من الأسواق وجلوسهن عند الحرفيين والتجار، وهو الأمر الذي عارضه الفقهاء[٣]. كما كانت سوق العلم بفاس نافقة إذ كان الناس يتوافدون على دكاكين الكتبيين لشراء الكتب[٤]. وانعكست الأوضاع المستقرة للدولة إيجابا على بيع المصنوعات الحرفية، ففي عهد أبي الربيع تنافس الناس في اقتناء الحلي وركوب الفاره[٥].

وعلى العكس من ذلك شهد النشاط التجاري في فترات أخرى أزمات أضرت بتسويق المنتوجات الصناعية أهمها ما شهدته الأحياء الحرفية والتجارية من حرائق وفيضانات أخطرها:

حريق اندلع سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٥٠م ابتداء من قنطرة الصباغين وانتهى إلى باب الجنائز، أتى على أسواق قريبة من باب السلسلة هي السقاطين والسبيطريين والصباغين والصوابنيين[٦]، وقد أخمدت النار بعد أن التهمت مصارع باب الجنائز

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٣٥.
(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩١.
(٣) الهلالي، محمد ياسر: نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرنين ٨-٩هـ/ ١٤-١٥م، مساهمة تاريخ الذهنيات، مجلة أمل، ع١٣، ص ص: ٧٧-٧٨.
(٤) الأنصاري، عبد الملك: الذيل والتكملة، ج١، ص: ٢٧.
(٥) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٠.
(٦) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، : ٧٣.

إحدى أبواب جامع القرويين، حيث وقف على النار بالباب المذكور الفقيه الفشتالي قبل أن تنطفئ، وبذلك أضر هذا الحريق بأسواق باب السلسلة.

حريق سوق العطارين سنة ٧٢٣هـ[١]/ ١٣٢٤ م وهو سوق مشهور يقع بين مدخل المدرسة التي تدعى بنفس الاسم وعقبة الجزارين، وأمر السلطان المريني بتجديد هذا السوق بعد حريقه، فتم ذلك إذ وصفت دكاكينه بعد تجديدها بالجميلة في البناء والزخرفة[٢].

فيضان وادي فاس سنة ٧٢٥هـ[٣]/ ١٣٢٦م، حيث كان قد أتى سيل جارف نتيجة كثرة الأمطار هدم أحياء سكنية وحرفية ومعالم عمرانية مما كان يلي الوادي الفاصل بين العدوتين والجسور التي تربط العدوتين التي تنحصر بين الرصيف والرميلة. وقد أحصي من الحوانيت التي تهدمت بفعل هذا الفيضان ٩٤ حانوتا[٤]، مما عطل الحركة الصناعية والتجارية هناك، إلى أن أعيد بناؤها مع ما تهدم من المباني على مراحل، حيث جددت قنطرتا باب السلسلة والصباغين والأسواق المحيطة بهما، وبقيت قنطرة الرميلة مهدمة[٥].

وقد ساعد تدخل الدولة في شخص السلطان، وتطوع الناس ومنهم الحرفيين، في تخفيف آثار مثل هذه الأزمات التي كانت تعرقل النشاط الاقتصادي داخل المدينة. ويلاحظ أن الحرائق والفيضانات تركزت في مركز المدينة وحول الوادي،

---

(١) نفسه: الأنيس المطرب، ص: ٤١٣.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٠.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٣.

(٤) نفسه.

(٥) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص: ٤٩.

ويعزى ذلك إلى كثافة الأنشطة الحرفية والتجارية، ورخف الأنشطة الصناعية في اتجاه مياه الوادي التي اعتبرت وسيلة أساسية لكثير من الحرف والصناعات.

ويمكن القول بأن الأعمال الحرفية بمدينة فاس كانت عاملا أساسيا في تنشيط التجارة داخل المدينة، إذ تمكن القاطنون هناك من توفير حاجياتهم، كما توافد الناس عليها من الضواحي لاقتناء ما هم في حاجة إليه من سلع ومنتوجات. واستقطبت المدينة أيضا بفضل نشاطها الاقتصادي التجار الأجانب الذين كانوا يستقرون داخلها لمدد زمنية قد تقصر وقد تطول يتزودون خلالها بالأنواع والكميات المطلوبة من المنتجات المحلية بهدف تسويقها خارج فاس سواء في محيطها القريب أو بالآفاق البعيدة.

٢- التسويق خارج المدينة:

اتسم موقع مدينة فاس بكونه نقطة التقاء مجموعة من المحاور التجارية، إذ ينطلق أحدها في اتجاه أوربا شمالا، وآخر في اتجاه السودان جنوبا، إضافة إلى الذي ينحو إلى المشرق الإسلامي. وقد دعمت الأنشطة الفلاحية والصناعية حول وداخل المدينة مبادلاتها التجارية مع محيطها القريب والبعيد. ولذلك فأهمية فاس التجارية عُدَّت من بين عوامل اختيارها من طرف بني مرين عاصمة مملكتهم[1].

وقد أشرف حكام الدولتين المرينية والوطاسية - وخاصة المرينيين منهم- على تعزيز العلاقات التجارية مع البلدان الأوربية وبلاد إفريقيا جنوب الصحراء. ومع تقدم الفترات الزمنية حرصوا على الحفاظ على علاقات متكافئة مع الأوربيين مسايرة للتفوق الذي عرفه هؤلاء الأخيرين، ومحاولة استمرار التحكم المغربي في

(١) Khaneboubi, Ahmed : Les premiers sultans mérinides, Paris, 1987, P : 47.

المبادلات التجارية مع السودانيين. إلا أن ضعف الدولة المغربية وقوة الاقتصاد الأوربي، والتنافس الشديد بين دول الشمال الإفريقي والبلدان الأوربية على التجارة مع بلاد السودان، أدى إلى تراجع حجم الصادرات المغربية.

- دعم الدولة لتسويق المنتوج الحرفي:

حرص ملوك الدولة خاصة في فترات استقرار الأوضاع العامة، على تشجيع المبادلات التجارية، التي كانت موردا أساسيا من الموارد الاقتصادية والمالية، وأهم الإجراءات المتخذة من طرفهم هي تأمين الطرق التجارية، والمعاهدات التجارية التي عقدت مع الدول والمماليك الأوربية خاصة، فضلا عن الهدايا المرسلة إلى ملوك الدول الإسلامية والتي كان لها دور في تنشيط الأعمال التجارية.

* تأمين الطرق التجارية: كانت سلامة التجار وما يحملونه من بضائع خلال نقلها عبر الطرق مؤشرا على تنشيط المبادلات. ولذلك قام سلاطين بني مرين بتعمير طرق المسافرين من فاس في اتجاه المناطق والمدن المغربية بقصد ضمان الأمان للتجار وأمتعتهم وسلعهم. وما ورد في المسند الصحيح تأكيد لذلك «كان هذا العمل (تأمين الطرق) عند إمامنا المرحوم (أبو الحسن) من أهم الأعمال وأكد ما تتصرف همتهم الشريفة إليه فرأى أن يعمر طرق المسافرين من حضرته بفاس إلى مراكش وإلى تلمسان وإلى سبتة وغيرها من البلاد بالرتب (وهي خيام)، يأمر بسكناها على مقدار اثني عشر ميلا يسكنها أهل الوطن يجري لهم على ذلك إقطاع من الأرض يعمرونها على قدر الكفاية ثوابا على سكنى المواضع المذكورة، يلزمون فيها بيع الشعير والطعام وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم على اختلافها والمرافق التي يضطرون إليها هم وبهائمهم ويحرسونهم ويحوطون أمتعتهم، فإن ضاع بينهم شيء تضمنوه...»[1].

(١) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤٢٩.

واستغلت الدولة هذه النقط التي يتوقف ويمر منها التجار، في تحصيل ضريبة غير شرعية منهم عرفت بالرتب أسقطها أبو الحسن المريني مثل سلاطين سبقوه بطلب من الفقهاء، لكن سرعان ما كانوا يعودون إلى جبايتها من أجل التغلب على الصعوبات المالية التي واجهت الدولة، وهو ما حصل في عهد أبي فارس عبد العزيز الذي دعاه الفقيه ابن عباد الرندي إلى إلغائها[1] وسواء فرضت هذه الضريبة على التجار أو تم إعفاؤهم من أدائها، فإنها لم تثن التجار عن القيام بنشاطهم المعتاد رغم ما قد تسبب لهم -إن فُرضت- من تأثير على مداخيلهم من التجارة. وحرص الدولة على تأمين الطرق يفسر بكونه ضمانة من ضمانات الاستقرار السياسي والاقتصادي ... وعموما كانت الطرق الرابطة بين فاس والمدن والمراكز المغربية الأخرى آمنة، باستثناء الفرتات العصيبة التي مرت منها الدولة والتي عمت فيها الفتنة.

- توقيع المعاهدات التجارية:

وقعت دولة بني مرين في شخص سلاطينها معاهدات ذات طابع تجاري مع ممثلي البلدان الأوربية، وقد هدف الطرف المغربي بإمضاء تلك المعاهدات إلى تقنين وتنظيم المبادلات التجارية التي تنجز مع الأوربيين، وتخفيف الضغوط التي مارسها هؤلاء على المغرب، إذ كانت التجارة الأوربية منافسا قويا لنظيرتها المغربية في أسواق الشمال الإفريقي وبلاد السودان وغيرها، وأهم المعاهدات الموقعة هي:

. معاهدة فاس التي عقدت بتاريخ ١٦ محرم سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٩م، من أهم بنودها رفع السلطان المريني لثلث الرسوم الجمركية المفروضة على تجار ورعايا مملكة أرغون سواء كانوا مسلمين أو نصارى أو يهودا. إلا أن هذه المعاهدة لم تطبق حسب ما حملته رسالة من السلطان أبي الربيع سليمان إلى ملك أرغون في ١٠ ربيع الأول

---

(١) السلامي، رشيد: وثائق مرينية، ج٢، ص: ٣٥١.

٧٠٩هـ/ ١٨ غشت ١٣١٠م[1].

. معاهدة تلمسان بين أبي الحسن المريني ومبعوثين مفوضين عن ملك ميورقة «دون خاقمة»، نصت على تنظيم التجارة بين الطرفين، والتزام رعايا ميورقة بعدم حملهم من بلاد المسلمين مجموعة من المواد منها الأسلحة والجلود المدبوغة والمملحة من نوع البقري والمعزي، وقد وقعت هذه المعاهدة في ٥ شوال ٧٣٩هـ/ ١٥ أبريل ١٣٣٩م[2].

. معاهدة فاس بين السلطان أبي عنان ومبعوث جمهورية بيزا الإيطالية في ٢٨ ربيع الثاني ٧٥٩هـ/ ٩أبريل ١٣٥٨م، تتكون من ١٥ فصلا نصت على ضبط وتنظيم العمليات التجارية بين البلدين وطرح حلول للمنازعات والخصومات التي قد تحدث بين رعايا بيزا ونظرائهم المغاربة، كما سمحت هذه المعاهدة لتجار بيزا بالإقامة في فنادق ودور خاصة بهم عند إقامتهم بالمغرب لأغراض تجارية، والتزامهم بأداء الأعشار العادية دون زيادة على البضائع التي يتاجرون فيها[3].

صادفت المعاهدات الثلاث السابقة قوة دولة بني مرين وما صاحبها من استقرار وازدهار الاقتصاد، وقد عبرت هذه المعاهدات عن مقاومة المغرب في تلك الفترة للضغوط الأوربية التي مورست على المسلمين عامة، والتي مكنت المعاهدات الموقعة من التخلص من بعضها، حيث التزم التجار الأوربيون بعدم إلحاق الضرر بالدولة والمجتمع المغربيين، بأدائهم لواجبات إدخال السلع وجلبها، ومنعهم من تحويل أنواع من البضائع المغربية المصنوعة لأسباب متعددة. ومع ذلك فبنود

---

(١) نفسه، ج١، ص: ٧٦.

(٢) نفسه، ج٢، ص: ١٤٥.

(٣) نفسه، ج٢، ص: ٢٧١.

المعاهدات المذكورة تتضمن تحفيزا وتشجيعا للتجار الأوربيين قصد إنجاز مبادلاتهم مع المغرب، بهدف استغلال أعمالهم في تنشط التجارة والاقتصاد المحليين، والتمكن من صد المنافسة الشديدة لدول شمال إفريقيا حول التبادل التجاري مع البلدان الأوربية.

ومع ذلك وقفت عدة عوائق في وجه تطبيق بنود المعاهدات المبرمة، وضمان استمراريتها في الزمن، وذلك بفعل التغيرات السياسية والاقتصادية التي شهدتها أوربا من جهة والمغرب من جهة أخرى. فكان ضعف الدولة المغربية وما رافقه من أزمات مصحوبا بتزايد الضغوط على المغرب والتأثير السلبي على اقتصاده بما فيه النشاط التجاري وهو ما سجله بوضوح طور ضعف دولة بني مرين وفترة بني وطاس.

- الهدايا المتبادلة:

سادت علاقات ودية بين سلاطين المغرب ونظرائهم في العالم الإسلامي وبلاد السودان، رغم الصراعات التي تأججت بين بني مرين وبني عبد الواد وبني حفص. ويعتبر التبادل بالهدايا بين الأطراف المذكورة أهم تعبير عن الود والسلم الذي يربطهم. كما أن للهدايا دور في تعريف الملوك ورعايا البلدان على منتوجات بعضهم البعض، إضافة إلى نسج علاقاتٍ بنيت على السلم ومكنت من تنشيط المبادلات التجارية بين بلدانهم.

وقد وجهت هدايا ملوك بني مرين شرقا إلى بني عبد الواد، ومملكة مصر والشام، وشمالا إلى ملوك بني نصر في الأندلس وجنوبا إلى ملوك مماليك بلاد السودان. ومن بين محتويات هذه الهدايا مصنوعات مغربية ومنها الفاسية التي اطلع

عليها المبعوثة إليهم، وأهم الهدايا هي:

. هدية يعقوب بن عبد الحق إلى يغمراسن بن زيان سنة ٦٧٤-٦٧٥هـ/ ١٢٧٦-١٢٧٧م تضمنت حكمات مموهة بالذهب والفضة، وسروج، والأديم المعروف دباغه بالشركسي[1].

. هدية يوسف بن يعقوب بن عبد الحق سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م، بعثها مع ركب الحج المغربي اشتملت على «خيل ومطايا وماعون ومصحفا ضخما اعتنى به وجعل له غشاء بنفيس الدر وشريف الياقوت ورفيع الأحجار»[2].

. هدية أبي سعيد عثمان سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٢م، بعثها إلى نظيره في إفريقية كانت قد تمت بغرض تجهيز ابنة الملك الحفصي أبي بكر لابنه أبي الحسن، وضمت حكمات من الذهب والفضة وولايا الحرير المغشاة بالذهب... لكن وفاة أبي سعيد أوقفت الاحتفال بهذا الحدث[3].

. هدايا أبي الحسن علي إلى نظرائه بمصر ومالي، إحداها جهز بها ركب زوجة أبيه التي كانت لها عليه تربية، ووجهت إلى الملك الناصر بقصد تسهيل مرور الركب، واحتوت على المطايا الفره ونسيج مختلف وجلد مدبوغ وأواني من النحاس والفخار وجواهر وسروج ولجم وسيوف، وذلك سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٨م[4]. وبعث أبو الحسن بهدية أخرى إلى ملك مالي منسا سليمان رد بها على وفد هنأه على استيلائه على تلمسان، ومن بين ما أرسل في الهدية طرفا من متاع المغرب وما عونه من ذخيرة

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٢٣٠.

(٢) الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ٨٣.

(٣) الناصري: المرجع السابق، ج٣، ص: ١١٧.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٧، ص: ٦٠٤.

داره[١]".

.هدية أبي عامر إلى ملك مصر والشام الظاهر سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨ م اشتملت على سروج ولجم وسيوف محلاة وأحمالا من الأثواب والجلد..."[٢].

وعادة ما كانت هذه الهدايا المغربية ردا على هدايا وبعثات من ملوك الدول الذين وجهت إليهم، أو يُرد عليها بهدايا مماثلة، ولذلك فقد تلقى الملوك المغاربة بدورهم مجموعة من الهدايا مثل التي تلقاها أبو سالم إبراهيم سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١ م من ملك مالي منسا زاطة[٣] عبَّرت عن استمرار تحسن العلاقات بين المغرب ومالي بالكيفية التي نشَّطت العلاقات التجارية بين الجانبين.

وقد احتوت الهدايا المرسلة من المغرب على منتوجات حرفية قِسم منها صُنع بفاس التي كانت عاصمة المملكة ومقرا للسلطان ومركزا صناعيا، مما سيتيح لرعايا البلدان المستقبلة للهدايا المغربية التعرف على المصنوعات الفاسية وطلب اقتناء ما يحتاجونه منها، إذ كانت الهدايا تنهب أمام أعين الناس[٤]، وفي حضرة الملوك الذين وجهت إليهم.

وساهمت الإجراءات السابقة التي بادر إليها السلاطين المغاربة في تنشيط المبادلات التجارية بين المغرب والبلدان الخارجية، إذ كان لتلك الإجراءات دور في تحفيز التجار على القيام بأنشطتهم من وإلى المغرب، وتخفيف حدة الأزمات مع

---

(١) نفسه، ج١، ص ص: ٣١٥-٣١٦.

(٢) نفسه، ج٧، ص: ٦٠٩؛ الصيرفي، علي بن داود، نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص: ٤٧٣.

(٣) ابن منصور، عبد الوهاب: أعلام المغرب العربي، ج١، ص: ١٢٥.

(٤) مثلما حدث في مصر إذ كان الملك يأمر بنهب الهدايا التي وجهت إليه، ويتعرف على محتوياتها بحضور الناس.

البلدان التي وقعت معها المعاهدات، وتحسين المبادلات التجارية مع البلدان التي تبادلت الهدايا مع المغرب.

- الصادرات الصناعية والحرفية الفاسيـة:

قام التجار المحليون والأجانب بتحويل مصنوعات فاسية إلى خارج المدينة. وقد سيطر التجار المغاربة على تسويق المنتوج الحرفي بمناطق بلاد المغرب، وتنافس معهم التجار الأوربيون على تسويق البضائع والمنتوجات الفاسية في أوربا، بل إن التجار الأوربيين أصبحوا تدريجيا يزاحمون المغاربة في التجارة مع بلاد السودان، فضلا عن التنافس الذي لقيه التجار المغاربة من نظرائهم في دول الشمال الإفريقي.

ولقيت بعض أنواع المنتوجات الحرفية إقبالا فصدرت من فاس بكميات كبيرة، ومثلت الجلود والمنسوجات والمصنوعات المعدنية وبعض أنواع الأسلحة أهمها. كما تباينت المناطق التي استقبلت المنتوجات الحرفية من حيث الكم والنوع الذي أقبلت عليه، إذ مالت الدول الأوربية إلى طلب المنتوجات التي عولجت معالجة أولية وغير نهائية استفادت منها في تحويلها إلى منتوجات مصنعة، في حين أقبلت المناطق والبلدان الأخرى على ما كانت في حاجة إليه من منتوجات صناعية تامة.

* بالنسبة لمناطق ومدن بلاد المغرب:

بيعت بها منتوجات حرفية جلبت إليها من فاس، بوساطة من التجار. فقد كان المغاربة يقبلون على المصنوعات المعدنية في مقدمتها الأواني النحاسية[1]، والحديد

(١) العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحراوية، أشغال ندوة: فاس وإفريقيا، سلسلة: ندوات ومحاضرات، ٣، ص ص: ٨٥-٨٦.

الذي حُوِّل من فاس إلى زيز وكير[١]، وهو بدون ريب مصنوع، وبما أن المنطقتين المذكورتين فلاحيتين، فإن الأدوات الحديدية الفلاحية هي المرجحة للتسويق نظرا لضلوع الحرفيين بفاس في صنعها، وحاجة سكان المنطقتين إليها. واستوردت مناطق أخرى مصنوعات معدنية دقيقة مثل أدوات الخياطة التي نقلت من فاس إلى هسكورة وتادلا[٢]، ولعل الإبر تأتي في طليعة أدوات الخياطة المصنوعة بفاس والمؤهلة للبيع خارجها. وعلى ذكر منطقة تادلا فقد كانت تسوق بها أيضا السروج الفاسية[٣]، التي يرجح بيعها بمناطق مغربية أخرى نظرا لأهميتها وجودتها.

والمنتوجات الصناعية المسوقة - السالف ذكرها- ما هي إلا نماذج من التي تم الاتجار بها في بلاد المغرب، فما ذكر عنها في الكتابات والمراجع التاريخية، لم يحدث إلا عرضا. حيث إن تسويق المنتوجات بين المدن والمناطق المغربية، كان ينجز بشكل اعتيادي وطبيعي لا يتطلب إشارة أو توثيقا مثل المنتوجات التي تباع خارج حدود البلاد.

*بالنسبة لأوربا:

إن المبادلات التجارية المغربية الأوربية اكتست أهميتها، إذ أن الأسواق الأوربية المتعددة كانت تصرف فيها منتوجات الضفة الجنوبية المتوسطية -ومنها الفاسية-، إضافة إلى حدة التنافس الذي مارسه رعايا البلدان الأوربية، وفي مقدمتهم الإيبيريون والإيطاليون على الاقتصادات المغاربية. وقد حاول ملوك الدولة المغربية الحفاظ على علاقات تجارية متكافئة لا تضر بالاقتصاد المحلي من خلال عقد

---

(١) بنعبد الله، عبد العزيز: معطيات الحضارة المغربية، ج٢، ص: ٦٩.

(٢) نفسه، ص: ٦٨.

(٣) Massignon ; Le maroc, P : 99.

معاهدات تجارية تم التعرض إلى بعضها سابقا، لكن الظروف والأوضاع العامة - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - التي عرفها المغرب والبلدان الأوربية شهدت خرق تلك المعاهدات، وعرقلة تطبيق ما نصت عليه، إلا أن ذلك لم يوقف المبادلات التجارية بين الجانبين، والتي كان التجار وعامة الناس في حاجة إليها.

وقام التجار المغاربة والأوربيون بأعمال نقل المتوجات الصناعية المغربية إلى الأسواق الأوربية، فكانوا يحملون الفاسية منها إلى المرافئ المتوسطية والأطلنتية، لتبحر بها السفن إلى أوربا خاصة عبر البحر الأبيض المتوسط في اتجاه الجزر والمدن الساحلية الأوربية. فقد أبحرت سفينة مرينية في البحر المذكور بها تاجر من فاس تم تدميرها من طرف الجنويين[1]. وهذا بمثابة الدليل على مساهمة التجار المحليين في تسويق منتوجات بلادهم خارج حدودها، وما واجهوه من منافسة من جانب الأوربيين مما كان يحول الصراع أحيانا ليتخذ طابعا حربيا. إلا أن دور التجار الأوربيين في حمل البضائع من فاس وغيرها في اتجاه بلدانهم كان يتزايد مع تطور الفترات الزمنية، ساعدتهم في ذلك مجموعة من الأسباب من بينها المعاهدات الموقعة مع الطرف المغربي، التي أتاحت لهم ظروف استقرار مناسبة بالمناطق والمدن التي يستقرون فيها بغرض التجارة. ومدينة فاس موضوع الحديث توفرت بها «مائتي فندق بنيانها في غاية الإتقان، بعضها فسيح جدا، كالتي تقع بجوار الجامع الكبير، وتتألف من ثلاث طبقات، منها ما يشتمل على مائة وعشرين غرفة، ومنها ما يشتمل على أكثر من ذلك، وفي كل فندق صهريج وميضأة ببالوعاتها لاستفراغ القاذورات»[2].

---

(١) Dufourcq : L'espagne catalane, P : 164.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٣١.

وخصصت بعض هذه الفنادق لإيواء التجار الأجانب الأوربيين لا يشاركهم فيها أحد، يقضون فيها أغراضهم من سكن وغذاء وغير ذلك موازاة مع نشاطهم التجاري بالمدينة. وهو ما أتاح لهم مباشرة تصدير البضائع والمنتوجات انطلاقا من المدينة المذكورة.

وانتظم التجار الاوربيون المستقرون بفاس في شركات أو مارسوا أعمالهم بشكل حر، إذ كانت لشركة تجارية من برشلونة -مثلا- أعمالا بفاس، وانتمى معظم هؤلاء التجار إلى المناطق الإيبيرية مثل كطلونيا وميورقة وأرغون، وإلى الممالك الإيطالية كجنوة وبيزا[1].

وأقبل التجار الذين حولوا المنتوجات الحرفية من فاس إلى أوربا على بعض الأصناف أبرزها الأصواف والجلود وبعض أنواع السلاح. وتزود الأوربيون منهم بالمنتوجات الصناعية المذكورة من مؤسسة المخزن ومن دكاكين الحرفيين في فاس. فقد أنجزت الدولة المرينية مبيعات عسكرية لمملكة أرغون احتوت على ألفي فارس مجهزة[2]، وبَيْع الخيول مجهزة تعني أنها كانت مزودة بوسائل الركوب عليها والتحارب من فوقها، وهي أدوات تميزت الصناعة في فاس بإنتاجها، إذ من المرجح احتواء تلك المبيعات على السروج والسقط والسيوف والخناجر وغير ذلك مما يزين الخيل والفرسان.

ورغم المنع الذي تم الاتفاق عليه في بعض المعاهدات المرينية الأوربية، الذي همَّ تصدير بعض المواد مثل الجلود، فإن كميات منها تدفقت على أوربا، ويعبر ذلك

---

(١) Dufourcq: L'espagne catalane, P:160؛ السلامي: وثائق مرينية، ج١، ص ص: ٢٩-٧٦؛ نفسه: ج٢، ص: ٢٧١.

(٢) Dufourcq : L'espagne catalane, P : 213.

على حاجة الأوربيين للجلد المغربي، وعلى ما كان يشوب تطبيق المعاهدات من خروقات وتراجع عن نصوصها لأسباب كثيرة ومتداخلة، والكمية الكبيرة من الجلود التي كانت تعالج بدور الدباغة بفاس، تسمح بإمكانية تصدير قسم منها إلى وجهات خارجية منها الدول الأوربية.

لقد سمحت المعاهدات الموقعة مع الأوربيين بنقل الأصواف، بعد معالجتها في مدينة فاس بغسلها وتصبينها من طرف حرفيين مختصين، وأفادت الأصواف صناعة النسيج الأوربي الذي سيصبح منافسا لنظيره المغربي.

تلك هي أهم البضائع التي صنعت بفاس ووجهت إلى أوربا، التي استوردت أنواعا من البضائع المنتجة الأخرى لكن بكميات ضعيفة، وقد حولت تلك البضائع التي كان جلها يعالج أوليا إلى منتوجات صناعية نافست بشدة المنتوجات المغربية حتى في عقر أماكن التصنيع.

*بالنسبة لبلاد السودان:

اعتبرت بلاد السودان أو المماليك التي كانت تقع جنوب الصحراء أسواقا فضلها التجار نظرا لإقبالها الكبير على المنتوجات والمواد المصنعة وغناها بالمواد الخام وفي مقدمتها الذهب، بالشكل الذي وفر مردودية هامة للمتاجرين في البضائع والصانعين لها. وتبارت مدينة فاس مع المراكز الصناعية سواء المنتمية لشمال إفريقيا أو أوربا في صرف المنتوج الحرفي بتلك الأسواق. وكانت الأواني النحاسية[1] في مقدمة البضائع التي لقيت ترويجا ببلاد السودان، فمثّل ذلك مصدرا من بين مصادر قوة الصناعة الفاسية، إذ ورد عند الحميري أن النحاس المصنوع بفاس كان يصدر

---

(١) العلوي، عبد العزيز: فاس والتجارة الصحرواية، ص ص: ٨٥-٨٦.

منها إلى الآفاق البعيدة(١).

وبيعت بالسودان أيضا أنواع وكميات من الحلي التي صنعت من المعادن والجواهر والزجاج(٢)، وكان قسم منها مصدره مدينة فاس التي اشتهرت بهذه الصناعة كذلك.
كما تم تصدير قسم من المنسوجات المصنوعة بفاس إلى بلاد مالي، بل إن المغاربة أثروا في تصنيع النسيج بهذه البلاد(٣).

وقد استقبلت بلاد السودان مصنوعات فاسية أخرى منها الأسلحة والسكاكين الحديدية، والخيول التي يحتمل أن تكون مجهزة بالسروج واللوازم الأخرى لركوبها، كما لقي الفخار والخزف رواجا كبيرا ببلاد إفريقيا جنوب الصحراء، إذ اكتشفت بقاياه هناك أرجعها الباحثون المختصون إلى أصول فاسية وأندلسية، كما كانت سوق بيع الكتب ببلاد السودان نافقة، إذ أشار الوزان إلى بيع المخطوطات المغربية في تلك البلاد(٤).

لقد مكنت أعمال تسويق البضائع المذكورة سابقا في بلاد السودان، من الحصول على مواد خام هامة أبرزها الذهب والعاج فضلا عن العبيد، وهو ما كان يزيد من حدة المنافسة بين المصنوعات والمتاجرين بها خاصة أن كميات الذهب المتبادل بها انعكست مردوديتها إيجابا على اقتصادات ومجتمعات البلدان التي حولت إليها.

---

(١) الحميري: الروض المعطار، ص: ٤٣٥.

(٢) الحريري: تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، ص: ٢٩٥؛ حافظي، علوي حسن: التجارة المغربية، معلمة المغرب، م٧، : ٢٢٧٤.

(٣) العلوي، عبد العزيز: العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وامبراطورية مالي، مجلة كلية الآداب و ع إ بفاس سايس، ع٥، ص: ٥٩.

(٤) نفسه، فاس والتجارة الصحراوية، ص ص: ٨٧-٨٩؛ المنوني: أبحاث مختارة، ص: ٣٣٧.

*بالنسبة للمشرق الإسلامي:

اعتبارا لوحدة بلاد مصر والشام السياسية في الفترة التي تزامنت مع الحكم المريني الوطاسي للمغرب، ونظرا لموقع تلك البلاد المهم المتمثل في كونه انتقاليا بين المغرب الكبير وبلاد الحجاز والشرق الأقصى، وبفعل سيادة علاقات ودية ربطت السلاطين المرينيين ونظرائهم من بني قلاوون في مصر والشام، فإن ذلك كله انعكس إيجابا على المبادلات التجارية بين الطرفين. ومن أهم تلك المبادلات المسجلة بيع منتوجات عسكرية حولت من فاس إلى عاصمة مملكة مصر والشام احتوت على السروج والمهاميز والسيوف، إذ انتقلت بعثة خاصة إلى فاس حملت تلك المبيعات مع منتوجات أخرى حُمِلت من تلمسان وتونس إلى الديار المصرية[1]. ويبدو أن مبيعات صاحب فاس منها كانت بأثمان مشجعة، بل إنها كانت شبه مهداة منه إلى نظيره بمصر، رغم أن نص الهدية ذكر لفظ ابتياعها من فاس. ووضحت هذه الصفقة التجارية أن مدينة فاس مع مدن مغربية أخرى كانت قوية على مستوى صناعة الأسلحة التي –إن سمح المقام- يمكن وصفها بالتقليدية أو غير النارية، وقد وافق تاريخ إنجاز العملية التجارية المذكورة مطلع القرن التاسع الهجري، الخامس عشر ميلادي، وإنجاز مبادلات مماثلة قبل وبعد ذلك التاريخ أمرا محتمل الحصول.

وشهدت بلاد المشرق الإسلامي بيع منتوجات حرفية مغربية أخرى مثل الحلي وبعض أنواع الجواهر[2] وغيرها، وكان حرفيو مدينة فاس يشتهرون بتصنيعها.

تنافست الدولة المغربية في التجارة مع مملكتي تلمسان وتونس، وكان حكام

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٠.

(٢) الحريري: المرجع السابق، نفس الصفحة؛ أبو سديرة، السيد طه: الحرف والصناعات في مصر الإسلامية، ص: ١٧٧.

الدولة المرينية –في طور القوة – قد بذلوا جهودا لضمهما إلى بلاد المغرب، لكن ذلك لم يتم إلا في فترات محدودة ومتقطعة. مما جعل المنافسة محتدمة بينهم.

– تأثـر الصادرات الصناعية بالمنافسة الخارجية:

إن الفترة المتأخرة من الحكم المريني الوطاسي ميزها ضعف الدولة وتراجع أنشطتها الاقتصادية، في وقت تصاعد فيه نجم الأوربيين على مستويات عدة منها السياسي والاقتصادي. فقد تنوعت الصناعات الأوربية، وتعددت فروعها، وأصبحت تنتج الأواني النحاسية ومصنوعات معدنية أخرى. كما اشتهرت بعض المدن والمناطق الأوربية بتصنيع الفخار والخزف خاصة مملكة ميورقة ومدينة بلنسية. وأضحت الصناعة الأوربية مزودا للأسواق الخارجية بالنسيج والملابس، ومنتوجات أخرى مثل التحف الحجرية والزجاج والزيت[1].

لذلك بذل التجار الأوربيون مؤسسات وأفرادا، جهودا لتسويق المنتوج الصناعي في البلدان الخارجية، ومنها دول شمال إفريقيا وبلاد السودان بحكم القرب الجغرافي والإقبال على البضائع في هذه الأسواق. فقد أصبحت مثلا جزيرة ميورقة تصدر ثلثي بضائعها إلى الدول المغاربية[2]، مما يوضح مدى أهمية هذه الأسواق في ترويج المصنوعات الأوربية التي كانت مؤطرة في بيعها من خلال الاتفاقيات والمعاهدات الموقعة مع ملوك بلدان المغرب الكبير. وكان الناس يسعون إلى اقتنائها كلما كانت جيدة وأثمانها مناسبة، وهو ما أدخل المنتوجات الحرفية المحلية، ومنها الفاسية، في أزمة منافسة حادة، لم تزاحمها المنتوجات الأوربية في الخارج، بل حتى في عقر دارها، إذ زينت الدور والمحلات بآنيات الخزف المايورقي،

---

(١) Dufourcq : L'espagne catalane, PP : 58, 68.

(٢) ibid, P : 68.

مثل دكاكين بيع اللبن بإحدى أزقة فاس[1]. كما أن العدد الكبير للدكاكين التي عرضت بها مادة الزجاج[2]، وما يتطلبه ذلك من كبر حجم المعروضات من هذه المادة أتاح للتجار إمكانية عرض الزجاج المصنوع بأوربا[3]، وهذين نموذجين لمنافسة المصنوعات الأوربية للفاسية. والأمر ازداد استفحالا في المناطق البعيدة عن فاس وأهمها بلاد السودان التي أصبحت أسواقها مليئة بالمنتوجات الصناعية الأوربية طلبا للتزود منها بالمواد النفيسة التي كانت أمل ازدهار اقتصادات البلدان.

كل ذلك سيجعل المغاربة تدريجيا يتخلون عن دور الإنتاج والوساطة الذي كانوا يقومون به، ليكتفوا بالوساطة[4] فقط بين بلاد السودان من جهة وبلدان أخرى أهمها الأوربية من جهة أخرى.

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٤.

(٢) تم عرض الزجاج في مائة دكان بالمدينة حسب ما ورد عند مارمول، إفريقيا، ج٢، ص: ١٥١.

(٣) نشاط، مصطفى: ملاحظات حول المعاهدات التجارية المغربية في العصر المريني الأول: أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، كلية الآداب و ع إ عين الشق، البيضاء، ج٢، ١٩٨٩، ص: ٦٢.

(٤) العلوي، عبد العزيز: العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي، مجلة كلية الآداب و ع إ، فاس، ع٥، ١٩٨٩، ص: ٦٥.



الفصل الثاني

الأدوار الاجتماعية للحرف والصنائع

المبحث الأول: نظام الطوائف الحرفية وبعده الاجتماعي

المبحث الثاني: الخدمات الاجتماعية العامة للحرف والصنائع



إن كثرة الحرف و الصنائع الخاصة بفاس، و كثرة عدد العاملين فيها حول معظمها إلى طوائف حرفية بدأ نظامها يتأسس منذ تأسيس المدينة، و استمر تدعيم هذا النظام في الفترة المرينية الوطاسية، مما كان له أثر في مد الجسور الاجتماعية بين الحرفيين.

وقدمت الأنشطة الحرفية و الصناعية خدمات عامة للمجتمع، فوفرت حاجياته و متطلباته في العلم و الصحة و السكن و التغذية و اللباس و غيرها، و كانت الأعمال المجانية للحرفيين و الخدمات التي وفرتها مؤسسات الدولة مسهمة في ولوج الشرائح الاجتماعية العامة إلى تلك الخدمات المقدمة.

المبحث الأول

نظام الطوائف الحرفية وبعده الاجتماعي

دُعيت فئة الحرفيين بعدة نعوت، منها الأصناف[1]، إذ أن كل صنف يعني أهل حرفة معينة، والنقابات[2] التي تستمد دلالتها من النقيب الذي يعد ممثلا لحرفة من الحرف، ثم الطوائف[3] التي تجمع على طائفة يجتمع أعضاؤها في ممارسة نفس الصنعة، ولدلالة هذا المصطلح الأخير الاجتماعية قُدِّم على المصطلحين الأولين.

إن الطائفة الحرفية رابطة جمعت المحترفين في نشاط صناعي معين، مكنتهم من تنظيم أعمالهم وترتيب صفوفهم، مما أفادهم في سهولة الاتصال مع غيرهم كانوا أفرادا أو مؤسسات، وقد أسهمت كثرة عدد أعضاء الحرفة المصحوبة بالتنظيم في التماسك والتعاون بينهم، فانعكس ذلك بالإيجاب على أحوالهم الاجتماعية.

ورغم التفاوت بين الطوائف الحرفية في طبيعة كل حرفة ومردوديتها وقيمتهاالاجتماعية، فإن مظاهر العمل الدؤوب والتعيُّش والكسب الحلال والتآزر والتعاون بين الحرفيين خففت من ذلك التفاوت، فكانت فئة الحرفيين ضمن الفئات التي حظيت بتقدير الناس بخاصتهم وعامتهم.

---

(١) سالم محمد محمود: أدب الصناع وأرباب الحرف حتى القرن العاشر الهجري، نشر مشترك بين دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، ص: ٣٩؛ النميري: فيض العباب، ص: ٤٩٨.

(٢)الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٤.

(٣)نفسه، ص: ١٩٣.

المطلب الأول

نظام الطوائف الحرفية

أسهمت عدة عناصر في انتظام الحرفيين وترتيب صفوفهم داخل طوائف خاصة بهم، كان لها نظام عمل موحد، تحكمها علاقات محددة مع الزبناء، وتراقبها مؤسسات مسؤولة في مقدمتها الحسبة، وتعرض نزاعاها على الفقهاء والمفتين والقضاة للبث فيها. وقد مكن نظام الطوائف من ضمان استمرارية العمل الحرفي داخل مدينة فاس.

١- العناصر المؤسسة للنظام:

أسهمت عدة عناصر في تكوين النظام الطائفي للحرفيين أهمها انتماؤهم العرقي والديني، وانتظام وترتيب الأحياء الحرفية في المجال بداخل المدينة.

. تخصص القبائل في الحرف:

بعد تأسيس مدينة فاس في نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي من طرف ثاني ملوك دولة الأدارسة، تم إنزال كل قبيلة من القبائل التي استوطنت المدينة بمكان تمارس فيه حرفة لا تمارسها قبيلة أخرى بهدف تجنب الغش في الحرف[1]. وقد بقيت آثار هذا الإجراء سارية المفعول أيضا في العصرين المريني والوطاسي، بالرغم من طول المدة الزمنية التي تفصلها عن عصر التأسيس.

---

(١) مجهول: ذكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين، مخطوط في مجموع بالخزانة العامة بالرباط، ص: ٤٣٣.

فالحمالون الذين كانوا يتجمعون في ساحة وسط المدينة قصد ممارسة حرفتهم مثلا انتموا لقبيلة إزرزاين[1] وهي إحدى القبائل المتوافدة على فاس. إلا أن ذلك لا يعني أن كل طائفة كانت وحد أفرادها الانتماء لقبيلة واحدة، بل أن طول المدة الزمنية لممارسة الحرف في المدينة، بدأت تتلاشى معه وحدة الانتماء القبلي عند الحرفيين لكن في حالة وجوده كان يعد عنصرا مساعدا في انسجام وتعاون المنتمين للحرفة.

. الانتماء الديني:

لهذا العنصر أيضا أهميته، وقد جمع معظم الحرفيين الانتماء للدين الإسلامي الذي كانت لمبادئه أدوارا فاعلة في تنظيم العمل الحرفي، وتحسين الجودة والمردود، وتظافر وتعاون الحرفيين، واستفادة بعضهم من خبرات البعض الآخر. وقد احتضنت مدينة فاس أنشطة حرفية تخصص فيها غير المسلمين من يهود ومسيحيين، فاشتغل اليهود بحرف مميزة مثل الصياغة حيث كان لهم نظام خاص بهم، واشتغل المسيحيون في أنشطة أخرى فعمل الأسرى منهم تحت إمرة المسلمين في نشارة الأخشاب وقصر الخيوط[2]، في حين اشتغل الأحرار بحرف أبرزها صناعة السلاح بفاس الجديد. لذلك خالط المسلمون المسيحيين، فقد كان أعضاء الطائفتين المسلمة والمسيحية يشتغلون في بعض الأوقات في حرفة أو صنعة واحدة، وذلك بحكم قلة العناصر المسيحية العاملة في النشاط الحرفي واستقرارها المؤقت في فاس مقارنة مع اليهود الذين كثر عددهم وإستقروا بصفة نهائية في فاس منذ فترة مبكرة. والأمر الأساس هو أن انتماء الحرفيين إلى دين موحد كان مشجعا على ممارسة العمل الحرفي المشترك وعاملا مساعدا في ترتيب وتنظيم الصفوف وبث روح التعاون والتواد بين

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩٣.

(٢) نفسه.

أعضاء الطائفة الدينية المشتغلة في الحرف.

. وحدة المكان:

المكان هو المجال الذي مارس فيه الحرفيون أعمالهم، حيث استقر عناصر كل طائفة حرفية بمكان خاص تجتمع فيه دكاكينهم، وهو أمر سهل عملية تنظيم العمل الحرفي. وقد أكد الوزان هذا الأمر حيث ذكر بأن «نقابات الحرفيين مفصول بعضها عن بعض»[1]، وهو ما أفاد العاملين في الحرفة الواحدة كي يتعاونوا ويتواصلوا فيما بينهم، بالشكل الذي يتيح الرفع من كمية المصنوعات وتحسين جودتها في ظل التنافس الحاصل بين الحرفيين، والذي هو سمة إنسانية اتصف بها أهل الحرف كغيرهم.

ومكن أيضا تجمع أعضاء الحرفة الواحدة من سهولة توافد الزبناء عليهم، وتمهيد عمل أمين الحرفة لأنشطته باعتباره ممثلا للعاملين معه لدى السلطة، وساهرا على حل المشاكل والصعوبات التي تطرح بين الحرفيين، وبينهم وبين الزبناء. كما أسهمت ممارسة الحرفة في الحي الواحد في تيسير عمل المحتسب من خلال قيامه بمراقبة الأسواق، حيث كان يزور الحرفيين في عين المكان الذي يشتغلون فيه، فيطلع على أعمالهم، ويصدر قراراته ويحرص على تنفيذها وتطبيقها بحكم السلطات المخولة له.

ولم تكن كل الحرف تمارس في أماكن مجتمعة، بل استدعت طبيعة بعضها، وحاجات السكان إليها ممارستها متفرقة، كما حصل بالنسبة لبعض المنتوجات الغذائية كالدقيق والحاجات المنزلية كالمكانس إذ بيعت للسكان في أماكن تتواجد في

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٤.

أحياء متعددة، كما كانت بعض الأنشطة الصناعية مثل النسيج، الذي لم تستدع صناعته أماكن عرضه، اقتناء النساجين لمحلات تتعدد طوابقها وتتفرق في عدة أحياء، والمطاحن التي هي بنايات اشترط في تشييدها توفر المياه القادرة على تحريك الأرحاء[1]. إلا أن هذه الحالات تعد استثناءات ألزمت بعض الحرف بعدم التوحد في ممارسة أعمالهم في المكان، لكنها مع ذلك لم تكن عوامل تلغي الوحدة وتؤثر عليها سلبا بين أعضاء الطائفة الواحدة.

والعناصر المذكورة سابقا التي ساعدت في تأسيس النظام الطائفي للحرفيين احتكمت بطبيعة الأنشطة الحرفية الممارسة، وللتطورات التي مر منها النشاط الحرفي منذ تأسيس المدينة، ولطبيعة المجال الجغرافي الفاسي. فأفرزت تنظيما حرفيا له أعرافه، لكن الفاعل فيه هو تدخل أجهزة الدولة والمجتمع في وضع التنظيمات التي يلتزم بها الحرفيون أثناء قيامهم بأعمالهم، والعمل على وقف تجاوزاتهم -إن حصلت- وصحيح أن انضباط الحرفيين والتزامهم سوف يزداد عندما تكون تلك الأجهزة فاعلة، لكن صحيح أيضا أن الانتماء القبلي والديني والمكاني له دوره أيضا في هذا الانضباط وذاك الالتزام.

٢- نظام العمل الحرفي:

مارس أعضاء الطوائف الحرفية أعمالهم وفق نظام مكنهم من تحديد العلاقات التي تربطهم بالزبناء وبمؤسسات الدولة. وكان لأهل الذمة نظام خاص بهم أتاح ممارستهم الأنشطة حرفية ملتزمين بأداء الحقوق المالية للدولة وعدم إيذاء الناس في تلك الأنشطة.

(١) نفسه، ص ص: ١٨٧، ١٩١، ١٩٣.

. التعليم الحرفـي:

تكونت كل طائفة حرفية من المعلمين والصناع والمتعلمين، وهي ثلاثة مراتب يتدرج فيها المنخرط في حرفة ما، إذ بعد أن يكون مبتدئا متعلما، يصبح صانعا، وقد يتحول إلى معلم أو «رب العمل».

فبعد قبول المتعلم كعضو جديد في الطائفة يشرع في العمل بتعلم تقنيات الحرفة من الصناع والمعلمين، وعادة ما يكون المتعلم غلاما ينجز الأشغال البسيطة مقابل مكافآت تميزها البساطة أيضا. وبذلك يتعرف تدريجيا على أسرار الحرفة بممارستها والاحتكاك ببقية العاملين معه. ومع تزايد إتقانه للأعمال التي يقوم بها تعين له أجرة مقابل عمله، وبعد ممارسته الحرفة سنين معينة، وبلوغه سن الرشد، واقتناع رب العمل بصنعته، ينتقل إلى رتبة صانع، فتحدد له أجرة ثابتة، أما الانتقال من صانع إلى معلم فيحصل عندما تتاح الإمكانيات المالية المؤهلة لاقتناء محل وأدوات وآلات، وتشغيل عدد ما من المتعلمين والصناع[1].

والتعليم وسيلة لتدرج الحرفيين في المراتب وإبراز مهاراتهم في تقنيات الصنع، وعن خصوصيات هذا التعليم عند الحرفيين تحدث ابن خلدون قائلا «الصناعة هي مَلَكة في أمر علمي فكري، وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكة، ... والمتقدم منها (الصنائع) في التعليم هو البسيط لبساطته أولا، ولأنه مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي لنقله، فيكون سابقا في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصا، ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئا فشيئا على التدريب حتى تكمل، ولا يحصل ذلك

---

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ١٤٠-١٤١.

دفعة وإنما يحصل في أزمان وأجيال»[١]. فالملكة من خلال النص السابق تدل على القدرات والمهارات الصناعية التي يكتسبها الحرفي، والتي تتم بالتعلم والتدرب، وأهميتها تتوقف على خبرة المعلم، إلا أن التعليم يزداد صعوبة كلما كانت الصناعات المتعلَّمة مركبة، في حين يكون سهلا عندما تكون بسيطة تستدعي ضرورتها تعلم تقنياتها. كما وضح ابن خلدون أن إخراج صناعات مركبة من النظر إلى الواقع تتطلب تدريبا طويلا يتيح اكتساب المتعلم للتقنيات الحرفية ببطء، وقد يدوم لمدة زمنية طويلة، لكنه تعليم جيد، ولذلك فالصناعات سواء المركبة أو البسيطة تلقن لمتعلميها شفويا من طرف المتقنين لها، وتنقل من جيل إلى جيل، وقد تنقرض إذا أهملت أو لم تعد الحاجة داعية إليها، أو لم يوجد من يلقنها، أو لسبب آخر.

وبذلك فمدينة فاس المرينية الوطاسية استفادت في التعليم الحرفي مما تراكم من تجارب سابقة، ومن الذين نقلوا تجارب حملوها إلى المدينة من بلدان خارجية سواء من طرف صانعين هاجروا إلى فاس، أو من طرف فاسيين نقلوا التقنيات الصناعية بهجرتهم من أجلها، علما أن الطريقة الأولى كانت أكثر شيوعا من الثانية، وقد كان الأندلسيون في طليعة الناقلين للتقنيات الصناعية إلى فاس.

. التوقيت في العمـل:

ونظام العمل عند الطوائف الحرفية ذو أوقات معلومة، إذ كان الحرفيون يشرعون في عملهم بعد صلاة الصبح وتناول الفطور ويستمرون إلى وقت صلاة الظهر، ثم يتوقفون بعد ذلك لتناول وجبة الغذاء، ويستأنفون العمل إلى صلاة العصر، وفي أوقات استثنائية يواصلون العمل بعدها إلى غروب الشمس[٢]،

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٢٦.

(٢) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ص: ١٤٦-١٤٧.

ويستخلص من خلال ذلك أن أوقات الصلوات كانت مناسبات للشروع والتوقف عن العمل عند العاملين في الحرف والصناعات. لكن بعض التخصصات استثنيت من التوقيت المعلوم مثل الدلالة التي كانت تنطلق بعد الظهر إلى وقت متأخر من المساء[1]، ويفسر هذا بارتباط عمل الدلالين بحرف أخرى منتجة لسلع توجه للأسواق في ذلك الوقت بقصد بيعها بالمزاد العلني الذي يعد من مهام الدلالين، إضافة إلى ارتفاع حركة توافد الناس على الأسواق في المساء مقارنة مع الصباح.

وكان عمل الحرفيين يمتد طيلة أيام الأسبوع، يحصلون خلالها على عطلة نصف يوم الجمعة الثاني[2] إتاحة لهم لأداء صلاة الجمعة، وما يليها من جلوس مع الأسر وزيارة للأقارب والأماكن المفضلة، وإقامة الولائم والحفلات. كما كان العمل الحرفي يتوقف في أيام الأعياد الدينية والمناسبات الوطنية [3] مثل الاحتفالات التي تواكب خروج أو رجوع السلطان من وإلى المدينة.

. الاستئجار:

هو تقديم الحرفيين لأعمالهم وخدماتهم مقابل أجور نقدية، حيث كان الحرفيون يقبضون تلك الأجور من مشغليهم أو من الزبناء المستفيدين من أنشطتهم الحرفية.

فقد كان العامل لدى رب الحرفة يتلقى منه أجرا معينا لمدة زمنية محددة عادة ما كانت تصل أسبوعا يتلقى في نهايته أجرا، وقد تكون الأجرة المدفوعة للحرفي مقابل

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٧.

(٢) نفسه، ص: ١٩٣.

(٣) لوتورنو: المرجع السابق، ص: ١٤٧.

عمل يوم واحد إذا كان مياوما أو يعمل بصفة مؤقتة[1]. وقد اعتمد أرباب الحرف في تحديد أجور العاملين لديهم على مدى اكتساب هؤلاء للخبرات والتقنيات، حيث يرتفع الأجر كلما أتقنوا حرفتهم، لذلك كان الأجر رمزيا عند المبتدئين، ومرتفعا عند الصناع ثم المعلمين. كما أن الأجور تباينت في حجمها بين الحرف حسب طبيعة التقنيات والمهارات المعتمدة فيها، وحسب تكاليف تصنيعها، إذ ارتفعت أجور العاملين في الحرف المركبة والمرتفعة التكاليف، في حين انخفضت في التي ميزتها التقنيات البسيطة والتكاليف الإنتاجية المنخفضة. وهذا ما جعل العاملين في الصنف الأول (المركب والمرتفع التكاليف) يحرصون على ضمان السرية في التقنيات التي يكتسبونها تلافيا لتعرضهم للمنافسة[2]. وبالنظر إلى حجم الأجور يسجل ارتفاعه في صناعة النسيج وطحن الدقيق لارتفاع عدد العاملين فيهما[3] مقارنة مع بقية الأنشطة الصناعية.

ميز نظام العمل بالأجرة أيضا العلاقة بين الحرفيين والزبناء. فقد كانت عمليات طحن الزروع تتم مقابل دفع أجور معلومة لأصحاب الأرحية فاقت دون شك الضريبة التي كان يدفعها للدولة والتي تحددت في نصف ريال عن كل كيل[4]. ومن الحرف الأخرى التي أُدِّيت فيها الأعمال والخدمات مقابل أجور الخياطة والخرازة والحياكة والصباغة والتسفير، كان الحرفيون ملتزمون فيها بإنجاز ما يطلب منهم من مصنوعات مع التوفر على بعض المواد الأولية كالخيط عند الخياط

---

(١) كنون، عبد الصمد: جنى زهر الآس في شرح نظم عمل فاس، وبهامشه نظم العمل الفاسي لسيدي عبد الرحمان الفاسي، طبعة حجرية، مطبعة الشرق الوحيدة بمصر، ص: ١٧.

(٢) الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص: ٧٤.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٣؛ لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٣٣.

(٤) مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٨.

والصباغة عند الصباغ والتذهيب في التسفير[1]، في حين يلتزم الزبناء لهم بتوفير المواد الأساسية التي ستنجز الصنعة عليها كالأثواب والملابس والكتب مع دفعهم للأجور المتعارف عليها أو المحددة بينهما.

وقدم الحرفيون أيضا خدماتهم للزبناء مقابل أجور، حيث كان الحمالون ينقلون البضائع والسلع للناس، كما توسط الدلالون في بيع منتوجات عدة بأسواق المدينة، وقد وصل الأجر المدفوع لهم بينهم نصف درهم ودرهم في كل عشرة دراهم أو فلس عن كل درهم[2].

ومن الأعمال الحرفية التي كانت أجورها بسيطة حمل الدقيق إلى ديار الناس ونقل الرمل من خارج المدينة إلى داخلها، ومداواة فئة من الناس بطرق بسيطة كرد الفك للمفكوكين، وغسل الثياب للناس في ديارهم أو في دكاكين خاصة بذلك. وهذه حرف أقبل عليها المتنقلون إلى فاس من تلمسان عقب سقوط هذه الأخيرة في يد بني مرين[3].

.اللباس الحرفـي:

ثبت أنه كان من عادة أعضاء الطوائف الحرفية ارتداء لباس موحد عند القيام بالأعمال، تتيح لهم العمل بشكل سلس وتميزهم عن غيرهم من الناس. ولهذا الأمر أهميته الخاصة بالنسبة للحرفيين الذين يخالطون عامة الناس عند قيامهم بالعمل الحرفي مثل الدلالين والحمالين. إذ كان هؤلاء -أي الحمالين- يرتدون «ثيابا

---

(١) مجموع أوله شرح منظومة العمل الفاسي، ص ص: ٥٢-٥٣؛ الونشريسي: المعيار، ج٨، ص: ٣٤٣.

(٢) ابن هلال: الدر النثير، ص:١٤٠؛ ابن القاضي : الجذوة، ١، ص ص: ٤٥-٤٦؛ مارمول: إفريقيا، ج٢، ص: ١٤٩.

(٣) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص ص: ٦٦، ٧٠، ٧١.

قصيرة ذات لون واحد، ويلبسون خارج أوقات العمل ما يشاؤون»[١]. إلا أن ذلك لا يحتمل التزام كل أعضاء الطوائف الحرفية بارتداء لباس خاص بالعمل، وتحديدا الحرف التي قلَّ عدد أعضائها أو كانوا غير مجتمعين في مكان واحد، أو الذين يقومون بأعمال يمكن معها الاقتصار على اللباس الذي يرتدونه خارج العمل.

.التسيير في الحـرف:

كان الأمناء[٢] هم من يترأس الطوائف الحرفية. وقد أهلهم لتولي ذلك خبرتهم في الصنعة، ومكانتهم في أوساط الحرفيين، وقبولهم كممثلين من طرف المؤسسات المسؤولة وخاصة الحسبة.

وتولى الأمناء مسؤوليات فنية أو تقنية وإدارية، فقد أفادوا المحتسب في التعرف على أسرار الحرف التي تمكنه من مراقبة الأعمال الحرفية، كما كانوا طرفا وسيطا بين فئة الحرفيين ومؤسسة المخزن عن طريق الإشراف على جمع الضرائب والهدايا، وإنجاز الأعمال المجانية الموجهة لفائدة الدولة، إضافة إلى تيسير مراقبة الأسواق، وتمهيد إجراء الأحكام القضائية، ومثل الأمناء كذلك طرفا وسيطا في حل النزاعات الطارئة، في حين تعرض القضايا العالقة على المؤسسات المختصة[٣].

---

(١) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٨٥.

(٢) ذكر لوتورنو أن الشيوخ مثلوا مع الأمناء مسؤولي الطوائف، لكن الأمناء هم الذين برزت أدوارهم كممثلين لها حسب ما ورد في مصادر أخرى، للاطلاع على ذلك يتم الرجوع إلى لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٤٦-١٤٧؛ الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٥-١٩١؛ ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ١٩٤.

(٣) لوتورنو: المرجع السابق، ص ص: ١٤٣-١٤٤.

. الاستفتاء في قضايا الحـرف:

لقد استفتي الفقهاء للنظر في القضايا التي يطرح حولها غموض أو تثار فيها خلافات ونزاعات، كانت للعديد منها علاقة بالنشاط الحرفي، فقدمت بشأنها أجوبة وتوضيحات اعتمادا على ما هو شرعي بالرجوع إلى الكتاب والسنة وسيرة الصحابة والسلف الصالح واجتهادات ذوي التخصص فيها. وقد شهدت مجالس الفقهاء سواء بفاس أو بالمدن الإسلامية الأخرى طرح أسئلة من هذا القبيل والرد عليها بأجوبة كلما كان ذلك متاحا، وكانت الأسئلة تتوافد على الفقهاء من مدن وبلدان خارجية، كما كان فقهاء فاس بدورهم يستفتون فقهاء بمدن إسلامية أخرى في القضايا العالقة والشائكة. ولذلك لم تكن الحدود بين البلدان معتبرة في الاستفتاء بحكم مبادئ الدين الإسلامي الموحَّدة وتشابه النوازل الطارئة. وكتب الفتاوى والنوازل مثل المعيار المعَرب، والدر النثير، والإعلان في أحكام البنيان، غنية بالأسئلة التي كانت ترد على الفقهاء وأجوبتهم عنها.

عرفت مجالس الفصل بين المتنازعين بالجوامع عرض قضايا على القضاة قصد النظر فيها، الذين يصدرون الأحكام حدا للخلافات، وتطبيقا لما هو مشروع باحتكام القاضي إلى الأصلين (القرآن والسنة) واعتماده الاجتهاد والقياس. إذ كان المتنازعون يتوافدون على القضاة بتلك المجالس ويعرضون عليهم قضاياهم، وقد كان جامع القرويين[1]، بحكم تواجده في مركز المدينة، يمثل مركزا قضائيا يحل النزاعات منها ما ترتبط بالعمل الحرفي والصناعي.

---

(١) احتضن هذا الجامع مجالس الفصل لقضاة منهم القاضي أبو عبد الرحمن محمد المليلي حسبما اورد ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٥٤.

وكانت الأحكام القضائية تنفذ من طرف صاحب الشرطة أو المحتسب الذي كان في بعض الفترات يجمع بين الخطتين.

. العمل الحرفي عند أهل الذمة:

مارس الذميون مسيحيون ويهودا أعمالا حرفية بفاس وفق تنظيمات خاصة بهم. فقد منحهم سلاطين دولة بني مرين حقوقا في القيام بالحرف التي هم على دراية بتقنياتها وطرقها، مع التزامهم بأداء الحقوق المالية للدولة، وعدم إذاية المسلمين عند القيام بها. وأنشطة المسيحيين كانت أقل حجما وأهمية من التي قام بها اليهود بفاس في الفترة المدروسة.

واشتغلت العناصر المسيحية في أنشطة مخزنية كتصنيع الأسلحة. ومارس بعض هاته العناصر حرفا بالمدينة العتيقة مثل قصر الخيوط ونشر الخشب[1].

وفي ارتباط مع حرف الطوائف الخاصة في المدينة العتيقة مارس المسيحيون حرفا توصف بالبسيطة والوضيعة، عملوا تحت إمرة أرباب الطوائف من المسلمين، وذلك بحكم وضعية المسيحيين كأسرى يبدو أن ملوك بني وطاس سلموهم لأرباب الحرف الخاصة كي ينجزوا لهم أعمالا حرفية، أو أنهم كانوا عبيدا امتلكهم هؤلاء فشغلوهم في الحرف التي يختصون فيها.

وعلى عكس حرف المسيحيين، كانت حرف اليهود بفاس، متميزة مثلوا بها تنظيما طائفيا كان يضاهي تنظيم طوائف المسلمين. حيث استقر اليهود في المدينة العتيقة قبل الفترة المرينية. وعند تأسيس الدولة لفاس الجديد، أصدر السلطان قرارا بترحيلهم إلى فاس الجديد، بغرض رفع ضرر المسلمين عنهم، نتيجة ما حدث بين

---

(١) – الوزان: وصف إفريقيا، ص ١٩٣.

الطائفتين من مناوشات وتصادمات، لكن اليهود تأخروا في الانتقال إلى الملاح بفاس الجديد، ولعل ذلك ارتبط بالأنشطة التي كانوا يقومون بها في المدينة العتيقة، وما كانت تذره عليهم من مردود مالي مهم، إذ كان سوق القيصارية الموجود قرب جامع القرويين أهم مجال لأعمالهم، فالإشارة واردة إلى إخراجهم من هذا السوق بأمر من السلطان أبي يوسف يعقوب(٦٥٦ – ٦٨٥ هـ)[1]. ويرجح أن يكون أمر الإخراج هذا مرتبط بغش وتدليس اتهموا بممارسته. ورغم ذلك استمروا في القيام بأعمالهم بالمدينة العتيقة والسكن فيها. إذ تأخروا في نقل سكناهم إلى فاس الجديد حتى بعد ممارستهم للأعمال الحرفية هناك.

فبعد إخراج اليهود من القيصارية أصبحوا أكثر ميلا لممارسة الحرف بفاس الجديد، إذ اشتغلوا في البداية بصرف النقود[2]، ثم زاوجوا بينها وبين صياغة الحلي. وهما نشاطان أصبحا ينالا اهتمام اليهود بفاس، وكانت الدكاكين القريبة من دار السكة مجالا لممارسة النشاطين، يصوغون فيها الحلي أمام أعين الناس ويتولى أمينهم طبعها ثم توجه للمدينة العتيقة قصد بيعها. إلا أن اليهود اتهموا بممارسة الغش والتدليس في هذه الحرف، بل إنهم اتهموا كذلك بإلحاق الضرر بدار السكة[3] نتيجة تزويرهم للنقود التي يصرفونها للناس. حيث كانت الطوابع الخارجية التي تضرب على النقود المغشوشة مصدرها الطوابع التي يضرب بها أمين الصائغين على الحلي المصوغة. وهو الأمر الذي كان سلاطين الدولة يعملون على محاربته بتكليف لناظر

---

(١) -- Mercedes garcia-arrenal:the revolution of fas in 869/1465 and the death of sultan Abd al-haqq al-marini,reprinted from the bultin of the school of oriental and African studies, university of London,vol XII part 1,1978, p59.

(٢) – مجهول: ذكر قصة المهاجرين المسمون بالبلديين، ص ٤٣٥.

(٣) – الحكيم: الدوحة المشتبكة، ص ٩٤ – ٩٥.

السكة بمراقبة ما يصنعونه[١].

لكن ضعف الدولة في نهاية العصر المريني وطيلة العصر الوطاسي صحبته عودة لممارسة اليهود للحرف التي اتهموا بالغش والدلسة فيها، بل إن وضعهم الاقتصادي أصبح أفضل مما كانوا عليه، مستغلين ضعف الدولة من جهة، والمناصب السياسية والإدارية التي مارسها بعضهم، فسلمت لهم بعض المرافق الصناعية بفاس الجديد مثل دار الصناعة[٢]، وتمكنوا من إعادة الدخول إلى القيصارية وامتلاكهم للمحلات والأنشطة فيها، وخروج تدريجي للمسلمين منها[٣].

واشتغل اليهود أيضا بحرف غير نفيسة سواء أثناء عزلهم عن الحرف التي سبقت الإشارة إليها أو موازاة مع ممارستهم لها. لذلك عملوا في حرف تلقى إقبالا من طرف النساء أو تتيح لهم الاتصال مع شرائح الناس أو توفر لهم مداخيل يشترون ما يحتاجونه بواسطتها فصنعوا القناديل والأمشاط وعملوا في خياطة الأقمشة والملابس النسوية، ونسجوا العقد والقيطان والسفيفة، وطرزوا القفاطين بالصقلي، كما اشتغلوا بحرف غذائية مثل قلي الفلفل وغمسه في الخل وتحميضه مع الباذنجان والجزر[٤]

وكان اليهود على اطلاع بحرف التطبيب عالجوا بواسطتها المرضى من اليهود أو المسيحيين، في حين وجدوا تحفظا ورفضا من المسلمين. لدرجة قال أحد

---

(١) – نفسه، ص ص ١٣٦ – ١٣٧.

(٢) – مارمول: إفريقيا، ج ٢، ص ١٥٧.

(٣) مجهول: البلديين ص ٤٣٦.

(٤) – لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص ١٣٩، ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، ص........ بنشقرون: مظاهر الثقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء ١٤٠٦/ ١٩٨٥، ص ٤٢.

الناظمين في ذلك[1].

رُبَّ يهوديٍّ أتي مُتطبِّباً ليأخذ ثارَاتِ اليهودِ من الناسِ

كان يهود فاس حريصين على ممارسة الحرف ذات المردودية المالية الوفيرة، وحاولوا استغلال نفوذهم السياسي والاقتصادي في خدمة طائفتهم. وأعطتهم الدولة حق تنظيم أعمالهم الحرفية، نظرا للخصائص الدينية والاجتماعية التي تبرر ممارستهم لأنشطة اقتصادية خاصة بهم.

مكنت الأدوات والوسائل التنظيمية المذكورة من المحافظة على نشاط العمل الحرفي، وضمان استمراريته، والمساهمة في إزالة العراقيل والصعوبات التي كانت تعترضه والمحافظة على جودة المصنوعات ومردوديتها بالنسبة للحرفيين الذين مكنهم تنظيم أعمالهم من مد الجسور الاجتماعية فيما بينهم، فتعدت علاقاتهم نشاطهم المهني لتشمل الاجتماعي أيضا، وأفادوا بذلك أسرهم وبقية أفراد المجتمع.

(١) - المقري: نفح الطيب، ج ٥، ص ٥٣٢.

المطلب الثاني

البعد الاجتماعي للطوائف الحرفية

نتيجة كثرة أصناف الحرف والصناعات التي احتضنها النسيج الحضري لمدينة فاس، وارتفاع عدد العاملين فيها، وتنظيم أعمالها، كانت فئة الحرفيين مميزة ضمن فئات المجتمع ككل. فقد ذكر لوتورنو أن مدينة فاس نشطت فيها ١٥٠ هيئة صناعية في عهد أبي الحسن وأبي عنان[1] المرينيين؛ والراجح أن هذا العدد لم يتراجع بشكل كبير قبل وبعد العهد المذكور. واضطراب الأوضاع العامة للبلاد بعد وفاة أبي عنان، لا يلغي حرفا قائمة الذات، بالقدر الذي تضعف حركتها ويقل عدد العاملين فيها. ومع ذلك ظل عدد العاملين في الحرف مرتفعا، إذ أورد الوزان الذي تحدث عن وضعية فاس في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، أن كل من صناعتي النسيج وطحن الحبوب شغلت ٢٠ ألف عامل[2]، وهو مؤشر دال على ارتفاع عدد الحرفيين بالنظر إلى مجموع الساكنة الفاسية آنذاك. ولذلك فكثرة الأصناف والعاملين المصحوبة بتنظيم العمل الحرفي، كانت لها آثار في المجتمع الذي مال أفراده لممارسة الحرف، أو تقديرها، أو حث الناس على الانخراط فيها، مما شجع الحرفيين ودفعهم إلى الاعتزاز بحرفهم وحبهم للعمل فيها. لكن رغم ذلك فالتمايز ظل حاصلا بين أصناف الحرف حسب طبيعة المواد المستخدمة فيها، ومردوديتها، وقيمتها. وهذا الأمر طبيعي ما دام لا يصحبه احتقار حرف مقابل الرفع من أخرى حرص الفقهاء والعلماء على نبذه وتشجيع العمل الذي يعتبر كسبه وطلبه حلالا لا

(١) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٢٧.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٩٣.

شبهة فيه.

١- المكانة الاجتماعية للحرفيين:

ساهمت مجموعة من العناصر في تحسين صورة الحرفيين في أعين المجتمع، منها مشروعية عملهم، ونوعية الممارسين له، وأهمية المكان الذي تمارس فيه الحرفة، وطبيعة المنتوج الحرفي...

وعموما كانت كل الحرف مقدرة ومحترمة من طرف أفراد المجتمع، مادامت محافظة على مشروعيتها، ومبتعدة عن السقوط في الحرام والربا. لكن بعضها لقي إقبالا وتفضيلا مقارنة مع البعض الآخر، حسب شرف المنتوج أو المكان أو هما معا، ومدى تقريب الملوك لأرباب بعض الحرف. وخفف الفقهاء والعلماء وما شابههم من النظرة الدونية لبعض الحرف بممارستهم لها.

- رمزية شيوخ الطوائف:

إن مفهوم «الشيخ» في الحرفة كان يدل على الذي يلقن التقنيات والمهارات الحرفية لمن تحت مسؤوليته من العاملين معه، لكن هذا مفهوم دل أيضا على الشخص الذي يقتدي به الحرفيون أثناء ممارستهم لحرفة ما. والشيوخ المفضلون في الحرف هم من اتصفوا بالتقوى والورع والاستقامة والمعرفة بالعلم والفقه، وبذلك مثل الحرفيون الذين توفرت فيهم تلك الصفات شيوخا يقتدى بهم من طرف أعضاء الطوائف التي انتموا إليها. والأهم من ذلك هو أن رمزية بعض شيوخ الطوائف لم تنته بوفاتهم، بل ظلت سارية المفعول بعد مماتهم إلى الحد الذي استدعى إقامة مواسم سنوية لبعضهم يحضرها عامة الناس، تقام خلالها أعرافا وتقاليد خاصة بالحرف التي مارسوها، مما أعطى دفعة للطوائف الحرفية التي انتمى إليها الشيوخ

المحتفى بهم.

فقد اتخذت طائفة الخياطين بفاس الفقيه أبا جيدة بن أحمد اليازغي (ت٣٦١هـ/ ٩٧١م) المدفون خارج باب بني مسافر، الذي أصبح ينعت بباب سيدي أبي جيدة في إشارة إلى مكانته وأهمية الحرفة التي مارسها وأصبح رمزها. واتخذ الفخارون أيضا الشيخ سيدي مومن رمزا لطائفتهم وهو المدفون بالفخارين بباب الفتوح داخل السور، أشار لوتورنو أن أهل فاس كانوا لا يعرفون عنه شيئا. أما الإسكافيون فاتخذوا الفقيه محمد بن عباد (ت٧٩٢هـ/ ١٣٩١م) شيخا لطائفتهم، وهو فقيه أندلسي انتقل إلى فاس وعاش بها إلى أن توفي، وقد كان إماما وخطيبا بجامع القرويين يبدي النصح للملوك. ومثل الشيخ سيدي علي بوغالب الصاريوي اليازغي زعيما لطائفة الحجامين، أشار ابن الأحمر أن وفاته وافقت أواسط المائة الثامنة بفاس، ولازال ضريحه مشهودا بباب الفتوح بحومة صاريوة قريبا من سوق الجزارين الذي اندثر لاحقا، كانت تقام فيه حفلات سنوية ترافقها عمليات ختان الأطفال[1].

وبذلك كان هؤلاء الشيوخ دافعا للناس قصد الانخراط في الحرف التي كانوا رموزا لها، وتقدير العاملين فيها. وكانت الأضرحة التي دفن فيها رموز الحرف مكانا يتوافد عليه الناس سواء في أوقات المواسم أو خارجها تقديرا واحتراما للحرف التي مارسوها.

---

(١) لوتورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ٤٤١؛ نفسه: فاس في عصر بني مرين، ص: ١٤٤؛ ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس الكبرى، ص: ٤٢؛ ابن منصور، عبد الوهاب: أعلام المغرب العربي، ج١، ص ص: ٣٠١-٣٠٢؛ بوغالب معلمة المغرب، م٦، ص: ١٨١٧.

- مواقف الفقهاء والعلماء من الحرف:

اجتمعت آراء الفقهاء والعلماء على إيجابية العمل الحرفي بالنسبة للمجتمع، من خلال خدمته لأفراده بتوفير حاجياتهم، وبالنسبة للحرفي الذي يقوم بالواجب المأمور به وهو العمل والكسب الحلال قصد تلبية حاجيات العيش له ولأسرته.

وفضل كثير من الفقهاء والعلماء الحرف البسيطة بغرض الحصول على ما يتعيشون به منها، إذ كانوا لا يميلون إلى القيام بالحرف ذات المردود المالي الكبير، الذي يعد سببا في التهافت على الأمور الدنيوية والاشتغال بها عن الأمور الدينية التي كانت ضامنة للورع والتقوى والتقرب من الله تعالى. ولذلك كان الفقيه الخطيب بجامع القرويين عبد الله بن محمد بن معطي العبدوسي المتوفى سنة ٤٤٨ أو ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧ أو ١٠٥٨م «يعمل الخوص ويعطيه لرجل لا يعرف أنها له يبيعها ليتقوت بها في رمضان»[1]. وهو بذلك فضل العمل بيده، والقيام بحرفة توفر له قوت يومه، رغم أن منصبه كان يتيح له العمل بأجرة تغنيه عن ذلك. كما كان الفقيه أبو علي الرجراجي وهو من أهل القرن ٨هـ/ ١٤م يتعيش من حبك البرانس بيده في بعض الأوقات، وكانت له مكانة إذ يقوم بزيارة السلطان ويأمره فيأتمر[2].

كما مارس بعض الفقهاء والعلماء حرفا نبيلة، مثل أسرة الفقيه السلاجي (ت ٧٦١هـ/ ١٣٦٠م) مؤسس علم أصول الدين بفاس، الذي كان له أبناء أطباء أصوليون بالمدينة[3].

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص: ٤٢٥.

(٢) مفتاح: التيار الصوفي، ج١، ص: ١٩٤.

(٣) ابن الأحمر وآخرون: بيوتات فاس، ص: ٤٥؛ محمد بن عبد القادر الفاسي: مشاهير أهل فاس، طبعة حجرية، ص: ٧.

لذلك فمواقف الفقهاء والعلماء من الحرف آراء وممارسة اعتبرت دعوة لبقية أفراد المجتمع قصد الإقبال على الحرف والانخراط في أعمالها دون تمييز بين أصنافها مادامت تعتبر سببا في طلب معيشة الفرد مما هو مشروع.

ومثلما شجع الفقهاء الناس على انتحال الحرف، دافعوا عن عدم إذايتها للسكان، بحكم مسؤولياتهم في الاستفتاء والقضاء والحسبة... إذ كانوا يأمرون برفع ضرر بعض الأنشطة الصناعية عن السكان[1] مثل دور الفخارين التي كانت تنفث أفرانها الأدخنة، ودور الدباغة التي اعتبرت مصدرا لانبعاث الروائح الكريهة، ودوي المطاحن الذي يزعج الساكنين بجوارها. حيث كان أرباب هذه الصناعات عند ثبوت الضرر ينقلون أنشطتهم إلى أطراف المدينة بعيدا عن الأحياء السكنية. واحتضان أطراف المدينة لأنشطة صناعية لا ينقص من قيمتها مادامت المصلحة العامة هي التي استدعت ذلك.

- أسماء الأماكن والأعلام المشتقة من الحِرَف:

اشتقت أسماء الأماكن التي احتضنت الأشغال الحرفية من أسماء الحرف التي كانت تمارس فيها. كما تعددت أنواع الألقاب التي كانت تلحق بأسماء الأفراد، تميزهم عن غيرهم عند دعوتهم بها. فمنها ما اشتق من الأصل العرقي، ومنها ما استنبط من الأصل الجغرافي، لكن أشخاصا كثيرين اتخذوا ألقابا لها ارتباط بالحرف التي مارسوها أو مارسها أحد أسلافهم وأقاربهم. كما نُعتت أماكن معينة داخل

---

(١) أصدر الفقهاء عدة فتاوى حول رفع الضرر عن السكان من مدن إسلامية عدة منها فاس، رجعوا فيها إلى القرآن والحديث النبوي واجتهادات أئمة المذهب المالكي، للاطلاع على ذلك يمكن الرجوع إلى الونشريسي: المعيار المعرب، ج٨، ص ص: ٤٤٦، ٤٥٧ وج٩، ص ص: ٥٩-٦٠؛ ابن الرامي: الإعلان في أحكام البنيان، مخطوط ب خ ع، تحت رقم ٦٦٨د، ورقتين ١٠-١١.

مدينة فاس بأسماء الحرف التي مورست أو سبقت ممارستها بها، أو قطنها أشخاص يمارسون حرفة ما.

واشتقاق أسماء الأماكن والأشخاص من الحرف يعد دليلا على تأثير النشاط الحرفي وامتداداته في أوساط المجتمع.

فبالنسبة لأسماء الأماكن لا يستدعي الأمر إعادة ذكر أسماء الأسواق الحرفية والتجارية التي عرفت بأسماء الحرف القائمة فيها، والتي تعرض فيها المنتوجات الحرفية، إذ تم تناولها في مواقع متعددة من هذا البحث. والجدير بالذكر أن بعض الأماكن نعتت بأسماء حرف دون أن تكون مجالا لممارستها أو عرض موادها منها حومة الكغادين[1]. وسبب هذه التسمية غير واضح، عكس مكان ديار القبابين داخل باب الفتوح أيضا بحومة الجيزيين التي تنتهي بباب يدعى بالاسم نفسه ويعرف بباب الحمراء كذلك أحد أبواب المدينة. فاسم الديار المذكورة -أي القبابين- اشتق من صناعة القباب. غير أن المصادر التاريخية أشارت إلى أن القبابين الذين قطنوا تلك الديار ليسوا من أقارب الفقيه القاضي أحمد القباب المتوفى سنة ٧٧٧ أو ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦ أو ١٣٧٧م[2] الذي سأذكره ضمن الأعلام الملقبين بأسماء الحرف.

وعموما يمكن القول أن الحرف فرضت نفسها في نعت الأماكن بفاس حتى في أشرفها كتلك التي وُجِدت حول جامع القرويين[3] مثل العطارين والشماعين والخرازين والكتبيين والصفارين وغيرهم.

---

(١) ابن الأحمر وآخرون: المصدر السابق، ص ص: ٦٥-٦٦.

(٢) نفسه، ص: ٤٤؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص ص: ٤٧-٤٨.

(٣) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٤.

أما بالنسبة لأسماء الحرف التي تلقب بها الأشخاص فهي كثيرة، عرفتها مختلف البلدان الإسلامية. وقد دعت إليها الممارسة اليومية للحرفة من قبل أصحابها، وسهولة التعرف على الأفراد عند نعتهم بحرفهم، وتلافي الاختلاط الذي يحصل نتيجة تشابه الأسماء وتداخلها. والمصادر التاريخية، وخاصة كتب التراجم والفهارس، تحتوي على أسماء كثيرة مشتقة من الحرف، لا تحصر كل الذين دعوا بها، لكنها تحصر نخبة المجتمع من فقهاء وعلماء وقضاة... تركت بصماتها في أوساط مدينة فاس وغيرها من المدن والأمصار. فقد توارث الناس أسماء الحرف عن أسلافهم كما ورثها عنهم أعقابهم مما جعل فئة الملقبين بأسماء الحرف تزداد انتشارا مع توالي الأزمان.

وفيما يلي جدول بلائحة الأعلام الملقبين بأسماء الحرف حسب ما ورد بالمصادر التاريخية :

الاسم واللقب	الحرفة التي اشتق منها اللقب	المصادر والمراجع
أبو عبد الله بن الحباك (كان حيا سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م)	الحياكة	العبر، ج٧، ص: ٢٣٠
أبو الحسن بن القطان (كان حيا سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م)	صناعة القطن	العبر، ج٧، ص: ٢٣٠
أبو عبد الله محمد بن موسى الحلفاوي (ت٧٥٨هـ/ ١٣٥٨م)	تحويل الحلفاء	التيار الصوفي، ج١، ص: ١٩٣

الاسم واللقب	الحرفة التي اشتق منها اللقب	المصادر والمراجع
أبو عبد الله الصفار (عاصر السلطان أبي عنان)	صناعة النحاس	التيار الصوفي، ج١، ص: ١٩٤.
أبو العباس أحمد بن القاسم القباب (ت٧٧٧ أو ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦ أو١٣٧٧م	صناعة القباب	الإحاطة، ج١، ص: ١٨٧؛ درة الحجال، ج١، ص ص: ٤٧-٤٨
أبو الحسن علي بن محمد بن عمر الصنهاجي القصار	قصر الخيوط	نثير الجمان، ص: ٤٢٧
أبو محمد بن علي الفهار المشهور بالحياك	الحياكة	نثير الجمان، ص: ٤٦٠
أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ابراهيم بن موسى الكومي المعروف بالنيار	صناعة نير المكحلات والبنادق	نثير الجمان، ص: ٤٣٢
أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد الأنصاري الخزرجي الشهير بالدباغ	الدباغة	نثير الجمان، ص: ٣٩٨

الاسم واللقب	الحرفة التي اشتق منها اللقب	المصادر والمراجع
أبو راشد يعقوب الحلفاوي (ق٩هـ/ ١٥م)	صناعة الحلفاء	فهرس ابن غازي، ص: ٦٥
أبو عبد الله الفخار (ق٩هـ/ ١٥م)	صناعة الفخار	فهرس ابن غازي، ص: ٨٥
أبو القاسم محمد بن يحيى السراج (ت٨٩٤هـ/ ١٤٩٠م)	صناعة السروج	فهرس ابن غازي، ص: ١١٣
علي بن أحمد الحسيني السبتي الشهير بالكغاد (توفي بفاس عام ٨٣٩هـ/ ١٣٤٦م)	صناعة الكاغد	المنوني، أبحاث مختارة، ص: ١٨٩.

- تقريب السلاطين للحرفيين:

حظيت فئة الحرفيين بتقدير من سلاطين الدولة، الذين حرصوا على الاستفادة من الأعمال الحرفية في عدة تخصصات تلقوا من خلالها خدمات الحرفيين بإنجاز مشاريعهم، وتحقيق حاجياتهم وأغراضهم وأغراض أهلهم وذويهم وحاشيتهم. وكانت فئة الحرفيين ممثلة في أرباب الصنائع والحرف، تحضر الاستقبالات والاستعراضات التي تخصص للسلاطين، مما يعد دلالة على المكانة الاجتماعية التي

احتلتها ضمن فئات المجتمع الأخرى.

إن السلطان يعقوب بن عبد الحق الذي هو من أوائل سلاطين الدولة المرينية، عند تأسيسه لفاس الجديد سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م كان معه «العرفاء والبناؤون وأهل المعرفة بالصنائع»[١] فقاموا بأعمال التخطيط والهندسة لأحياء هذه المدينة وأعطوا الانطلاقة لأشغال البناء بها. وبعد ذلك قام السلطان المذكور بـ «جمع الأيدي عليها، وحشد الصناع والفعلة لبنائها»[٢]. ويبرز النصان السابقان دور الصناع والحرفيين في تأسيس وبناء مدينة فاس الجديد، فالنص الأول يتحدث عن صحبة يعقوب بن عبد الحق ذوي الخبرة من الصناع قصد تحديد الأماكن التي شيدت بها المعالم العامة مثل القصر السلطاني والمسجد الجامع والأسواق والأسوار والأبواب إضافة إلى الشروع في حفر أساساتها. في حين يشير النص الثاني إلى بناء المعالم المذكورة وما تبعها من إنشاء مباني خاصة بالرعية. ولذلك استفاد سلاطين الدولة من خدمة المختصين في أعمال البناء ليس في فاس الجديد بل في فاس العتيق أيضا.

وقرب ملوك الدولة أيضا الصناع المختصين في عمل الأسلحة المتميزة كالتي دخل الذهب والفضة في تصنيعها، إذ اتخذ السلطان أبو الحسن المريني منها ما جوزه له العلماء، وترك ما اختلفوا حول مشروعيته[٣].

وأردف ابن خلدون القول،بأن الطب والوراقة تعدان من الحرف الشريفة. لذلك كانت حسبه داعية إلى «مخالطة الملوك الأعاظم في خلواتهم ومجالس أنسهم،

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ١٦١.
(٢) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٢٣٠.
(٣) ابن مرزوق: المسند، ص: ١٣١.

فلها بذلك شرف ليس لغيرها»[١].

كما توافد على سلاطين الدولة المرينية أطباء مختصون استفادوا من مهاراتهم، وتولى بعضهم مناصب لتسيير شؤون الدولة. فمن الأندلسيين نجد غالب بن علي بن محمد اللخمي الذي خدم السلطان أبي سعيد عثمان وولّاه الحسبة[٢]، وأحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري الحبالي الذي قرأ الطب بغرناطة على يد أبي زكرياء بن هذيل، و«كان له بصر بمنتحلات أخرى تعلق بموجبها بأذيال الدول»[٣]، فانتقل إلى فاس، وخدم ملكها، لكنه غرب عنها بسبب ما شهدته من صراع على الحكم في أواخر عام ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م.

واشترط السلطان أبو الحسن المريني في تطبيب اليهود له إسلامهم، حيث لم يقبل الأدوية التي وصفوها له، إلا بعد إجماع أطبائه عليها. فلما كان بحضرة تلمسان وبسبب مرضه استدعي يهودي ماهر من فاس صنع له مرهما تعفف عن قبوله[٤].

ونظرا لمكانة السلاطين في الدولة فقد كان لكل واحد منهم أطباء خاصون بهم، نالوا عنده حظوة يستفيد من خدماتهم، سواء كان ذلك في فترات قوة الدولة أو ضعفها.

وعن الوراقة، اضطلع الماهرون فيها بمرتبة متميزة عند الحكام أيضا، فصنعوا لهم ما يحتاجونه من رقّ وورق للكتابة، وجلد وخشب للتسفير. فأبو الحسن المريني مثلا بعد استنساخه للمصحف العزيز بيده جمع الوراقين قصد «تذهيبه وتنميقه...

(١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٢.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٤، ص: ٢٤٠.

(٣) نفسه، ج١، ص: ٢٠٥.

(٤) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص: ٣٨١.

ووضع في وعاء من خشب الأبنوس والعاج والصندل وزين بصفائح الذهب والجوهر والياقوت وغير ذلك»[١].

لقد تطلبت حركات السلاطين خارج حضرتهم بفاس، تلقي خدمات حرفيين يتقنون صناعة الأفراق والهوادج والخيام ... إذ كان المختصون في عمل الخشب ودهنه بالأصباغ، وخياطة الأثواب وغيرها يحشرون لذلك العمل[٢].

ولم يستغن سلاطين الدولة عن خدمات حرف أخرى مثل الحجامين الذين كانوا يختنون الأطفال الأيتام في يوم عاشوراء من كل سنة[٣]، والطباخين الذين يعدون الأطعمة وغيرهم.

لقد حضرت فئة الحرفيين ضمن الفئات الاجتماعية الأخرى الاستقبالات والاستعراضات التي تقام للسلاطين. حيث وصف النميري إحداها حين رجوع أبي عنان من وجهته الشرقية إلى فاس قائلا: «تميز كل صنف من أرباب الصناعات، والحرف الموفرة للبضاعات بأعلام فيها صور الآلات التي يستعملونها خصوصا، ويبدون على الانفراد بشعارها ظواهرا ونصوصا، وتوشح جميعهم بالبياض الرائق، المزري بأقحوان الحدائق، واحتملوا القسي البديعة الحسن وتقلدوا السيوف المعتاص وصفها على اللسن»[٤]. وحضور الأصناف الحرفية في مثل هذه المناسبات يعد في حد ذاته تعبيرا عن المكانة التي كانت لها عند الحاكم. وانتظام الحرفيين في طوائف كان

---

(١) السلامي: وثائق مرينية، ج٢، ص: ١٣٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٣١٤.

(٢) عن الأفراق التي صنعت لأبي عنان وما بذلت فيها من صناعات، يمكن الرجوع إلى النميري: فيض العباب، ص ص: ٢٢٨-٢٣١.

(٣) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص: ٤٢٠.

(٤) النميري: المصدر السابق، ص: ٤٩٨.

لافتا للأنظار، ومساهما في تقديرهم من طرف السلطان.

وأثارت الأعمال الحرفية اهتمام الأدباء أيضا، الذين وصفوا بعضها من خلال كلامهم المنثور والمنظوم، معبرين عن قيمة القائمين بها عندهم.

وبصفة عامة نالت الطوائف الحرفية مكانة محترمة لدى نخبة المجتمع من فقهاء وعلماء وأدباء وحكام، ولدى عامة الناس أيضا. وساهم اعتزاز الحرفيين بأعمالهم، وانتظامهم في طوائف في تبوئهم تلك المكانة.

٢- الأنشطة الاجتماعية للطوائف الحرفية:

ساعد تنظيم الحرفيين لأعمالهم في سهولة تواصلهم اجتماعيا، إذ قاموا بأنشطة موازية لعملهم الحرفي. فقد نظم أعضاء الطائفة الحرفية الواحدة زيارات إلى المنتزهات الموجودة في محيط المدينة، كما كانت تهيأ ولائم لأعضاء الطائفة بدور الحرفيين في مناسبات اجتماعية مثل زيادة مولود أو زواج، أو غير ذلك. وشاعت بين أعضاء الطائفة الحرفية سلوكات التكافل والتعاون استفادت منها الأسر المتضررة من مصاب مثل وفاة حرفي كان يوفر حاجيات عيشها.

والكتابات البيبليوغرافية لم تسرد الأنشطة الاجتماعية لكل الطوائف الحرفية، بل لبعضها فقط مثل الحمالين والغلمان الذين عملوا في الحمامات. لكن ذلك يمكن تعميمه على جل الطوائف الحرفية، بما أنها توفرت فيها نفس الشروط أو أحسن من التي ميزت الطائفتين المذكورتين.

لقد كان من عادة الحمالين أن يلزموا كل شخص جديد تم قبوله للانضمام إلى الطائفة بإقامة وليمة لهم، وفي حالة عدم التزامه بذلك لا يحصل أثناء ممارسة الحرفة

إلا على نصف الأجر الذي يعطى لحرفي مثله. ويعبر ذلك عن مدى تماسك الطائفة واحتكام أعضائها للأعراف المنظمة لهم وخضوع الحرفي لما يتم تقريره. وكان الحمال يستضيف العاملين معه، إذا أقام وليمة بمناسبة زيادة مولود أو حفل زفاف، ويحمل ضيوفه هدايا يقدمونها له. وتجاوز التكافل الاجتماعي أعضاء طائفة الحمالين ليشمل أسرهم وذويهم، إذ أنهم يتكفلون بالأسرة التي مات معيلها بالإنفاق عليها[1].

وبتكتُّل الحمالين وتنظيم صفوفهم استطاعوا أن يحصلوا من الدولة على إعفاء من أداء الضرائب، وطبخ الخبز مجانا في الأفران[2]، مما ساعدهم في تأمين حاجيات أسرهم.

أما الغلمان الذين استخدموا في الحمامات، فكانوا يقومون عند نهاية كل موسم عمل بحفل «يستدعون له جميع أصحابهم، فيذهبون إلى خارج المدينة مصحوبين بموسقيين ينفخون في النفير والمزمار، وبعد ذلك يقتلعون بصلة زنبق يضعونها في إناء جميل من نحاس، يغطونه بساط صغير حديث العهد بالغسل. ثم يعودون إلى المدينة قاصدين باب الحمام على أصوات العزف، حيث يضعون البصلة في سلة يعلقونها على الباب قائلين: سيكون هذا سبب ازدهار الحمام إذ سيقصده الكثير من الناس»[3]. وهذا النشاط الذي كان من عادة الغلمان المكلفين بتنظيف المستحمين يعبر عن حاجتهم إلى التنزه والترفيه في المواضع التي أحاطت بالمدينة وتميزت بجمال مناظرها. والعادة التي كانوا يقومون بها عقب النزهة تدل عل تعلقهم بحرفتهم وأملهم في رفع مداخيلهم بازدياد عدد زبنائهم. ويبدو من خلال النص السابق

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٥.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص ص: ٢٣٠-٢٣١.

أيضا أن غلمان كل حمام كانوا منتظمين فيما بينهم، مما أسهم في خلق جو التنافس بينهم في إقامة الأنشطة الاجتماعية الترفيهية.

وما انطبق على غلمان كل حمام حصل بالمسبة للحرفيين الذين اشتغلوا في أماكن متفرقة مثل النساجين والطحانين وغيرهم، حيث كان المكان الذي يعملون فيه يمثل عاملا مشجعا على التحامهم وتعاونهم في معزل عن الذين يختصون في نفس الحرفة لكن يشتغلون بعيدا عنهم.

أما الحرف التي كان أصحابها لا ينتظمون في طوائف مثل الحراس ووقادي الجوامع والنساء اللواتي تغزلن الصوف أو تنسجن الأثواب، فكانت ظروف عملهم وعدم وجود مرفق يجمعهم عوامل حاسمة في شبه غياب لأنشطة اجتماعية موازية لأعمالهم.

المبحث الثاني

خدمات الحرفيين العامة للمجتمع

اهتم قسم من الأعمال الحرفية بخدمة أفراد المجتمع داخل وحول فاس، وأحيانا القادمين إلى المدينة من جهات بعيدة في الحالات التي يكون فيها الفرد قائما بصفة مؤقتة. ونظرا لكثرة الأعمال ذات الطابع الاجتماعي، والأهمية التي تحظى بها باستهدافها الفئة العريضة من الناس، وتناول بعضها في مواضع سابقة من هذا البحث، سيتم التركيز في هذا المبحث على أهم وأعم الخدمات الاجتماعية التي أنجزتها فئة الحرفيين، مثل العلم والصحة والتغذية والسكن والعناية بالضيوف والأيتام والفقراء وغير ذلك، من خلال رصد الأعمال الحرفية التي خدموا بواسطتها الفئات الاجتماعية لصالح المرتبطة بالميادين المذكورة، سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة.

١- العلم:

خدمت الطاقات الحرفية العلماء والمتعلمين في المساجد والمدارس، من خلال إنجازها لأشغال البناء والزخرفة والإصلاح بالمرافق التي كانت مجالا لأنشطة علمية، وإبداع من للصناع الذين نسخوا وجمعوا وسفَّروا الكتب التي ضمتها الخزانات العلمية، وإسعاف الأطباء للعلماء والطلبة، وخدمة النازلين منهم بالبيوت المخصصة لسكناهم. وكانت المنشآت الصناعية المحبسة على المراكز العلمية[1]، تعتبر موردا ماليا لهذه الأخيرة يساهم في تحقيق أغراضها وحاجيات نزلائها.

---

(١) المنوني، محمد: ورقات عن حضارة المرينيين، ص: ١٢٤.

عبّرت لوحات التحبيس التي كتبت بالمدارس المشيدة عن الأهداف التي أسست من أجلها، إذ تتمحور حول تدريس القرآن والعلوم الأخرى. فقد ورد بنص وثيقة تحبيس مدرسة المدينة البيضاء بفاس الجديد «إقراء القرآن العظيم وتدريس العلم»[1]. ومن ضمن ما نصت عليه وثيقة تحبيس مدرسة أبي عنان «قصد أيده الله ببنائها وجه الله تعالى في إحياء العلم وتجديد العناية بالمنقول والمفهوم... حبس أيده الله تعالى على هذه المدرسة إرفاقا لطلبة العلم وإرفادا وإعانة لهم عل طلبه»[2]. والأهداف ذاتها نصت عليها لوحات تأسيس المدارس والمساجد التي احتضنت أنشطة علمية. ودور الحرفيين في تحقيق تلك الأهداف مثلته أشغالهم المعمارية التي أنجزوها، فمالوا فيها إلى الإبداع والتأنق والعمل التطوعي ابتغاء مرضاة الله تعالى وثوابه ومغفرته.

والبنايات العلمية مثّلت أيضا مكانا لإيواء الطلبة، إذ كانت الطوابق العلوية وأحيانا حتى السفلية للمدارس، تضم بيوتا يسكن في كل واحد اثنين أو ثلاثة أفراد. وبنيت بجانب بعض المدارس دور أو فنادق خصصت أيضا لتلك الوظيفة، فقد بني فندق خاص بسكنى الطلبة إلى جوار المدرسة التي تقع غربي جامع الأندلس[3]. وهي مدرسة الصهريج إحدى مدارس عدوة الأندلس. ويعد ذلك تعبيرا عن كثرة عدد الطلبة الذين قطنوا بالمآوي المخصصة لهم. وكان سكنهم فيها مشروطا

(١) لمليح، السعيد: موقف فقهاء فاس من إنشاءالمدارس المرينية ،مجلة مكناسة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة مولاي اسماعيل ،مكناس،عدد ١٢، ١٩٩٩ ،ص: ١٦٥.

(٢) أسكان، الحسين: الإنفاق على التعليم بمدينة فاس بين القرن السادس والثامن الهجري، المدينة في تاريخ المغرب العربي، أشغال ندوة بكلية ابن امسيك II للآداب و ع إ، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص: ٢٤٨.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٢.

بالتزامهم بتلقي الدروس، وعدم ممارسة نشاط مخالف لذلك[١]. كما كانت تحدد المدة التي يمكن لكل طالب قضاءها ساكنا بالمدرسة تصل ستة عشر سنة، قد تتقلص إلى عشر سنوات بالنسبة لغير المتفوقين في دراستهم[٢].

وكانت للحرفيين كذلك يد في توفير الكتب والمؤلفات التي أفادت العلماء والمتعلمين في اكتساب المعارف. حيث احتوت مدينة فاس على عدد مهم من الخزانات ضمت أصنافا كثيرة من الكتابات التي تطلبت نسخا وتزويقا وجمعا وتجليدا. وقد مر بنا الحديث عن تلك الخزانات في موضع سابق من هذا البحث[٣]، مما مكن العلماء والطلبة من الاطلاع على محتوياتها من الكتب موازاة مع تلقيهم للعلم من أفواه العلماء والفقهاء بالمساجد والمدارس.

وإلى جانب الخزانات العامة احتضنت مدينة فاس خزانات خاصة منها خزانة ابن الغرديس التي أفادت الونشريسي صاحب المعيار المعرب، الذي كان يلقن بني الغرديس -إحدى البيوتات العلمية بفاس- دروسا،وهناك أيضا خزانة الأمير محمد بن عبد القادر الوطاسي التي نسخت لها مجموعة من الكتب من بينها كتاب نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني سنة ٨٦٥هـ/ ١٤٦١م[٤].

---

(١) أفتى الفقيه العبدوسي مثلا بإخراج أناس كانوا يخزنون السلع في المدارس منها لعدم توافق ذلك مع أهداف الحُبُس، ورد ذلك عند الونشريسي: المعيار المعرب، ج٧، ص: ٧.

(٢): المليح: المدارس المرينية ودورها الفكري في المغرب، ص: ٢٥٣.

(٣) الرجوع إلى «الخزانات» في المبحث الثاني من الفصل الثاني بالباب الأول.

(٤) الدباغ، محمد بن عبد العزيز: خزانة القرويين وأثرها في حفظ التراث الإسلامي، أشغال ندوة: جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي نظمها بيت آل الحبابي، منشورات جامعة القرويين، الرباط، ١٩٩٦، ص: ١٠٨.

وتلقى الطلبة خدمات حرفية عند قيامهم بنشاطهم العلمي بالمؤسسات العلمية، فقد تم تعيين خَدَمَة بمدرسة العطارين[1] يسهرون على تنظيف وكنس مرافق المدرسة وتقديم العون والمساعدة للطلبة الآوين بها. إلا أن عدم الإشارة إلى هذه الخدمة بمدارس أخرى قد يدل على تحمل الطلبة لأشغال التنظيف وما شابهها.

وكان الطلبة يستشيرون الأطباء في الأمراض التي يصابون بها، حرصا على التحصيل العلمي في ظروف جسمية وعقلية سليمة، إذ نصح الأطباء الطلبة ذوي الذاكرة الضعيفة بأخذ دواء من الأدوية المشاعة وهو «العسل المخلوط باللبان الذي يشرب كل غداة على الريق»[2].

واستفادت فئة الطلبة من المياه التي كانت تتدفق بالمدارس التي قطنوا ودرسوا فيها، ومن تقديم بعض الأطعمة لهم سواء من طرف المخزن أو الأشخاص الذين يرغبون في مثل هذه الأعمال الإحسانية.

وبالتالي فإن الحرفيين والصناع قد واكبوا النشاط العلمي بفاس، وقدموا خدمات لهيئة العلماء وتلامذتهم، أحيانا بأمر من السلاطين والمحبِّسين وأحيانا أخرى بأمر من العاملين في العلم أنفسهم، مما أدى إلى نشر العلم الذي تلقته شريحة من المتعلمين ستصبح نخبة منها مُعلِّمة داخل فاس وبمدن إسلامية أخرى.

٢- الصحة:

تظافرت جهود الأطباء والعشابين والصيادلة والحجامين والممرضين في دفع الأمراض عن الإنسان، ووقاية جسمه وعقله مما قد يضره. وبالنظر إلى الفترة المرينية

---

(١) اكنينح، العربي: العطارين، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦٠٩٣.

(٢) لمليح: المدارس المرينية،ددع، ص: ٢٥٣.

الوطاسية كانت بعض الأمراض تمثل خطرا محدقا بالمجتمع وتهدد كيانه، لسرعة انتشارها وصعوبة التوصل إلى معالجتها. ويعتبر الطاعون في مقدمة الأمراض التي فتكت بالعدد الكبير من السكان في ظل عجز الأطباء عن صناعة أدوية لمحاربته ووقاية الناس منه. كما كان مرض الجذام خطيرا لكونه معديا. وقد تمت معالجته بعزل المصابين به عن عامة الناس وتقديم العلاج لهم. واحتضن المارستان الذي شيد في قلب المدينة في صدر الدولة المرينية علاج أمراض جسمية وعقلية، كان المصابون بها في حاجة ماسة إلى الرعاية الدائمة من طرف الأطباء والممرضين والمنظفين والطباخين والحراس، وكلهم عملوا تحت مسؤولية الناظر في تلك المؤسسة. وقام الحجامون بعمليات إعذار الأطفال اليتامى بشكل جماعي مرة كل سنة، في إطار العناية التي أولاها ملوك الدولة لهم، بإعطائهم ملابس ونقودا.

- علاج الجذمى:

إن المقصود بالجذمى المصابون بمرض الجذام، الذي يعتبر من الأمراض الجلدية التي تنتقل عدواها من شخص إلى آخر، وما يطرحه ذلك من سرعة انتشار هذا المرض في أوساط السكان. لذلك كانت أهم وسيلة لعلاجه، منذ الفترة الإدريسية، هي عزل المصابين به في حي خاص أسوة بما تم في عهد عمر بن الخطاب ﷺ[1]. وقد كانت المناطق الموجودة خارج الأسوار الشرقية للمدينة العتيقة قد احتضنت ربضا خاصا بالمجذومين[2]. وبفعل الفتنة التي نتجت عن الحروب الموحدية المرينية (٦١٧-٦٣٧هـ) وما مثلته من خطر على حياة الآوين بالربض المذكور، تم نقل نزلائه، الذين وصل عددهم حوالي مائتي أسرة، سنة

(١) بنعبد الله: العلوم الكونية والتجريبية في المغرب، ص ص: ٩٧،

(٢) نفسه، ص: ١٠٣؛ Massignon: Le Maroc, p: 235

٦٣٦هـ/ ١٢٤٠م[1] حسب ماسينيون، إلى خارج باب الشريعة بالجهة الغربية للمدينة العتيقة بين مطامير الزرع وجنة المصارة. حيث سكنوا الأكواخ قرب الوادي وظلوا هناك إلى أن أمر السطان يعقوب بن عبد الحق أحد معاونيه، أبي العلاء بن العلاء بن أبي قريش، بنقلهم من جديد إلى ناحية باب الجيسة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦١م[2].

وبوشرت عمليات علاج الجذمى بإنشاء مستشفى لذلك الغرض لم تقل تجهيزاته عن التي احتوى عليها المارستان المؤسس داخل المدينة[3]. قد استقر فيه جهاز طبي يسعف المجذومين الذين يترددون عليه، بمعاينتهم وتهييء الوصفات الطبية والنصائح لفائدتهم.

واستقرار الجذمى لمدة طويلة بالجهة الشرقية بظاهر المدينة يُفسر بتجنب هبوب الرياح التي تمر بحيهم على النسيج الحضري داخل الأسوار، وما يطرحه ذلك من أضرار على الساكنة نتيجة ما قد تحمله الرياح معها من روائح وآفات، وهو الأمر الذي يبرر أيضا إعادة نقلهم من خارج باب الشريعة إلى ناحية باب الجيسة.

إن مداواة الجذمى بالطرق التي ذكرت، مكّنَت من الحد من انتشار الوباء بفضل إخراجهم من المدينة التي احتضنت ساكنة كثيرة العدد ، كما حَصَلت بواسطتها معافاة المجذومين بشكل تدريجي. فعدم الإشارة في الكتابات المصدرية إلى إصابة غير المجذومين وعدم تأكيدها على استمرار تطبيب الجذمى في الفترات التي تلت

---

(١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج١، ص: ٣٤؛ Massignon: Le Maroc, p: 235

(٢) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ١٨٠؛ ابن القاضي: المصدر السابق، ج١، ص ص: ٣٤-٣٥.

(٣) الناصري: الاستقصا، ج٣، ص: ٦٥؛ المنوني: مؤسسات خيرية وإحسانات مادية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٧٢؛ Masignon: Le Maroc, P: 235

حكم يعقوب بن عبد الحق وابنه يوسف مؤشرات دالة على محاصرة مرض الجذام والسيطرة عليه.

- العناية بنزلاء المارستـان:

المارستان أو البيمارستان مرفق لعلاج أمراض جسمية وعقلية تم تأسيسه من طرف السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني بعدما تمهد له الحكم واستقام له الأمر. إذ عين له الأطباء لمعالجة المرضى، والطباخين والمنظفين والحراس العاملين تحت إشراف الناظر لخدمة النزلاء هناك. وقد تم تجديد رسم المارستان في عهدي أبي الحسن وأبي عنان المرينيين[1] بتعيين جهاز يشرف على تقديم العلاج والخدمات الأخرى للنزلاء من تنظيف وتغذية وحراسة ومساعدة...

فتجديد الرسم معناه أن السلطان كان يقوم بإعادة تنظيم شؤون المارستان، من خلال ترتيب جهاز جديد يترأسه الناظر الذي يكون بدوره طبيبا، يتولى الإشراف على عمليات العلاج، ويتكلف بتسيير الخدمات التي تتم بالمارستان، من طبخ ونظافة وإقامة. لذلك كان التجديد يمكن من إعادة الفعالية لوظائف المارستان عن طريق تكليف أشخاص جدد يملؤون الثغرات التي تكون قد حصلت بفعل طول الفترة الزمنية التي عمل فيها الذين سبقوهم. وكانت الفترات التي تشهد ترتيبا جديدا للقائمين بالأعمال في المارستان، تتسم باستقرار الأوضاع العامة للدولة وانتعاشها بالشكل الذي يسمح بالنظر في مثل هذه الشؤون ذات الطابع الاجتماعي والإحساني.

مثَّل المعتوهون والمجانين أهم فئة مستهدفة من عمليات العلاج التي حصلت

---

(١) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤١٥؛ ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٦.

داخل المارستان، فكان الأطباء ينظرون إلى حالهم ويصفون ويعدون لهم الأدوية، يساعدهم في ذلك المرضون. ويتلقى هذا الصنف من المرضى العلاج ويلتزم بالمكوث داخل المارستان وأخذ الدواء هناك والإقامة في غرف خاصة، وأخذ قسط من الراحة بالجلوس في الساحة والحديقة اللتين زينتا الفضاء الداخلي للمارستان. والحراس هم من كان يتولى عدم السماح لهم بمغادرة مكان نزولهم إلا إذا أذن الناظر بذلك. حيث يرافقونهم ويتابعونهم عند إقامتهم في الغرف وأثناء مغادرتهم لها، حرصا على سلامتهم أملا في عافيتهم.

وبالنظر إلى الظروف النفسية للمرضى بالمارستان، تردد عليهم هناك موسيقيون مرة أو مرتين في الأسبوع[1]، يقدمون لهم أعمالا فنية وترفيهية هدفها تخفيف الضغط عليهم والمساهمة في علاجهم، وذلك بإذن من الناظر في المارستان.

لم يحتضن البيمارستان المرضى فقط، بل كان يلجأ إليه الغرباء عن المدينة الذين يأذن لهم الناظر بالإقامة هناك لمدة ثلاثة أيام[2]. ونزولهم في هذا المرفق الصحي يفسر بضعف إمكانياتهم المالية التي قد لا تتيح لهم المبيت في الفنادق، وبوقوع المارستان في قلب المدينة مما يسهل على الغرباء اللجوء إليه. كما أن إقامة الغرباء في المارستان تعد تأكيدا على الوظيفة الاجتماعية لهذا الأخير، ومبيتهم به قد يمكنهم أيضا من تناول الطعام هناك إذا كانوا في حاجة إليه.

لقد بني المارستان فوق مساحة كبيرة ضمت الغرف والساحة والمسجد وبيوت الطهارة وغيرها. وهي مرافق بقيت وظائفها قائمة طيلة الفترة المرينية الوطاسية

---

(١) المنوني: مؤسسات خيرية وإحسانات مادية، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٧٣.

(٢) نفسه، ص: ٧٢.

ولمدة طويلة بعدها[١]. إلا أن وظيفة المارستان تراجعت أهميتها عقب وفاة أبي عنان نظرا لتراجع دور الطب في نهاية الفترة المرينية وطيلة العصر الوطاسي.

وشهدت أنشطة المارستان الصحية تراجعا بعد تقلص إسهامات الأوقاف في تمويلها، وذلك في طور ضعف الدولة الذي شهد بيع ممتلكات الأوقاف بهدف تزويد خزينة الدولة بالموارد المالية[٢] بقصد تجاوز الأزمة.

- إعذار الأطفال اليتامى:

الإعذار مصطلح يدل على ختان كل طفل مسلم وفق السنة النبوية الشريفة، وما لذلك من حرص على صحة وسلامة الشخص المختن. والحجامون هم من تولى عمليات الختان. واعتبارا للوضعية الاجتماعية للأطفال الأيتام، دأب ملوك الدولة على تكليف الحجامين بختانهم وتقديم هدايا لهم تدخل الفرحة على نفوسهم ونفوس ذويهم.

وخلفاء الدولة الموحدية هم أول ملوك المغرب سَنّاً لعادة الختان منذ عهد يعقوب المنصور. حيث كان يتم التهييء لعمليات الختان في مطلع كل سنة هجرية، حسب ما أورده ابن عذاري في المعجب[٣].

وسار ملوك بني مرين على نفس الدرب، إذ كان ختان الأيتام من الأعمال التي

---

(١) جاء عند المنوني في المرجع نفسه، ص: ٧٢ أن بناية المارستان انهارت سنة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٤م، ولم يبق منها إلا المسجد في حين ألحقت المساحة الأخرى بالقيصارية.

(٢) نفسه، ص: ٧٤.

(٣) نقلا عن المنوني: مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ٨٠.

أثرت عن السلطان أبي يوسف يعقوب[١]. وهو أول سلطان مريني سن عمليات الختان بعدما استقرت الأوضاع العامة للدولة وتقرر اتخاذ يوم عاشوراء من كل سنة مناسبة لإجراء هذه العَملية. ويبدو أنه نفس اليوم الذي اعتمد أيضا من طرف ملوك الموحدين، بما أنهم كانوا يستعدون لتلك العمليات منذ بداية السنة الهجرية القريبة من يوم عاشوراء الذي يصادف العاشر من محرم الحرام أول شهور السنة الهجرية.

وتابع سلاطين بني مرين بعد يعقوب بن عبد الحق إعذار الأطفال. فابن مرزوق في إطار حديثه عن أعمال أبي الحسن قال: «ومن صدقاته الجارية وحسناته المستمرة التي سنها هو أن في كل عاشوراء من سائر بلاده يجمع الأيتام الذين يفتقرون إلى الختان فيختن كل واحد ويكسوه قميصا وإحرامات ويعطى عشر دراهم وما يكتفي به من اللحم فيجتمع في كل عاشوراء من الأيتام من سائر البلاد ما لا يحصى»[٢].

وبذلك فعمليات الختان هاته استهدفت الأيتام الذين لم يتمكن ذووهم من إعذارهم نظرا للأوضاع المعيشية وظروفهم التي لم تكن تسمح بذلك. كما صحب عمليات الختان تقديم كسوة ونقود ولحم تمكن من إتمام الفرحة، وتساهم في عدم شعور الأطفال المختنين بالنقص. ويوم عاشوراء الذي يتم فيه الإعذار هو مناسبة يحتفل بها المسلمون، وخاصة الأطفال منهم، ولذلك فتختينهم وإعطاء الهدايا لهم يجعلهم يشعرون أيضا بفرحة ذاك اليوم الذي يفرح فيه غيرهم. ومكنت عمليات الختان من خدمة شريحة كبيرة من الأطفال الذين كان يتم جمعهم من سائر البلاد. ومادام الحديث عن فاس فيبدو من خلال النص السابق أن الأطفال الأيتام كانوا

---

(١) نفسه، ص: ٨١.

(٢) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٤٢٠.

يجمعون بقصد إعذارهم من المناطق المحيطة بالمدينة.

وبدوره قام السلطان أبو عنان بعمليات ختان الأيتام، إذ ورد عند ابن جُزي كاتب رحلة ابن بطوطة «اخترع مولانا أيده الله، في الكرم والصدقات أمورا لم تخطر في الأوهام ولا اهتدت إليها السلاطين... ومنها إعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء»[1]. وهي عمليات تمت على النهج الذي كان معتمدا في عهد سابقيه من السلاطين، إذ كانت تتم كسوة الأطفال الأيتام عند تختينهم.

وعدم ورود كلام عن عمليات الختان للأيتام في الفترة التي تلت عهد أبي عنان في الكتابات التاريخية، يفسر بضعف تلك العمليات نتيجة عدم الاستقرار الذي تفاوتت درجاته حسب وضعية البلاد خلال حكم كل سلطان.

- التوليد:

التوليد معناه إخراج الجنين من بطن أمه عند اكتمال أطوار تكوينه فيه، وما يتبع ذلك من العناية به وبصحة أمه التي ولدته. وحرفة التوليد من اختصاص النساء اللواتي كن لا ينتظمن في طائفة حرفية، كانت كل واحدة منهن تعمل بشكل انفرادي يغلب على عملها التطوع لفعل الخير. وتسمى المُولِّدة بالقابلة ذكر ابن خلدون أنها دعيت بذلك نسبة إلى الإعطاء والقبول[2]، وأضاف أن القابلة بعد خروج الجنين تقوم بمداواة الجنين وأمه والعناية بصحتهما.

وخدمة التوليد «ضرورية في العمران للنوع الإنساني لا يتم كون أشخاصه

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص: ٦٤٩.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج١، ص: ٤٣٩.

في الغالب دونها»[1]، إذ بها يحدث التوالد والتكاثر اللذان يضمنان استمرارية الحياة البشرية، ويحصل تعويض ما يحدث من نقص بفعل الوفيات الطبيعية، وما تخلفه الكوارث التي تودي بحياة فئات واسعة من الناس كالأوبئة والمجاعات. وتخدم المولدات أيضا الأمهات حتى تقمن بواجباتهن المنزلية والتربوية والمعيشية.

تلك هي أهم الأعمال التي اعتنت بصحة عامة الناس، دعمتها أموال الأوقاف وبعض موارد المخزن، وعمل فيها الحرفيون المختصون بصفة تطوعية، أو تحت أمر مستخْدِميهم من السلاطين.

٣- السكـن:

خدم الصناع والحرفيون ساكنة مدينة فاس، ببناء المساكن لهم وإصلاح ما تضرر أو تهدم منها، وتجهيزها بلوازمها مثل الأفرشة والأغطية والأواني وغيرها.

ومادامت الفترة المرينية الوطاسية هي محط الدرس والبحث، فإن فاس عرفت فيها توسعا عمرانيا بعد التراجع المسجل في فترة الانتقال من الحكم الموحدي إلى المريني.

فقد تطلبت أعمال البناء والإصلاح وما يتبعها من تعمير المساكن بحاجياتها ولوازمها، حشر الطاقات الحرفية التي تتعدد مجالات صنعتها وإبداعها، بغرض خدمة الناس في فاس بخاصتهم وعامتهم، رغم أن المصادر التاريخية تركز على الخدمات التي تلقتها الخاصة، ولا تشير للتي ترتبط بالعامة إلا عرضا، وذلك راجع لعدة أسباب من بينها أهمية الأعمال الحرفية المقدمة للأولى التي تستقطب الأنظار إليها أكثر من التي توجه للثانية.

---

(١) نفسه، ص ص: ٤٤٠-٤٤١.

وصف ابن خلدون مميزات السكن لدى أهل الأقاليم المعتدلة التي يدخل فيها أهل المغرب قائلا: «أهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم.. يتخذون البيوتات المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين ويذهبون في ذلك إلى الغاية»[١]. هذا القول يحمل تبريرا لمظاهر الزخرفة والجمال التي ميزت المباني السكنية في فاس، وتنوع وحسن تجهيزاتها، فقد تراكمت في هذه المدينة الأعمال منذ تأسيسها حتى أصبحت توصف بأنها «مدينة عظيمة وهي قاعدة بلاد المغرب، وبين أهل المدينتين (العدوتين) فتن ومصاولات، وفيهما معا ضياع ومعايش ومبان سامية وقصور، ولأهلها اهتمام بحوائجهم»[٢] ويضيف الحميري عن فاس أيضا أن «لها أنظار واسعة متصلة العمائر، وعدوة القرويين من هذه المدينة أكثر بساتين وأشجارا ومياها وعيونا»[٣]. ويستنتج من النصين الأخيرين أن بنية المدينة كانت مساعدة على إنشاء عمارة متميزة، وأن سكان مدينة فاس توارثوا الإبداع والصنعة في بناء الديار والتأنق في زخرفتها وتعميرها حسب حاجة قاطنيها.

لقد تم إحصاء المنشآت العمرانية بفاس سنة ٥٨٥هـ/ ١١٩٠م في عهد محمد الناصر، فبلغ عدد الدور ٨٩٢٣٦ والمصارى[٤] ١٧٠٤١[٥]. وقُدِّر عدد سكان فاس بين القرنين الرابع والعاشر الهجريين / العاشر والسادس عشر الميلاديين بـ١٠٠ ألف نسمة، في حين وصل عدد السكان في فاس الجديد ٨٠٠٠ نسمة. وتمثل

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٨٢.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص: ٤٣٤.

(٣) الحميري، ص: ٤٣٥.

(٤) تعرف أيضا بالمصريات وهي بيت واحد مستقل تضاف إليه مرافق عادة ما تكون مستقلة عن المدخل ويوجد فوق سكن أو أعلى ممر عام ويوصل إليه بالدُّرج.

(٥) الجزنائي: جنى زهرة الآس، ص: ٤٤.

المجهود الذي قام بها الحرفيون المختصون في التعمير والبناء خلال المرحلة المرينية والوطاسية في بناء فاس الجديد وتوسيع فاس القديم بملىء فراغاته وإصلاح وتجديد ما تضرر من المباني فيه مسايرة للتطورات التي عرفها سكان المدينة الذين تأثرت بنيتهم بما كانت تعرفه بلاد المغرب من أزمات اجتماعية مثل الكوارث الطبيعية والبشرية من مجاعات وفيضانات وحروب كان لها دور حاسم في عدم ارتفاع الساكنة الفاسية بشكل كبير مقارنة مع الفترة الموحدية.

ونتج عن الأضرار التي لحقت بالبنية المعمارية بفاس بفعل الأزمات التي ذُكرت آنفا، ونزول السلطان بهذه المدينة عند تولي المرينيين للحكم، تجديد البناء والعمران فيها[1]. وهو الأمر الذي بدأ في الحصول منذ فترة مبكرة. فقد كثرت العمارات بفاس بعد دخول الأمير المريني أبي بكر إليها راجعا من سجلماسة ودرعة اللتان انتزعهما من ملك بني زيان يغمراسن سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٨م[2]. وكثرة التعمير هذه تعبر عن حاجة سكان فاس إلى تشييد البنايات، وأهمية الاستقرار السياسي في ذلك.

ومع تحكم المرينيين في الأوضاع بالمغرب سوف يقوم السلطان يعقوب بن عبد الحق بتأسيس مدينة جديدة تليق بمقام المُلْك، ويستقر معه فيها خدام الدولة ومسؤولوها. لذلك تم إعمار مجالها تدريجيا منذ أن أسست سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م[3]، فضمت دورا وقصورا وأحياء قَطَنها مسلمون وذميون، في وقت كانت فيه المدينة العتيقة تعرف توسعا عمرانيا من خلال ملىء فراغاتها وأطرافها.

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص: ٣٤٣.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٢٩٦.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٢٣٠.

وعموما تعتبر فترة يعقوب بن عبد الحق وابنه يوسف مؤسسة للحركة المعمارية بفاس التي ستنضج في الفترات اللاحقة لهما، حيث مال الناس إلى التأنق في بناء الدور والإقبال على اقتنائها، مما ساهم في ارتفاع أثمان العقار. ففي عهد أبي الربيع سليمان «بيعت كثير من الدور بفاس بألف دينار من الذهب العين، وتنافس الناس في البناء، فعالوا الصروح، واتخذوا القصور المشيدة بالصخر والرخام وزخرفوها بالزليج والنقوش... واستبحر العمران، وظهرت الزينة والترف»[1].

ومثلما كانت الطاقات الحرفية تحشر للبناء والتأنق فيه، كانت أيضا تتعاون لمواجهة بعض الأزمات التي تخل بتوازن النسيج العمراني المنعكسة سلبا على ساكنيه. وذلك ما حدث مثلا سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٦م، إذ جرف سيل نتيجة فيضان وادي فاس البنايات التي كانت قريبة منه، وهي جزاء ابن برقوقة ودور الرصيف وبعض دور البرزخ فضلا عن الأسواق والقناطر. وكانت من بين الخسائر الناجمة عن ذالك هلاك ٧٣٠ نفسا، وتهدم ١١٠٠ دارا[2]، أعيد بناؤها، وأصلح ما تضرر منها.

وانتعشت المدينة في التعمير بعد تلك الفترة. ففي عهد أبي الحسن علي عرضت عليه قضية من فاس وهو مستقر بتلمسان، تتعلق بأحد الوشائين[3]، كان قد اشترى دارا بألف دينار ذهبي[4]، مما يعبر على التنافس على امتلاك العقارات المؤدي إلى ارتفاع أثمان بيعها. وحديث النميري رغم ما يحمله من مدح وثناء في حق مخدومه

---

(١) نفسه، ص: ٢٨٢.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٣.

(٣) الوشاء هو الذي كان يجمع الهدايا من الولاة ويقدمها للسلطان.

(٤) ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ١٤٣.

أبي عنان[1]، فيه إشارات إلى الإبداع في البناء والزخرفة خلال عهده بعاصمة الدولة.

ورغم ما قيل عن ضعف دولة بني مرين عقب وفاة أبي عنان سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٩م، فإن وضعية العقار حافظت على مكانتها في حدود معينة. حيث تنافس الناس أيضا في التأنق في المساكن بفاس بعد رجوع أبي بكر بن غازي من تلمسان عقب وفاة السلطان أبي فارس عبد العزيز سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م[2]. لكن الأوضاع التي مرت بها الدولة بعد ذلك والتي ازدادت تفاقما مع تقدم الفترات وتوالي ملوك الدوليتن المرينية والوطاسية، نزلت بثقلها على مختلف الأنشطة ومن ضمنها العقار فميزه الجمود والتقليد[3] من جهة، وضعف التنافس بين الناس في امتلاكه واقتنائه من جهة أخرى. لكن طبيعي أن حركة البناء والتعمير والإصلاح لن تتوقف، مادامت الحركة السكانية قائمة، والنشاط الحرفي كذلك.

إن النسيج العمراني لفاس المرينية الوطاسية ضم أحياء تختلف أوضاع سكانها، سمحت لقسم منهم بذل المال في الإنفاق على البناء وتنميقه والعناية بتزيينه إعتمادا على أعمال الحرفيين، وأتاحت لقسم آخر اتخاذ المساكن للإيواء، وعدم الإنفاق في زخرفتها. كما كانت الأطراف المحيطة بالمدينة تحتوي على مساكن بسيطة بعضها عبارة عن أكواخ مثل التي أوت المجذومين، والتي سبقت الإشارة إليها، والصبانين[4] وغيرهم. إلا أن هذه الفئات تعايشت فيما بينها وخدم بعضها بعضا،

---

(١) النميري: فيض العباب، ص: ١٧٠.

(٢) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص: ٣٩٨.

(٣) توري، عبد العزيز: العمارة المرينية، معلمة المغرب، م١٨، ص: ٦١٨٠، الذي أشار إلى أن الجمود والتقليد ميز العمارة في الفترة المرينية ككل، لكن في اعتقادي قد ميز طور الضعف فيها، مادامت هناك خصائص معمارية مرينية متميزة عن سابقاتها لازالت المعالم المرينية شاهدة عليها.

(٤) أفتى العبدوسي بذلك بعد زوال الحكم المريني، انظر: الونشريسي: المعيار، ج٧، ص: ٣٠٨.

رغم اختلاف مستويات عيشها، مع الإقرار بحصول الإسراف أحيانا في امتلاك العقارات والإنفاق عليها من طرف الملوك أو مسؤولي الدولة كانت آثارها سلبية على الفئات العامة تبدو أكثر كلما اشتدت الأزمات. فهذا الفقيه عبد الله العبدوسي يجيب عن قضية تحبيس السلطان المريني أبي العباس أحمد بن أبي سالم لجنان ابن عين الناس على ضريح جده، قائلا: «إن الملوك فقراء مدينون بسبب ما احتجروه على المسلمين بتصرفاتهم في أموال بيت المال بالهوى في أبنية الدور الغالية المزخرفة و...»(١).

وتمدنا المصادر بمعلومات عن مميزات مساكن الخاصة من الناس في فاس. إذ ورد عند القلقشندي أن «أرض دور رؤسائها مفروشة بالزليج» وَأضاف أن أهل فاس «لهم عناية باتخاذ القباب في بيوتهم حتى يوجد في الدار الكبيرة قبتان فأكثر...، ولذلك يتخذ غالب رؤساءهم الحمامات في بيوتهم، فرارا من مخالطة العامة في الحمام...»(٢).

وهذه الإمكانيات لم تتوفر لعامة الناس الذين أشار ابن الخطيب أنهم تميزوا «بالاشتراك في المساكن والديار، على الموافقة والاختيار»(٣). بمعنى أن البناية الواحدة بفاس كانت تضم عدة أسر، في إشارة إلى التعاون بين الناس في الإيواء بالمساكن.

لكن مع ذلك فالأوضاع العامة التي عرفتها مدينة فاس كانت مشجعة على السكن بها. حيث قال ابن أبي زرع في حق هذه المدينة بأنها «مأوى الغرباء، من دخلها استوطنها وصلح حاله بها، وقد نزلها كثير من العلماء والفقهاء والصلحاء

---

(١) لوتورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١١٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٦.

(٣) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٩.

والأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم»[1].

وتأكد ذلك أيضا حين وصف الحميري أهل فاس بأنهم مياسر ولمدينتهم من كل شيء حسن أوفر حظ[2].

والأعمال الحرفية التي قام بها المختصون في البناء والعمارة جعلت «مدينة فاس محدثة... في نهاية العمارة والإصلاح قد بنيت أكثر جنانها الملاصقة لها دورا وأضيفت إليها، وفيها اليوم ثلاث جوامع»[3].

وتتضح قوة الحركة المعمارية بفاس بمقارنتها مع ما كانت تشهده المدن الإسلامية الأخرى. فحديث الحميري أيضا عن مدينة تلمسان ورد فيه «ولم يكن في بلاد المغرب بعد أغمات وفاس أكثر من أهلها (تلمسان) أموالا ولا أرفه حالا، وفاس أكبر من تلمسان نظرا وأجل قدرا وأكثر خيرا ومالا، وأعلى همة في المباني واتخاذ الديار الحسنة»[4].

إن الحديث عن وضعية العمارة بفاس ومميزاتها فيه تعريف بالأعمال التي أنجزها البناؤون والمختصون في الزخرفة والتزيين لفائدة ساكنة مدينة فاس، مهما كانت درجات عيشهم ومستويات يسرهم. وسواء كان عملهم مأجورا أو تطوعيا في

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص ص: ٣٦-٣٧.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص: ٤٣٤.

(٣) نفسه، والجوامع الثلاث هي القرويين والأندلس والعنانية، وهذا ما أكدته الفتاوى الفقهية حول جواز الصلاة في الجوامع المذكورة، انظر الونشريسي: المعيار، ج١، ص ص: ٢٦٩-٢٧٠، وعدم ذكر الحميري للجامع الرابعة في المدينة البيضاء يفسره اهتمامه بالمدينة العتيقة فقط بالنظر لما كانت تشهده من حركة سكانية وعمرانية.

(٤) الحميري: المصدر السابق، ص: ١٣٥.

بعض الحالات، فإن الأهم الذي قدموه هو تمكين الناس من الإيواء داخل البيوت أو الدور أو القصور التي تحميهم من الحرارة التي تشتد صيفا والبرودة التي تزداد قساوتها في الشتاء.

٤- الضيافة:

تلقى القادمون إلى فاس، من المناطق والأصقاع البعيدة، المحتاجون للإيواء والإطعام، خدمة الضيافة بمرفق أسسه السلطان أبو عنان المريني أطلق عليه اسم الزاوية المتوكلية المقتبس من اسمه، حيث كان قد تلقب بالمتوكل على الله. ولعل المرافق التابعة للقصر السلطاني قد تخصصت في خدمة ضيافة الفئة المذكورة قبل بناء الزاوية سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥١م، وبعد هدمها نتيجة الفترات العصيبة التي مرت منها الدولة. وكانت الدار التي تحتضن استضافة الناس تنعت بدار الضيافة أو دار الضيفان[1]. واعتبارا لتشابه الوظائف التي قدمت بالزاوية أو بأماكن أخرى قبل تأسيسها وبعد هدمها من جهة، وتوفر المعطيات المتعلقة بالزاوية من جهة أخرى، سيتم التركيز على ما قدمته السواعد الحرفية للنازلين فيها.

كانت الزاوية المتوكلية تستقبل الضيوف الذين يتوافدون على حضرة فاس، فيتم إكرامهم بالطعام والمبيت داخل المنافع التي تعد ملحقة بالزاوية. وقد أشار ابن جزي راوي رحلة ابن بطوطة إلى وظيفة الإطعام في إطار الحديث عن أعمال السلطان أبي عنان ذاكرا أنه أمر «بعمارة الزوايا في جميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر، وقد

---

(١) احتوى مؤلف لوتورنو على تصميم لمدينة فاس منقول عن مصلحة الجغرافية الوطنية سنة ١٩٣٨، يحتوي على موقع دار الضيافة تتواجد غرب فاس الجديد وشمال وادي فاس يستبعد أن يكون موقعا للزاوية المتوكلية، لكنه إشارة إلى وظيفتها انظر لوتورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ص: ١٣٥.

جعل التصدق على المساكين بالطعام يوميا»[1] بمعنى أن الوافدين على الزاوية هم الذين يزورون المدينة من خارجها، والذين يتم إطعامهم هناك. ويغلب على الظن أن إطعام الفقراء والمساكين خارج الزاوية كان من الأقوات المهيأة بها، يدعم ذلك تصدق أبي عنان على المساكين والضعفاء بالخبز والكسوة[2]. لذلك كانت الدار التابعة للزاوية المخصصة للطبخ «لا تخمد بها نيران القِرَى، ولا تزال مشوبة لذوي النوائب والسرى»[3]. وهو ما يؤكد كذلك أن الأطعمة المُعَدَّة يتناولها ضيوف الزاوية الغرباء عن المدينة والمساكين الذين لا يمتلكون قوت يومهم.

وبالإضافة إلى الإطعام احتضنت الزاوية أيضا خدمة مبيت الضيوف بالغرف المكونة لها احتوت على «فرش حسنة النعوت من الطنافس والقطف والزرابي واللحف»[4]. مما استوجب على العاملين في الزاوية السهر على تنظيف تلك الغرف والعناية بمحتوياتها والاهتمام بالمنافع الأخرى التي يحتاج إليها النزلاء[5].

فقد تم ترتيب العبيد المتزوجين بالإماء لخدمة الزاوية عند تأسيسها لكون أعمال الزاوية تطلبت اشتغال النساء المرتبات في الطبخ والتنظيف والكنس والعناية بالأفرشة والأغطية، في وقت اختص الرجال المرتبون في استقبال الضيوف وتقديم الأطعمة لهم والعناية بهم أثناء نزولهم حتى مغادرتهم الزاوية.

ولم يكن الضيوف فقط هم من ينزل بالزاوية، بل نزلها أيضا «فقراء صوفية

---

(١) التازي، عبد الهادي: اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية، مجلة آفاق للثقافة والتراث، ١٩٩٨، ص: ١٥٦.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار، : ٦٤٨.

(٣) النميري: فيض العباب، ص: ٢١٣.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

يقيموا هنالك الذكر»[1]. وهم من الفقهاء الذين وُقِّفُوا على الزاوية كي يتلوا فيها القرآن وبعض الأذكار التي تثني على الله تعالى وتصلي على نبيه محمد ﷺ، ولعل مسجد الزاوية كان مكانا لتلك الأذكار. وإقامة الفقهاء تطلبت أيضا تقديم خدمات الإطعام والتنظيف والمبيت لهم.

قطن القائمون بأعمال الزاوية، من ناظر وإمام ومؤذن المسجد وأسر الخدم، بدور بنيت مع الزاوية وألحقت بها[2]، استفادوا بدورهم من الأعمال التي تمت فيها.

إن الدور الاجتماعي الذي لعبته الزاوية المتوكلية، تجسد في الإحسان بالغرباء عن المدينة، لعلهم من الواردين عليها من المناطق والأصقاع البعيدة، في وقت احتضن المارستان الغرباء الذين يقطنون في محيطها. وهو ما مكن نزلاء الزاوية من قضاء حاجاتهم بالمدينة قبل عودتهم إلى المناطق التي وردوا منها أو يعبرون في اتجاهها.

٥- الخدمات الأخرى:

قدم الحرفيون خدمات أخرى لفائدة المجتمع تتميز بالتنوع والتعدد مادامت الفروع الحرفية كذلك. وبما أن الحديث، في هذا المقام، عن الخدمات الاجتماعية، فإن ما يمكن تناوله منها تنظيف الناس في الحمامات، وتوفير الألبسة، وتيسير حركة المرور والتنقل داخل النسيج الحضري للمدينة، وتزويد المارة بالمياه، وغيرها.

(١) التازي، عبد الهادي: المرجع السابق، ١٥٩.

(٢) النميري: فيض العباب، ص ص: ٢٠٦-٢٠٩.

- الاستحمام:

توافدت على الحمامات العامة فئات واسعة من ساكنة المدينة قصد تنظيف وتطهير الأجسام. ودور الحرفيين في هذه الخدمة مثلته أعمال الإبداع في تشييد الحمامات، واشتغال الغلمان والخادمات داخلها، ومد الحمامات بالمياه، وصناعة الأدوات والمواد المستعملة في الاستحمام كالأسطل أو الدلاء ومواد التنظيف.

وضمت مدينة فاس خلال الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والعاشر الهجريين/ ١٠و١٦م، مائة حمام «جيدة البناء، حسنة الصيانة»[١]، خصص بعضها للرجال والبعض الآخر للنساء، كما اختلفت من حيث أحجامها وأشكالها. وهذا العدد يعبر، من جهة، عن التطور الحاصل مقارنة مع الفترة الموحدية التي لم يتعد عدد الحمامات فيها بفاس ٧٣[٢]، ومن جهة أخرى، عن النمو الديمغرافي والعمراني الذي عرفته المدينة.

وضم كل حمام ثلاث قاعات، تتدرج من حيث درجات الحرارة، وغرفة مخصصة لإزالة الملابس وارتدائها قبل وبعد عمليات الاستحمام، فضلا عن المكان الذي توقد فيه النار على الماء. وكانت الحمامات تسخن بالزبل الذي يجمع من أحياء المدينة ويشمس فينقل من طرف حمالين خاصين إلى الحمام[٣].

وكان الراغب في الاستحمام بعد إزالته لملابسه يأخذ دلوين كي يحمل فيهما الماء داخل الحمام، ثم يقوم بتنظيف جسمه بمساعدة أحد الغلمان، الذين يضعون على

---

(١) الوزان: وصف إفريقيا، ج١، ص: ٢٢٥.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص: ٤١٣.

(٣) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ٢٢٩.

أجسام المستحمين الدهون المنشطة وبعض الأدوات التي تزيل الأوساخ[1]. وهو العمل نفسه الذي كانت تقوم به الزنجيات الخادمات بالحمامات التي ترتادها النساء بغرض الغسل والتنظيف. وحفاظا على حرمة النساء كانت توضع حبال في أبواب الحمامات التي تتواجدن داخلها، دلالة على منع ولوجها من طرف الرجال. وإذا أراد شخص أن ينادي امرأته يكلف إحدى المستخدمات بالحمام بذلك[2].

وقد احتوت فاس الجديدة مثل فاس القديمة على حمامات عامة منها الحمام العظيم الذي بني بعد مدة قليلة من تأسيس المدينة البيضاء[3]. إلى جانب الحمامات الخاصة التي أنشأها الأعيان تجنبا لاختلاطهم مع العامة[4].

وكيفما كان نوع هذه الحمامات، فإنها ساهمت في المحافظة على نظافة أجسام الناس رجالا ونساء وأطفالا، والعناية بصحتهم، وتجسيد الاحترام المتبادل بين الجنسين -إلا في القليل النادر-. وما جرى في الحمامات الفاسية خلال الفترة المدروسة لازال ساري المفعول لحدود الآن رغم ما طرأ من تغيرات.

- ارتداء الملابس:

تظافرت مجهودات الحرفيين العاملين في صناعة الأثواب وخياطتها وتزيينها من أجل توفير الملابس لعامة الناس وخاصتهم، ونسائهم ورجالهم وأطفالهم.

وكان اللون الأبيض الذي حمله الجلباب والبرنس الرفيع مفضلا في لباس

(١) نفسه، ص: ٢٣٠.

(٢) نفسه.

(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص: ١٨٨.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص: ١٥٦.

الخاصة من الناس، إذ تميز بارتدائهما السلطان ووجهاء الدولة والعلماء والفقهاء. في حين انتشرت عند بقية الناس الأنواع الأخرى من الملابس التي لا حرج عليهم فيها[١].

ويُسجل أن مسؤولي الدولة كانوا يرتدون أحسن الأثواب، وهو الأمر نفسه عند الفقهاء والعلماء، إذ اشتملت الكسوة التي أهداها السلطان أبو عنان لخطيب وجامع القرويين أبي عمر الأنفاسي، والتي تردد في قبولها، على «برنس وبدن أبيضان من صوف وإحرام للتردية ومنديل للتعميم ودراعتان من ثوب الرصان وقبطية شواشية العمل» وصلت قيمة هذه الكسوة مائة دينار ذهبي[٢].

وشاع عند العامة لباس جبة الصوف[٣] والعمائم والسراويل وغيرها، وهي ألبسة بسيطة بالمقارنة مع غيرها.

وعلى العكس من ذلك امتاز اللباس النسوي «بحسن زي وشكل»[٤]، حيث رخص الفقهاء للنساء لباس خالص الحرير، واشتهر لديهن لباس الخز[٥]، كما استعملن ألبسة أخرى مرتفعة القيمة مثل الأثواب الصقلية. وارتدين هذه الأنواع في المناسبات والحفلات، ولبسن في الأيام الأخرى ما تستر به الأجسام وتحفظ به حرماتها.

وساهم الحرفيون المختصون أيضا في توفير ألبسة خاصة بالأطفال، كما صنعوا

---

(١) المنوني: ورقات، ص: ٣٠٥؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ج٢، ص: ٤٧٥.

(٢) ابن منصور، عبد الوهاب: أعلام المغرب العربي، ج١، ص ص: ٦٤-٦٥.

(٣) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص: ٢٩.

(٤) معيار الاختيار، ص: ١٧٦.

(٥) الونشريسي: المعيار، ج١، ص ص: ٣٤٨-٣٤٩؛ ابن مرزوق: المسند الصحيح، ص: ٢٨٠.

أثوابا من الحرير والصقلي رُخص بوضعها على نعش النساء[1]، وبذلك خدموا الأحياء من الناس والأموات، ووفروا الأنواع المرتفعة القيمة والرخيصة من الأثواب والملابس التي غصت بها الأسواق.

- حركة المرور داخل المدينة:

توفر النسيج الحضري الفاسي على طرق بعضها واسع كالشارع الكبير بفاس الجديد، والطرق الرابطة بين مركز وأبواب المدينة العتيقة مثل الطريق الغربية المؤدية إلى باب الشريعة، والمارة إلى باب الجيسة عبر فندق اليهودي، والمخترقة لعدوة الاندلس في اتجاه باب الحمراء وباب الفتوح وباب بني مسافر عبر الكدان. وكانت الطرق تضيق عند ما تكون رابطة بين الأحياء، وتزداد ضيقا عند التوغل داخل الحي الواحد، إلى أن تصبح عبارة عن زنقات ودروب بعضها غير مؤدي.

ويرجع هذا التباين في اتساع وضيق الطرق إلى الاختلاف في حركة المرور بها والتي يعبرها الناس القاطنون بالمدينة أو الزائرون لها، فترتفع حركتهم في المتجهة إلى قلب المدينة الروحي والصناعي والتجاري الذي مثله جامع القرويين ومحيطه، وتنخفض الحركة داخل الأحياء السكنية.

ونظرا لتواجد الوادي الفاصل بين العدوتين، فقد حتم توحيدهما إنشاء قناطر تربطهما كانت أساسية في العبور، تسلسلت عبر مجموعة من النقط شيدت فيها القناطر ابتداء من جهة باب الجديد في الجنوب إلى حي الرميلة في الشمال[2]، وقد

---

(١) أفتى الفقيه أبو سعيد بن لب بجواز ستر الأموات من النساء والأطفال بتلك الأثواب، ومنع ذلك أبو محمد العبدوسي، وردت تلك الفتاوى عند الونشريسي، المعيار، ج١، ص ص: ٣٤٥-٣٤٨.

(٢) المنوني: حضارة بني مرين من خلال منشآتهم، مذكرات من التراث المغربي، م٣، ص: ١٩.

سبقت الإشارة إلى الدور المريني الوطاسي في تشييدها وإعادة بنائها وإصلاحها[١].
وكثرت الحركة المرورية بقنطرة باب السلسلة أو الطرافين مقارنة مع القناطر الأخرى، نظرا لأهمية الأحياء التي تربطها إذ تمتد حولها من جهة عدوة القرويين أزقة وأسواق باب السلسلة، والتي تحول منها البضائع والمنتوجات في اتجاه عدوة الأندلسيين.

وقام الحمالون بدور أساسي في نقل البضائع والمنتجات فوق هذه السبل والقناطر، فنظموا حركتهم باختيار الأوقات والأماكن المناسبة لمرورهم، حتى تكون أعمالهم ميسرة وغير مؤذية للسكان والمارة.

- استسقاء المياه:

مثلت مياه وادي فاس والعيون والآبار النابعة خارج وداخل المدينة، مصدرا رئيسيا للمياه المستعملة. وكانت القنوات المكشوفة والمطمورة والنواعير وسائل لتحويل الكميات اللازمة منها إلى نقط صرفها داخل الأحياء وفي الجوامع والمرافق العامة والأزقة والطرقات.

وبالنظر إلى حيوية الماء، وحاجة الناس إليه، وفضل تزويدهم به شيدت على الشوارع والطرقات سقايات تتوفر على صهاريج وأحواض يسقي منها الناس ما يحتاجونه من الماء، وتشرب منها الدواب. وقد نشطت عمليات تشييد السقايات في عهد أبي الحسن المريني[٢]، والتي كان لها دور في تزويد سكان الأحياء والعاملين في

---

(١) يمكن الرجوع إلى المبحث الثالث من الفصل الأول في الباب الأول من هذا البحث للاطلاع على ذلك.

(٢) ابن مرزوق: المصدر السابق، ص: ٤١٧.

المحلات الصناعية والأسواق التجارية والمارة في الطرق والدواب بالماء، مما مكن من تغطية الطلبات المتعددة عليه، وبذلك تكامل دور السقايات والقنوات في إتمام الشبكة المائية بفاس.

- توفير الأقـوات:

ساهم النشاط الحرفي في خدمة المجتمع من نواحٍ أخرى، منها الغذاء الذي يعتبر أساسيا في عيش الأفراد. ونشطت المطاحن والأفران والمعاصر في توفير المواد الغذائية الأساسية من دقيق وخبز وزيت. فقد أشار ابن الخطيب إلى أن «أحجارها (فاس) طاحنة ومخابزها شاحنة»[1]. وقد لبت مطاحن الزرع بفاس حاجيات ساكنة فاس ومحيطها أيضا إذ ذكر الوزان في حديثه أن «زروع البادية كانت تطحن بالمدينة»[2] المعلومة. وصُنعت الأطعمة داخل الدور وفي محلات بيعها لعامة الناس، حيث وصلت مبيعات أنواع الطعام بسوق الدخان وحده ١٠٠٠ مثقال كل يوم.

وبهذه الخدمات وغيرها تمت تلبية الحاجيات المختلفة للناس، الساكن منهم والغريب، الغني منهم والفقير، وبها كُفِل الأيتام، واعتني بأوضاع المجذومين والمجنونين والمعتوهين. فقد نُفقت أموال المخزن والأوقاف على المحتاجين من الناس، وبُذلت أموال غير المحتاجين في سبيل اقتناء حاجياتهم. وكان الحرفيون والصناع وسطاء في هذه وتلك، إذ تحول عملهم أحيانا من الأجر إلى التطوع، حسب درجات ورعهم، وابتغائهم لأجر الآخرة ومدى تعففهم في طلب أجر الدنيا، ووفقا للحاجات المطلوبة منهم، وحسب الوسط الذي عاشوا فيه.

---

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار، ص: ١٧٢.

(٢) الوزان: المصدر السابق، ج١، ص: ١٩١.

لكن وثيرة تقديم الخدمات لم تكن نفسها في كل الفترة المدروسة بفعل التأثر بالأوضاع العامة القائمة. إذ تطورت إيجابا مع انطلاق حكم المرينيين واستقرار دولتهم. في حين شهدت تراجعا في فترات الاضطراب وعدم الاستقرار. إلا أنه لم تتوقف الخدمات الموجهة للمجتمع، مادامت الحياة قائمة والإنسان ساعيا في طلبها.

إن تنظيم أعضاء الطوائف الحرفية لصفوفهم و ما قدموه - بفضل ذلك - من أعمال حرفية وماااحتضنته مؤسسات الدولة -خاصة الأوقاف - ،انعكس بالإيجاب على أوضاع المجتمع إذ سادت صفات التضامن و التآزر فيما بين أفراده.

و الخدمات المتعددة التي قدمها الحرفيون العاملون في الطوائف الخاصة أو في الأنشطة الصناعية التي رعتها مؤسسات الدولة ، ساهمت في ضمان تماسك الناس وتعاونهم بتوفير متطلبات الفقراء والمعوزين والمرضى والأيتام والغرباء وغيرهم ، وبتوفير حاجيات ذوي الإمكانيات أيضا .

الخاتــمة

إن المنتجات والخدمات الحرفية التي قدمت من طرف المؤسسات التابعة للدولة، والمُمْتلكة من طرف الخواص، وما كان لها من آثار على الاقتصاد والمجتمع، حافظت على حيوية النشاط الحرفي بفاس المرينية الوطاسية، فضمنت له الاستمرارية التي كانت مصحوبة بمسايرة التطورات والتغيرات الحاصلة ومالها من أثر في تنويع الصناعات والرفع من كمياتها وتحسين تقنياتها وأدواتها، وفي مراعاة حاجيات ومتطلبات الأسواق في ظل التنافس مع المنتوج الحرفي للبلدان الخارجية.

ويمكن استجلاء أهم النتائج والإضافات التي قدمها النشاط الحرفي الفاسي في الفترة المدروسة فيما يأتي :

على مستوى التقنيات والمهارات الحرفية:

- بروز الزخارف في البنايات، وخاصة المرينية، حيث أبدع العاملون في حرف البناء في تزيين الواجهات الداخلية للمباني، وفي فرش أرضيات الصحون التي تؤطرها جدران الواجهات المشار إليها، وفي صباغة وتزيين سقوف الغرف والمنافع والأروقة وغيرها، وفي العناية بالمداخل والفتحات، ومختلف العناصر التي تبرز للعيان، لذلك كانت الزخارف تتنوع وتتفاوت قيمتها حسب أهمية المكان وما اعتمد في زخرفته من مواد. ومن المعالم التي حظيت بجمالية زخارفها المساجد والمدارس والزوايا والقصور والدور الكبرى.

- توصل العاملين في الصناعات الدقيقة إلى صناعة وتشغيل بعض الآلات والتجهيزات الجديدة، مثل الناعورات والساعات المائية ومثال مصغر لجبل الفتح، وقد كان الملوك هم من رعى هذه الابتكارات، والصناع الأجانب هم من أبدع في

الصنع.

- اهتمام مريني بالغ بالعمارة العسكرية، حيث بنيت الأسوار المزدوجة التي حصنت حاضرة السلطان تخللتها أبراج لمراقبة محيطها، وهو ما مكن من ضمان سلامة المدينة من الهجومات التي تعرضت لها حيث لم يحصل اقتحامها إلا بتدبير ثورات داخل فاس الجديد.

- تطور صناعة الأسلحة بإدخال أنواع جديدة منها مثل السلاح الناري، لكن إنتاجها عرف تذبذبا تبعا لمرحلتي ازدهار وضعف الدولة، حيث نشطت هذه الصناعة في العصر المريني الأول، وعرفت فتورا في العصر المريني الثاني وخلال العصر الوطاسي.

- تجديد بعض الأعمال الحرفية ككتابة المصاحف والكتب وتزيينها وتسفيرها، فأتاح ذلك خدمة العلم في مدينة فاس، وبعث الهدايا التي تضم الربعات القرآنية إلى المعالم الإسلامية الشرقية من طرف ملوك الدولة مثلما حدث عند المرينيين منهم.

- تحسين ملحوظ في تقنيات ومهارات الصناعات الخاصة الكمالية المركبة التي احتضنتها فاس القديمة بشكل خاص، وعدم تأثر الصناعات الخاصة الضرورية البسيطة بالتحولات التقنية والمهارية التي شهدها النشاط الصناعي.

على المستوى التنظيمي:

- تحكم سلاطين الدولة في تسيير بعض الصناعات التي لها أهميتها في سيادة الدولة مثل سك النقود والصناعة العسكرية. إذ جُدِّد تنظيم دار السكة بتعيين ناظر مكلف بتسيير العمل فيها وتكليف نظار بتسيير المرافق الصناعية الأخرى.

- تبعية مؤسسة الأوقاف للدولة، وإشراف نظار المعالم الوقفية على الأعمال الحرفية التي احتضنتها، باستقلالية واسعة في المساجد ومحدودة في المدارس والزاوايا والمارستانات.

- ميل المخزن إلى الاكتفاء بالضرائب الشرعية التي تجبى من أرباب الأعمال الصناعية والتجارية في فترات قوة الدولة، وجنوحه إلى إضافة ضرائب غير شرعية عليهم والرفع من قيمتها في فترات الضعف. مما أدى إلى تضرر أوضاع الناشطين في الحرف والصناعات أحيانا الذين مثلت أعمالهم موردا ماليا لخزينة الدولة.

- إحداث بني مرين لنظام «الرُّتَب» الذي مكن من تأمين الطرق التجارية خارج المدن. وهو نظام ذو أهمية اقتصادية واجتماعية، حيث مُنِحت بموجبه إقطاعات من الأراضي للقائمين على حماية العابرين للطرق وما ينقلونه من بضائع، كما أدِّيت بموجب هذا النظام جبايات مالية للمخزن، وبذلك حقق هذا النظام مصالح أطراف ثلاثة هي : المكلفون بحماية الطرق والمخزن والتجار.

وقد انعكس هذا النظام على الحرف والصناعات بتزايد اقتناء المنتجات بقصد تصديرها خارج المدن المنتجة لها ومنها فاس.

- تقوية وإحكام تنظيم الطوائف الحرفية، بترؤس الأمناء لها، ومساعدتهم للمحتسب في مراقبة العمل الحرفي في الإنتاج والتسويق، بالشكل الذي ساهم في ضمان حقوق الحرفيين والمستهلكين، ودعم النشاط الاقتصادي.

- تنظيم خاص لطائفة اليهود التي مارست حرفا متميزة، وكانت أعمالها ومنتوجاتها تراقب من طرف أجهزة الدولة، وتقدم ضريبة سنوية للمخزن، ويتدخل السلطان أحيانا بعزل أفرادها عن الحرف التي اتهموا بالغش والتدليس فيها.

- على المستويين الاقتصادي والاجتماعي:

تكامل العلاقة الاقتصادية بين مدينة فاس والبادية المحيطة بها. فقد وفرت المدينة المذكورة حاجيات سكان الضواحي المجاورة لها من المنتوجات المصنعة. حيث كانت البادية في الفترة المدروسة عاجزة عن توفير أبسط حاجياتها من المصنوعات، في حين زودت البادية أهل المدينة بما يحتاجونه من مواد أولية وفلاحية.

تنشيط الحرف والصناعات الفاسية للعلاقات التجارية مع البلدان الخارجية، إذ كان التفوق المغربي واضحا في المبادلات التجارية مع بلاد السودان، حيث جلبت من هناك المواد الخام وفي مقدمتها الذهب وصدرت إليها مصنوعات أهمها النسيج والنحاس. في حين تميزت المبادلات مع البلدان الأوربية بالتوازن في العصر المريني الأول، وبداية التفوق الأوربي في الفترات التي تبعته. وكانت المصنوعات الفاسية المسوقة بأوربا متمثلة في الأصواف والجلود خاصة، أما المنتوجات الأوربية التي استقبلتها المدن والمناطق المغربية فمتعددة منها الأسلحة والنسيج والمصنوعات المعدنية.

- تشغيل صناعتي النسيج وطحن الحبوب للعدد الأكبر من العمال حدده الوزان في أربعين ألفا، وهو تعبير عن الحيوية التي ميزت هاتين الصناعتين. فالمنسوجات المصنوعة بفاس سُوِّقَت بكميات كبرى بأسواق المدينة وبالأسواق الخارجية، إذ كان الإقبال على اقتنائها ملحوظا ببلاد السودان. أما صناعة الدقيق بالمطاحن الفاسية التي وصل عدد أرحائها ألفا، فلبت الحاجيات الغذائية لسكان المدينة والقاطنين في محيطها.

- إسهام الحرفيين الفاسيين بأعمالهم وخدماتهم في العناية بالمحتاجين من الفقراء

والغرباء والأيتام والمرضى والطلبة وغيرهم. وذلك من خلال بناء وتجهيز المعالم التي احتضنتهم كالمساجد والمدارس والزوايا والمستشفيات، إضافة إلى خدمة النزلاء فيها بتهييئ الأطعمة، وإعذار الأطفال، وتطبيب المرضى، وإيواء الطلبة، واستضافة الزوار وغير ذلك.

- رغم تميز سكان عدوة الأندلس في المصادر عن نظرائهم بعدوة القرويين، فإن تتبع الأعمال الحرفية المنجزة بفاس في الفترة المرينية الوطاسية أبرز أهمية ما قام به أهل عدوة القرويين عما قدمه القاطنون بعدوة الأندلسيين. ويتجسد ذلك في ارتفاع حجم المنتوج الحرفي وتعدد وتنوع وكبر الأسواق الحرفية والتجارية وغير ذلك بالعدوة الأولى مقارنة مع الثانية. وقد تحكمت عدة عوامل في ذلك منها وفرة المياه وأهمية الموقع وحيوية المعالم العمرانية وفي مقدمتها جامع القرويين.

- ازدياد تنشيط المسلمين القادمين من بلاد الأندلس للحرف والصناعات الفاسية، باستمرار توافدهم على فاس عن طريق جلب سلاطين الدولة المغربية للمكتسبين منهم لمهارات وتقنيات صناعية أو بمحض إرادتهم في إطار التراجع الإسلامي أمام الهجوم المسيحي ببلاد الأندلس. وقد أسهم ذلك التوافد في تحسن التقنيات الصناعية الفاسية وظهور ابتكارات جديدة فيها.

- إعطاء أرباب الصنائع مكانة مهمة من طرف السلطة بحضورهم الاحتفالات والاستعراضات التي تخصص للسلطان مع فئات اجتماعية أخرى، حاملين في أيديهم أعلاما فيها صور آلاتهم، لابسين أفضل الأثواب. إضافة إلى تكليفهم بالقيام بالأعمال الحرفية التي تقدم منتوجاتها للمخزن، وهي عبارة عن حاجيات خاصة بالسلطان والمقربين منه، أو هدايا تقدم لملوك البلدان الخارجية أو غيرها.

- إيلاء اليهود أهمية اجتماعية خاصة غير مسبوقة بفاس، حيث تم نقلهم إلى حاضرة فاس الجديد، فسكنوا بحي خاص بهم هناك، ومارسوا أنشطة اقتصادية ذات مردودية هامة، حسنوا بموجبها أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية.

والنشاط الحرفي والصناعي الذي شهدته فاس المرينية الوطاسية بالإضافات التي ميزته، أسهم في ضمان الحيوية والحركة له، ومكن من مسايرة التطورات التي حصلت في المدن والمناطق الأخرى المغربية وفي البلدان الخارجية. لكن ذلك النشاط سرعان ما بدأ يعرف التراجع نتيجة الضعف الذي مرت به الدولة في العصر المريني الثاني وفي العصر الوطاسي، استمر الحرفيون والصناع خلالهما في إضفاء طابع التقليد على أعمالهم، إلى أن استقرت الأوضاع وانتعشت في العصر السعدي فساد توجه جديد لدى الحرفيين والصناع بمواكبة التقنيات والأساليب المبتكرة في صناعاتهم وحرفهم.

لائحة المصادر والمراجع

أولا- المصادر

- القرآن الكريم

أ- المخطوطات والمطبوعات الحجرية:

- ابن الخطيب السلماني، لسان الدين:

١- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم ١٠ ج، مسطرته: ١٨ سنتيمتر، مقاسه: ٢٢ على ١٧/٥ سنتيمتر، عدد الصفحات: ٣٦٨، عدد الأوراق: ١٨٤، مكتوب بخط أندلسي جميل وواضح، دون تاريخ.

- ابن الرامي اللخمي، محمد بن إبراهيم:

٢- الإعلان في أحكام البنيان، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، تحت رقم ٦٦٨د، عدد الأوراق ٧٢، حجمها ١٥/ ٢٠ سنتم.

- ابن هلال السجلماسي، ابراهيم:

٣- الدر النثير على أجوبة أبي الحسن الصغير، نسخة مصورة بمكتبة آل سعود بالدار البيضاء، تحت رقم 031 حـ.

- الأزموري أبو عبد الله، محمد بن عبد العظيم:

٤- بهجة الناظرين وأنس العارفين ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال أمغار الصالحين، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، رقم ٨٩٦ج، ١٤٢ صفحة، نسخ أحمد بن علال الذويبي اللطيفي عام ١٣٠٠هـ.

- العزفي السبتي، أحمد بن محمد بن أحمد أبو العباس:
٥- إثبات ما لابد منه لمن يريد الوقوف على أحوال الدينار والدرهم والصاع والمد، مخطوط بمكتبة محمد بن عبد الهادي المنوني الخاصة، ٦٩ ورقة مكتوبة بخط أندلسي، دون تاريخ.
- الفاسي، محمد بن عبد القادر:
٦- ذكر مشاهير بيوتات أهل فاس في القديم، طبعة حجرية، مكتبة القرويين بفاس، رقم ط ٨٠/ ٣٧٩ تاريخ.
- الفاسي، محمد بن عبد القادر وآخرون:
٧- شرح منظومة العمل الفاسي، مخطوط في مجموع رقم ١٤٤٧د، الخزانة العامة، الرباط.
- الكتاني، محمد بن جعفر بن إدريس:
٨- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ممن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، طبعة حجرية مصورة عن تركة عبد الرحمن بن جعفر بن إدريس الكتاني كان قد اشتراها عبد الرحمن الشفشاوني، مكتبة آل سعود بالدار البيضاء تحت رقم ٠٤٦ جـ مكرر.
- مجهول:
٩- ذكر قصة المهاجرين المسمون اليوم بالبلديين، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، تحت رقم ١١٩٤٢.
ب- المطبوعات المحققة:
- ابن أبي زرع الفاسي، علي:
١٠- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، ١٩٧٣.

١١- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والنشر والوراقة، الرباط، ١٩٧٢.

- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي:

١٢- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

- ابن الخطيب السلماني، لسان الدين:

١٣- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد بن عبد الله عنان، نشر: مكتبة الخانجي، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

١٤- اللمحة البدرية في الدولة النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، ١٩٧٨.

١٥- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة المغربية الإماراتية لنشر التراث الإسلامي، صندوق إحياء التراث، ١٣٩٦هـ-١٩٧٦م.

١٦- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق : أحمد مختار عبادي، مراجعة عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ.

- ابن خلدون، عبد الرحمن:

١٧- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

١٨- المقدمة، دار القلم، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

- ابن رضوان المالقي، أبو القاسم يوسف:
١٩- الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٤.
- ابن غازي، محمد:
٢٠- الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- أحمد بن محمد المكناسي، ابن القاضي، أبو العباس:
٢١-جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر والوراقة، الرباط، ١٩٧٤.
٢٢- ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، نشر دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، رقم ٧ من سلسلة تراثنا الإسلامي، دون تاريخ.
٢٣- الفهرس المسمى بالتعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد، تحقيق: محمد الزاهي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م. -ابن مرزوق التلمساني، محمد:
٢٤- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: مارياخيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، إصدارات المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- إسماعيل بن يوسف بن الأحمر الغرناطي الأندلسي، أبو الوليد:
٢٥- أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن المسمى نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، تحقيق: محمد رضوان الداية، نشر مؤسسة الرسالة، مطابع دار الملاخ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٢٦- روضة النسرين في دولة بني مرين، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

- إسماعيل بن يوسف بن الأحمر وآخرون:

٢٧- بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢.

- الأنصاري الأوسي المراكشي، محمد بن محمد بن عبد الملك أبو عبد الله:

٢٨- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الثامن، تحقيق: محمد بنشريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، القسمان الأول والثاني، ١٩٨٤.

- الأنصاري السبتي، محمد بن القاسم:

٢٩- اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق : عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

- البادسي، عبد الحق بن إسماعيل:

٣٠- المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق : سعيد أحمد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

- البخاري الجعفي، محمد بن إسماعيل:

٣١- الجامع الصحيح المختصر(صحيح البخاري): تحقيق، صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

- الجزنائي،علي أبو الحسن:

٣٢- جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

- الجوهري الصيرفي، علي بن داود الخطيب:

٣٣- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق : حسن حبشي، وزارة الثقافة المصرية، مركز تحقيق التراث، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠.

- الحكيم،علي بن يوسف أبو الحسن:

٣٤- الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق: حسين مؤنس، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- الحميري، محمد بن عبد المنعم:

٣٥- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.

- الخزاعي التلمساني، علي بن محمد أبو الحسن:

٣٦- تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ، من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.

- السخاوي المصري الشافعي، محمد بن عبد الرحمن:

٣٧- التبر المسبوك في ذيل السلوك، منقول عن نسخة الشيخ محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الشلبي الحنفي، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مكتبة إس إل لطباعة الأوفست، دون تاريخ.

- القلقشندي أبو العباس، أحمد بن علي:

٣٨- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية ومذيلة بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية مع دراسة وافية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، دون تاريخ.

- المقري التلمساني، أبو العباس أحمد بن محمد:

٣٩- أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق: محمد السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي المغربية الإماراتية، صندوق إحياء التراث، الطبعة الثانية، نشر مطبعة فضالة، المغرب، ١٣٩٨هـ-١٩٦٤م.

٤٠- روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

٤١- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- المنجور، أحمد:

٤٢- الفهرس، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة الفهارس، الرباط، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

- الناصري السلاوي، أحمد:

٤٣- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤.

- النميري بن الحاج، محمد بن عبد الله:

٤٤- فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق: محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.

- النويري شهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب:

٤٥- نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب مع استدراكات وفهارس جامعة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستا تسوماس وشركاؤه، القاهرة، دون تاريخ.

- الوزان الفاسي، الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي:

٤٦- وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

- الوزاني الفاسي، المهدي:

٤٧- تحفة أكياس الناس بشرح عمليات فاس، تقديم وإعداد: مولاي هاشم العلوي القاسمي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

- الونشريسي أبو العباس، أحمد بن يحيى:

٤٨- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تخريج جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

* ثانيا: المراجع

أ- المراجع باللغة العربية:

- ابن شقرون، محمد بن أحمد:

١- مظاهر الثقافة المغربية، دراسة في الأدب المغربي في العصر المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

- ابن منصور، عبد الوهاب:

٢- أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

- أبو سديرة ، السيد طه:

٣- الحرف والصناعات في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.

- بنعبد الله، عبد العزيز:

٤- العلوم الكونية والتجريبية في المغرب (كيف تطورت خلال ألف عام)، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعةالأولى،٢٠٠٠.

٥- معطيات الحضارة المغربية،دار نشر المعرفة مطبعة المعارف الجديدة ،الرباط،الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢، جزءان.

- بوطالب، عبد الهادي:

٦- وزيرغرناطة لسان الدين بن الخطيب السلماني، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠.

- بوفيل:

٧- تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ، ترجمه إلى العربية: الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة فاريونس، بنغازي، ١٩٨٨.

- التازي، عبد الهادي:

٨- التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور إلى اليوم، ١٤٠٦-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٦-١٩٨٩م، عشر مجلدات، مطابع فضالة، المحمدية.

٩- جامع القرويين، المسجد الجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣.

- الحريري، محمد عيسى:

١٠- تاريخ المغرب والأندلس في العصر المريني، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- حسن إبراهيم، علي:

١١- السلطان أبو الحسن علي المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء، سلسلة خالدون في تاريخ المغرب.

- الدباغ، محمد بن عبد العزيز:

١٢- من أعلام الفكر والأدب في العصر المريني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

- عبادي، أحمد مختار:

١٣- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، دون تاريخ.

- علماء الحملة الفرنسية:

١٤- وصف مصر، ترجمة : زهير الشايب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٧٩.

- العلوي القاسمي، مولاي هاشم:

٢٢- مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر للقادري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- العمري، عبد العزيز بن إبراهيم:

١٥- الحرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول ﷺ، مركز التراث لدول الخليج العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

- لوتورنو، روجي:

١٦- فاس في عصر بني مرين، ترجمة: نقولا زيادة، نشر مكتبة لبنان بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بنيويورك، بيروت ١٩٦٧.

١٧- فاس قبل الحماية، ترجمة : محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- مارمول، كربخال:

١٨- إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية مجموعة من الأساتذة، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، الرباط ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨-١٩٨٩م.

- مطلوب، أحمد:

١٩- معجم الملابس في لسان العرب، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٥.

- المنوني، محمد:

٢٠- الفقيه المنوني، أبحاث مختارة، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة المناهل، المغرب، ٢٠٠٠.

٢١- تاريخ الوراقة المغربية، صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، الطبعة الأولى، ١٩٩١.

٢٢- ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، ٢٠، ١٩٩٦.

* الرسائل الجامعية:

- الدبيش، عبد الوهاب:

٢٣- فاس المرينية (٦٧٤-٧٥٦هـ/ ١٢٧٦-١٣٥٨م) المجال والمجتمع وعلاقتهما بالدولة، دبلوم الدراسات العليا، إشراف : مولاي هاشم العلوي القاسمي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨-١٩٨٩م.

- السلامي، رشيد:

٢٤- وثائق مرينية، مراسلات، معاهدات، ظهائر، دراسة وتحقيق، دبلوم الدراسات العليا، إشراف: محمد زنيبر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ١٩٨٩.

- الشطشاط، علي حسين:

٢٥- تاريخ الجراحة في الطب العربي (من القرن ٣ إلى ٧هـ/ ٩ إلى ١٣م)، رسالة دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- العيساوي، فاطمة:

٢٦- جوانب من علاقة المخزن بالحرف (١٨٢٢-١٨٩٤)، رسالة دبلوم الدراسات العليا، إشراف: إبراهيم بوطالب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- لمليح، السعيد:

٢٧- المدارس المرينية ودورها الفكري في المغرب، نموذج مدارس مدينة فاس، دبلوم الدراسات العليا، إشراف: مولاي هاشم العلوي القاسمي وعادل نجم عبو، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨-١٩٨٩م.

* الدوريـات:

- أباظة، إبراهيم دسوقي:

٢٨- النظام الضريبي المغربي بين الماضي والحاضر، مجلة المناهل، وزارة الثقافة، الرباط، العدد الثاني، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

- ابن سودة، عبد السلام:

٢٩- أسماء الحرف المعروفة في مدينة فاس، مجلة دعوة الحق، ع١-٢، ١٩٧١.

- أسكان، الحسين:

٣٠- الإنفاق على التعليم بمدينة فاس بين القرن ٦ و٨هـ، أشغال الندوة المنظمة من ٢٤ إلى ٢٦ نونبر ١٩٨٨، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ٢، ابن امسيك، الدار البيضاء «المدينة في تاريخ المغرب العربي».

- بوشعراء، مصطفى:

٣١- الحصارة بمدينة سلا، آدابها وأدواتها ورجالها ودورها في المجتمع حتى منتصف القرن ٢٠، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ع٢٤، ٢٠٠١.

- التازي، عبد الهادي:

٣٢- اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية بظاهر مدينة فاس، مجلة آفاق للثقافة والتراث، ع٢٢-٢٣، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، إدارة البحث العلمي والنشاط الثقافي بمركز الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة.

- التازي سعود، عبد الوهاب:

٣٣- المعرفة الطبية التقليدية بجامعة القرويين، أشغال ندوة «جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي»، نظمها بيت آل الحبابي، الرباط، منشورات جامعة القرويين، ١٩٩٦.

- الجمل، شوقي عطا الله:

٣٤- أضواء على حياة الحسن بن محمد الوزان وإنتاجه الفكري والمؤثرات التي تأثر بها، مجلة المناهل، وزارة الثقافة، الرباط، ع٢، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

- حركات، إبراهيم:

٣٥- الحياة الاجتماعية في عصر بني مرين، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، عدد ٥-٦، ١٩٧٩.

٣٦- الحياة الاقتصادية في العصر المريني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، عدد٣-٤-١٩٧٨.

- الدباغ، محمد بن عبد العزيز:

٣٧- جامعة القرويين وأثرها في حفظ التراث الإسلامي، أشغال ندوة «جامعة القرويين وآفاق إشعاعها الديني والثقافي» نظمها بيت آل الحبابي، الرباط، منشورات جامعة القرويين، ١٩٩٦.- -الرباط، ناصر:

٣٨- مفهوم العمارة في الكتابات الإسلامية في القرون الوسطى، مجلة عالم الفكر، العمارة، مجلد ٣٤، ٢٠٠٥، الكويت.

- زمامة، عبد القادر:

٣٩- أسماء الحرف المعروفة بفاس، مجلة اللسان العربي، ع٤، ربيع الثاني ١٣٨٦، غشت ١٩٦٦، المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية، الرباط.

٤٠- من مساجد فاس، مسجد اللبارين، مجلة البحث العلمي، ع٤١، ١٩٩٣،

- الشريف، محمد:

٤١- الأسطول السبتي بين الجهاد والتجارة (ق ١٢-١٤م)، مجلة البحث العلمي، عدد٤٥، ١٩٩٨.

- العلوي، عبد العزيز:

٤٢- العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس ع٥، ١٩٨٩.

٤٣- علاقة التجارة الصحراوية بالتجارة البحرية في المغرب المريني، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الدار البيضاء، عين الشق، أشغال ندوة، ج٢.

٤٤- فاس والتجارة الصحراوية قبل الحملة السعدية على إمبراطورية سنغاي، فاس وإفريقيا: العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية، أعمال الندوة الدولية التي نظمها معهد الدراسات الإفريقية وكلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس سايس، أكتوبر ١٩٩٣، فاس، سلسلة ندوات ومحاضرات٣، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٦.

- لمليح، السعيد:

٤٥- موقف فقهاء فاس من إنشاء المدارس المرينية، مجلة مكناسة،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،جامعة المولى إسماعيل،مكناس،عدد١٢ ،١٩٩٩.

- الموساوي، العجلاوي:

٤٦- حرف السك النقدي في العهدين المريني والسعدي، مجلة أمل، ع٧، ١٩٩٦.

- نشاط، مصطفى:

٤٧- التغذية والأزمة بالمغرب في العصر المريني، مجلة أمل، ع١٧، ١٩٩٩، الدار البيضاء.

٤٨- ملاحظات حول المعاهدات التجارية المغربية في العصر المريني الأول، أشغال ندوة «التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب»، ج٢، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، فبراير ١٩٨٩.

- الكتبية، سعاد:

٤٩- البنية الاقتصادية لطوائف يهود المغرب الأقصى في العصر الوسيط، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، ع٣، ٢٠٠١.

- الهلالي، محمد ياسر:

٥٠- نظرة المجتمع للمرأة في مغرب القرنين ٨ و٩هـ/ ١٤ و١٥م، مساهمة في تاريخ الذهنيات، مجلة أمل، ع ١٣-١٤.

- هيل، دونالد، ر:

٥١- العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، ترجمة أحمد فؤاد باشا، عالم المعرفة، ع ٣٠٥، ٢٠٠٤، الكويت.

- وزيري، يحيى:

٥٢- العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، ع٣٠٤، ٢٠٠٤، الكويت.

* الموسوعات:

- مجموعة يشرف عليها العربي الصقلي بالتعاون مع نور أوركانيزسيون:

٥٣- مذكرات من التراث المغربي، الجزء الثالث، مطابع الأطلس بالرباط وألتاميرا بمدريد، ١٩٨٤- ١٩٨٥.

٥٤- معلمة المغرب، المجلدات: ٢-٣-٥-٦-٧-٨-١٢-١٣-١٥-١٨، مطابع سلا، سنوات

ب- المراجع باللغة الأجنبية:

Aouni, Lhaj moussa

1- L'épigraphie et la ville, le cas de Fès à l'époque mérinide, IIcongreso internacional, La ciada en al-andalous y el Maghreb (Algeciras, 26-28 novembre 1999), granada, Espana.

Bel, Alfred:

2- Inscription arabe de Fès, J. a (1917-1919) Paris, 1919.

: - Benhadda Abderrahim, Benkiran Laïla

3- Nourriture, Fès Médiévale, entre légende et histoire, un carrefour de l'Orient à l'apogé d'un rêve, série mémoires, éditions autrement, n° 13, Paris, 1992.

Bernoussi ,Seltani:

4- Les serviteurs de la cité, Fès médiévale entre légende et histoire, un carrefour de l'orient à l'épogée d'un rêve, éditions autrement, série mémoires, n°13, Paris, 1992.

Dufourcq, Charles Emmanuel:

5-L'Espagne catalane et le Maghreb aux 13ème et 14ème siècle, Paris, 1966.

El alaoui abdelaziz :

6- l'impact sosial du commerce transsaharien sur le maroc le cas des juifs, revue amal n° 18 , 1999 , casablanca

Gambazard Catherine – Amahan:

7- Le décor sur bois dans l'architecture de Fès, époques almoravide, almohade, et début mérinide, centre national de la recherche scientifique, Paris, 1989.

Khaneboubi, Ahmed:

8- Les premiers sultans mérinides (1269-1331), histoire politique et sociale, collection : histoire et perspectives méditerranéens, éditions l'Harmattan, Paris, 1987.

:Lapanne–

Joinville. J

9- Les métiers à tisser de Fès, Hespéris, Tome 27, 1949

Massignon,Louis:

10-Enquête sur les corporations d'artisans et de commerçants 1923-1924, d'après les réponses au questionnaire transmis par circulaire du 15 novembre 1923 sous le timbre de la direction des affaires indiquées et du service des renseignements, 1924.

11- Le Maroc dans les premières années au 16ème siècle, tableau géographique d'après Léon L'africain, mémoires de la société historique algérienne, Alger, 1906.

Mercédes Garcia- Arenal:

12- The revolution of Fas in 869/1465 and the deat of sultan abd-Al Haqq Al-Marini, Reprinted from the bultin of the school of oriental and african studies, university of London, vol. XII part 1, 1978, pp : 42-66.

vilches,Josémiguelpuerta:

13-Art nasside et mérinide, L'art islamique occidental à l'aube de la renaissance européenne, l'art de la méditerranéenne (1250-1490), traduction et publication par le centre national du livre, éditions du rouergue / Actes sud, 2003, Milano et Madrid.



فهرس

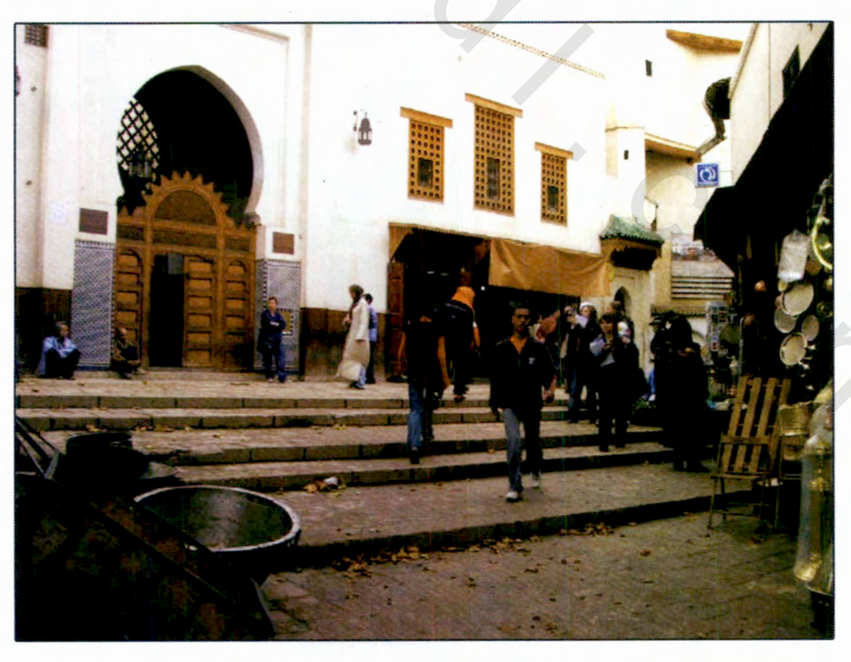


الصورة رقم ١ : جامع القرويين : الصحن والصومعة



الصورة رقم ٢ : جامع القرويين : المحراب

الصورة رقم ٣ : باب الشريعة (باب المحروق)

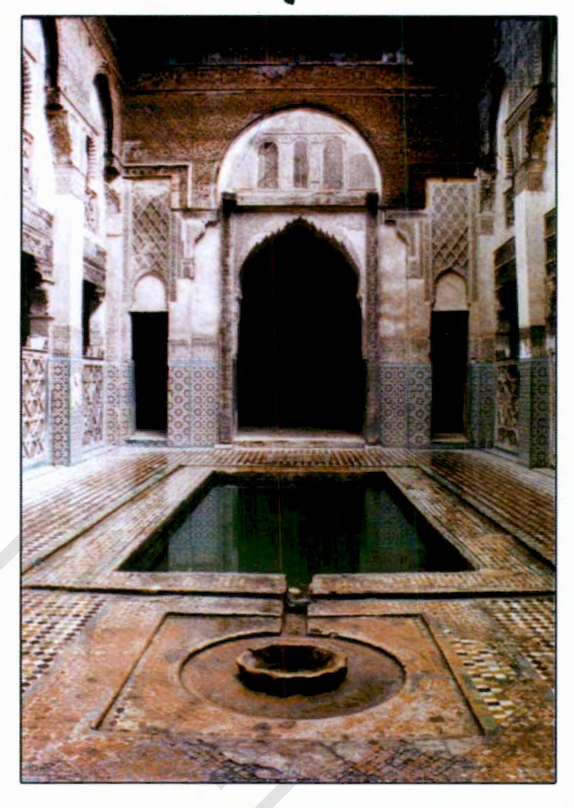


الصورة رقم ٤ : مدخل خزانة جامع القرويين

الصورة رقم ٥ : الاسطرلاب او دار التوقيت التى أحتضنت إحدى الساعات المائية



الصورة رقم ٦ : مدرسة العطارين: الصحن وإحدى الواجهات الداخلية



الصورة رقم ٧ : مدرسة الصهريج : منظر داخلى

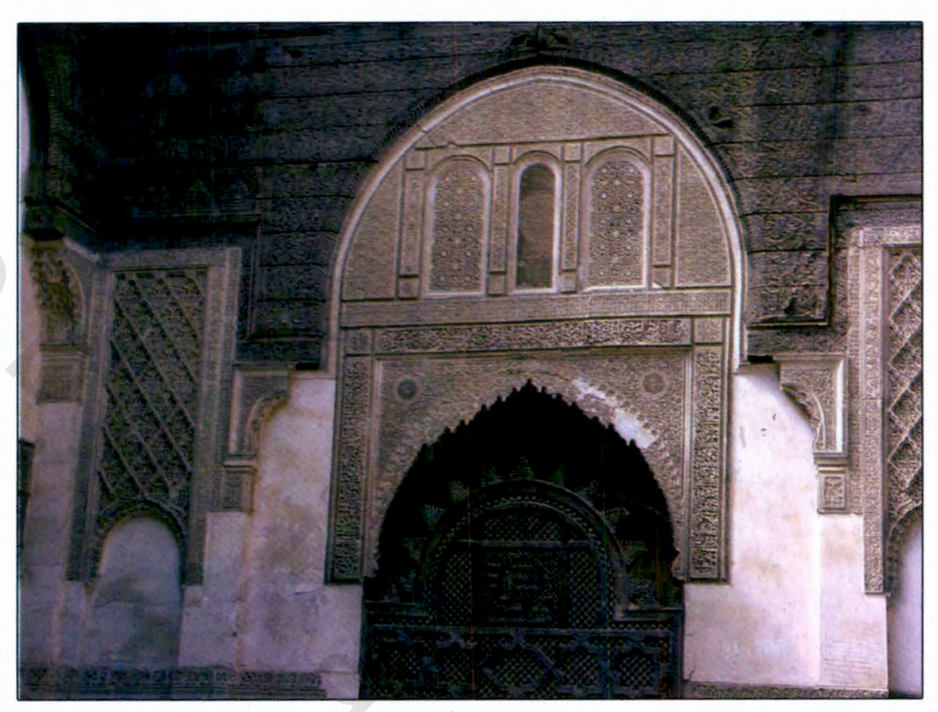


الصورة رقم ٨ : جامع الشرفاء الذى يحتضن الضريح الإدريسي



الصورة رقم ٩ : مدرسة السبعين : المدخل الخارجي من أول يسار الصورة

الصورة رقم ١٠: مدرسة أبى عنان: الصحن وإحدى الواجهات الداخلية

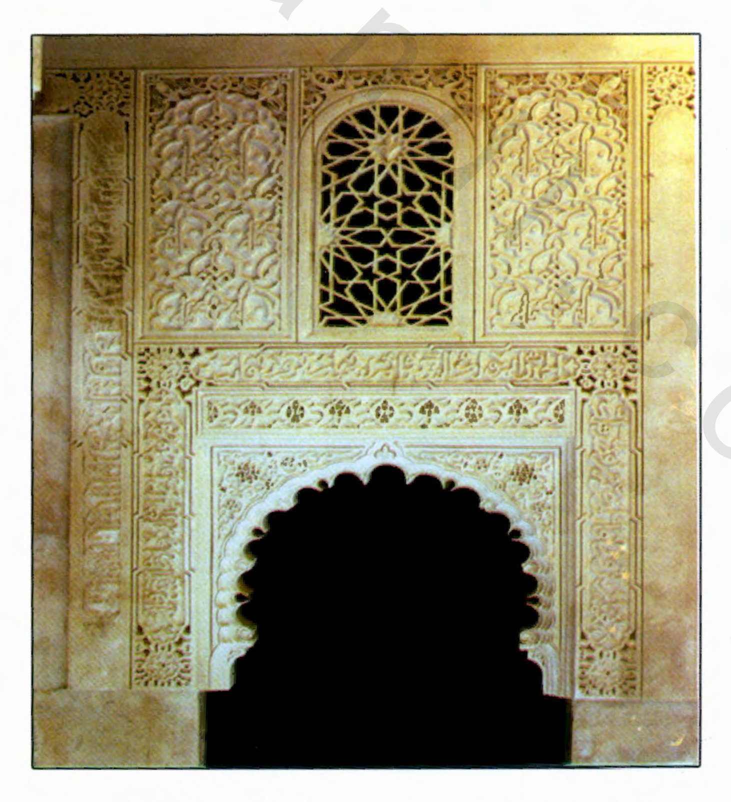


الصورة رقم ١١ : مدرسة أبى عنان (البوعناتية): واجهة الباب الرئيسى الداخلية

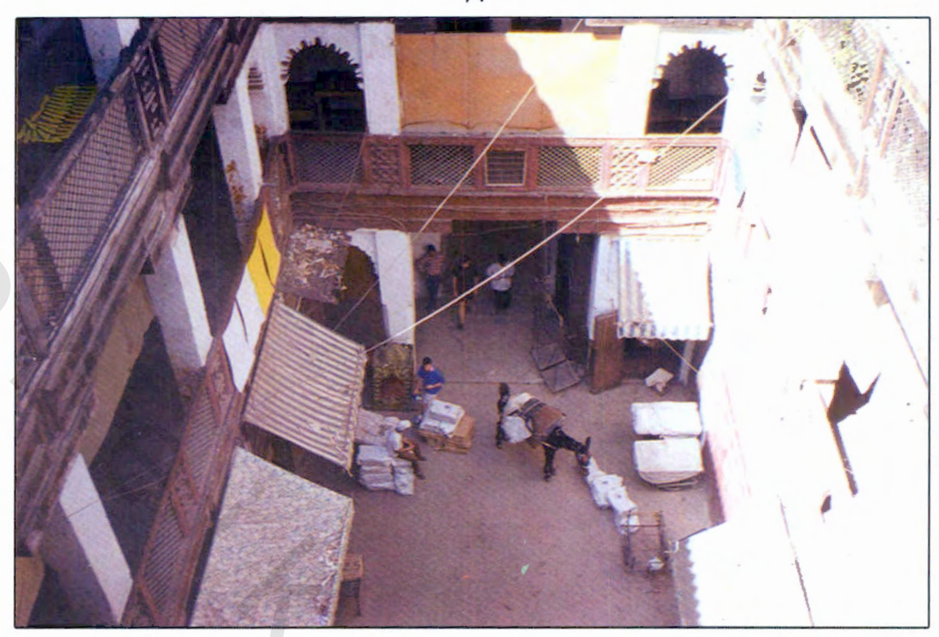
الصورة رقم ١٢: الساعة المائية بالبوعنائية



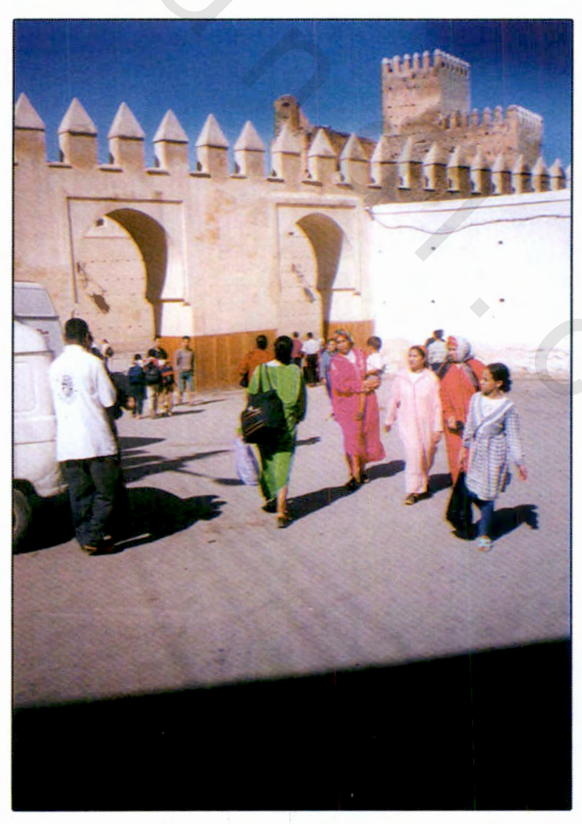
الصورة رقم ١٣ : الساعة المائية بالبوعنانية : مشروع إصلاحها



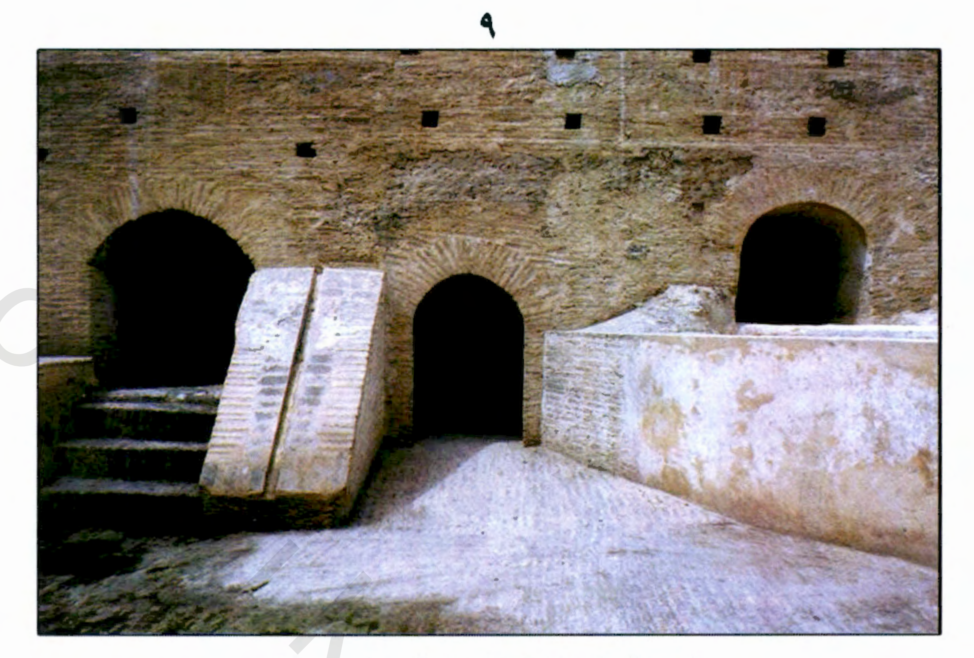
الصورة رقم ١٤: المدرسة المصباحية : الزخرافة على الجبص



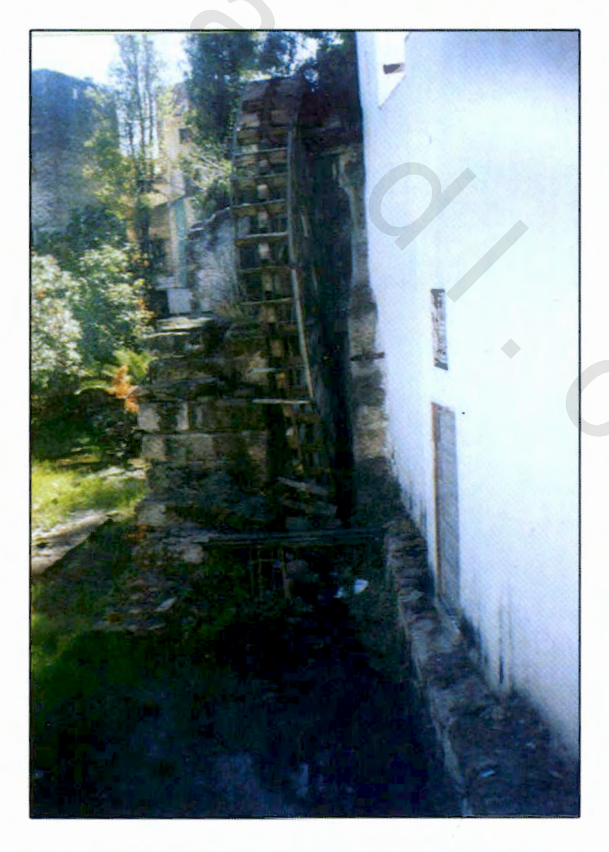
الصورة رقم ١٥ : فندق القطانين



الصورة رقم ١٦: باب السبع بفاس الجديد



الصورة رقم ١٧ : الموزع المائى بباب بوجلود



الصورة رقم ١٨: ناعورة (دولاب) لازالت مثبتة بالبستان المحادى لفاس الجديد (جنان السبيل)





الصورة رقم ١: وادى فاس الفاصل بين العدوتين : اشتغال الحرفيين على مياهيه

الصورة رقم ٢: دار الدبغ شوارة إحدى مراحل دبغ الجلد



الصورة رقم ٣ : دار الدبغ عين أصليتن : المجاير

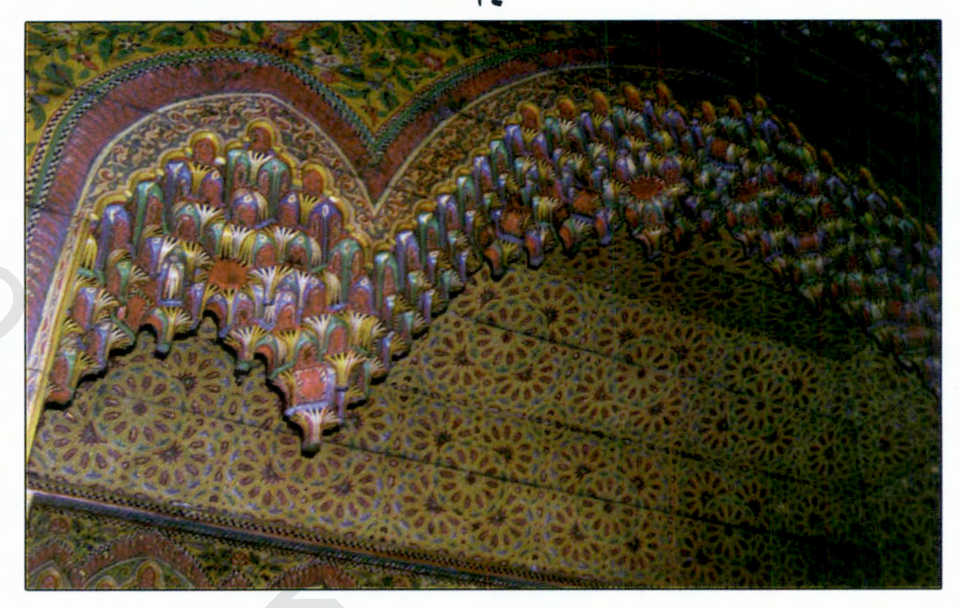


الصورة رقم ٤: خزارة الجلد

الصورة رقم ٥ : سوق التجارين



الصورة رقم ٦ : أحد الخراطين لمادة الخشب بالطلعة الكبرى



الصورة رقم ٧ : الخشب: ازدواجية استعماله فى البناء والزخرفة

الصورة رقم ٨ : سوق النجارين : عمل الخشب

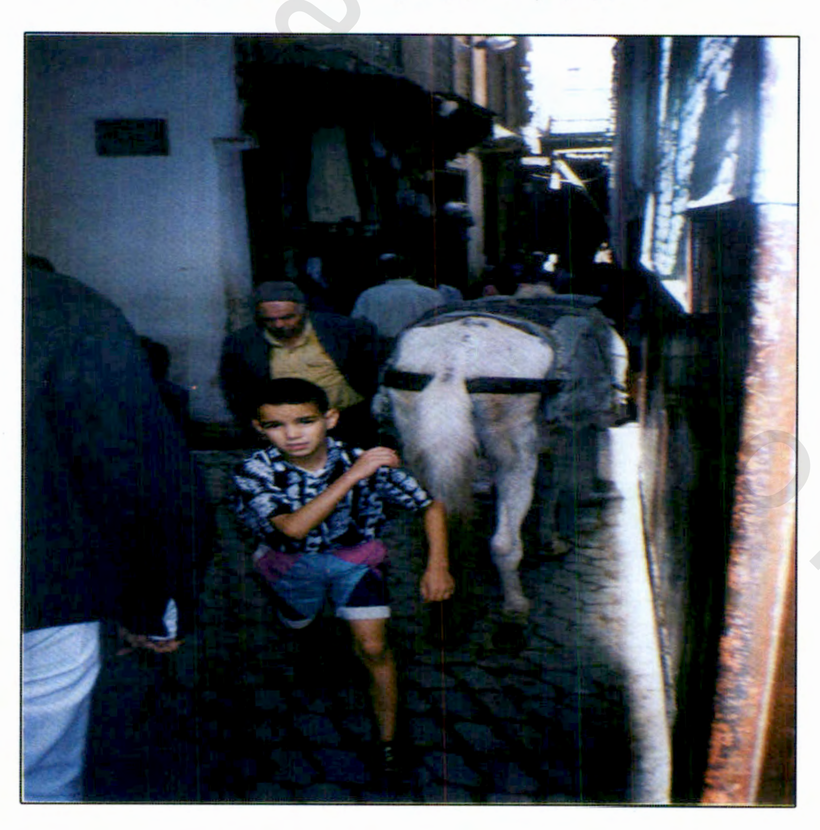


الصورة رقم ٩ : النجارة: الزخرفة على الخشب

الصورة رقم ١٠ : صناعة جلدية تزويق الجلد وتذهيبه



الصورة رقم ١١: خرازة الجلد: المعلم والصناعي ومتعلمان

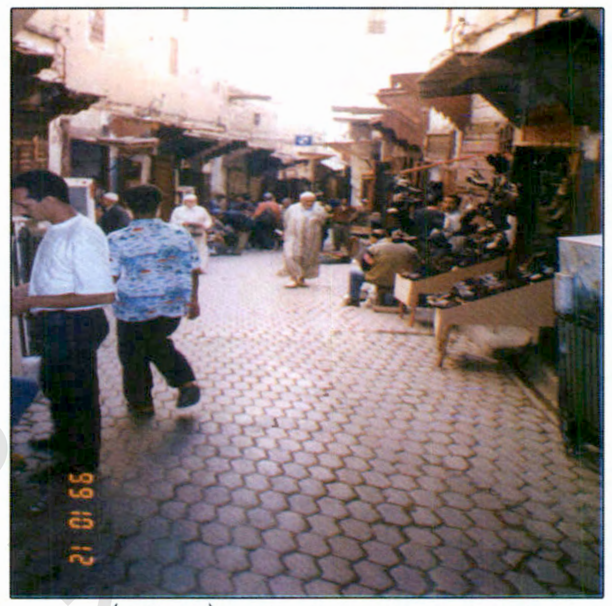


الصورة رقم ١٢ : مكان جلسة الحمالين بالديوان



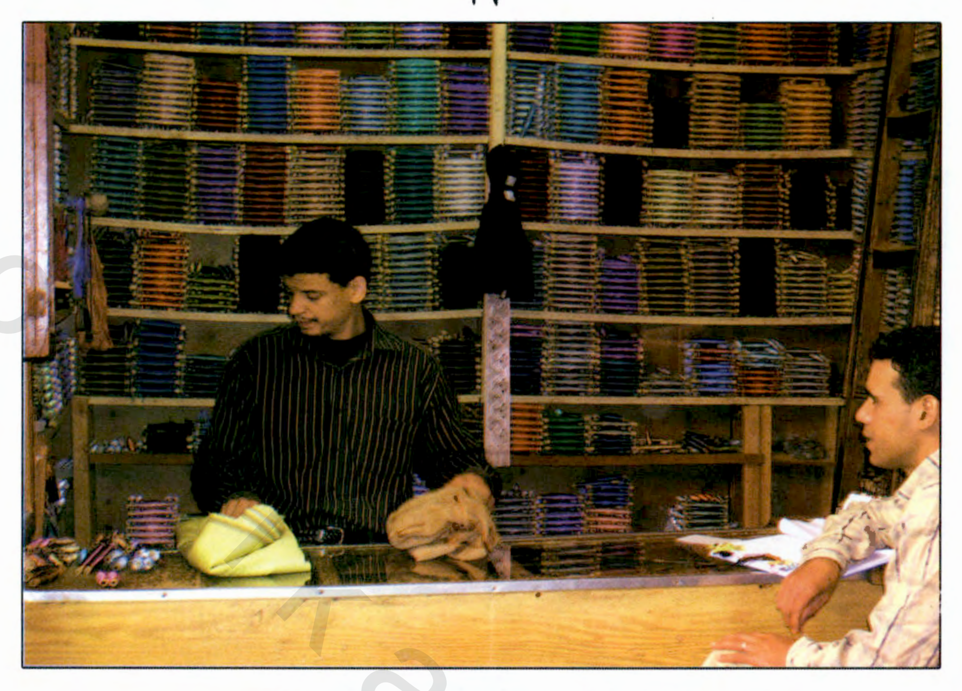
الصورة رقم ١٣: فندق بالطلعة الكبرى نزع الصوف من الجلد (اللباطة)

الصورة رقم ١٤ : نقل الحمال للجلد المدبوغ فى اتجاه سوق بيعه



الصورة رقم ١٥: سوق الإسكافيين (الطرافين)

الصورة رقم ١٦ : حرفة الخياطة



الصورة رقم ١٧: بيع خيوط الحرير المصبوغة

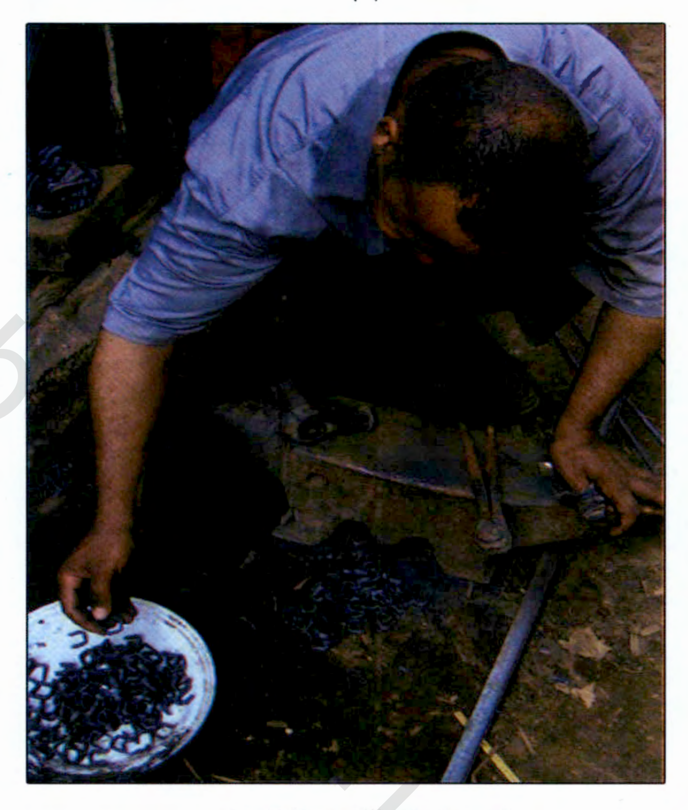
الصورة رقم ١٨ : حرفة الحياكة



الصورة رقم ١٩: ساحة ودكاكين الصفارين



الصورة رقم ١٩: حرفيان يشتغلان في تصنيع النحاس



الصورة رقم ٢١ : حرفة الحداده



الصورة رقم ٢٢ : عرض القفاف والشطاطيب وغيرها للبيع بأحد الدكاكين فى المدينة

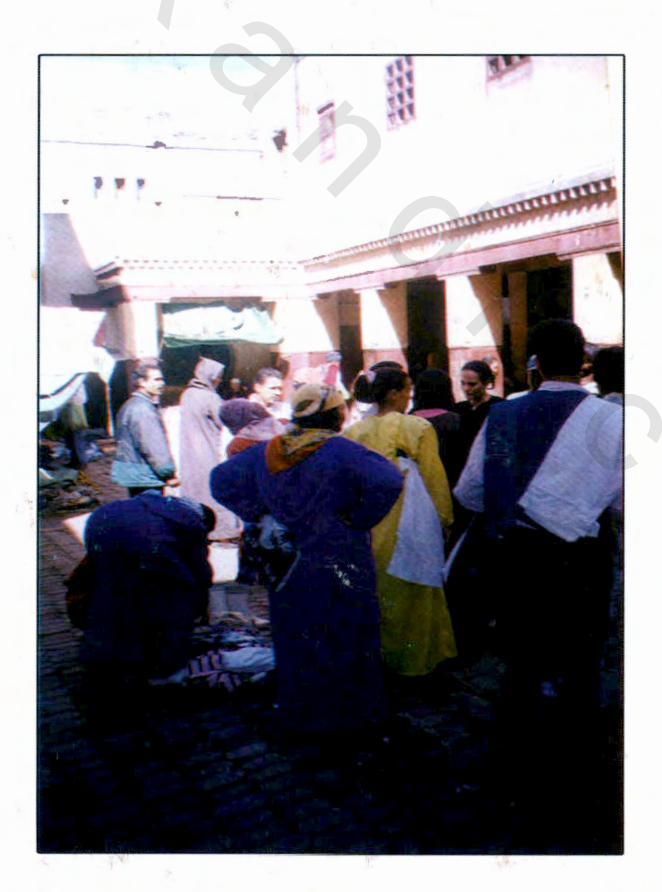
الصورة رقم ٢٣ : مصنوعات الفخارين بأحد دكاكين المدينة



الصورة رقم ٢٤ : بيع الغرابيل برأس التيالين



الصورة رقم ٢٥ : سوق الجوطية قرب العشابين



الصورة رقم ٢٦ : سوق المركطال لبيع الأثواب البالية ونشاط حرفة الدلالة فيه

